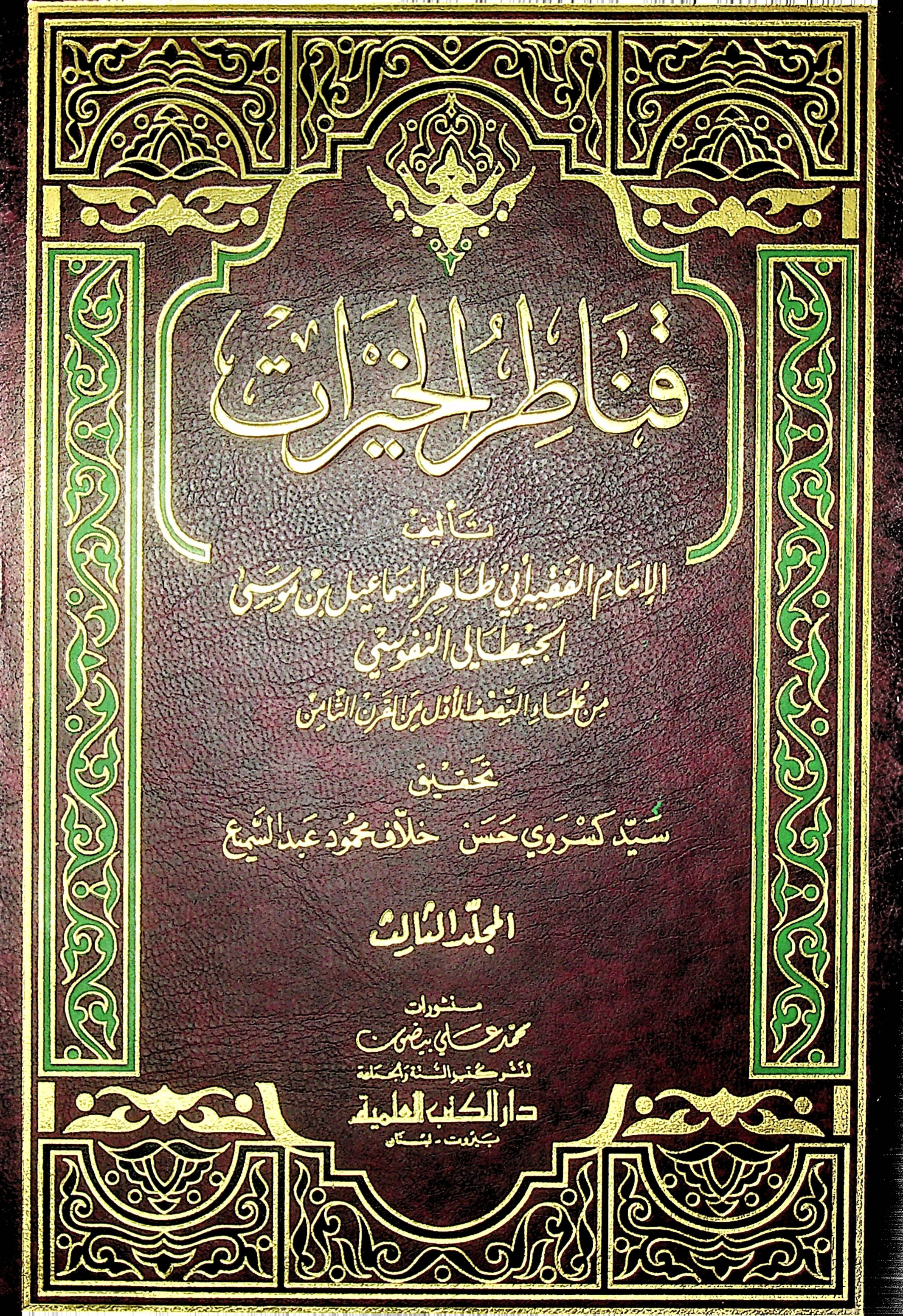

قناطر الخيرات
تأليف
الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي
من علماء النصف الأول من القرن الثامن
تحقيق
سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع
المجلد الثالث
منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



قناطر الخيرات

تأليف

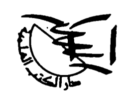
الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى
الجيطالي النفوسي
من علماء النصف الأول من القرن الثامن

تحقيق

سيد كسروي حسن   خلاف محمود عبد السميع

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعَة الأولى

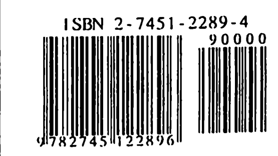
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

دار الكتب العلميـة
بيروت ـ لبنان
رمل الظريف، شـارع البحتري، بنايـة ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ١١ ـ ٩٤٢٤ بيروت. لبنـــان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-2289-4



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

/ القنطرة الحادية عشر [٢]

قنطرة النفس

وبالله التوفيق، قال الله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبّي﴾[١] الآية. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك، ثم أهلك، ثم عيالك»[٢].

وروي أن أعرابية دعت لرجل فقالت: كبت[٣] الله كل عدو لك إلاَّ نفسك، فأخذه بعض الشعراء فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي ... يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي ... إذا كان عدوي بين أضلاعي

فإذا كانت النفس أضر أعداء الإنسان، وبلاؤها عليه أشد بلاء يجري به الزمان، فحقيق على الإنسان أن يشتغل بمعالجتها وقمعها عن الانهماك في شهواتها، وأن يسيء الظن بها في جميع حالاتها؛ لأن جنس الظن /بها ذريعة إلى تحكيمها، وتحكيمُها داع إلى سلاطتها، [٣] وفساد الأخلاق بها.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: العاجز من عجز عن سياسة نفسه.

---

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمٰن بن غزوان أحد الوضاعين.

(٣) في الأصل: كتب. وأحسبه تصحيف لسهو الناسخ.

وقال بعض الحكماء: من ساس نفسه، سادَ ناسه. وقال النبي عليه السلام: «الشديد من غلب نفسه»[١].

وعن عون بن عبد اللّٰه أنه قال: «إذا عصتك نفسك فيما كرهت، فلا تطعها فيما أحببت، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك، فيلزم الإنسان أن يشتغل بعلاج نفسه؛ لأن داءها أعضل الداء، ودواؤها أشكل الدواء، وإنما ذلك لأمرين:

أحدهما: أنه عدو من داخل، واللص إذا كان من داخل صعبت الحيلة فيه، وعظم الضرر منه. وقد قال النيسابوري:

ما حيلة الريح إذا من داخل هبت وفلك أوتيت من ساحل

والثاني: أنه عدو محبوب، والإنسان أعمى من عيب محبوبه لا يكاد يبصره، وقد قال النبي عليه السلام: «حبك الشيء يُعمي ويَصُم»[٢]. كما قال الشاعر:

فعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فإذاً يستحسن الإنسان من نفسه كل قبيح، ولا يكاد يطلع لها على عيب يدنسها، فإذا كان كذلك، فما أوشك أن توقعه في فضيحة وهلاك وهو لا يشعر إلاَّ إنْ عصمه الله برحمته، وإنما كانت أشد الأعداء؛ لأنها لا يمكن التجرد عنها، ولا أن يقهرها بمرة فيشتغل بغيرها لأنها مطيته التي يقطع بها مسافة العمر، ولا مطمع له في الموافقة على الطاعة والخير؛ لأنها مجبولة على اتباع الشهوة التي هي معدة كل شيء. فحياة الإنسان مقرونة بحياتها، وموته متعلقة بموتها، كما قال القائل:

ولقد هممت بقتلها من أجلها كيما تكون خصيمتي في المحشر
ثم ارتجعت فقلت روحي روحها فإذا هممت بقتلها لم أقدر

[٤] فلما كان حال النفس هكذا كان الإنسان محتاجاً إلى أن يلجمها بلجام التقوى، / لتبقى له فلا تنقطع، وتنقاد فلا تطغى وتمرح، فيستعملها في المصالح والمراشد، ويجنبها طرق المهالك والمفاسد؛ لأن هذه النفس دابة جموح ومطية صعبة، إن أسرفت عليها في التأديب

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٥).

(٢) أطرافه عند: أبي داود في السنن (٥١٣٠)، أحمد في المسند (٥/ ١٩٤)، (٦/ ٤٥٠) التبريزي في مشكاة المصابيح (٤٩٠٨)، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣/ ١١٧) وقال العراقي في المغني (٣/ ٣١) رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

أهلكتها وأهلكت نفسك وإن أهملتها أضرت بك وصرعتك، فتحتاج إلى طريقة بين طريقتين: تربية وتغذية بقدر ما تحتمل من فعل خير وترك شر، فأنت من أمرها في علاج شديد ونظر لطيف.

فإن قيل: فما الحيلة في تذليل هذه الدابة حتى تنقاد بلجام التقوى؟ فاعلم أن العلماء قالوا: إنما تذلل النفس ويكسر هواها بثلاثة أشياء:

إحداها: منع الشهوات بالصوم وغيره فإن الدَّابة الحرون، تلين إذا نقص من علفها ولذلك قال عليه السلام: «معاشر الشباب من استطاع منكم الباء فليتزوج ومن لم يستطع فليصم؛ فإن الصوم له وجاء»[١]. يعني خصاء والمعنى في ذلك أن الصوم يضعف النفس ويكسر شهواتها.

والثاني: حمل أثقال العبادة فإن الحمار إذا زيد في حمله مع نقصان علفه تذلل وإنقاد.

الثالث: الاستعانة بالله والتضرع إليه أن يعينك، وإلاَّ فلا مخلص لك من شرها. أما تسمع قول الصديق عليه السلام: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ، بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾[٢] فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح، بإذن الله تعالى فحينئذٍ تبادر أن تلجمها وتملك أمرها وتأمن من شرها.

فإن قيل: فبين الآن ما هي[٣] التقوى، حتى نعلمها[٤]؟ فاعلمْ أن العلماء قالوا: التقوى تبرئة القلب عن ذنب لم يسبق عندك مثله، حتى تجعل للعبد[٥] من قوة العزم على تركها وقاية بينه وبين المعاصي؛ وذلك لأن أصل لفظة التقوى في اللغة هو الوقاء بالواو، وهو مصدر وقى يقي وقاية ووقوا فأُبدلت الواو ياء كما في الوكلان والتكلان ونحوها فقالوا: تقوى فإذاً لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي / من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك [٥] فيوصف[٦] بأنه متق، ويقال لذلك: التنزيه والعزم والتوطين تقوى.

---

(١) قال الحافظ العراقي في معنى هذا الحديث: متفق عليه من حديث ابن مسعود «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء».

(٢) سورة يوسف الآية: ٥٣.

(٣) في الأصل: هو.

(٤) في الأصل: تعلمه.

(٥) في الأصل: العبد.

(٦) جاء بعدها في الأصل حرف (ح) ووضع فوقه علامة (ص) أي هكذا بالأصل المنقول عنه فحذفتها من السياق وأثبتها هنا بالهامش.

والتقوى: أصل جامع لخير الدنيا والآخرة وهي وصية الله الذي هو أرحم الراحمين وأنصح الناصحين لعبادة الأولين والآخرين قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا الله﴾[١].

ولو كانت في العلم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم في الأجر وأعظم في القدر من هذه الخصلة التي هي التقوى لكان الله سبحانه أمر عباده بها وأوصى[٢] خواصه بذلك لكمال جكمته ورحمته وكأن خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى.

وتأمل ما في القرآن من ذكرها، كم علق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة يطول ذكر ذلك، ويكفي فيه قول الله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَآء الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى في الدُّنْيَا وَفِي الحياةِ الآخرة﴾[٣] الآية. ثم الذي يخص هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

أحدها: التوفيق والتأييد.

أولاً: وهو التوفيق كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقوا﴾[٤] الآية.

الثاني: إصلاح العمل وتمام التقصير وهو للمتقين كما قال الله تعالى: ﴿اتَّقُواْ الله وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لكُمْ أعْمَالكُمْ﴾[٥] الآية.

والثالث: قبول العمل وهو للمتقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٦].

ومدار العبادة على هذه الأمور الثلاثة: التوفيق أولاً حتى يعمل، ثم الإصلاح للتقصير حتى يتم، ثم القبول إذا تم، وهذه الثلاثة من أجلها يتفرغ العابدون إلى الله تعالى. ويسألون ويقولون: ربنا، وفقنا لطاعتك، وأتمم تقصيرنا، وتقبل منا، وقد وعد الله ذلك للمتقين سألوا أو لم يسألوا إلى سائر ما وعد لهم من أصناف الخيرات. / وأنا أذكر بعضها لتستدل بها على جملتها منها. [٦]

---

(١) سورة النساء الآية: ١٣١.

(٢) جاء بعدها لفظ: «بها» وهو زائد على السياق فحذفته.

(٣) سورة يونس الآيات: ٦٢، ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة النحل الآية: ١٢٨.

(٥) سورة الأحزاب الآيتان: ٧٠، ٧١.

(٦) سورة المائدة الآية: ٢٧.

المدحة والثناء: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[١] الآية.

ومنها: الحفظ والحراسة من الأعداء. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُم كَيْدُهمُ شَيْئاً﴾[٢].

ومنها: النجاة من الشدائد، والرزق من الحلال: قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مُخْرجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[٣].

ومنها: المغفرة: قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٤] الآية.

ومنها: محبة الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾[٥].

ومنها: الإكرام والإعزاز: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ﴾[٦] ﴿وَالله وَلِيُّ المُتَّقِينَ﴾[٧] ومنها: البشارة عند الموت: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءامَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ البُشْرَىٰ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ﴾[٨].

ومنها: النجاة من النار: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[٩]. ومنها: الخلود في الجنة: قال الله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾[١٠]. وبالجملة إن كل خير وسعادة في الدارين تحت هذه التقوى رزقنا الله منها أوفر حظ ونصيب.

فصل: في ذم النفس وإلجامها بلجام التقوى

قال الله سبحانه: ﴿وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[١١]. قال بعض السلف: النفس

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٢٠.
(٣) سورة الطلاق الآيتان: ٢، ٣.
(٤) سورة الأحزاب الآيتان: ٧٠، ٧١.
(٥) سورة التوبة الآية: ٤.
(٦) سورة الجحرات الآية: ١٣.
(٧) سورة الجاثية الآية: ١٩.
(٨) سورة يونس الآيتان: ٦٣، ٦٤.
(٩) سورة مريم الآية: ٧٢.
(١٠) سورة الرعد الآية: ٣٥.
(١١) سورة القيامة الآية: ٢.

الأمارة بالسوء هي الداعية إلى الهلاك، المعينة للأعداء، المتبعة للهوى، المتمتعة بأنواع الأسواء.

وقيل لبعض العلماء: متى يصير داء النفس دواؤها؟ فقال: إذا خالفت هواها.

وقال بعض العلماء: النعمة العظمى الخروج من النفس؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله.

وتأمل أصلحك الله نكتة واحدة في النفس تقنعك، وهي أنك إذا نظرت وجدت أصل كل قبيحة، وخزي، وفضيحة، وهلاك وفتنة وقعت في الخلق من أول الدنيا إلى آخرها إنما جاء من قبل هذه النفس. إما بها وحدها أو بمعونتها ومشاركتها ومساعدتها، فأول المعصية لله، إنما كانت من إبليس اللعين، وكان سببه بعد القضاء السابق هو النفس بكبرها وحسدها ألقته بعد عبادة ستة آلاف سنة وقيل: ثمانين ألف / سنة فيما ذكر في الكتاب، فألقته في بحر الضلال أبد الآبدين إذ لم تكن هناك دنيا ولا شيطان؛ بل كانت النفس بكبرها وحسدها فعملت ما عملت، ثم ذنب آدم وحواء عليهما السلام طرحتهما شهوة النفس في ذلك، وحرصها على البقاء والحياة حتى اغتر بقول إبليس، فكان ذلك بعون النفس وشركتها حتى خرجت من جوار الله تعالى وقرار الفردوس إلى هذه الدنيا الحقيرة النكدة الفانية المهلكة، ولقي أولاده ما لقوا من ذلك اليوم إلى الآخرة [٧]

ثم حديث قابيل وهابيل كان سببه الحسد والشح، ثم هلم جرّه إلى يوم القيامة، فلا نجد في الخلق فتنة، ولا فضيحة ولا ضلالاً ولا معصية، إلاّ وأصلها النفس وهواها، وإلاّ كان الخلق في سلامة وخير.

فصل: في التقوى

وقد تقدم معناها وإلجام النفس بلجام التقوى ولكن نشير إلى طرف من فضلها ومدحه المتصف بها وفي الحديث جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أوصيني. قال: «عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»[١].

---

(١) أطراف الحديث عند: الطبراني في الصغير (٢/٦٦)، السيوطي في الدر المنثور (٦/٩٩)، المتقي في الكنز (٤٣٤٣٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢١٥)، (١٠/٣٠١).

وعن بعضهم قال: سمعت ابن عطاء يقول: للتقوى ظاهر وباطن، فظاهرها[١] محافظة الحدود، وباطنها[٢] النية والإخلاص.

وعن قتادة قال: مكتوب في التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا يعجبه إلاّ ذو تقى.

وتأمل نكتة واحدة في فضل التقوى وهي: هب أنك جاهدت في العبادة طول عمرك، حتى حصل لك ما تمنيت، أليس الشأن كله في القبول؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[٣]. فرجع الأمر كله إلى التقوى فعليك يا أخي بهذه التقوى إن أردت عبادة الله، بل أردت سعادة الدنيا وكرامة الآخرة. ولقد صدق القائل:

مـــن اتقـــى الله فـــذاك الـــذي ... سيـــق إليـــه المتجـــر الـــرابـــح

/ آخر: [٨]

مـــا يصنـــع العبـــد بعـــز الغنـــى ... والعـــز كـــل العـــز للمتقـــي
مـــن عـــرف الله فلـــم تغنـــه ... معـــرفـــة الله فـــذاك الشقـــي

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وينشد:

مـــا بـــال مـــن أولـــه نطفـــة ... وجيفـــة آخـــره يفخـــر
لا فخـــر إلاَّ فخـــر أهـــل التقـــى ... غـــداً إذا ضمهـــم المحشـــر

فإن قيل: فقد عظمت التقوى غاية الإعظام حتى عظم موقعها، ومست الحاجة إلى علمها والعمل بها، فبين لنا تفصيلها؟

فاعلم أنها لعمر الله أمر عظيم وخبر جسيم، ولكنك تعلم أن كل خطير وكبير يحتاج في اجتلابه إلى طلب كثير، وتعب كثير، وجهد شديد، وهمة عالية، ونفس عن دناءة الأخلاق آبية؛ لأن من طلب عظيماً خاطر بعظيمة، وإن المكارم على حسب احتمال المكاره، ولله در القائل:

---

(١) في الأصل: فظاهره.
(٢) في الأصل: وباطنه.
(٣) سورة المائدة الآية: ٢٧.

لا تحسب المجد تمر أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر
لا يدرك العلم بطّال ولا كسل ... ولا ملول ولا يلقاه من نظر
وليس يدركه إلاَّ فتى يقظ ... قد كابد الجد والدؤب والسهر

اعلم أن التقوى في اللغة قد تقدم معناها، وأما في القرآن فإنها تنطلق على ثلاثة أشياء:

إحداها: معنى الخشية والهيبة، قال الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[1]. ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[2].

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[3] الآية. عن ابن عباس: أطيعوا الله حق طاعته. قال مجاهد: هو أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر ولا ينسى، وأن يشكر ولا يكفر.

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى؛ لأن محل التقوى القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[4]. قال بعض العلماء: يستدل على تقوى / الرجل بثلاثة: بحسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضى فيما قد نال، وحسن الصبر على ما فات. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[5]. [٩]

ذكر الطاعة والخشية، ثم ذكر التقوى، فتبين أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق منك مثله. ثم قال[6] العلماء: منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية.

قالوا: وقد أشار القرآن إلى هذه المنازل الثلاث. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وأَحْسَنُوا﴾[7].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤١.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨١.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٠٢.
(٤) سورة الحج الآية: ٣٢.
(٥) سورة النور الآية: ٥٢.
(٦) في الأصل: قالت.
(٧) سورة المائدة الآية: ٩٣.

التقوى الأولى: عن الشرك، فالإيمان في مقابلة التوحيد.

والتقوى الثانية: عن البدعة، والإيمان الذي ذكر معها إقرار لمخالفتها.

والتقوى الثالثة: عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار في هذه المنزلة، فقابلها الإحسان وهو الطاعة فالآية جمعت المنازل الثلاثة.

وقد ورد في الحديث أيضاً: أن التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال، وذلك قوله عليه السلام: «إنما سمى المتقون متقين لتركهم ما لا بأس فيه مخافة ما فيه البأس». فالتقوى على هذا المعنى هو اجتناب كل ما تخاف منه ضرراً في دينك وذلك قسمان: ومحض الحرام والمعصية، وفضول الحلال؛ لأن الانهماك في الحلال يفضي بصاحبه إلى العصيان، وذلك لشَرَهِ النفس وطغيان الهوى، فمن أراد أن يأمن في دينه الضرر اجتنب كل ما فيه الخطر، وامتنع من فضول الحلال حذراً إن يجره إلى محض الحرام على ما قاله عليه السلام: «لتركهم ما لا بأس به حذراً عما به البأس»، يعني لتركهم فضول الحلال حذراً من الوقوع في الحرام، فالتقوى الجامعة البالغة اجتناب / كل ما فيه ضرر لأمر الدين وهو المعصية والفضول. [١٠]

وأما حدُّ التقوى على موضع الشرع فهو: تبرئة القلب عن شر لم يسبق منك مثله بقوة العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بين الإنسان وبين كل شر. ثم الشرور ضربان:

شر أصلي: وهي المعاصي المحضة.

وشر غير أصلي: وهو ما نهي عنه تأديباً، وذلك فضول الحلال كالمباحات المأخوذة بالشهوات.

فالأولى: تقوى فرض يلزم بتركها عذاب النار.

والثانية: تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحساب والتوبيخ فمن أتى بالأولى فهو في الدرجة الأولى من التقوى، وهي منزلة مستقيمي الطاعة.

ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة الأعلى من التقوى، وذلك منزلة مستقيمي المباح، وإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى، وقام بحقها، وذلك هو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين، فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة وبالله التوفيق.

فصل: في كيفية إلجام هذه النفس التي عنينا بها

اعلم أن إلجام النفس بلجام التقوى هو أن تقوم عليها بقوة العزم، فتمنعها عن كل معصية

وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك، وأذنك، ولسانك، وقلبك، وبطنك، وفرجك، وجميع أركانك وألجمتها بلجام التقوى، وشرح ذلك يطول، ولكنا نشير إلى ما لا بد منه. فنقول: من أراد أن يتقي الله عز وجل، فليراع جوارحه التي هي نعمة منَّ الله تعالى بها عليه وأمانة ائتمنه عليها، ولا يعصيه بها؛ لأن الاستعانة بنعمة الله على معاصية غاية الكفران، وخيانته في أمانة أودعها عنده غاية الطغيان، [١١] فأعضاء العبد رعاياه فلينظر كيف يرعاها، وفي الحديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول / عن رعيته»(١).

وجوارح الإنسان تشهد عليه يوم القيامة على رؤوس الخلائق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهم وأَرْجُلُهُم﴾(٢). وقال: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ﴾(٣).

جاء في التفسير أن الجلود هاهنا الفروج. فاحفظ يا أخي ـ أصلحك الله ـ جوارحك وخصوصاً أعضاؤك الثمانية فإنهن الأصول وهن: القلب واللسان، والعين، والأذن، والبطن، والفرج، واليدان والرجلان.

فتحترس عليها بالصيانة لها عن كل ما تخاف منه ضرراً في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف في حلال، ولا سيما منهن خمس وهي: القلب، واللسان، والعين، والأذن، والبطن، فإنه إذا حصَّل الإنسان صيانة هذه الأعضاء، فمرجوّ أن يكفي سائر جوارحه فينحصر ذلك حينئذٍ في مقدمة، وخمسة أبواب.

فصل: في بيان المقدمة في ذكر الهوى

قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاه﴾(٤) الآية. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الهوى إله يعبد من دون الله، ثم قرأ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾. وعن علي بن أبي طالب أنه قال: أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث ابن عمر.
(٢) سورة النور الآية: ٢٤.
(٣) سورة فصلت الآية: ٢٢.
(٤) سورة الجاثية الآية: ٢٣.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: اقرعوا هذه النفس عن شهواتها؛ فإنها طلّاعة تنزع إلى شر، غاية أن هذا الحق ثقيل مريء وأن الباطل خفيف وبيء.

وترك الخطيئة خير من معاندة التوبة، وربما نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء».

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُم فتَنْتُم أنفُسَكُمْ﴾/ بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ يعني [١٢] بالتوبة. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ يعني في أمر الله تعالى. ﴿وَغَرَّتكُمُ الأَمَانِيُّ﴾. بالتسويف. ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾. يعني الموت. ﴿وَغَرَّكُم باللهِ الْغَرُورُ﴾[١]. يعني الشيطان.

وعن الشعبي أنه قال: إنما سمي الهوى هوا؛ لأنه يهوي بصاحبه. ويُنشد لهشام بن عبد الملك:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

وقال بعض الأعراب: الهوى هوان ولكن قلب اسمه، فنظمه بعض الشعراء فقال:

إن الهوى هو الهوان قلب اسمه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وفي منثور الحكم من أطاع هواه فقد أعطى عدوَّه مناه. وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.

وقال بعض البلغاء: أفضل الناس من عصى هواه، وأفضل منه من رفض دنياه. وقال بعض الشعراء:

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى ... فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلاً بنفسه ... وقد وجدت فيه مقالاً عواذله
وما يردعُ النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلاَّ حازمُ الرأي كاملهُ

فلما كان الهوى على الإنسان غالباً وإلى سبيل المهالك موردا، جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً، يلاحظ غرة غفلته، ويدفع سطوته، بادرته ويوضح خداع حيلته؛ لأن سلطان الهوى قويٍ، ومدخل مَكْرِهِ خفي. ولذلك قال بعض الحكماء: الهوى ملك غشوم، ومتسلط ظلوم.

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٤.

فأما الوجه الأول: فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه، فيكل العقل من دفعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها، وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفورة، فيشعرها ما في عواقب الهوى من شدة / الضرر وكثرة الأوزار. [١٣]

وقد قال عليه السلام: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[١].

فأخبر عليه السلام أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره، والطريق إلى النار اتباع الشهوات. وقال عليٌّ: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم، وآجلها وخيم، فإن لم تنفع فيها الرهبة فشوبها بالرغبة؛ فإنهما إذا اجتمعتا على النفس ذلت وانقادت، وقد قال الشاعر:

صبرت على الأيام حتى تولت ... فألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلاَّ حيث يجعلها الفتى ... فإن أطمعت تاقت وإلاَّ تسلت

فإذا انقادت النفس للعقل، تم له الحظ الأوفى من ثواب الخالق وثناء المخلوقين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[٢].
وعن الحسن أنه قال: أفضل الجهاد جهاد النفس، ويُنشد:

قد يدرك الحازم ذو الرأي الحسن ... بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وقال بعض العلماء: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركّب ابن آدم من كليهما عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم، ويُنشد:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي ... دعته إليه من حلاوة عاجل

وأما الوجه الثاني: فهو أن يخفي الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسناً، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، فَرَآهُ حَسَنًا﴾[٣]. وذلك إنما يكون بسببين:

---

(١) قال العراقي في المغني (٤/ ٥٧) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٢) سورة النازعات الآية: ٤٠.
(٣) سورة فاطر الآية: ٨.

أحدهما: حب/ النفس ذلك الشيء فتعمى عن عيبه، وقد قال عليه السلام: «حبك [١٤] الشيء يعمي ويصم»[١]. وينشد لعبد الله بن معاوية بن عبد اللّٰه بن جعفر بن أبي طالب:

ولست براءٍ عيب ذي الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا

فعين الرضى عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

والسبب الثاني: هو اشتغال الفكر في تمييز ما اشتبه، وطلب الراحة في اتباع ما تسهل حتى يظن أن ذلك أحمد الأمرين فيتورط بخدع الهوى، وزينة المكر في أقبح الحالتين، ولذلك قيل عن عامر بن المطرب أنه قال: الهوى يقظان، والعقل راقد. وقيل في المثل: العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح، ويُنشد:

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤلها ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

فحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكماً على نظر عينيه، فالعين رائد[٢] الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد[٣] الحق، والحق من دواعي العقل، ثم يتهم نفسه في صواب ما أحبته ليستبين له الحق؛ فإن الحق أثقل محملاً فإن اشتبه عليه أمران اجتنب أحبهما إليه، لأن النفس تنفر عن الحق وتؤثر الهوى.

وقد قال العباس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران، فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك. وعلة هذا القول: أن الثقيل تبطئ النفس عن التسرع إليه، فيتضح مع الإبطاء، وطول الزمان صواب ما أستبهم، والمحبوب السهل تسرع النفس إليه، فيقصر الزمان عن تصفحه لفكره، ويفوت استدراكه لتقصير فعله، فلا ينفع التصفح بعد العمل، والاستبانة / بعد [١٥] الفوت، ويُنشد:

أليس طلاب ما قد فات جهلاً ... ودرك المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال: الهوى مطية الفتنة، والدنيا دار المحنة، فانزل عن الهوى تسلم، واعرض عن الدنيا تغنم فلا يغرنك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتنك دنياك بحسن العواري، فمدة الهوى تنقطع، وعارية الدهر ترتجع. فيتبقى عليك ما ترتكبه من المحارم، وتكسبه من المخازي والمآثم. وقال بعض علماء السلف: سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشد:

---

(١) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/ ٣١) رواه أبو داود من حديث أبي داود بإسناد ضعيف.

(٢) في الأصل زائد، بالزاي المعجمة.

(٣) في الأصل زائد، بالزاي المعجمة.

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت: هما ضرتان[١] فدع أيهما شئت وخذ الأخرى. وأما الفرق بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول فهو أن: الهوى مختص بالآراء والاعتقادات، والشهوة تختص بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى فهي أخص والهوى أصل وهو أعَمّ، ونحن نسأل الله أن يكفينا دواعي الهوى، ويصرف عنا سبل الرّدى، ويجعل التوفيق لنا قائداً والعقل لنا مرشداً.

وقد حكي أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلاَّ فاستحي منيّ.

ونحن كما قال بعض السلف: قلوب تعرف وألسنة تصف، وأعمال تخالف. فالله تعالى نسأله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة. فلما كان العقل رقيب الهوى وسراجاً في القلب، الذي هو أشرف الأعضاء، كان لنا أن نبتدىء بذكر القلب وعلاجه ونرتب عليه ذكر الجوارح / وبالله التوفيق. [١٦]

الباب الأول
في ذكر القلب

قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاَّ من أتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

فأخبر أن سلامة القلب وطهارته من الغوائل هي سبب لنجاة الإنسان من عذاب القبر. فعليك يا أخي وفقك الله وإيانا بإصلاح القلب وبذل المجهود في ذلك؛ فإنه أعظم الأعضاء خطراً، وأدقها أمراً، وأشقها إصلاحاً، وأذكر لك فيه خمسة أصول، مقنعة لك عن كثرة الفصول.

أحدها: قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[٣]. وقوله: ﴿وَاعْلَمُوَا أنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٤]. وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

(١) في الأصل: ضارتان، وهو تحريف واضح.
(٢) سورة الشعراء الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٣) سورة غافر الآية: ١٩.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣٥.

﴿الصُّدُورِ﴾[١]. وكم كرر ذكره في القرآن فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيراً وتهديداً للخواص من العباد؛ لأن المعاملة مع علّام الغيوب خطرة عسرة، فانظر ماذا يعلم من قلبك.

والأصل الثاني: قول رسول الله ﷺ حيث قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم»[٢]. أو قال: «أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فالقلب إذاً موضع نظر رب العالمين فيا عجباً ممن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق فينظفه من الأدناس ويزينه لئلا يطلع عليه مخلوق فيه على عيب ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه ويطيبه كيلا يطلع الرب تعالى على دنس فيه وشين وعيب وآفة بل يهمله ويملأه بقبائح وأقذار وفضائح، لو أطلع الخلق على واحدة منها لهجروه وتبرأوا منه وطردوه، والله المستعان.

الأصل الثالث: إن القلب ملك مطاع، ورئيس متبع، والأعضاء كلها له تبع، فإذا صلح /التابع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية، يبين ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في [١٧] الجسد مضغة[٣] إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي القلب»[٤]. خزانة كل جوهر صرف العناية إليه.

الأصل الرابع: أن القلب خزانة كل جوهر نفيس للإنسان وكل معنى خطير، أولها العقل، وأجلها معرفة الله عز وجل التي هي سبب سعادة الدارين، ثم البصائر التي بها التقدم والوجاهة عند الله عز وجل، ثم النية الخالصة في الطاعات التي بها يتعلق ثواب الأبد، ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد، ثم سائر الأخلاق الشريفة: من الجود، والكرم، والصبر، والشكر اليقين، والزهد، والرضى والتوكل، والرحمة، والرأفة والحلم، والرفق، وغير ذلك مما يطول الكتاب بتعداده.

وحقيق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ من الأدناس، وتطهر من الأنجاس، وتحرس من السراق والقطاع، وتكرم بضروب الكرامات بل تعمر بأصناف الخيرات وأنواع القربات لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس أو يظفر بها عدو مهلك.

---

(١) سورة الملك الآية: ١٣.
(٢) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٣٥١/٤) عن نحوه: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
(٣) في الأصل: «بضعة» والتصويب من إحياء علوم الدين (٣٥٦/٤).
(٤) قال العراقي في المغني بهامش المصدر السابق تعليقاً على هذا الحديث والذي جاء فيه بنحوه: متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

الأصل الخامس: وهو أن العلماء تأملت أحوال القلب، فوجدتها خمسة ليست لغيره من الأعضاء.

أحدها: أن العدو قاصد إليه مقبل عليه ملازم له كما ورد في الحديث: «إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم»[١] فهو منزل الإلهام والوسوسة يقرعه الملك والشيطان بالدعوتين أبداً».

والثاني: أن الشغل له أكثر فإن الهوى والعقل كلاهما فيه، فهو معترك العسكرين الهوى وجنوده، والعقل وجنوده، فهو أبداً بين تحاربهما. وتناقضهما / فيحق بالثغر أن يحرس ويخض ولا يغفل عنه. [١٨]

والثالث: أن العوارض له أكثر فإن الخواطر كالسهام لا تزال تقع فيه كالمطر، لا تزال تمطر عليه ليلاً ونهاراً لا تنقطع عنه ولا أنت تقدر على منعها فتمتنع، فليس بمنزلة العين التي هي بين جفنين تغمض فتستريح[٢]، أو تكون في موضع خال، أو ليل مظلم فتكفي رؤيتها.

واللسان الذي هو وراء الحجابين: الأسنان والشفتين، وأنت القادر على منعه، بل القلب عرض للخواطر لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال، ولا هي تنقطع عنك بوقت.

ثم النفس مسارعة إلى اتباعها، فالامتناع عن ذلك في مجهود الطاقة أمر شديد ومحنة عظيمة.

والرابع: أن علاجه عليك عسير إذ هو غُيِّب عنك فلا تكاد تشعر حتى تدب فيه آفة، وتحدث له حالة فتحتاج أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

الخامس: أن الآفات إليه أسرع، وهو إلى الانقلاب أقرب فلقد قيل: إن القلب أسرع، وهو إلى الانقلاب أقرب. فلقد قيل: إن القلب أسرع انقلاباً من القدر في غليانها[٣] ولذلك قيل فيه:

ما سمى القلب إلا من تقلبه ... والرأي يضرب بالإنسان أطوارا

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٠/ ٢٦٢).

(٢) في الأصل: تسريح. وهو تحريف.

(٣) ذكر الحافظ العراقي حديثاً في معنى هذا القول وقال فيه رواه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها».

ثم إن زل القلب والعياذ بالله فزلله عظيم، ووقوعه أصعب، وأفظع، أدناه قسوة وميل إلى غير الله سبحانه، ومنتهاه ختم وإنكار لله جل ذكره، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾[١]. وكان الكبر من قلبه فحمله على الإباء والكفر بظاهره.

أما تسمع قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٢]. فكان الميل واتباع الهوى بقلبه حمله على ذلك الذنب المشؤوم بنفسه.

أما تسمع قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ / أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣]. [١٩]

ولهذا المعنى ـ أيها الرجل ـ خاف الخواص من عباد الله على قلوبهم فبكوا عليها وصرفوا عنايتهم إليها قال الله سبحانه في وصفهم. ﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[٤]. جعلنا الله من المعتبرين بالعبر المهتمين لمواضع الخطر الموفقين لإصلاحها بحسن النظر إليه إنه أرحم الراحمين. فإن قيل: إن أمر هذا القلب لمهم جداً، فأخبرنا عن المعاني التي تصلحه، وعن الآفات التي تعترضه فتفسده؟ عسى أن نوفق للاجتهاد في العمل بذلك. يقال له: اعلم أن تفصيل هذه المعاني يطول، وإنما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك، وقد حكى بعضهم أنهم ذكروا فيما يحتاج إليه من ذلك نحو تسعين خصلة محمودة، وكذا في أضدادها المذمومة. ثم من الأفعال والمساعي الواجبة والمحظورة نحو ذلك في سائر تفاصيلها، ولعمري إن من أهمه أمر دينه ووفق للنظر لنفسه فلا يكون ذلك في العمل به عليه كثيراً.

وذكر عن بعض العلماء في الكتاب أنه قال: إذا سلم الإنسان من عشر خصال مهلكات فمرجو أن يسلم من غيرها وهي: الكبر، والعجب والحسد، والرياء، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

قال: وإذا حصل من الخصال المنجيات عشراً فمرجوة له النجاة إن شاء الله وهي: الندم على الذنب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف

---

(١) سورة البقرة الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١١٠.

(٤) سورة النور الآية: ٣٧.

والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلق مع الخَلق، وحب الله تعالى والخشوع له والله أعلم.

[٢٠] اعلم أن شرح الصفات المذمومة في القلب طويل، وتطهير القلب / من رذائلها شاق على النفس عسير، وسبيل العلاج فيه غامض، وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الناس عن أنفسهم واشتغالهم بقضاء شهواتهم.

ونحن نشير إن شاء الله هاهنا إلى ست صفات من خبائث القلب، وهن مهلكات، ولسواهن من الخبائث أصول وأمهات وهي: الأمل، والحرص، والغضب، والحقد، والبخل، والعجلة، فنشرح ذلك في ستة فصول.

الفصل الأول: في الأمل

قال الله سبحانه لنبيه عليه السلام وعيداً وتهديداً للكفار: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١].

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «أشد ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل فإنه يحبب الدنيا».

ثم قال: «ألا إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن يبغض، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان ألاَ إنَّ للدين أبناء، وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مقبلة، ألاَ وإنكم في يوم عمل»[٢].

ويروى أنَّ رسول الله ﷺ اطّلع ذات عشية على الناس فقال: «أيها الناس ألاَّ تستحيون من الله»؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار [٢١] إلى شهر، فسمعنا رسول الله يقول: «لا تتعجبوا من أسامة / المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل

---

(١) سورة الحجر الآية: ٣.

(٢) ذكره الغزالي بنحوه وأتم مما هنا في الإحياء (٤/٤٣٧) وعلق عليه العراقي في المغني بهامش فقال: حديث علي... رواه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل، ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف.

(٣) وقال عن هذا أيضاً: حديث أم المنذر. ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف.

الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلاّ ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة حتى ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت».

ثم قال: «يا بني أدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين»(١).

وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله الماء منك قريب. فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه»(٢).

وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «أتدرون ما هذا؟». فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا الإنسان، وهذا الأجل، وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم فيختلجه الأجل دون الأمل»(٣) وعنه ﷺ من طريق ابن عبد اللّه أنه عليه السلام خطّ خطاً مربعاً وخط في وسطه خطاً وخطّ خطوطاً إلى جنب الخط، وخطّ خطاً خارجاً فقال: «أتدرون ما هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا الإنسان» للخط الأوسط «وهذا الأجل محيط به، وهذه الأغراض تنهشه». يعني الخطوط المخطوطة. قوله: «إن أخطأه هذا نهشه هذا، وذلك الأمل للخط الخارج»(٤).

وقال ابن مسعود رحمه الله: هذا المرء وهذه الحتوف حوله سوارع إليه فإن أخطته الحتوف قتله الهرم وهو ينظر إلى الأمل.

وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «يهرم ابن آدم ويبقى فيه اثنان/ الحرص والأمل». [٢٢]
وفي رواية أخرى: «ويشب منه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر»(٥).

---

(١) قال العراقي في المغني (٤/٤٣٧): رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والطبراني في مسند الشاميين، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) وقال في الموضع نفسه: رواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والبزار بسند ضعيف.

(٣) قال العراقي في المغني (٤/٤٣٨): رواه أحمد، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له، والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري، وإسناده حسن، ورواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل مرسلاً.

(٤) قال العراقي في الموضع السابق: رواه البخاري.

(٥) وقال أيضاً في نفس الموضع: رواه مسلم بلفظ الثاني، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناد صحيح.

وعنه ﷺ أنه قال: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»[(١)]. وفي الخبر: أن عيسى عليه السلام بينما هو جالس وشيخ يعمل بمسحاة يلين بها الأرض. فقال عيسى عليه السلام: اللهم انزع عنه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى، فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة فاضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مسحاتي[(٢)].

وعن الحسن عنه ﷺ أنه قال: «أكلكم يحب أن يدخل الجنة»؟. قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «قَصِّروا من الأمل واجعلوا[(٣)] آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء»[(٤)].

وعنه عليه السلام أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات»[(٥)].

وعن عبد اللّه بن عمر أنه قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور، فإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد اللّه ما اسمك غداً».

[٢٣] وفي الخبر: أن الله تعالى لما أخرج الذرية من صلب آدم /عليه السلام قالت الملائكة: يا رب إن الأرض لا تسعهم. قال: إني جاعل فيهم موتاً. قالت: لا يهنئهم العيش. قال: إني جاعل فيهم أملاً.

---

(١) وقال في الموضع السابق أيضاً: رواه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أورده الغزالي في الإحياء (٤٣٨/٤).

(٣) في الإحياء: «وثبتوا».

(٤) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤٣٨/٤): رواه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلاً.

(٥) أورده الغزالي في الإحياء (٤٣٨/٤) مع تقديم وتأخير وعلق عليه العراقي في المغني بالهامش فقال: رواه ابن أبي الدنيا فيه (أي في قصر الأمل) من رواية حوشب عن النبي ﷺ، وفي إسناده ضعف وجهالة، ولا أدري من حوشب؟

وقال بعض العلماء: بلغني أن الإنسان خلق أحمق، ولولا ذلك لما تهنّا عيشاً. وقال سلمان الفارسي رحمه الله: ثلاثة أبكتني حتى أضحكتني: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فاه لا يدري أساخط عنه رب العالمين أم راضٍ. قال: وثلاثة أحزنتني حتى أبكتني فراق محمد ﷺ وحزبه الأحبة وهول المطلع، والوقوف بين يد ربي لا أدري إلى الجنة يؤمر بي أم إلى النار.

وقال بعض العلماء: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولبس العباء. وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك. وكان يقول: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلتم سمع، وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم، وإن أقمتم أخذكم[١].

ويروى أن النبي ﷺ قال في بعض خطبه: «أيها الناس إن الأيام تطوى والأعمال تحصى، والأبدان في الثرى تبلى، وأن الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد، يقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، ويأتيان بكل موعود».

وفي ذلك عباد الله: ما ألهى عن الشهوات ورغب في الباقيات الصالحات. وقال معسر: كم من مستقبل يوماً لا يكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه، ولو رأيتم الأجل ومسيرة أبغضتم الأمل وغروره. وعن علي بن أبي طالب: / قال بعد موت النبي ﷺ: [٢٤]

غَــــرَّ جَهُـــولاً أَمَلَـــهْ ... يَمُـــوتُ مَـــنْ جَـــاءَ أَجَلُـــهْ

وَمَـــنْ دَنَـــا مِـــنْ حَتْفِـــهِ ... لَـــمْ تُغْـــنِ عَنْـــهُ حِيَلَـــهْ

وَمَـــا بَقَـــى آخِـــرُهُ ... قَـــدْ غَـــابَ عَنْـــه أَوَّلَـــهْ

وَالْمَـــرْءُ لاَ يَصْحَبُـــهُ ... فِـــي الْقَبْـــرِ أَلاَّ عَمَلَـــهْ

وروي عن الجاحظ أنه قال في كتاب البيان: وجد مكتوباً على حجر يا ابن آدم إنك لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حصرك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك، وقد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وتبرأ منك القريب، وانصرف عنك الحبيب.

---

(١) الأثر وما قبله من آثار أوردها الغزالي في الإحياء (٤/٤٣٨: ٤٣٩).

وفيما يروى: أنه ليس من يوم يأتي إلاَّ قال: يا ابن آدم تزود مني فإني يوم جديد، وإني على ما صنعت فيّ شهيد، وإنيّ ذاهب فلا أعود. ثم ختم عليه بخاتم فلا يكسر إلى يوم القيامة ويُنشد:

مَضَى أمْسُكَ المَاضِي شَهِيداً معدّلاً ... وَأَعْقَبَــهُ يَــوْمٌ عَلَيْــكَ شَهِيــدُ
فَإنْ كُنْتَ بِـالأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إسَـاءَةً ... فَبَـادِرْ بِـإِحْسَـانٍ وَأَنْـتَ حَمِيــدُ
وَلاَ تُبْقِ فِعْلَ الصَّـالِحَاتِ إلَى غَـدٍ ... لَعَـلَّ غَـداً يَـأْتِـي وَأَنْـتَ فَقِيــدُ
إِذَا مَـا الْمَنَـايَا أَخْطَـأَتْـكَ وَصَـادَفَتْ ... حَمِيْمَـكَ فَـاعْلَـمْ أَنَّهَـا سَتَعُــودُ

فصـل

اعلم أن الأمل أحدقوا عد الدنيا التي لا تعمر إلاَّ بها، وذلك أن العلماء حصروا ما يصلح به الدنيا إلى ستة أشياء وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل كامل، وأمن عام، وخصب دار، وأمل فسيح.

أما الدين المتبع: فإنه يصرف النفوس عن شهواتها فيصير رقيباً عليها في خلواتها.

[٢٥] **وأما السلطان القاهر:** فإنه تتألف برهبته الأهواء / وتتكف بسطوته الأيدي المتعادية، ولذلك قال بعض الحكماء: الأدب أدبان أدب شريعة وهو ما أدى الفرض، وأدب سياسة وهو ما عَمَّر الأرض.

وأما العدل الشامل: فإنه يدعو إلى الألفة ويبعث على الطاعة، وتتعمر معه الأرض وتثمر به الأموال والنسل، ويأمن به السلطان؛ لأنه لا شيء أسرع في خراب الدنيا ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد ونهاية.

وأما الأمن العام: فإنه تطمئن إليه النفوس وتنتشر، ويأنس به الضعيف فينبعث فليس لخائف راحة، والا لحاذر طمأنينة ولذلك قيل: الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش.

وأما الخصب الدار: فلأنه يؤل إلى الغنى، والغنى يحدث الأمنة، والسخاء فتتمتع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل.

وأما الأمل الفسيح: فلأنه يبعث على إقتناء ما يقصر العمر عن استيعابة، ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنياً لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وأرض الحرث. وفي ذلك من الأعواز وتعذر الإمكان ما لا خفاء به، فأرفق الله

سبحانه الخلق باتساع الأمل حتى عَمّر به الأرض فَتمَّ صلاحها فصارت تنتقل بعمرانها إلى قرن بعد قرن، فيثمر الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها، ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها، لتكون أحوالها على ممر الإعصار ملتئمة وأمورها منتظمة ولو قصرت الآمال لما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته، ولكانت تنتقل إلى من يأتي بعد خراباً لا يجد فيها بلغة، ولا يدرك / منها حاجة، ثم تنقل إلى من يجيء بعد بأسوء من ذلك حالاً، حتى لا ينتمي لها نبت، ولا يمكن فيها لبث.

ولذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأمل رحمة من الله عز وجل لامتي ولولاه ما غرس غارس شجراً ولا أرضعت أم ولداً». وعن مطرف بن عبد اللّٰه أنه قال: لو علمت متى أجلي لخشيت ذهاب عقلي، ولكن الله تعالى مَنّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنؤا عيشاً ولا قامت بينهم الأسواق وقد قال الشاعر:

وللنفوسِ وَإنْ كَانَتْ عَلَى وَجَل ... مِـن المَنِيَّـةِ آمَـالٌ تُقَـوّيهَـا
فَالْمَـرْءُ يَبْسُطُهَا وَالـدّهْـرُ يَقْبِضُهَا ... وِالنَّفْسُ تَنْشُرهَا وَالْمَوتُ يَطْوِيها

فلما كان الأمل من أقوى الأسباب في عمارة الدنيا، كان في الآخرة من أعظم أسباب غفلتها وخرابها وقلة الاستعداد لها؛ لأن طول الأمل هو العائق عن كل خير، والجالب لكل شر، وأنه الداء العضال الذي يوقع الخلق في أنواع الفتن والبلايا، ولقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابية بما بَيّنَ به حال الأمرين فقال:

أَكْـذِبِ النَّفْـسَ إن حَـدَّثْتَهَـا ... إنَّ صِـدْقَ النَّفس يَـزَرِي بِـالأَمَـل
غَيْـرَ أَن لاَ تُكْـذِبَنْهَـا فـي التُّقَـى ... وَأخِـرَهَـا بِـالْبِـرِ لله الأَجَـل

اعلم أن طول الأمل يهيج للإنسان أربعة أشياء:

أحدها: ترك الطاعة والكسل فيها؛ لأنه يقول سوف أفعل والأيام بين يدي ولا يفوتني ذلك. ولقد صدق داود الطائي فيما يروى عنه حيث قال: من خاف الوعيد قرب إليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: الأمل قاطع من كل خير والطمع مانع من كل حق / والصبر صائر إلى كل ظفر والنفس داعية إلى كل شر. [٢٧]

والثاني: ترك التوبة وتسويفهم يقول: سوف أتوب، وفي الأيام سعة، وأنا شاب وسِنِيّ قليل، هذا ونحوه يحرك إلى الرغبة في الدنيا والحرص عليها ليتيسر له بذلك العيشة فيها وأقل

ما في الباب أن يشتغل ويضيع وقته باهتمام أشياء لعله لا يدركها.

وقد روي فيه عن أبي ذر رحمه الله أنه قال: قتلني هَمّ يوم لم أدركه. قيل: وكيف ذلك يا أباذر؟ قال: إنْ أملي جاوز أجلي.

والثالث: القسوة في القلب، قال الله سبحانه: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1]. لأن القلب إنما يصفو ويرق بذلك الموت، والقبر والجنة والنار، فإذا طال أمله كان فكره وذكره الدنيا وأسبابها.

والرابع: نسيان الآخرة كما ورد في الحديث: «إنَّ طول الأمل ينسي الآخرة، فإذا طال أمل الإنسان قلّت طاعته وتأخرت توبته وكثرت معصيته، واشتد حرصه، وقسى قلبه، وعظمت غفلته عن الآخرة».

فأيُّ حالة أسوأ من هذه، وأيُّ آفة أعظم من هذه وكل هذا سبيله طول الأمل. وحد الأمل إرادة الحياة للوقت المتراخي بالحكم وقصر الأمل هو ترك الحكم فيه، بأن يقيد بالاستثناء بمشيئة الله تعالى وعلمه بالذكر أو بشرط الصلاح والإرادة.

وأما علاجه فبأن يخطر الإنسان في قلبه ذكر الموت، والقبر، وخساسة الدنيا، في جنب شرف الآخرة وجلالتها، ويتفكر أيضاً في إخوانه وأقرانه الذين غافلهم الموت في وقت لم يحتسبوه.

ويقول: لعل حالي مثل حالهم، ويتذكر قول عيسى عليه السلام: الدنيا ثلاثة أيام: أمس مضى ما بيدك منه شيء، وغد لا تدري أنت تدركه / أم لا، ويوم أنت فيه فاغتنم منه. ثم قول [٢٨] أبي الدرداء: الدنيا ثلاث ساعات، ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدري أتدركها أم لا، فلست تملك بالحقيقة إلاّ ساعة واحدة، إذ الموت من ساعة إلى ساعة.

ثم يقول بعض العلماء: الدنيا ثلاثة أنفاس، نفس مضى عملت فيه ما عملت، ونفس أنت فيه، ونفس لا تدري أتملكه أم لا، إذ كم من يتنفس نفساً ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فلست تملك في الحقيقة إلاّ نفساً واحداً، لا يوماً ولا ساعة، فيتبادر في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن يفوت، وإلى التوبة، ولعله في النفس الثاني يموت.

وليوبخ نفسه يقول: احذري يا نفسي الغرور ولا تهتمي بالرزق المقدور فلعلك لا تبقين

---

(١) سورة الحديد الآية: ١٦.

لتحتاجي إليه. فيكون وقتك ضائعاً والهم فضلاً، وما عسى أن يهتم الإنسان ليوم أو ساعة أو نَفَس واحد، فإذا تذكر الإنسان هذه الأذكار وواظب عليها بالإعادة والتكرار قصر أمله بإذن الله تعالى.

فحينئذٍ يرى نفسه تبادر إلى الطاعة وتعجل التوبة، وتجنب المعصية، وتزهد في الدنيا وطلبها وتتذكر الآخرة وأهوالها، فتزول عن قلبه القسوة وتبدو فيه الرقة والصفوة، وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية، فيستقيم له أمر العبادة ويقوى له الرجاء في أن يسعد في الآخرة، وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بقصر الأمل، وبالله التوفيق.

وأما الفرق بين الأمل والأماني:

فالأمل: ما تقيدت بأسباب وذلك أن الرجاء والأمل إنما يكونان بعد تمهيد العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا/ جَاهَدُوا فِي سَبِيلْ الله أُوْلَئِكَ يَرْجُون رحمْتَ الله﴾[1]. وهذا مثل من زرع زرعاً فيأمل في منفعته. [٢٩]

وأما الأماني: فهي ما تجردت عن أسباب، قال الله تعالى: ﴿وغَرَّتكُمْ الأَمَاني﴾[2]. وقال عليه السلام: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[3].

وعن جابر بن زيد رحمه الله أنه قال: إياكم، والأماني؛ فوالله ما نال بها عبد خيراً فيما مضى ولا يناله فيما بقي، وقال تعالى: ﴿لَيْس بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[4]. غير أن الأماني تروح القلب إذا اغتم قال الشاعر:

حَـــرِّكْ منـــاك إذا اغتمـــمت فـــإنهـــا مـــراوح

آخر:

إذا تمنيـــت بـــتُّ الليـــل مغتبطـــاً إن المنـــى رأس أمـــوال المغـــاليـس

والله سبحانه نسأله التوفيق لما يحبه ويرضاه.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٨.

(٢) سورة الحديد الآية: ١٤.

(٣) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/٣٦٨): رواه الترمذي، وابن ماجة من حديث شداد بن أوس.

(٤) سورة النساء الآية: ١٢٣.

الفصل الثاني: في الحرص

قال الله سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[١]. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ وسلم أنه قال: «إياكم وأمهات الخطايا؛ فإنهن ثلاثة: الحسد، والحرص، والكبر».

ومن كتاب الضياء قال: وأصل البلاء والشرّ في ست خصال منها تتوالد الذنوب. وقيل: إن عدو الله إبليس قال: إذا كانت خصلة منها في شيطان كان مارداً فإذا اجتمعن في شيطان واحد فلا تسأل عنه.

أولهن: الكبر: وهو ذنب إبليس اللعين.

والثاني: العجب: وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والثالثة: البخل: وصاحبه محروم من خير الدنيا والآخرة.

والرابعة: البغي: وهو راجع على صاحبه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾[٢].

والخامسة: الحسد: وصاحبه أبداً مغموم.

والسادسة: / أظنها الحرص؛ والله أعلم. [٣٠]

ويُنشد:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الدَّهْرِ لَمْ يَشِبِ ... إِنَّ الْحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبِ

وذلك أن الإنسان إذا غلب عليه حب المال، وبعد الأمل، بعثه الحب على طلبه، ودعاه الأمل إلى الشُّح والحرص والشح والحرص أصل كل ذنب وسبب لكل لؤم، ولذلك قيل: الحرص مفسدة للدين، وللمرؤة.

ويروى أن أعرابياً عاتب أخاه على الحرص فقال: يا أخي أنت طالب ومطلوب بطلبك من لا تفوته، وأنت تطلب كل ما قد كفيته فكان ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخي لم تر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً وقد قال الشاعر:

أَرَاكَ يَـزِيـدُكَ الإِكْثَـارُ حِـرْصـاً ... عَلَـى الـدُّنْيَـا كَـأَنَّـك لَا تَمُـوتُ

فَهَـلْ لَـكَ غَـايَـةٌ إِنْ صِـرْتَ يَـوْمـاً ... إِلَيْهَـا قُلْـتَ: حَسْبِـي قَـدْ رَضِيـتُ

---

(١) سورة الفجر الآية: ٢٠.

(٢) سورة يونس الآية: ٢٣.

وحكي عن الشعبي أنه قال: أن رجلاً صاد قنبراً فقال: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك. فقالت: والله ما أشفى من ضر ولا أشبع من جوع، ولكن اعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي، أما واحدة: فأعلمكها وأنا في يدك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل. فقال: هاتي الأولى. فقالت: لا تلهفن على فائت. فخلّاها فلما صارت على الشجرة قال: هاتي الثانية. قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فوقفت على الجبل، فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين في كل واحدة عشرون مثقالاً. قال: فعض على شفتيه وتلهف وقال: هاتي الثالثة: فقال: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟ أمل أقل لك / لا تلهفن على ما فاتك ولا [٣١] تصدقن بما لا يكون أنه يكون وأنا لحمي وريشي ودمي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان في كل واحدة عشرون مثقالاً ثم طارت، وذهبت.

قال بعض العلماء: وهذا مثال لفرط طمع الآدميين فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون.

وروي عن أبي محمد اليزيدي أنه قال: دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رآني تبسم. فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين. قال: نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتها وقد أضفت إليهما ثالثة وأنشدني:

إِذَا سُدَّ بَابٌ عَنْكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ فَدَعْهَا لأُخْرَى يَنْفَتِحْ لَكَ بَابُهَا
فَإِنَّ خَرَابَ الْبَطْنِ يَكْفِيكَ مِلْئَهُ وَيَكْفِيكَ سُوْءَاتِ الأُمُور اجْتِنَابُهَا
وَلاَ تَكُنْ مُبْذِلاً لِعَرْضِكَ وَاجْتَنِبْ رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبْكَ عِقَابُهَا

ويقال: الحريص أسير مهانة لا ينفك أسره. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع، واصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم الدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط.

وقيل لبعض الحكماء: أيٌّ أيسر للعاقل وأيها أعون على دفع الحزن. قال: أيسرها إليه ما قدم من صالح العمل، وأعونها على دفع الحزن الرضى بمحتوم القضاء.

وروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت فحفظ منها أن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ولو أن لابن آدم وادياً من ذهب لتمنى ثانياً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ / التراب ويتوب الله على من يشاء. [٣٢]

وعن النبي ﷺ أنه قال: «منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال»[١]. وقد ذكرنا في قنطرة الدنيا من هذا المعنى ما يكفي والله المستعان. ولما كان الحرص وحب المال في الآدمي جبلة ضرورية وطبيعة مضلة مهلكة رأينا أن نضيف إلى هذا الفصل باباً في ذكر القناعة التي هي ضد الحرص وقد أثنى الله ورسوله على القناعة كما سيأتي إن شاء الله.

باب
في ذكر القناعة

اعلم أن القناعة برزق الله تعالى أول منازل الرضى عن سبحانه، وإذا أراد الله بعبد خيراً أغناه بالقنوع، وأرضاه بما قسم له، قال الله سبحانه: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[٢]. قال مجاهد؛ هي القناعة.

وعن النبي ﷺ وسلم أنه قال: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشة كفافاً وقنع به»[٣].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الحريص الجاهد والقانع الزاهد يستوفيان أكلهما غير منتقص منه شيء».

وروي أنه قال للمسيح عليه السلام: ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب؟

قال: لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب وقال بعض الحكماء: من قنع كان غنياً، وإن كان فقيراً، وإن كان مكثراً.

وقال بعض البلغاء: إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض؛ إنما الغنى غنى النفس»[٤].

[٣٣] وعن أبي حازم أنه قال: ثلاثة من كن فيه كمل /عقله، ومن كان فيه واحدة منهن كمل

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٢) سورة النساء الآية: ١٢٤.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر «وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ثلث عقله: من عرف نفسه وحفظ لسانه وقنع بما رزقه الله، وأنشد لأبي العتاهية:

نصف القنوع وأيُّنا يقنع ... وأيُّنا يرضى بما يجمع
لله در ذوي القناعة ما ... أصفى معايشهم وما أوسع
من كان يبغي أن يغر وأن ... تهدى خلائقه فلا يطمع
فغر النفوس بقدر رغبتها ... وغنى النفوس بقدر ما تقنع

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إذا شئت أن تحيى غنياً فلا تكن في حالة إلا رضيت بدونها».
وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد إلاَّ بينه وبين رزقه حجاب فإن قنع واقتصد أتاه رزقه، وإن هتك الحجاب لم يزد في رزقه».

وقال أكثم بن ضيفي: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى، والثروة والقناعة على ثلاثة أوجه:

فالأول: أن يقنع الإنسان بالبلغة من دنياه، ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه، وهذا أعلى منازل أهل القناعة.

وقد روي عن مالك بن دينار أنه قال: أزهد الناس من لم تجاوز رغبته من الدنيا بلغته.

وقال بعض العلماء: الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف. وأنشد بعض أهل الأدب، وذكر أنها لعلي بن أبي طالب:

أفادتني القناعة كل عز ... وهل عز أجل من القناعة
فصيّرها لنفسك رأس المال ... وصير بعدها التقوى بضاعة
تحرز حين تغنى عن لئيم ... تنعم في الجنان بصبر ساعة

الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط أحوال المقتنع.

وقال بعض الحكماء: طلب ما فوق الكفاية إسراف وينشد:

/إن القناعة والعفاف ... ليغنيان عن الغنى [٣٤]
فإذا صبرت عن المنى ... فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف إلى ما سنح فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً وهذا الحال أدنى أهل المنازل القناعة.

وفي مثلها قد حكي عن ذي النون المصري[١] أنه قال: من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاءه مما فاته استراح بدنه، ومن رضي بما رزقه الله قرت عينه».

وعن أبي حازم الأعرج أنه قال: وجدت الدنيا شيئين: شيء هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة أهل السماوات والأرض، وشيء هو لغيري وذلك مما لم أنله فيما مضى ولا أناله فيما بقي، يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني، ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا، ولم يقتر عليهم حتى يسئلوا». والله سبحانه نسأله أن يحسن لنا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع.

وأما الدواء الذي يكسب القناعة ويزول الحرص به:

فهو مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومن مجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق بالانفاق، فمن أراد عز القناعة فليقتصر في جميع أحواله على ما لا بد منه، بل إن كان وحده ينبغي أن يقنع بثوب واحد خشن، ويقنع بأي طعام وجد / ويقلل من الإدام ما أمكنه ويوطن نفسه عليه. وإن كان له عيال فليرد كل واحد منهم إلى هذا القدر، فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد، ويمكن معه الإجمال في الطلب، والاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق إذ قال ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[٢]. وقال أيضاً: «ما عال ـ أي افتقر ـ من اقتصد»[٣]. [٣٥]

---

(١) هو: ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي، يُكْنَى أبا الفيض، ويقال: أبا الفياض، شيخ الديار المصرية الزاهد، ولد في أواخر أيام المنصور. قال السلمي: حملوه على البريد من مصر إلى المتوكل ليعظه في سنة (٢٤٤)، وكان إذا ذكر بين يدي المتوكل أهل الورع بكى، واختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة (٢٤٥) وقيل: سنة (٢٤٨). (سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٣٢ بتصرف).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظِ مقتصد.

وقال: «ثلاثة منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب»(١).

وروي أن رجلاً أبصر أبا الدرداء وهو يلتقط حباً من الأرض وهو يقول: إن من فقهك قصدك في معيشتك.

وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ وسلم قال: «الاقتصاد، وحسن السمت، والهدى الصالح، جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة»(٢).

وفي الخبر: «التدبير نصف المعيشة»(٣).

وقال عليه السلام: «من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله»(٤).

وقال: «إذا أردت أمراً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً»(٥). والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الإضطراب لأجل الاستقبال ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقيق بأن الرزق الذي قدر له لا بد أن يأتيه وإن لم يشتد حرصه عليه. وينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى.

إذ قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾(٦). ويقال: الاهتمام بما لم يكن بلاء كائن وفي مثل ذلك قيل:

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ٢٣٥): رواه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) وقال في المصدر نفسه: رواه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير، وقال: «السمت الصالح» وقال: «من خمسة وعشرين» وقال ورواه الترمذي وحسنه من حديث عبد اللّه بن سرجس وقال: «التؤدة» بدل: «الهدى الصالح»، وقال: «من أربعة».

(٣) وقال في المصدر السابق أيضاً: رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين.

(٤) وقال في المغني أيضاً (٣/ ٢٣٦): رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد اللّه دون قوله: «ومن ذكر أحبه الله» وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي شيخ شلا يعرف حاله أتى بخبر منكر ـ أي هذا الحديث ـ ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد: «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله».

(٥) وقال العراقي في المصدر السابق أيضاً: رواه ابن المبارك في البر والصلة.

(٦) سورة هود الآية: ٦.

وَمَن يُنفِق السَّاعَاتِ في جَمْعَ مَالِه مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي صَنَعَ[(١)] الْفَقْرُ

وقد قال عليه السلام لابني خالد: «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قمش، ثم يرزقه الله»[(٢)].

[٣٦] / ويروى أنه ﷺ مَرَّ بابن مسعود وهو حزين فقال له: «لا تكثر همتك ما قدر لك يكن وما ترزق يأتيك»[(٣)].

وقال: «أيها الناس اجملوا في الطلب؛ فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له منها وهي راغمة، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلاَّ بحسن ثقته، بتدبير الله في تقدير أرزاق العباد»[(٤)] وإن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله العبد من حيث لا يحتسب أكثر، فإن انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه من أجله.

وقد قال عليه السلام: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلاَّ من حيث لا يحتسب»[(٥)]. وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال: بزاد الحاج. قلت: فإذا صدروا. فبكى فقال: لو لم نعش إلاّ من حيث ندري لم نعش.

وقيل لحكيم: من أين تنفق؟ فقال: لو علمت ذلك لنفد. وقال رجل لأبي حازم: إنك فقير. فقال: كيف أكون فقيراً ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. فقال: أتراه يلقى عليك الخبز من السماء. فقال: لو لم تكن الأرض له لكان يلقى عَلَيَّ الخبز من السماء. فقال رجل: لا أقوى على مجادلتك. فقال أبو حازم: كذلك الباطل لا يقوى على الحق فهذا دواء القناعة من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان (وإنذاره)[(٦)] بالفقر، قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[(٧)] الآية.

---

(١) في إحياء علوم الدين (٣/٢٣٨): فعل.

(٢) قال العراقي في هامش المصدر السابق: رواه ابن ماجة من حديث حبة، وسواء ابني خالد.

(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافري مرسلاً.

(٤) قال العراقي في المغني (٣/٢٣٢): رواه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح إسناده.

(٥) قال العراقي في المغني (٣/٢٣٦): رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بإسناد واه، ورواه ابن الجوري في الموضوعات.

(٦) ما بين القوسين من إحياء علوم الدين (٣/٢٣٦) والفقرة بأكملها فيه.

(٧) سورة البقرة الآية: ٢٦٨.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل، فإن تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته في القناعة؛ لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في / القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول وهذا ألم لا يطلع عليه [٣٧] أحد وفيه ثواب الآخرة.

وأما ذل الطمع وتعب الحرص: فهو مما يظهر للناس وفيه الوبال والإثم، وفوت عز النفس، والعجز عن إقامة الحق، فإن من كثر حرصه وطمعه كثرت حاجته إلى الناس فلا تمكنه دعوتهم إلى الحق وفي ذلك المداهنة وهلاك الدين. ومن لا يؤثر عز النفس عن شهوات البطن فهو ركيك العقل ضعيف الإيمان إذ قال ﷺ: «عز المؤمن استغناءه عن الناس»[١].

وفي الخبر: «ما استغنى أحد بالله إلا افتقر إليه الناس». فقيل: استغن بالله فكل امرء أصبحت ترجوه فقير إليك.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى، وأرذال الناس، والحمقاء، والسفهاء، ومن لا دين له ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت، الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويستمع أحاديثهم ويتطلع أحوالهم ويخير عقله بأن يكون على شبه أرذال الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله تعالى. حتى يهون عليه بذلك الصبر على القليل والقناعة باليسير فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعم في الجماع فالخنزير أعلى رتبة منه ـ فيما قيل ـ، وإن تزين باللباس ففي اليهود والروم والسفهاء من هو أعلى رتبة منه وإن قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء وبالله التوفيق[٢].

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما تقدم في أفات المال، وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلو اليد منه من الأمن والفراغ مع الحبس يوم القيامة في الموقف عن باب الجنة خمس مائة / عام. فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه التحق بزمرة الأغنياء ويتم [٣٨] ذلك بأن ينظر أبداً إلى من هو دونه في الدنيا.

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ٢٣٧): رواه الطبراني في الأوسط والحاكم وصحح إسناده أبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعيم في الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبي ﷺ في أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعي في مسند الشهاب من قول النبي ﷺ.

(٢) الفقرة بالنص في الإحياء (٣/ ٢٣٧).

وقد روي عن أبي ذر رحمه الله أنه قال: أوصاني خليلي: أن انظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي[(١)]. ـ يعني في أمر الدنيا ـ فهذه الأمور تكسب القناعة وعماد الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أياماً قليلة هو سبب التمتع دهوراً لا غاية لها فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طعمه في انتظار الشفاء[(٢)]، وذلك لا يتم إلا بعون الله وتوفيقه، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك بمنة وكرمه وفضله إنه أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذم الغضب

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[(٣)]. ذم الله الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنعم من السكينة.

وفي الحديث أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل يدخلني الجنة وأقلل، قال: «لا تغضب»[(٤)].

وعن ابن عمرو أنه سأله عليه السلام فقال: ماذا ينقذني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب»[(٥)].

وعن ابن مسعود عنه عليه السلام أنه قال: «ما تعدون الصرعة فيكم؟». قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: «ليس ذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»[(٦)].

وفي حديث آخر: «ليس الشديد بالصرعة إنما من كفا غضبه ستر الله عورته».

وقال بعض البلغاء: من رد غضبه هَدّ من غضبه.

وعن داود أو سليمان عليهما السلام: ـ الشك مني ـ أنه قال: يا بني إياك وكثرة الغضب؛ فإن كثرة الغضب / تستخف فؤاد الرجل الحليم. [٣٩]

---

(١) قال العراقي في المغنى (٣/٢٣٧): رواه أحمد، وابن حبان في أثناء حديث.

(٢) الفقرة بنصها في إحياء علوم الدين (٣/٢٣٧).

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٦.

(٤) أطراف الحديث عند: البخاري (٨/٣٥)، والترمذي (٢٠٢٠)، أحمد (٢/١٧٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٠٥)، الحاكم (٣/٦١٥)، وقال العراقي في المغني (٣/١٦١) رواه البخاري.

(٥) قال العراقي في المغني (٣/١٦١): رواه الطبراني في مكارم الأخلاق، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد، وأن عبد الله بن عمرو هو السائل.

(٦) قال العراقي في المصدر السابق: رواه مسلم.

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّداً وحَصُوراً﴾[(١)]. قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب.

وعن أبي الدرداء قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: «لا تغضب»[(٢)].

وعن يحيى بن زكريا أنه قال لعيسى عليهما السلام: لا تغضب. قال: لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر. قال: لا تقتن مالاً. قال: هذا عسى.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»[(٣)]. وعنه أيضاً أنه قال: «ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم»[(٤)]. وقال رجل: أي شيء أشد من جهنم؟ قال: «غضب الله». قال: فما يبعدني من غضب الله؟ قال: «أن لا تغضب»[(٥)].

وعن الحسن أنه قال: «يا ابن آدم كلما غضبت وثبت يوشك أن تثب وثبة فتقع في النار.
وعن ذي القرنين رحمه الله: أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً ازداد به إيماناً ويقيناً. قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فردّ الغضب بالكظم وأسكنه بالتؤدة وإياك والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً.

وعن وهب بن منبه أن راهباً كان في صومعة فأراد الشيطان أن يضله فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه فقال: افتح، فلم يجبه. فقال: افتح فإني إن ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه. فقال: أنا المسيح. فقال الراهب: وإن كانت المسيح فما أصنع بك، ألست أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة، فلو جئتنا اليوم بغير ذلك لم نقبله منك. قال: فقال: إني[(٦)] الشيطان وقد أردت أن أضلكم فلم استطع فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك. قال: ما أريد أن أسألك عن

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣٩.
(٢) قال العراقي في المغني (٣/ ١٦١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير، والأوسط بإسناد حسن.
(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف.
(٤) وقال العراقي في المصدر السابق: رواه البزار، وابن عدي من حديث ابن عباس: للنار باب لا يدخله إلاّ من شفي غيظه بمعصية الله وإسناده ضعيف.
(٥) قال العراقي في المغنى (٣/ ١٦٢): رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر وبالشطر الأخير منه، قال أيضاً: رواه الطبراني في مكارم الأخلاق، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد، وأن عبد الله بن عمرو هو السائل.
(٦) في الأصل: «إنه هو» والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٢).

[٤٠] شيء. قال: فولى مدبراً. فقال له الراهب: ألا تسمع؟ / قال: بلى. قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدة، إن الرجل إذا كان حديداً قلبناه كما تقلب الصبيان الكرة.

وقال بعض العلماء: إن الشيطان يقول: وكيف يغلبني ابن آدم؟ فإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه.

وعن جعفر بن محمد أنه قال: الغضب مفتاح كل شيء. وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة، وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم [و][(١)] الحلم، زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة والسكوت عن الأحمق جوابه.

وعن مجاهد أنه قال: قال إبليس: ما أعجزني بنوا آدم ولم يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامتيه، وقدمناه حيث شئنا وعمل لنا بما أجبنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه، ونمنيه بما لا يقدر عليه.

وقيل لحكيم: ما أملك فلاناً لنفسه؟! فقال: إذاً لا تذله الشهوة، ولا يصرعه الهوى، ولا يغلبه الغضب. وقال بعضهم: إياك وغرة الغضب فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار. وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله: أن لا تعاقب عند غضبك فإذا غضبت على رجل فاحبسه، وإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً.

وقال بعض السلف لابنه: يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحي في [٤١] التنور المسجود، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدنيا كان داهياً / مكراً وإن كان للآخرة كان علماً وحلماً.

ويقال: الغضب عدو العقل، والغضب غول العقل. وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب يقول في خطبته: أفلح منكم من حفظ عن الهوى والطمع والغضب. وقال بعض العلماء: من أطاع غضبه وشهوته، أدياه إلى النار.

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من إحياء علوم الدين الموضع السابق.

وقيل: إنه قيل لابن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. فقال: ترك الغضب.

ويروى أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لمن معه: من تكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا. ووفىّ له فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل في قول بعضهم: سمي به لأنه؛ تكفل بترك الغضب فوفىّ به. وعن وهب بن منبه أنه قال: للكفر أربعة أركان: الغضب والشهوة والخرق والطمع[١].

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله سبحانه لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والموتان بأسباب في داخل بدنه، وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحيمه من الهلاك والفساد إلى وقت الأجل المعلوم.

أما السبب الداخل: فهو أنه[٢] ركبه من الرطوبة، والحرارة، فهما متعاديتان متضادتان، والحرارة تجفف الرطوبة حتى تتغشى أجزاءها، وتصير بخاراً يتصاعد منها، ولو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما أنحل من أجوائها لفسد الحيوان. فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعث على تناول الغذاء كالموكل به في جبر ما انكسر وتحلل ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب[٣].

وأما الأسباب الخارجة: فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها / فافتقر إلى [٤٢] قوة وحمية تثور من باطنه، فيدفع بها المهلكات عنه، فخلق الله الغضب فعجنه بطينة الإنسان فمتى قصد بمكروه اشتعلت نار الغضب، وثارت ثوراناً يغلي بها دم القلب وينتشر من العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر.

فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة بصفائها تحكي لون ما ورائها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها وإنما ينصب الدم إذا غضب على من دونه، واستشعر القدر عليه. فإن صدر الغضب عَمَّن فوقه وكان معه إياس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجسد إلى جوف القلب وصار جزعاً، ولذلك يصفر اللون وإن كان على نظير شك فيه تولد منه تردد من انقباض، وانبساط فيحمّر ويصفر ويضطرب وبالجملة فقوة الغضب

---

(١) الفقرة بتمامها في إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٢: ١٦٣).

(٢) في الأصل: «أن». والتصويب من المصدر السابق.

(٣) راجع السبب الداخل بنصه في المصدر السابق.

محلها القلب، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها. فالانتقام قوة هذه القوة وهي على درجات ثلاث: في أول الفطرة من التفريط، والإفراط والاعتدال.

أما التفريط: ففقده هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه لا حمية له. ولذلك قال الشافعي: من استغضب ولم يغضب فهو حمار ومن استرضى ولم يرض فهو شيطان؛ لأن من فقد قوة الغضب والحمية، فهو ناقص جدّاً وقد وصف الله تعالى الصحابة بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾[1]. وقال لنبيه عليه السلام: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[2] الآية. وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

[٤٣] **وأما الإفراط**: فهو أن تغلب عليه هذه الصفة /حتى يخرج من سياسة العقل والدين فمهما اشتدت نار الغضب اعمت صاحبها وأصممته عن كل موعظة ولا تبقي للمرء معها بصيرة فإذا وعظ لم يسمع بل زاده الغضب عماً وصمماً، وإن استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفىء نور العقل بدخان الغضب.

فإن معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدماغ مظلم يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه وتسود الدنيا بأسرها ويكون دماغه مثل كهف أضرمت فيه نار فاسوَّد وجهه وحمي مستقره وامتلأت بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف، وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً؛ إذ في السفينة من يحتال لتسكينها.

وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فيتشقق، وتَتَهَدّ أعاليه على أسافله، فهكذا حال القلب مع الغضب.

وأما آثار الغضب في الظاهر: فانقلاب صورته، وتغير وجهه، وارتعاد أطرافه، وانطلاق لسانه بما يستحيى من ذكره، وخفة عقله ووثوبه من مجلس كأنه نمر، وسرعة إلتفاته يميناً وشمالاً كأنه قرد، وعدم فهمه ما يسمع كأنه بهيمة، وقلة التفاته إلى من يعظه كأنه أحمق، ولو رأى الغضبان قبح صورته في حال غضبه لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته.

[٤٤] وفي كتاب سراج الملوك قال: /وكان سبب موت مروان بن عبد الملك وقع بينه وبين

(١) سورة الفتح الآية: ٢٩.

(٢) سورة التحريم الآية: ٩.

أخيه سليمان بن عبد الملك كلام فعجّل عليه سليمان فقال: يا من يلحق أمه. ففتح فاه ليجيبه فأمسك عمر بن عبد العزيز على فيه وردّ كلامه وقال: يا ابن عبد الملك أخوك وإمامك. قال: قتلتني يا أبا حفص. قال: وما صنعت بك؟ فقال: رددت في جوفي أحرّ من الجمر، ثم مال بجنبه فمات من وقته.

وأما أثر الغضب في القلب مع المغضوب عليه: فالحقد، والحسد، وإضمار السوء والشماتة بالمساءات، والحزن بالمسرات، والعزم على إفشاء السر، وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح فهذه ثمرة الغضب المفرط[١].

وأما ثمرة الضعيف الغضب[٢] فقلة الأنفة من التعرض للحرم والزوجة والأم واحتمال الذل من الأخساء، وهو أيضاً مذموم إذْ من ثمرته عدم الغيرة على الحرم.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إن سعداً لغيور وأنا أغْيَر من سعد والله أغير منا»[٣]. وقيل: لأجل ذلك حرم الفواحش، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب إذ لو تسامح الناس فيها لاختلطت الأنساب.

ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها، ومن ضعف الغضب أيضاً الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات. وقد قال عليه السلام: «خير أمتي أحدّاؤها»[٤] يعني في الدين.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَـأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾[٥]. بل من فقد الغضب عجز من رياضة نفسه؛ لأن الرياضة إنما تثمر بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقد الغضب مذموم والله أعلم. وقال بعض العلماء: أول الغضب جنون / وآخره ندم. وفي الحكمة: من أطاع الغضب حرم السلامة ومن عصى الحمق [٤٥] غمره الذل.

---

(١) راجع هذه الفقرة في المصدر السابق.

(٢) في الإحياء الحمية الضعيفة، (٣/ ١٦٤).

(٣) قال العراقي في المغني (٣/ ١٦٤): رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه.

(٤) قال العراقي في المغني (١٣/ ١٦٥): الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بسند ضعيف، وزاد: الذين إذا غضبوا رجعوا.

(٥) سورة النور الآية: ٢.

وأما الاعتدال في الغضب: فهو الذي ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفىء حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عبادة وهو الوسط الذي وصفه عليه السلام حيث قال: «خير الأمور أوسطها»(١).

وقد قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٢). وقال أيضاً: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

ويروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني لا تكن حلواً عند السفهاء فيبتلعونك ولا مُرّاً عند الفقهاء فيرفضوك.

وفي المثل: لا تكن رطباً فتعصر ولا يابساً فتكسر إشارة إلى وسط الأمور، فمن مال غضبه إلى الفتور والضعف حتى أحس من نفسه ضعيف الغيرة، واحتمال الذل في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوي غضبه ومن مال غضبه إلى الإفراط جره إلى التهور، واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه ليكسر من فوره الغضب ويقف على الأوسط بين الطرفين وهو الصراط المستقيم وهو أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف فهذه حقيقة الغضب ودرجاته.

فصل

وأما هل يمكن إزالة الغضب بالرياضة فقد اختلف في ذلك، ولكن الحق فيه، ما نذكره وذلك أن الذي يغضب الإنسان من أجله ثلاثة أقسام:

أحدهما: ما هو ضرورة في حق الكافة وهو القوت، المسكن والملبس وصحة البدن، فمن قصد بدنه بالضرب أو الجرح فلا بد أن يغضب، وكذلك ما يواري عورته أو يسد جوعته، أو إخراج من داره لا يخلو الإنسان من غيظ على / من أخذ منه هذه الأشياء. [٤٦]

الثاني: ما ليس بضروري كالجاه وفضول المال، فإن الزاهد في الدنيا ربما لا يغضب إذا أخذ منه لعدم حبه له، وأما الراغب فيها فإنه يغضب لأنه محبوب عنده.

الثالث: ما يكون ضرورياً في حق بعض الناس كأدوات الصناع، وكتب العالم، فإن هؤلاء يغضبون إذا أخذت منهم لأنهم بها يتوصلون إلى المكاسب فصارت محبوبة عندهم وهذا

---

(١) قال العراقي في المغني: (٣/١٦٥): رواه البيهقي في الشعب مرسلاً.
(٢) سورة التحريم الآية: ٩.
(٣) سورة الشعراء الآية: ٢١٥.

أيضاً يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «من أصبح آمِنَا في سربه معافاً في بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[١]. ومن كان بصيراً بحقائق الأمور وسلمت له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها.

وأما إزالة الغضب من القلب: فهو مقتضى الطبع فذلك غير ممكن، وقد كان النبي ﷺ يغضب حتى تحمّر وجنتاه حتى قال: «اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر»[٢] وعن علي بن أبي طالب أنه قال: كان عليه السلام لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يقربه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له فكان لا يغضب إلا على الحق[٣].

ونعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره، فإن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عداه، وهذا كما حكي أن سلمان رحمه الله لما شُتم قال: إن خَفَّت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول فكان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتألم قلبه بالشتم.

ولذلك شُتم الربيع بن خيثم، فقال: يا هذا قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعتها لم يضرني/ ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول. وروي أن رجلاً [٤٧] سبّ أبا بكر رضي الله عنه فقال: ما ستر الله عنك أكثر. فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه فلم، يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان وذلك لجلالة قدره.

وروي أن امرأة قالت لمالك بن دينار: يا مرائي. فقال: ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء فلم يغضب لما نسب إليه. فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا؛ لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم، ويحتمل أن يكون قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به والله أعلم[٤].

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/١٦٦): رواه الترمذي، وابن ماجة من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله «بحذافيرها» قال الترمذي حسن غريب.

(٢) قال العراقي في المغني (٣/١٦٧): رواه مسلم من حديث من جابر: كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، وللحاكم: كان إذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه.

(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه الترمذي في الشمائل.

(٤) راجع هذه الآثار في إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١٦٧).

فصل: فيما يهيج الغضب

وروي أن يحيى قال لعيسى عليهما السلام: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما يقرب من غضب الله؟ قال: أن تغضب. قال: فما يبدي الغضب؟ قال عيسى: الكبر، والفخر، والتعزز، الحمية.

وأما الأسباب التي تهيج الغضب فهي الزهو، والعجب، والمزح، والهزل، والهزء، والتعيير، والمماراة، والمضارة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق ردية مذمومة شرعاً، فلا خلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالتها بأضدادها. فينبغي أن يميت الزهو: بالتواضع، ويميت العجب بالمعرفة بنفسه، ويزيل الفخر بأنه من جنسه عبده، إذا الناس يجمعهم في النسب آدم عليه السلام وإنما اختلفوا في الفضل.

وأما المزح: فيزيله بالاشتغال بالمهمات الدينية التي يستوعب العمر دونها.

وأما الهزل فيزيله: بالجد في طلب الفضائل والعلوم الدينية.

[٤٨] وأما الهزء: فيزيله بالتكرم عن إيذاء / الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ به.

وأما التعيير: فبالحذر عن القول القبيح.

وأما شدة الحرص على فضول العيش: فيزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وهكذا كل خلق رديء يزال بضده ويفتقر في ذلك إلى رياضة وتحمل مشقة، حتى يصير بالعادة مألوفاً هيناً على النفس[١] والله أعلم.

فصل: في علاج الغضب

اعلم أن الغضب إنما يعالج عند هيجانه، بمعجون العلم والعمل، أما العلم فهو خمسة أمور:

أحدها: أن يتفكر من الأخبار التي تأتي من فضل كظم الغيظ والحلم ويرغب في ثوابها فيمنعه عن التشفي والانتقام وينتفي غضبه.

وعن مالك بن أوس قال: غضب عمر على رجل وأمر بضربه، فقلت: يا أمير المؤمنين ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾[٢] وكان وقَّافاً[٣] على كتاب الله مهما تلي عليه، كثير التدبر فيه،

---

(١) راجع هذه الأسباب بشيء من التفصيل في كتاب إحياء علوم الدين (٣/١٦٨).

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٣) في الأصل: «واقفاً» وهو تحريف.

فتدبرها وخليَّ الرجل. قال: وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم تلى قوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[١]. قال لغلامه: خلّ عنه.

الثانية: أن يخوف نفسه بعذاب الله تعالى، وقد روي أن الله سبحانه يقول في بعض الكتب: يا ابن آدم اذكرني حيث تغضب أذكرك حيث أغضب فلما أمحقك فيمن أمحق.

ويروى أن النبي ﷺ بعث وصيفاً إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال: «لولا القصاص لأوجعتك»[٢] أي القصاص في القيامة.

قيل: لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة وفيها: أرحم المساكين واخش الموت واذكر الآخرة فكان يقرأها حتى يسكن غضبه.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام، وتشمر العدو بمقابلته، والسعي في هدم / أغراضه والشماتة بمصائبه، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة، وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب، وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه إلا أن يكون محذوره أن يشوش فراغه للعلم أو للعمل للآخرة فيكون مثاباً عليه. [٤٩]

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند غضبه، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومشابهة التارك للغضب للأنبياء، والحكماء، ويخير نفسه بأن يشبه الكلاب والسباع وأراذل[٣] الناس، وبين أن يشبه الأنبياء والعلماء ليميل بالاقتداء إليهم إن كان قد بقي معه مسكة من عقل.

الخامس: أن يتفكر من السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان له: إن هذا عمل منك بالعجز والمهانة تصير به حقيراً في أعين الناس، فليقل لنفسه: ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين، من خزي يوم القيامة أفلا تحب أن تكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة: ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفي فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يقرره على نفسه.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٣٤.
(٢) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/١٦٩): رواه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف.
(٣) في الأصل: «أرذال». والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/١٦٩).

وأما العمل فبأن يقول بلسانه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهكذا أمر النبي ﷺ أن يقول عند الغضب[١].

ويروى أنه عليه السلام كان إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: «يا عويش قولي اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي، واذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن»[٢].

ويستحب أن يقول ذلك، فإن لم يزل بذلك فليجلس إن كان قائماً وليضطجع إن كان جالساً وليقرب من الأرض التي منها خلق؛ [٥٠] /ليعرف بذلك ذل نفسه وليطلب بالجلوس والاضطجاع السكوت فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الغضب جمرة تتوقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ أحدكم بالماء البارد وليغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء»[٣].

وعنه أيضاً قال: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإن الغضب من النار»[٤]. وفي رواية أخرى: «إن الغضب من الشيطان وأن الشيطان خلق من نار وإنما تطفىء النار بالماء».

وروي أن عمر رضي الله عنه غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب. وقال بعض الحكماء: داووا الغضب بالكسوت وروي عن عوف بن محمد قال: لما استعملت على اليمن قال لي أبي: أوليت؟ قلت: نعم. قال: إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم انظر إلى خالقهما. وروي أن أباذر قال لرجل: يا ابن الحمراء من خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عيّرت رجلاً بأمه». قال: بلى، فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه. فذكر

---

(١) كذا في الأصل وفي إحياء علوم الدين: الغيظ، وقال العراقي تعليقاً على الحديث: متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه. الحديث.. وفيه: لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد، فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. الحديث.

(٢) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧٠): رواه ابن السني في اليوم والليلة من حديثها.

(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله: «توقد» وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب.

(٤) وقال في المصدر نفسه: رواه أبو داود من حديث عطية السعدي.

ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر ارفع رأسك وانظر، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل» ثم قال: «إذا غضبت فإن كنت قائماً فاضطجع»(١).

وعن المعتمر بن سليمان أنه قال: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد عليه غضبه فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة منها رجلاً وقال الأول: إذا غضبت فاعطني / هذه. [٥١] وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فأعطني هذه. وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فاعطني هذه فاشتد غضبه يوماً، فأعطي الصحيفة الأولى فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب؟ إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً، فسكن بعض غضبه. فأعطي الثانية: فإذا فيها: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. فأُعطىٰ الثالثة فإذا فيها: خذ الناس بحق الله؛ فإنه لا يصلحهم إلاَّ ذلك أي لا تعطل الحدود. قال: وغضب المهدي يوماً على رجل، فقال: شبيب لا تغضبن؛ لله بأشد من غضبه لنفسه. فقال: خلوا سبيله(٢).

فصل: في فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾(٣). فذكر ذلك في معرض المدح وعن النبي ﷺ أنه قال: «من كف غضبه كف الله عنه عذابه، ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره، ومن خزن لسانه ستر الله عورته»(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «أشدكم من غلب نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا بعد القدرة»(٥).

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧١): رواه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح، وفي الصحيحين من حديثه قال: كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكاني إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية» ولأحمد أنه ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى» ورجاله ثقات.

(٢) راجع الباب بأكمله في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١٦٩ : ١٧١).

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣٤.

(٤) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧١): رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي وفي شعب الإيمان واللفظ من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر: من ملك غضبه وقاه الله عذابه الحديث.

(٥) قال العراقي في المصدر السابق: رواه ابن أبي الدنيا من حديث على بسند ضعيف، والبيهقي في الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمٰن بن عجلان مرسلاً بإسناد جيد، وللبزار، والطبراني في مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم أملككم لنفسه عن الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه.

وعنه عليه السلام: «من كظم غيظاً لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً»[١]. وفي رواية أخرى: «ملأ الله قلبه أمنا وإيماناً».

وعن ابن عمر عنه عليه السلام قال: «ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»[٢]. وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كظم غيظه وهو يقدر[٣] على أن ينفذ دعاه الله على / رؤوس الخلائق يختار أي الحور شاء». [٥٢]

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفعك معيشتك.

وقال بعض العلماء: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً ويقال: أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع قال: وشتم رجل بعض العلماء فقال: لست أدخل في حرب الغالب فيها شر من المغلوب.

ويروى أن رجلاً قال لأبي ذر رحمه الله: أنت الذي نفاك معاوية من الشام لو كان فيك خير ما نفاك. فقال: يا ابن أخي إن من ورائي عقبه كؤد إن نجوت منها ما ضرني ما قلت، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت. وقال رجل لأحنف بن قيس: لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً.

فقال الأحنف: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع مِنّي واحدة. قال: وسبَّ رجل بعض الحكماء فاعرض عنه. فقال: إياك عَنّي. فقال له الحكيم: وعنك أعرض. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

قل مَا بَدَا لَكَ من زور ومن كذبٍ حِلَمـي أعـم وأذنـي غيـرُ صَمّـاءِ

---

(١) وقال أيضاً عن هذه الحديث: رواه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر، وفيه سكين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان، وأبو دواد بالراوية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم.

(٢) وقال العراقي أيضاً عنه في نفس المصدر: حديث ابن عمر. . . رواه ابن ماجه.

(٣) في الإحياء (١٤٦/٣، ١٧٢): «قادر». وقال العراقي في المغني بهامش الرقم الأول: رواه أبو داود، والترمذي وحسنه، وابن ماجة من حديث معاذ بن أنس.

وقيل لعمر بن عبيد: إن فلاناً نال منك. فقال: الموت يعمنا، والحشر يضمنا، والقيامة تجمعنا، والرب يقضي بيننا.

ويروى أن امرأة كانت تغزل، فجاءت صبية فقطعت لها غزلها سبعين مرة، فلم تغضب. فقيل لها في ذلك فقالت: يجزيني الله فأجتهد حتى أكون من الصالحات.

ويروى أن عيينة بن حصن كان له ابن أخ، وكان عمر رضي الله عنه يدنيه، فدخل عيينة يوماً مع ابن أخيه على عمر. فقال عيينة: والله ما تقضي بالعدلِ ولا تعطي الجزل.

/ فغضب عمر حتى عرف الغضب في وجهه، فقال ابن أخي عيينة: يا أمير المؤمنين ألم [٥٣] تسمع قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١]. فقال عمر: صدقت، فكأنما كنت[٢] ناراً فاطفئت. وقال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله، إذا رضيَ لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

ويروى أن رجلاً قال لسلمان رحمه الله: يا أبا عبد الرّحمٰن أوصني. فقال: لا تغضب. قال: لا أقدر. قال: فإن غضبت فأمسِكَ لسانَك ويدك[٣] والله أعلم.

فصل: في فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم: وهو تكلف الحلم بالمجاهدة حتى يكون له ذلك عادة، فإذا هاج غيظه لم يكن عليه في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل، وإنكسارة قوة الغضب، وخضوعها له، ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكلف.

وقد قال عليه السلام: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه»[٤]. أشار بهذا أن اكتساب الحلم طريقة التحلم. أولاً وتكلفه، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم. وقيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك؟! فقال: لست بحليم ولكني أتحلم،

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٢) في الإحياء: كانت (٣/ ١٧٢).

(٣) راجع الباب مختصراً في إحياء علوم الدين الموضع السابق.

(٤) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧٢): رواه الطبراني، والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

والله إني لأسمع الكلمة وأحمى لها ثلاثاً وما يمنعني من جوابها إلاّ خوف من أن أسمع شراً منها. وقد قال الشاعر:

وليس يَتِمّ الحلمَ للمرء راضياً إذا كان عندَ السُّخْط لا يتحلَّمُ
كما لا يَتِمّ الجود للمرء موسراً إذا كان عند العسرِ لا يتحشَّم

[٥٤] وعن أكثم بن صيفي أنه قال: لا يكون الرجال حليماً حتى يقول السفيه / إنه لضعيف مستذل، ولا يكون مخلصاً حتى يقول الأحمق إنه لمفسد. ويقال إن[1] أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا أَصَبْتَ حَلِيماً أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ
فَتُصْبِحُ أَمَّا نَالَ عِرْضَكَ جَاهِلٌ سَفِيهٌ وَإِمَّا نِلْتَ مَا لاَ تُحَاوِلُ

فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد. وعن سفيان ابن عيينة أن النبي ﷺ قال: «لما نزلت عليّ هذه الآية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾. قال: «يا جبريل: ما هذا؟». قال: لا أدري حتى أسأل العليم، ثم عاد جبريل فقال: يا محمد إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك وتُعطِيَ من حَرَمَك وتعفو عمن ظلمك.

وروي أنه قال: «لما تركت الآية قال جبريل: يا محمد إني أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[2]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر»[3].

وعنه أيضاً أنه قال: «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم، وإنه ليكتب جباراً وما يملك إلا أهل بيته»[4].

وعنه أيضاً أنه قال: «إن الله يحب الحليم الحَيِيَّ ويبغض الفاحش البذيء»[5] وعن

---

(١) في الأصل: من وأحسبه تحريف من الناسخ.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.
(٣) قال العراقي في المغني (٣/١٧٣): رواه أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده، والترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد: النكاح.
(٤) وقال العراقي المغني في الموضع السابق: رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف.
(٥) أورد الغزالي في الإحياء أتم منه (٣/١٧٤) وعلق عليه العراقي بهامشه فقال: رواه الطبراني من حديث سعد: إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي.

علي بن أبي طالب أنه قال: من حلم ساد، ومن تفهم ازداد. وقال بعض العلماء: من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم، وينشد:

أحب مكارمَ الأخلاقِ جُهدي ... وأكرهُ أن أَعِيبَ وأَنْ أُعَابَا
وَأَصْفَحُ عَن سِبَابِ النَّاسِ حِلْماً ... وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوىَ السِّبَابَا
وَمَن هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوه ... وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا

ويروى أن بعض السلف من المسلمين قال: اللهم ليس عندي / صدقة أتصدق بها فأيما [٥٥] رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليَّ صدقة. فأوحى الله إلى النبي ﷺ: أنه غفر له»[١].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم». قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: «رجل ممن كان قبلكم إذا أصبح يقول: اللهم إني أتصدق اليوم بعرضي على عبادك»[٢]. وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾[٣]. أي علماء حكماء. وحد الحلم ضبط النفس عند هجيان الغضب وهذا يكون لباعث وسبب. وأسباب الحلم الباعثة عن ضبط النفس عشرة:

أحدها الرحمة للجاهل: وذلك من خير يوافق رقة. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[٤]. قال: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وعن عطاء بن أبي رباح في قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾. أي حلماء.

وعن مجاهد في يقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾[٥]. أي إذا أوذوا صفحوا.

ويروى أن ابن مسعود رحمه الله مرّ بلغو معرضاً، فقال عليه السلام: «أصبح ابن مسعود

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧٣): رواه أبو نعيم في الصحابة، والبيهقي في الشُعب من رواية عبد المجيد بن أبي عيسى بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين، زاد البيهقي عن علية بن زيد، وعلية هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً من المسلمين ولم يسمه ـ وقال أظنه أبا ضمضم ـ قلت: وليس بأبي ضمضم وإنما هو علية بن زيد، أبو ضمضم ليس له صحبة وإنما هو متقدم.

(٢) طرفه في: موضع أوهام الجمع والتفريق للبغدادي (١/ ٢٧).

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧٩.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٦٣.

(٥) سورة الفرقان الآية: ٧٢.

وأمسى كريماً»[1] ثم تلى إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي فيما قيل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾. وقيل في منثور الحكم: من أوكد الحلم رحمة الجهال.

ويروى أن رجلاً سَبَّ الأحنف وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل، وقف الأحنف وقال: يا هذا إن كان بقي معك شيء فقله هاهنا؛ فإني أخاف أن يسمعه فتيان الحي فيؤذوك.

وعن أبي الدرداء أنه قال للرجل وقد اسمعه كلاماً: يا هذا لاتفرقن في سبنا ودع للصلح موضعاً؛ فإنا لا نكافىء مَنْ عصَى فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه. قالوا: واغتاظت عائشة رضي الله عنها على خادم لها / ، ثم رجعت إلى إلى نفسها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء. [٥٦]

والثاني من أسباب الحلم القدرة على الانتصار: وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة.

وقد روي أن النبي ﷺ قال: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه».

وقد روي أن معاوية قسَّم قطفاً، فأعطى شيخاً من أهل ذي مشق قطيفة فلم تعجبه، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية، فأتاه فأخبره، فقال معاوية: أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ.

والثالث من أسبابه الترفع عن السباب: وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تتحمل المكاره كما تتحمل المكارم. وقد قيل: إن الله عز وجل سمّىٰ يحيى سيدّ الحلمة. قال الشاعر.

لَنْ يَبْلُغَ الْحِلْمَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا ... حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا الأَقْوَام
وَيُشْتَمُوا وَتَرَى الأَلْوَانَ مُسْفِرَةً ... لاَ صَفَحَ ذُلٍّ وَلَكِن صَفح إِكْرام

والرابع من أسبابه الاستهانة بالسباب: وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب، كما حكي عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق وجلس يوماً لعطاء الجند فأمر مناديه فنادى ابن عمر بن جرموز وهو الذي قتل أباه الزبير فقال: أيها الأمير إنه قد باعد في الأرض، فقال: أوظن الجاهل أني اقيده بأبي عبد الله فليظهر آمناً وليأخذ عطاه موفراً. فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر. وفي مثل ذلك قال بعض الشعراء:

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/١٧٣): رواه ابن المبارك في البر والصلة.

أَوَكُلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ طَرَدْتُه   إنَّ الذُّبَابَ إذَا عَلَيَّ كَرِيمُ

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا يُعْتَدَّنّ /بشيء من عمله، تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف السفيه به، [٥٧] وخلق يعيش به في الناس»[١].

الخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب: وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة، قال بعض الحكماء: احتمال السفيه أيسر من التحلي بصورته والأغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال بعض الأدباء: ما أفحش حليم ولا أوحش كريم. وينشد للقيط بن زرارة:

وَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ فَمَالِي وَمَالَكُمْ   تَرَقَّوْنَ مِني مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتَق
اغَرَّكُمْ أَنِي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ   بَصِيرٌ وَأَنّي بِالْفَوَاحِشَ أَخْرَق
وَإِنَّكَ قَدْ فَاحَشْتَنِي فَقَهَرْتَنِي   هَنِيّاً مُرِيئاً أَنْتَ بِالْفُحْشِ أَحْذَق

والسادس من أسبابه التفضّل على السبّاب: وهذا قد يكون من الكرم وحِبّ التألف كما روي أنه قيل للإسكندر: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما، فقال: هما بعد العقوبة اعذر في تنقيصي وثلبي. فكان هذا تفضلاً منه وتألفاً.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان: لا يتبعون فيه العليم[٢]، ولا يستحيون فيه من الحليم، قلوبهم قلوب الأعاجم، وألسنتهم ألسنة العرب».

وروي أنه عليه السلام قال للأشح وقد وفد عليه وكان ذميم الصُّورة، فأناخ راحلته، ثم طرح عنه ثوبين كانا عليه، وأخرج من العيبة ثوبين حسنيين فلبسهما، وذلك بعين رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن جلود الرجال لا يستقى فيها الماء وإنما يحتاج من المرء إلى أصغريه ـ يعني القلب، واللسان ـ فقال عليه السلام: «بلى فيك خصلتان يحبّهما الله ورسوله». قال: وما هيتا؟ قال: «الحلم والأناة». فقال: هذا شيء حدث أم شيء / جُبلتَ عليه؟ فقال: «شيء [٥٨] جبلت عليه»[٣]. فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧٤): رواه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف، والطبراني من حديث أم سلمة بإسنادٍ لين.

(٢) في الأصل: العلم. والتصويب من الإحياء والمغني (٣/ ١٧٣) وقال العراقي رواه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف.

(٣) قال العراقي عن نحوه في المغني (٣/ ١٧٤) متفق عليه.

وقد حكي عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عاداني أحد إلاّ أخذت في أمره بأحد ثلاث خصال: إن كان أعلى مني رفعت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان عديلي تفضلت عليه. فأخذه محمود الوراق، وقيل: الخليل بن أحمد ونظمه شعراً فقال:

سَأُلْزِمُ نَفْسِيَ الصَّفْحَ عَنْ كُلِ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
وَمَا النَّاسُ إلاّ وَاحِدٌ مِنْ ثَلاَثَةٍ ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلِي[1] مُقَاوِمُ
فأمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأعْرِفُ قَدْرَهُ ... وأَتْبَعُ فِيهِ الْحَق والْحَقّ لازمُ
فَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإنْ قَالَ صَنتُ عَنْ ... إجَابَتِهِ عَرْضِي وَإِنْ لاَمَ لاَئِمُ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْهَفَا ... تَفَضَّلْتُ إنْ الْفَضْلَ بِالْحُرِ[2] حَاكِمُ

والسابع من أسبابه استكفاف الساب وقطع السبّاب: فهذا يكون من الحزم كما حكي أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشراً. فقال ضرار: والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة. وعن علي بن أبي طالب أنه قال لعامر بن مرّة الزهري: من أحمق الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس: قال: صدقت فمن أعقل الناس؟ قال: من من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهّال. ويُنشد في الحلم:

وَفِي الْحِلْمِ رَدْعٌ لِلْسَفِيهِ عَنِ الأَذَىٰ ... وَفِي الْخَرْقِ إغْرَاءٌ فَلاَ تَكُ أَخْرَقَا
فَتَنْدَمُ إذْ لاَ تَنْفَعَنَّكَ نَدَامَةٌ ... كَمَا نَدِمَ الْمَغْبُونُ لَمَّا تَفَرَّقَا

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وعن عليّ قال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك[3] ويعظم حلمك، وأن [لا][4] تباهي الناس / بعبادة ربك، فإذا أحسنت حمدت الله، وإذا أسأت استغفرت الله. [٥٩]
وقال أكثم: دعامة العقل الحلم، وجماع الخير الصبر.

والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب: وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقتضاه الحزم. وينشدُ:

لَيْسَ الْحَلِيمُ كَمَنْ فِي أَمْرِهِ خَرَقُ ... أَرْفِقْ إذَا خِفْتَ مِنْ ذِي هَفْوَةٍ خَرَقاً

---

(١) في الأصل: «مثل». والتصويب من الإحياء (٣/ ١٧٥).
(٢) في الإحياء الموضع السابق: «الحلم».
(٣) في الإحياء: علمك. وأحسبه الأصوب والأنسب.
(٤) ما بين المعقوفين من الإحياء (٣/ ١٧٤).

وفي منثور الحكم: الحلم حجاب الآفات.

والتاسع من أسبابه الرعاية ليد سالفة وحرمة لازمة: وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد. وقيل في منثور الحكم: من ظهر غضبه قلّ كيده، وقال بعض الأدباء: غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله. وينشد:

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا ... وَنَشْتِمُ بِالأَفْعَالِ لا بِالتَّكَلُّمِ

والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفُرص الخفية: وهذا يكون من الدهاء والخفية. فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم وبعضها أفضل من بعض، وإنما الأولى بالإنسان أن يدعوه إلى الحلم أفضل أسبابه، وأفضلها ما اجتمع فيه سلامة الدنيا مع ثواب العقبى فإن عَرى الحلم من أحد هذه الأسباب كان ذلاً ولم يكن حلماً لأنه قد تقدم في حدّ الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب فإذا قعد الغضب عند سماع ما يغضب به كان ذلك من ذلك النفس، وقلة الحمية، ولذلك قال لقمان لابنه: يا بُنّي ثلاثة لا يعرفون إلاّ عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب، ولا الشجاع إلاّ عند الحرب، ولا الأخ إلاّ عند الحاجة. قال الشاعر:

/ لَيْسَت الأَحْلاَمُ في حَالِ الرِّضَى ... أَنَّمَا الأَحْلاَمُ فِي حَالِ الْغَضَب [٦٠]

آخر:

مَنْ يَدَّعِي الْحِلْمَ فَأَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَهُ ... لاَ يُعْرَفُ الْحِلْمُ إلاَّ سَاعَةَ الْغَضَب

ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة حتى استوت حالتاه قبل الإغضاب وبعده فقد عدم من فضائل: النفس الشجاعة، والأنفة، والحمية، والغيرة، والدفاع، والأخذ بالثأر لأنها خصال مركبة من الغضب. ويُنشد للنابغة وأنشدها بحضرة النبي ﷺ:

وَلاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ ... بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يَكَدَّرا
وَلاَ خَيْرَ في جَهْلٍ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ... حَلِيمٌ إذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

ويقال: لما أنشدها النابغة قال النبي ﷺ: «لا يفضض الله فاك»[1].

---

(١) قال العراقي في المغني تعليقاً على الحديث (٢/ ٢٧٢): رواه البغوي في معجم الصحابة وابن عبد البر في الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابغة واسمه قيس بن عبد الله قال: أنشدت النبي ﷺ:
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا نرجو فيه فوق ذلك مظهرا
الأبيات. ورواه البزار بلفظ: علونا العباد عفة وتكرما. الأبيات. وفيه: فقال: أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك، وللحاكم من حديث خزيم بن أوس سمعت العباس يقول: يا رسول الله إني أريد أن =

وشكر قوله، فإذا فقد الإنسان ما ذكرنا من الخصال التي هي نتائج الغضب فقد فَقَدَ المهابة، ومن فَقَدَ المهابة كان سفساف الأخلاق رذل الطباع فلا يبقى لسائر فضائله موضعاً.

وقد حكي عن المنصور أنه قال: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة. وقال بعض الحكماء: العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم. وعن عمرو بن العاص أنه قال: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم الثأر والعار. وقال مصعب بن الزبير: ما قل سفهاء قوم إلاّ ذلوا، وأنشد لأبي تمام الطائي:

وَالْحَرْبَ تَرْكَبُ رَأْسَهَا في مَشْهَدٍ عَـدِلَ السَّفِيـةُ بِـهِ بَـأَلْـفِ حَلِيـم

وقال آخر:

لَئِنْ كُنْتَ مُحْتَاجاً إِلَى الْحَلِيم إِنَّنِي إِلَى الْجِهْلِ فِي بَعْضِ الأَحَايِّينِ أَحْوَجُ

[٦١] /فصل: في آثار واردة في الحلم

وعن ابن المبارك في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]. قال: هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً يغفر الله لك وإن كنت صادقاً يغفر الله لي. وعن بعضهم قال شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم عني فاستعبدني بها زماناً من الدهر، قال: وسبّ رجل ابن عباس رضي الله عنه فلما فرغ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها، فنكس الرجل رأسه واستحيى.

ويروى أن رجلاً قال لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك لمن الفاسقين، قال: ليس تقبل شهادتك.

وعن علي بن الحسين بن عليّ أنه سبه رجل فرمى عليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع في ذلك خمس خصال: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم، جمع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

= أمتدحك، فقال: «قل لا يفضض الله فاك» فقال العباس:

مـن قبلهـا طبـت فـي الظـلال وفـي مستـودع حيـث يخصـف الـورق

الأبيات.

(١) سورة فصلت الآية: ٣٤.

وعن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: لعرابة بن أوس: بماذا سدت في قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم فمن فعل فعلى فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه.

وقال وهب بن منبه: من يَرحم يُرحم ومن يَصمت يَسلم، ومن يَجهل يُغلب، ومن يَعجل يُخطىء، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المراء يُشتم، ومن لا يكره الشتم[1] يأثم، ومن يكره الشر يعصم، ومن يتبع وصية الله يُحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتولى الله يمنع، ومن لا يسأل الله يفتقر، ومن لا يكن مع الله[2] / يخذل، ومن يستعن بالله يظفر. [٦٢]

وعن أبي الدرداء أنه قال: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن تقربهم أبعدوك، وإن تركتهم لم يتركوك. قالوا: كيف نصنع؟ قال: تقرضهم من عرضك ليوم فقرك. وقال عليّ: إن أول عوض الحليم أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وعن معاوية أنه قال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلاّ بقوة الحلم.

وقال معاوية لعُمر بن الأهتم: أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه. قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لإصلاح دينه. وعن الأحنف بن قيس أنه قال لابنه: يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه فإن أنصفك وإلاّ فاحذره.

وحكي أن أسلم بن نوفل سيد بني كنانة ضربه رجل من قومه بسيفه فأُخذ فأُوتي به إليه فقال: أما خشيت انتقامي؟ قال: فلم سودناك إذاً إلاّ أن تكظم الغيظ، وتعفو عن الجاني، وتحلم عن الجاهل، وتتحمل المكروه في النفس والمال، فخلى سبيله فقال قائلهم:

يَسُــوِّدُ أَقْــوَامٌ وَلَيْسُــوا بِسَــادَةٍ   بَلْ السَّيِّدُ الْمَعْرُوفُ سَلَم بن نوفل

وعن الأحنف أنه قال: إياكم ورأي الأوغاد. قال: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون العفو والصفح عاراً. وسئل الأحنف عن الحلم، فقال: هو الذل تصبر عليه ولست بحليم ولكنيّ صبور.

قال: ومَرّ المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا شراً، وقال خيراً، فقيل له في ذلك، فقال: كل ينفق مما عنده.

---

(١) في إحياء علوم الدين (٣/ ١٧٥): الشر، وأحسبه الأصوب.

(٢) في الموضع السابق: ومن يأمن مكر الله.

وقال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمّى به. وقال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: والله لأسبَّنّك سبّاً يدخل / معك قبرك، قال معك لا معي. [٦٣]

وقيل لبعض الصالحين: إن فلاناً يقع فيك فقال: لأغضبن من أمره. قال: ومن أمره؟ قال: الشيطان. وقال رجل لأخيه: مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكر أشياء رحمتك منها. قال: سمعتني أذكره بشيء؟ قال: لا. قال: فإياه أرحم.

وسئل بعض أصحاب الأحنف: أكان الأحنف يغضب؟ قال: لو لم يغضب ما بان حلمه كان يغضبه الشيء فيتبين في وجهه اليوم واليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم.

ويروى أن بعض الحكماء دخل عليه صديق له فقدم له الطعام، فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفعت المائدة، وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضباً فاتبعه الحكيم، وقال: تذكر يوماً كنا في منزلك نطعم فسقطت على المائدة دجاجة فأفسدت ما عليها فلم يغضب منها أحد منا؟ قال: نعم.

قال: فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة، فسرى عن الرجل فأبصر، وقال: صدق الحكيم: [الحلم][1] شفاء من كل ألم. وروي أن رجلاً ضرب قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب فقيل له في ذلك فقال: أقمته مقام حجر عثرت بها وربحت الغضب. ومن أحكم ما قيل في تدبير الحلم والغضب هذه الأبيات:

إِذَا أَمِـنَ الْجُهَّـالُ جَهْلَـكَ مَـرَّةً ... فَعَـرْضُـكَ لِلْجُهَّـالِ غنـمٌ مِـنَ الْغَنْـمِ
فَعَـمَّ عَلَيْـهِ الْحِلْـمُ وَالْجِهْـلُ وَالْقِيـهِ ... بِمَنْـزِلَـةٍ بَيْـنَ الْعَـدَاوَةِ والسِّلْـمِ
إِذَا أَنْتَ جَارَيْتَ السَّفِيْهَ كَمَا جَرَىٰ ... فَـأَنْـتَ سَفِيْـهٌ مِثْلَـهُ غَيْـرَ ذِي حِلْـمِ
وَلاَ تَغْتَبَـنَّ عَـرْضَ السَّفِيْـهَ وَدَارِهِ ... بِحِلْـمٍ فَـإِنْ أَعْيَـا عَلَيْـكَ فَبِـالصَّـرْمِ
فَيَـرْجُـوكَ تَـارَةً وَيَخْشَـاكَ تَـارَةً ... فَتَـأْخُـذْ فِيْمَـا بَيْـنَ ذَلِـكَ بِـالْحَـزْمِ
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ بُدّاً مِنَ الْجِهْلِ فَاسْتَعِنْ ... عَلَيْـهِ بِجَهّـالٍ فَـذَاكَ مِـنَ الْعَـزْمِ

[٦٤] / فهذا التدبير إنما يستعمل فيمن لم يجد الإنسان من مقاربته ولا سبيل إلى إطراحه إما لخوف شره أو للزوم أمره، فأما من أمكن إطراحه فلم يضر إبعاده، فالاعراض عنه أصون، وعلى النفس أهون، والله أعلم.

---

(١) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ١٧٥) ومعظم الآثار الوارده هنا منه.

فصل: في بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[1]. وهذا في القصاص والغرم على ما ورد به الشرع. وقال عليه السلام: «إذا قال الرجل لصاحبه يا كافر، وقال له الآخر كذلك، فقد باء بالكفر أحدهما، والبادي أظلم»[2]. ولكن ورد الشرع بأشياء من الظلم لا تجوز مقابلة الظلم بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا التجسس بالتجسس، ولا القذف بالقذف، ولا الشرك بالشرك، ولا السب بالسب، وقد قال عليه السلام: «المتسابان شيطانان يتهاتران».

قال: «وإن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعير بما فيه» ويروى أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدا ينتصر منه قام النبي ﷺ فقال أبو بكر: كنت ساكتاً لما شتمني فلما تكلمت قمت؟ قال: «لأن الملك كان يجيب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن أجلس في مجلس فيه الشيطان»[3].

وقال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، ونهيه عليه السلام عن التعبير بمثله نهي تنزيه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي والذي رخص فيه أن يقول: من أنت؟ وهل أنت إلاّ من بني فلان، كما روي عن سعيد أنه قال لابن مسعود: وهل أنت إلاّ من بني هذيل؟ فقال ابن مسعود: وهل أنت إلاّ من بني أمية؟ ومثل قوله: يا أحمق.

/ وقال بعضهم: كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلاّ أن بعض الناس أقل حماقة من بعض، وكذلك قوله يا جاهل إذ ما من أحد إلاّ وفيه جهل، وكذلك يا سيّىء الخلق يا صفيق الوجه، ويا ثلاب الأعراض، وما أحقرك في عيني بما فعلت، ولو كان فيك حياء ما تكلمت بهذا في أمثال ذلك. [٦٥]

وأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين والنسبة إلى الزنا والفحش فحرام بالاتفاق، وإنما الرخصة في مقابلة الإيذاء بالصدق جزاء على إيذائه السابق. وعنه عليه السلام أنه قال:

---

(١) سورة الشورى الآية: ٤١.

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٨/ ٣٢)، أحمد في المسند (٢/ ٤٧)، البغوي في شرح السنة (٣/ ١٣١)، الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٣٦٨)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٦٣)، الطبراني في الكبير (١٨/ ١٩٤) المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٤٦٥).

(٣) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧٥): رواه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلاً ومرسلاً، وقال البخاري: المرسل أصح.

«المتسابّان على ما قالا حتى يعتدي المظلوم»[١]. فأثبت للمظلوم انتصار إلا أن يعتدي وهذا رخصة، ولكن الأفضل تركه فإنه يجر إلى ما وراءه، ولا يمكن الاقتصار على مقدار الحق فيه، والسكوت عن أصل الجواب أيسر من الشروع من الجواب، والوقوف على مقدار الشرع فيه، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه عند فورة الغضب ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكف في الابتداء ولكن يحقد في الدوام والناس في الغضب أربعة: فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الأجمل ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا أشر منهم.

وفي الحديث: «المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك»[٢]، وعن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبائق شتّىٰ منهم بطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك، فمنهم سريع الغضب بطيء الفيء / ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء». [٦٦]

ولما كان الغضب يهيج في الحال ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه عليه لأنه ربما يتعدى الواجب أو يكون شافياً غيظه ومريحاً نفسه، وإنما الواجب انتقامه وانتصار لله تعالى لا لنفسه، وقد روي أن عمر رضي الله عنه رأى سكراناً فأراد أن يأخذه فيعزره، فشتمه السكران، فرجع عمر فقيل له في ذلك؟ قال: لأنه أغضبني ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلماً حميَّة لنفسي.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك[٣]، والله أعلم.

الفصل الرابع: في الحقد ونتائجه من الحسد وغيره

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزٍ عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ومعنى الحقد أن يلزم قلبه اشتغاله والغضبة له والنفار منه وأن يدوم ذلك ويبقى، وقد قال ﷺ: «المؤمن ليس بحقود»[٤]. والحقد يثمر ثمانية أشياء:

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/١٧٦): رواه مسلم.

(٢) قال العراقي في المغني (٢/١٨٣): لم أجده هكذا وللترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري، ثم ذكر النص الثاني.

(٣) راجع الآثار والتعليقات والشروح في إحياء علوم الدين واغلبها نقل منه نصاً (٣/١٧٥ : ١٧٧).

(٤) قال العراقي في المغني (١/٤٦): لم أقف له على أصل.

الأول: الحسد: وهو أن يحمله الحقد على أن يتمنى زوال النعمة، فيغتم بنعمة إن أصابها، ويُسر بمصيبة إن نزلت عليه.

الثاني: أن يزيد على اضمار الحسد في الباطن فيشمت بما يُصيبه من البلاء.

الثالث: أن يهجره ويصارمه وينقطع عنه وإن طلبه وأقبل عليه فلا يلتفت إليه.

الرابع: وهو دونه أن يعرض عنه استصغاراً له.

والخامس: أن يتكلم فيه بما لا يحل من كذب / أو غيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره. [٦٧]

السادس: أن يحاكيه استهزاءً به وسخرية منه.

السابع: إيذاءه بالضرب وما يؤلم بدنه.

والثامن: أن يمنعه حقه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة.

وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن يحترز من الآفات الثمانية المذكورة فلا يخرج بسبب إلى ما يعصي الله تعالى به ولكن يستثقله بالباطن ولا ينهى قلبه عن بعضه حتى يمتنع عما كان يتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجة، والمجالسة معه على ذكر الله، والمعاونة على المنفعة له، أو يترك الدعاء له والثناء عليه، والتحريض على يده ومواساته، فهذا كله مما ينقص درجته عند الله تعالى ويحول بينه وبين الفضل العظيم والثواب الجزيل وإن كان لا يستحق به العقاب، ألا ترى إلى أبي بكر رضي الله عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه، ولكن تكلم في واقعة أهل الإفك الذين خاضوا في أمر عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر زوج النبي ﷺ فحلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح لأجل ذلك فأنزل الله تعالى: **﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾**. إلى قوله: **﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾**[١]. فقال أبو بكر: يا رب نحب ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه فالأولىٰ للمسلم أن يبقى على ما كان عليه وإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان فذلك هو مقام الصديقين فهي من فضائل أعمال المقربين. واعلم أن للحقود ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حقه من المحقود عليه من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل.

/ **والثاني**: أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل. [٦٨]

الثالث: أن يطالبه بما لا يستحق فذلك هو الجور وهو اختيار الأراذل[٢].

---

(١) سورة النور الآية: ٢٢.

(٢) في الأصل: الأرذال. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ١٧٧).

والثاني اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجة الصالحين، ولنذكر هاهنا فضيلة العفو والإحسان[١] وبالله التوفيق.

بــاب
في فضل العفو

اعلم إن العفو هو أن تستحق حقاً فتسقطه وتبرىء غريمك منه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفرد له باب، وقد قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ. . .﴾[٢] الآية. وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٣]. .

وقال النبيّ ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً حلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا، ولا عفا عبد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلاّ زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلاّ فتح الله عليه باب فقر»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال: «التواضع لا يزيد العبد إلاّ رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبد إلاّ عزا فاعفوا يَعِزَّكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلاّ كثرة فتصدقوا يرحمكم الله»[٥].

وعنه ﷺ أنه قال: «الخير ثلاث خصال من كن فيه استكمل الإيمان: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قدر عفا».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظُلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله شيء فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدَّهم في ذلك غضباً، / وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً[٦]. [٦٩]

وعن عقبة بن عامر قال: لقيت النبيّ ﷺ يوماً، فبادرته فأخذت بيده أو بادرني فأخذني

---

(١) راجع الباب كله في المصدر السابق.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٣٧.
(٤) قال العراقي في المغني: (١٧٨/٣): رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري، ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة.
(٥) قال أيضاً في الموضع السابق تعليقاً على هذا الحديث: رواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب، وأبو منصور الديلمي مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.
(٦) قال العراقي في المغني: (١٧٨/٣): رواه الترمذي في الشمائل، وهو عند مسلم بلفظ آخر.

بيدي فقال: «يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعتك، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال: الذي إذا قدر عفا»[٢] لذلك سئل أبو الدرداء من أعز الناس؟ قال: الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله.

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يشكو مظلمة فأمره النبي أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمة، فقال عليه السلام: «إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة»[٣] فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» وعن أنس بن مالك عنه عليه السلام أنه قال: «إذا بعث الله الخلائق، نادى منادٍ من تحت العرش: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم وليعف بعضكم عن بعض»[٤].

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى البيت فأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون وما تظنون؟». قالوا: نقول خيراً ونظن خيراً أخ وابن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثاً، فقال ﷺ: «وأنا أقول مثل ما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[٥]. فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام وفي حديث / آخر عن سهيل بن عمير قال لما قدم ﷺ مكة وضع يديه على بابي الكعبة [٧٠] والناس حوله فقال: «لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثم قال: «يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون». قال: قلت: يا رسول الله نقول خيراً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف. راجع المصدر السابق.

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلاً. المصدر السابق.

(٤) رواه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرىء في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ ينادي منادٍ من بطنان العرش يوم القيامة... وإسناده ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ. نادى منادٍ: يا أهل الجمع تاركوا المظالم بينكم... وله من حديث أم هانىء: ينادي منادٍ: يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعليّ الثواب. المصدر السابق.

(٥) رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف، العراقي في المغني (٣/١٧٩).

نقول أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال ﷺ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام لا تثريب عليكم اليوم»[١].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقف العباد يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة». قيل: من ذا الذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب»[٢].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتي بحد إلاَّ أقامه والله عفو يحب العفو ـ ثم قرأ ـ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾[٣]. الآية. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أيّ أبواب الجنة شاء، وزوج من الحور العين حيث شاء: من أدّى ديناً خفياً، وقرأ دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات، وعفا عن قاتله»[٤] وقال بعض العلماء: إذا أراد الله أن يتحف عبداً قبض له من يظلمه.

ويروى أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز، فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه، فقال عمر: إنك تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد انقصتها.

وعن زيد بن ميسرة أنه قال: إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله يقول إن آخر يدعو عليك أنك ظلمته / فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وإن شئتما آخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي. [٧١]

وعن مسلم بن يسار أنه قال لرجل يدعو على ظالمه: كِلِ الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع من دُعائك عليه إلاَّ أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل.

وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله عز وجل يأمر منادياً يوم القيامة فينادي: من كان له شيء عند الله فليقم، فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس.

وعن هاشم بن محمد أنه قال: أوتي النعمان بن المنذر برجلين أحدهما قد أذنب ذنباً عظيماً فعفا عنه، والآخر أذنب ذنباً صغيراً فعاقبه وقال:

تَعْفُــو الْمُلُــوكُ عَــنِ الْعَظِيـ ... ـمِ مَــنِ الــذُّنُــوبِ لِفَضْلِهَــا

---

(١) لم أجده قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٣/١٧٩).

(٢) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه. المصدر السابق.

(٣) سورة النور الآية: ٢٢. والحديث قال عنه العراقي في المصدر السابق: رواه أحمد، والحاكم وصححه.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء بسند ضعيف.

وَقَـدْ تُعَـاقِـبُ فـي الْيَسِـ ـرِ وَلَيْـسَ ذَاكَ لِجَهْلِهَـا
إلاَّ لِيُـعْـرَفَ حِلْمُهَـا وَيُخَـافُ شِـدَّةَ بَطْشِهَـا

وعن عمر بن عبد العزيز قال: ما قُرِنَ شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم ومن عفو إلى قدرة.

ويروى أن الأحنف شفع في محبوس إلى سلطان فقال: إن كان مذنباً وسعه العفو، وإن كان برئاً وسعه العدل. وقيل لبعض الحكماء: بلغ عند أمير المؤمنين أمر سوء فقال: إن كان حقاً وسعني عفوه، وإن كان كذباً وسعني عدله.

وروي أن الفيل دخل دمشق فحشر الناس لرؤيته وصعد معاوية في علّيه له متطلعاً فبينما هو كذلك إذ أبصر في حجرة قصره رجلاً مع امرأة من حرمه، فأتى الحجرة فدق الباب، فلم يكن بدّ مِن فتحه، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا في قصري وتحت حجابي تهتك حرمتي وأنت في قبضتي؟! ما حملك على هذا؟ فبهت الرجل / ثم قال حلمك أوقعني فقال [٧٢] معاوية: إن عفوت عنك سترتها عليَّ؟

قال: نعم، فخلّى سبيله وهذا من الدهاء العظيم والعقل الواسع أن يطلب الستر من الجاني وهو موافق لمعنى قول الشاعر:

إذَا مَـرِضْنَـا أَتَيْنَـاكُـمْ نَعُـودُكُـم وَتَـذْنِبُـونَ فَنَـأْتِيكُـمْ فَنَعْتَـذِرُ

وعن معاوية أنه قال: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال.

وروي أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب: أرأيت ذا القرنين أكان نبيّاً؟ فقال: لا ولكن إنما ما أعطى بأربع خصال كنّ فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد وفًى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع اليوم لغد.

وقال بعض السلف: ليس الحليم من ظُلم فحلم ولكن الحليم من ظُلم فحلم، ثم قدر فعفا. قال الشاعر:

صَفُوحٌ عَـنِ الأَجْـرَامِ حَتَّـى كَـأَنَّـهُ مِنَ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِماً
فَلَيْـسَ يُبَـالِـي أَنْ يَكُـوْنَ بِـهِ الأَذَى إِذَا مَا الأَذَى بِالْكُرْهِ لَمْ يَغْشَ مُسْلِماً

وعن زياد أنه قال: العذر يذهب الحفيظة ـ يعني الحقد والغضب ـ وروي أن هشاماً أُوتي

برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام: وتتكلم أيضاً؟! فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1]. أفيجادل الله ولا تُكلم أنت كلاماً؟ فقال هشام: بلى ويحك تكلم.

ويروى أن سارقاً دخل خباءَ عمار بن ياسر رحمه الله بصفين فقيل له: اقطعه إنه من أعدائنا فقال: بل استر عليه لعل الله يستر عليّ يوم القيامة.

[٧٣] وجلس ابن مسعود في السوق يبتاع متاعاً، فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت / في عمامته، فوجدها قد حُلّت فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون عليه اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها فقال ابن مسعود: اللهم إن كان أخذها لحاجة فبارك له فيها، وإن كان حمله جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنبه.

وعن الفضل أنه قال: ما رأيت أزهد من رجل من أهل خرسان جلس إليّ في المسجد الحرام، ثم قام ليطوف فسرقت دنانير كانت معه فجعل يبكي. فقلت: أعلى الدنانير تبكي؟ قال: لا ولكن مثلتني وإياه بين يدي الله فأشرف عقلي على ادحاض حجته، فبكائي رحمة له. وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب وهو على البصرة ليلاً، وجاء الحسن وهو خائف، فدخلنا عليه مع الحسن، فما كان معه إلاّ بمنزلة الفراريج، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب؛ فقال: باعوا أخاهم، وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير ما صنع الله به؟

قال: أداله عليهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته على خزائن الأرض. قال: فماذا صنع حين كمل الله له أمره، وجمع له أهله؟ قال: ﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾[2]. يعرض الحكم بالعفو على أصحابه. قال الحكم: وأنا أقول: لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلاّ ثوبي [هذا][3] لواريتكم تحته.

قال: وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان هارب من زلته إلى عفوك لائذ بك منك، واعلم أنه لن يزداد الذنب عظماً إلاّ إزداد العفو فضلاً. قال وأُتي عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث. فقال: لرجاء ابن حيوة: ما ترى؟ فقال: إن الله قد

(١) سورة النحل الآية: ١١١.
(٢) سورة يوسف الآية: ٩٢.
(٣) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٠).

أعطاك ما تحب من الظفر / فأعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم. ويحكى عن المأمون أنه [٧٤] قال لعمه إبراهيم بن المهدي وكان مع أخيه عليه مظلمة: إني شاورت في أمرك، فأشاروا عليَّ بقتلك إلاَّ أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت القتل للازم حرمتك. فقال: يا أمير المؤمنين إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة، إلاَّ أنك أبيت أن تطلب النصر إلاَّ من حيث عُودته من العفو فإن عاقبت فلك نظير وإن عفوت فلا تطير لك وأنشأ يقول:

البِرُّ منك وِطاء العذر عنك لي ... فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
لئن حجدتك معروفاً مننت به ... إني لفي اللؤم أحظى منك في الكرم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به ... فلا عدمناك من عاف ومنتقم

وروي أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج أو من المحكمة، فأفلت منه فأخذ أخاً له، فقال: إن جئت بأخيك وإلاَّ ضربت عنقك. فقال: أرأيت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين أتخلي سبيلي؟ قال: نعم. قال: فأنا أتيك بكتاب من الله العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين عدلين إبراهيم وموسى أنه ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١]. فقال: زياد خلوا سبيله، هذا رجل لقن حجته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان[٢]. والله أعلم.

فصل: في الحسد

قد تقدم أن الحسد من ثمرات الحقد ونتائجه، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرع الغضب، والغضب أصل أصله، ثم للحسد من الفروع المذمومة ما لا يكاد يحصى.

/ وقد روي في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة قال ﷺ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل [٧٥] النار الحطب»[٣]. وعنه ﷺ أنه قال: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً»[٤]. وعن أنس أنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة». قال: فطلع رجل من الأنصار: تنضف لحيته من وضوء، قد علق نعليه بيده، فسلم فلما كان من الغد، قال عليه السلام مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل، وقاله

---

(١) سورة النجم الآيات: ٣٦، ٣٧، ٣٨.
(٢) راجع الفصل بأكمله مع زيادات ونقص وتقديم وتأخير في إحياء علوم الدين (٣/١٧٧: ١٨٠).
(٣) قال العراقي في المغني: (٣/١٨٣): رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، وابن ماجة من حديث أنس.
(٤) متفق عليه قاله العراقي في المصدر السابق.

في اليوم الثالث، فلما قام عليه السلام تبع الرجل عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص، فقال: لا حيث أبي - أي نازعت - فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي المدة فعلت، فقال: نعم، فبات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال: غير أني لم أسمعه يقول إلاّ خيراً، فلما مرت الثلاث وكدت أن أحقر عمله، فقلت: يا عبد اللّٰه لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا فأردت أن نعرف عملك؟ فلم أرك تعمل عملاً كثيراً، فما الذي بلغ بك ذلك؟ قال: ما هو إلاّ ما رأيت فلما وليت دعاني. فقال: ما هو إلاّ ما رأيت غير أني لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد اللّٰه: هي التي بلغت بك وهي التي لا نطيق.(١)

وعنه ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ينجو منهن أحد: الظن، والطيرة، والحسد، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك: إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيّرت فامض، وإذا حسدت/ فلا تبغ»(٢). [٧٦]

وفي رواية أخرى: «ثلاثة لا ينجو منهن أحد وقلّ من ينجو منهن»(٣). فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة. وعنه ﷺ أنه قال: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد، والبغضاء، والبغضة هي الحالقة للدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألاَ أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ افشوا السلام بينكم»(٤) وعنه ﷺ أنه قال: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر»(٥).

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له: سعداً، وفيها ابن لهيعة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه: يعقوب بن محمد الزهري، وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرّحمٰن بن معاوية وهو مرسل ضعيف، وللطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه: يعقوب بن محمد الزهري، وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرّحمٰن بن معاوية وهو مرسل ضعيف، وللطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) بنحوه الإحياء وعلق عليه العراقي في الموضع السابق بقوله: رواه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير.

(٥) رواه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف، ورواه =

وعنه ﷺ أنه قال: «سيصيب أمتي داء الأمم». قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «الأشر، والبطر، والتكاثر، والتنافس في الدنيا، والتباعد، والتحاسد حتى يكون البغي، ثم يكون الهرج»[١]. وقال ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله ويبتليك»[٢].

وروي أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه رأى رجلاً في ظل العرش فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه فسأل ربه أن يخبره باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: أحدثك عن عمله بثلاث، كان لا يحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة.

وعن زكريا صلوات الله عليه قال: قال: الله تعالى: الحاسد عدو لنعمتي مسخط لقضائي غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي.

وعنه ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا ويقتتلون»[٣]. وعنه عليه السلام أنه قال: «استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»[٤].

وعنه أيضاً أنه قال: «إن لنعم الله أعداء» فقيل ومن ذلك؟ قال: «الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله / من فضله»[٥]. [٧٧]

= الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ: كادت الحاجة أن تكون كفراً وفيه: ضعف أيضاً: قاله العراقي في المغني (٣/ ١٨٤).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد، الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) رواه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع، وقال: حسن غريب، وفي رواية ابن أبي الدنيا. فيرحمه الله. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم الصحيحين من حديث أبي سعيد: إن مما أخاف عليكم من بعدي: ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، ولهما من حديث عمرو بن عوف البدري: والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا.. الحديث، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو: إذا فتحت عليكم فارس والروم. الحديث وفيه: يتنافسون ثم يتحاسدون، ثم يتدابرون.. الحديث، ولأحمد والبزار من حديث عمر لا تفتح الدنيا على أحد. إلاَّ ألقى الله بينهم العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم. قاله العراقي في المصدر السابق.

وعنه ﷺ أنه قال: «هلك ست بست: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالتكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهالة، والعلماء بالتحاسد»[١].

الآثار: قال بعض السلف: الحسد أول ذنب عُصي الله به في السَّماء ـ يعني حسد إبليس لآدام عليه السلام، وأول ذنب عصي الله به في الأرض يعني حسد ابن لأخيه حتى قتله.

وقال بعض الحكماء من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢]، قال: معناه ادفع بالسلام إساءة المسيء.

وحكي أن [أحد][٣] علماء السلف دخل على المفضل بن المهلب وكان يومئذٍ على واسط، فقال: إني أريد أن أعظك بشيء. فقال ما ذاك؟ فقال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به في السماء، ثم قرأ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. إلى قوله: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤] وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة، أمكنه الله من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلاَّ شجرة واحد نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله ثم قرأ: ﴿ٱهْبِطُوا مِنْهَا...﴾[٥] الآية. قال: وإياك والحسد فإن به قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ...﴾[٦] الآية قال: وإذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ فاسكت، وإذا ذكر القدر فاسكت، وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وقال بعض الأدباء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود: نفس دائم، وهم لازم، وقلب هائم. فنظمه بعض الشعراء فقال:

[٧٨] /إِنَّ الْحَسُودَ الظَّلُومَ فِي كَرَبٍ يَخَالُهُ مَنْ يَرَاهُ مَظْلُومَا

---

(١) عن نحوه قال العراقي في المصدر السابق: رواه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر، وأنس بسندين ضعيفين.

(٢) سورة المؤمنون الآية: ٩٦.

(٣) ما بين المعقوفين يقتضيه السياق، وقد صرح الغزالي باسمه في إحياء علوم الدين، فقال: وحكي أن عون بن عبد الله دخل على المفضل بن المهلب (٣/ ١٨٤) قلت وقد ورد بالإحياء الفضل المهلب فضبط الاسم على الصواب وهو من مشاهير الأمراء وله رواية عند أبي داود والنسائي.

(٤) سورة البقرة الآية: ٣٤.

(٥) سورة البقرة الآية: ٣٨.

(٦) سورة المائدة الآية: ٢٧.

ذَا نَفَسٍ دَائِمٍ عَلَى نَفَسٍ يُظْهِرُ مِنْهُ مَا كَانَ مَكْتُوماً

وعن معاوية أنه قال: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود. وقال بعض الحكماء: يكفيك من الحسود أن يغتم في وقت سرورك.

وفي منثور الحكم: عقوبة الحاسد من نفسه. وعن الأصمعي قال: قلت لأعرابي: ما أطول عمرك؟ قال: تركت الحسد فبقيت. وقال رجل لشريح القاضي: أني لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم، ووقوفك على غامض الحكم. فقال: ما نفعك الله بذلك ولا ضرني. وأنشد لعبد اللّه بن المعتز:

أَصْبِرْ عَلَى شَرِّ الْحَسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُه
وَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُه

حكاية في الحسد: وحكي عن بكر بن عبد اللّه أنه قال: كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك ويقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء سيكفيك مساوئه، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك. وقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبخر منتن الفم. فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإذا دنا منك وضع يده على أنفه أن لا يشم رائحة البخر. فقال: انصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك فدعى الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك. فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيك مساوئه.

فقال له الملك: أدن مني / فدنا فوضع يده على فيه مخافة أن يشم منه الملك ريح الثوم. [٧٩] فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلاّ وقد صدق قال وكان الملك لا يكتب بيده إلاّ جائزة أو صلة فكتب كتاباً بخطه إلى عامل من عماله إذا أتاك صاحب كتابي فاذبحه واسلخه واحشي جلده تبناً وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب فخرج فليقه الرجل الذي سعى به. فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: خط الملك لي بصلة. فقال: هبه لي(1). فقال: هو لك. فأخذه ومضى إلى العامل. فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك. فقال: إن الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمري حتى أراجع الملك. فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشى جلده تبناً وبعث به إلى الملك، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله فتعجب الملك!!

(١) في الأصل: مني. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٥).

فقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر الفم قال: ما فعلت. قال: ولِمَ وضعت يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمني طعاماً فيه الثوم فكرهت أن تشمه. قال: صدقت ارجع إلى مكانك فقد كفاك المسيء مساوئه. وعن فرقد السنجي: أنه قال: الحسد داء. زوي لا يميته إلاّ الزهد في الدنيا، ومن زهد في الدنيا لم يصبه الحسد إلاّ قليلاً، ومن رغب في الدنيا لم يفارقه الحسد إلاّ قليلاً.

وعن ابن سيرين قال: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: لا تعادوا نعم الله؛ قالوا ومن يعاد نعم الله؟! قال: الذين يحسدون الناس. ويروى أن عبد الملك / بن مروان قال يوماً للحجاج: أنه ليس من أحد [٨٠] إلاّ وهو يعرف عيب نفسه فاذكر عيبك. قال: اعفني يا أمير المؤمنين. قال: والله لتفعلن. قال الحجاج: إني لجوج في الخصومة، حقود، حسود. قال له عبد الملك: ما في الشيطان شر من هذا وعن الحسن أنه قال: يا ابن آدم لم تحسد أخاك فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله، فإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار.

وقال بعض الحكماء: الحسد خلق دنيء ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال ما كان لله على أحدٍ نعمةَ إلاّ وجد له حاسد، ولو كان الرجل أقوم من القدح لم يعد غامزاً. وعن أبي الدرداء أنه قال: ما أكثر عبد ذكر الموت إلاّ قل فرحه وقل حسده.

وعن معاوية: أنه قال: كل الناس أقدر على رضاه إلاّ حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلاّ زوالها. وأنشد لمحمود الوراق:

أَعَطْيت كُل النَّاس مِنْ نَفْسِي الرِّضَى ... إلاَّ الحَسُودُ فَإنَّهُ أعْيَانِي
مَا إنَّ لِي ذَنباً إلَيْهِ عَمِلْتُهُ ... إلاَّ تَظَاهَر نِعْمَةَ الرَّحْمٰنِ
وَأَبَى فَمَا يُرْضِيْهِ إلاَّ ذِلَّتي ... وَذِهَابَ أمْوالِي وقَطْعَ لِسَانِي

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى. وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد أنه يرى النعمة عليك عليه. وينشد:

قُلْ لِلْحَسُودِ إذَا تَنَفَّسَ ضِغْنَةً ... يَا ظَالِماً وَكَأنَّهُ مَظْلُومُ

ويُنشد:

إنَّ يَحْسِدُونـي فَـإنِّـي غَيْـرَ لائِمهـم قَبْلِي رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَـدَامَ لِـي وَلَهُـمْ وَمَـا بِهِـمْ وَمَـاتَ أَكْثَـرُنَـا غَمًّـا بِمَـا يَجِـدُ

وقال بعض العلماء: الحاسد لا ينال من المجالس إلاَّ مذمةً وذلاً / ولا ينال من الملائكة [٨١] إلاَّ لعنةً وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلاَّ جزعاً وغماً، ولا ينال عند النزع إلاَّ شدةً وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلاَّ فضيحةً ونكالاً[١].

يَـا حَـاسِـداً دُونَـكَ مَـآءَ الْعَلْقَـم فَـاشْـرَبْ بِـهِ تَبْـرُدُ الحَسَـرَاتِ
أوْ صَخْـرَةً أوْ جَنْـدَلاً أوْ جبـلاً فَـانْطَـحْ بِـهِ فـي كُـلِ يَـوْمٍ آتِ

فصل: في حقيقة الحسد

اعلم أن حقيقة الحسد هي شدة الأسى على الخيرات تكون للأفاضل من الناس، فاذا كره الإنسان نعمة الله على أحد من عباده وأحبّ زوالها عنه فهو حاسد، والحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها من المنعم عليه، وهو غير المنافسة، لأن المنافسة: طلب التشبّه بالأفاضل من غير إدخال ضرر على الفاضل، والحسد مصروف إلى الضرر، فإذا أنعم الله على الإنسان نعمة فأحب عبد زوالها عنه لتكون له أو زوالها عنه فقط فهو حاسد وحالته تسمى حسداً، فإذا لم يحب زوالها ولكنه تمنى لنفسه مثلها فهو غابط، وحالته تسمى غبطة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن يغبط، والمنافق يحسد»[٢]. فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد، فالمنافسة: فضلية محمودة لأنها داعية إلى اكتساب الفضائل والاقتداء بالأفاضل قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[٣].

نعم إن كانت تلك النعمة دينية كالإيمان والصلاة والزكاة ونحوها فالمنافسة فيها واجبة، وهي محبة الإنسان أن يكون مثل المؤمن، لأنه إن لم يحب ذلك كان راضياً بمعصية وذلك محرم، وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتُنعم بها على وجه الصلاح فالمنافسة فيها مباحة، وكل ذلك

---

(١) أغلب الآثار الواردة هنا من إحياء علوم الدين للغزالي (٣/١٨٣: ١٨٥)
(٢) قال العراقي في المغني (٣/١٨٦): لم أجد له أصلاً مرفوعاً، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد.
(٣) سورة المطففين الآية: ٢٦.

[٨٢] يرجع إلى إرادته أن يساويه ويلحق به في النعمة، وليس فيها كراهة / النعمة، وكان تحت هذه النعمة أمران.

أحدهما: راحة المنعم عليه.

والآخر: ظهور نقصان غيره وتخلف عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويجب مساواته له، ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات. نعم ذلك ينقص الفضل ويناقض الزهد والتوكل ولكنه لا يوجب العصيان. وينشد.

نَافِسْ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَهْلَ الْعُلَاءِ ... فَإِنَّمَا الدُّنْيَا أَحَادِيثُ

كُل امْرِىءٍ فِي شَأْنِهِ كَادِحٌ ... مَوَارِثٌ مِنْهُ وَمَوْرُوثُ

وقد يستعمل لبعض المنافسة ويوضع موضع الحسد ويوضع الحسد موضع المنافسة، فلا حرج في الأسامي بعد فهم المعاني. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا حسد إلاّ في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس»[(١)].

فسمّى المنافسة باسم الحسد، ثم فسّر ذلك بحديث آخر مروي عن أبي كبشة الأنصاري فقال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ويقول: لو أن لي مالاً مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء»، فهذا منه محبّة لأن يكون له من المال مثل ما كان له من غير حب زوال النعمة عنه قال: «ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه في معاصي الله، ورجل لم يؤته مالاً ويقول: لولا أن لي مالاً كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الوزر سواء»[(٢)]. فذمه عليه السلام من جهة تمنيه المعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة ما كان له فإذاً لا حرج على من [٨٣] يغبط غيره في نعمة ويتمنى لنفسه مثلها ما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها، / وأما تسمية الحسد. منافسة فهو ما روي عن قثم بن العباس بن عبد المطلب أنه قال لعلي بن أبي طالب حين أراد قثم هو والفضل بن عباس أن يأتيا النبي ﷺ فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة فقال لهما علي: لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها. فقال له قثم: ماذا منك إلاّ منافسة والله لقد

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/١٨٧): متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) قال العراقي عن مثله في الإحياء أتم منه (٣/١٨٧) رواه ابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

زوجك رسول الله ابنته فما نافسنا ذلك عنك ـ أي هذا منك حسد ـ وما حسدناك على تزويج فاطمة والله أعلم.

فالحسد حرام بكل حال إلاَّ نعمة أصابها فاجر أو كافر فهو يستعين بهما على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين، وإيذا الخلق فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فسادها لم يغمك تنعمه بها، ويدل على تحريم الحسد الأخبار المتقدمة، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأيّ معصية تزيد على كراهيتك نعمة مسلم من غير أن تكون لك فيه مضرة، وإلى هذا أشار القرآن بقوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[1].

وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة متلازمان وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً﴾[2]. فأخبر أن حبهم لزوال نعمة الإيمان حسد، وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[3]. الآية، وذكر تعالى حسد إخوة يوسف له وعبر عما في قلوبهم ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينا مِنَّا﴾[4]. الآية فلما أحبه أبوه دونهم سآءهم ذلك فأحبوا زوالها عنه فغيبوه عنه، وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾[5].

قيل: معناه تضيق صدورهم / ولا يغتمون فأثنى عليهم بعدم الحسد. وقال تعالى في [٨٤] معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾. إلى قوله: ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[7]. قيل في التفسير حسداً. وقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيا بَيْنَهُمْ﴾[8]. قيل: معناه أنزل الله العلم ليتألفوا به على طاعته فتحاسدوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول، فرد بعضهم على بعض.

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٢٠.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٠٩.
(٣) سورة النساء الآية: ٨٩.
(٤) سورة يوسف الآية: ٨.
(٥) سورة الحشر الآية: ٩.
(٦) سورة النساء الآية: ٥٤.
(٧) سورة البقرة الآية: ٢١٣.
(٨) سورة الشورى الآية: ١٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي عليه السلام إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله، وبالكتاب الذي تنزله إلاّ ما نصرتنا. فكانوا يُنصرون، فلما جاء النبي من ولد إسماعيل عرفوه وكفروا به فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنْزَلَ الله بَغْياً﴾[١]. أي حسداً.

ويروى أن صفية بنت حييّ بن أخطب زوجة النبي ﷺ قالت له: جاء أبي وعمي عندك يوماً، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول أنه النبي الذي يبشر به موسى عليه السلام قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة. فهذه حقيقة الحسد. وأما مراتب الحسد فهي ثلاثة:

أحدها: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فيها مثل رغبته في دارٍ حسنة، أو امرأةٍ جميلة، أو ولايةٍ نافذة نالها غيره، فهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها فهذا هو الحسد المذموم.

والثانية: أن لا يشتهي عين النعمة بل يشتهي لنفسه مثلها، فإن عجز من مثلها أحب زوالها كي لا يظهر التفاوت بينهما، فهذه فيها مذموم وغير مذموم، وتسميتها حسداً توسعاً ومجازاً قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ الله بِهِ، بَعْضَكُمْ / عَلَى بَعْضٍ﴾[٢]. فتمنيه مثل ذلك [٨٥] غير مذموم، وإنما المذموم تمنيه عينه.

والثالثة: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تصل إليه فلا يحب زوالها. وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين[٣]، والله أعلم.

فصل: في بيان المنافسة وأسباب الحسد

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة فإن كان أمراً دينياً فسببه حب الله وطاعته، وإن كان أمراً دنيوياً فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها، وإنما الكلام هاهنا في الحسد المذموم.

وتنحصر جملة أسبابه في سبعة أشياء وهي: العداوة، والتعزاز، والكبر، والعجب، والخوف من فوات المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس، وذلك إنما يكره

---

(١) سورة البقرة الآيتان: ٨٩، ٩٠.
(٢) سورة النساء الآية: ٣٢.
(٣) راجع هذا الفصل في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/١٨٥: ١٨٨) ففيه أغلب ما هنا من أحاديث وآثار، وما في الإحياء أوسع مما هنا.

النعمة عليه، إما لأنه عدو له فلا يريد الخير له بسبب إساءته إليه، وإما أن يستكبر عليه بتلك النعمة وهو المراد بالتكبر، وإما أن يفاخره بها لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز، وإما أن تكون النعمة عظيمة فيتعجب من فوز مثله بتلك النعمة وهو التعجّب، وإما أن يخاف من فوت مقاصده بسبب مزاحمته إياه بتلك النعمة، وإما أن يكون بحب الرياسة التي يحب أن لا يساوى فيها فيكره تلك النعمة له لئلا يلحقه بها، وإما أن يكون لا بسبب بل بخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولا بدّ من شرح هذه الأبواب بالاختصار إن شاء الله الملك القهار.

السبب الأول: العداوة والبغضاء وهو أشد أسباب الحسد فإن من آذاه إنسان بسبب أبغضه قبله ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام فإن عجز أن يتشفى منه بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان / وربما يحمل ذلك على كرامة نفسه عند اللّه فمهما أصابت [٨٦] عدوَّه بلية فرح وظن ذلك مكافأة من جهة الله تعالى له على بغضه وأنه لأجله، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده، وربما يظن أنه لامنزلة له عند الله تعالى حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه.

وبالجملة فالحسد يلزم البغضة والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقوى أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه، وإما أن يبغض إنساناً ويستوي عنده مسرته وإساءته فهذا غير ممكن فهذا ما وصف الله تعالى به الكفار ـ أعني الحسد بالعداوة ـ إذ قال: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُم أَكْبَرُ﴾[1]. الآية. والحسد سببه البغض، وربما يفضي إلى التقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر ونحوه.

والسبب الثاني: التعزز وهو أن يثقل عليه أن يرتفع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية، أو علماً، أو مالاً خاف أن يتكبر عليه بذلك وهو لا يطيق تفاخره عليه، فليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع تكبر غيره عليه، فإنه قد رضي بمساواته دون ترفعه عليه.

السبب الثالث: أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستخدمه فإذا نال نعمة خاف أن لا يتحمل تكبره ولا ينقاد لخدمته، وربما أن يتشوق إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود مُتكبِّراً بعد إن كان مُتكبَّراً عليه.

ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار للنبي عليه السلام إذ قالوا: كيف يتقدم علينا

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١١٨.

غلام يتيم؟ وكيف تطأطىء له رؤوسنا؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هذا الْقُرآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١). أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان / عظيماً. [٨٧]

وقال تعالى: يصف قريشاً إذا قالوا: ﴿أَهَؤُلَآءِ مَنَّ الله عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾(٢). كالاستحقار لهم والأنفة منهم.

السبب الرابع: التعجب: كما أخبر تعالى عن الأمم الماضية إذ قالوا: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(٣)، ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾(٤). في أمثال هذه الآيات فتعجبوا أن يفوزوا برتبة الرياسة والقرب والوحي من الله تعالى وهم بشر أمثالهم، وأحبوا زوال نعمة النبوّة عنهم جزعاً أن يتفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو غيرها وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ الله بَشَراً رَسُولاً﴾(٥). وقالوا: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمُلاَئِكَةُ. . الآية﴾(٦). فقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مُنكُمْ. . . الآية﴾(٧).

السبب الخامس: الخوف من فوات المقاصد وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد كتحاسد الضرائر في التزاحم على مقصود الزوجية، وتزاحم الإخوة على نيل المنزلة في قلوب الأبوين، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد، وتحاسد الواعظين على أهل بلدة واحدة، وكذلك العالمان المتزاحمان على طائفة من المتفقهة، إذ يطلب كل ممّن ذكرنا نيل منزلة دون صاحبه.

السبب السادس: حب الرياسة وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في بعض الفنون إذا غلب عليه حب الثناء أنه فريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإذا سمع بنظير له في أقصى الأرض ساءهُ ذلك واحب موته، أو زوال النعمة التي شاركه فيها من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة أو جمال، أو ثروة، وليس السبب في هذا سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد، وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس / للتوصل إلى [٨٨]

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٣١.
(٢) سورة الأنعام الآية: ٥٣. في الأصل: أهؤلاء الذين فحذفت الكلمة الزائدة.
(٣) سورة يس الآية: ١٥.
(٤) سورة المؤمنون الآية: ٤٧.
(٥) سورة الإسراء الآية: ٩٤.
(٦) سورة الفرقان الآية: ٢١.
(٧) سورة الأعراف الآية: ٦٩.

الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة محمد ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ولا مال إذا وصف له حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعم به عليه شق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وتنقص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعم الله على عبادة كأنه إنما يأخذون ذلك من خزائنه، ويقال: البخيل يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره.

فهذا يبخل بنعمة الله على عباده لا بسبب عداوة ولا رابطة بينهم وبينه وليس له سبب ظاهر إلاَّ خبث في النفس ورذالة الطبع. ومعالجته شديدة لأن الحسد الذي ثبت بسبب يتصور إزالته إذا زال ذلك السبب وهذا هو خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ هو مستحيل في العادة أعني زواله.

فهذه أسباب الحسد وقد يجتمع كلها أو بعضها في شخص واحد فيعظم الحسد لذلك حتى لا يقدر صاحبه على الإخفاء والمجاملة معه بل يهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة والله أعلم.

والحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم هذه الأسباب المذكورة ولا سيما إذا تجاوروا في مسكن، أو سوق، أو مدرسة، أو بدلة اجتمعوا فيها على مقاصد كل واحد يرغب فيها فتتناقض أغراضهم، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، فلذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكافِ يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز إلاَّ بسبب /آخر سوى الاجتماع في الحرفة، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه [٨٩] أكثر ما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته، لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكافِ فلا يتزاحمون على المقاصد، إذا مقصد البزاز ثروة المال ولا يحصله إلاَّ بكثرة الزبون وإنما ينازعه فيه بزاز آخر، وهكذا الشجاع يحسد الشجاع، والطبيب يحسد الطبيب، وأصل ذلك التزاحم على مقصد واحد، وذلك لا يجمع متباعدين بل متناسبين، فلذلك يكثر الحسد بينهم.

نعم من اشتد حرصه على الجاه فإنه يحسد كل من في الدنيا في الخصلة التي يشاركه فيها، ومنشأ جميع ذلك الدنيا لأنها هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة فلا ضيق

فيها، ومثال الآخرة مثال نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى وصفاته لم يحسد غيره إذا عرفه أيضاً لأن المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم واحد يعرف بألف ألف عام ويلتذذ بمعرفته ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس وثمرة الإفادة والاستفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الآخرة محاسدة لأن مقاصدهم معرفة الله تعالى والمنزلة عنده، وذلك بحر واسع لا ضيق فيه ـ أعني المعرفة والمنزلة.

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال هو أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر. ومعنى الجاه: هو ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص منه لا محالة، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة بينهم، وليست المعرفة كذلك لأن القلب إذا امتلأ بالفرح بمعرفة الله لم يمنع ذلك أن يمتلىء به قلب غيره وأن يفرح به، /[٩٠] فالفرق بين العلم والمال أن المال: لا يحل في يد ما لم يرتحل عن أخرى، والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليم من غير أن يرتحل عن قلبه، لأن الدنيا وأموالها لها نهاية، والآخرة والعلم بها لا نهاية لهما، فإن فرض كثرة العارفين لم يكونوا متحاسدين بل يكونوا كما قال الله فيهم رب العالمين. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾، وقال: ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[1]. فإذا لا يتصور أن تكون في الجنة محاسدة ولا تقع بين أهل المعرفة في الدنيا أيضاً محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا محاسدة، ولا تنال إلاَّ بمعرفة الله التي لا مزاحمة فيها في الدنيا ولا مضايقة، فأهل الجنة بالضرورة براءٌ عن الحسد في الدنيا والآخرة، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين، ولذلك وسم به إبليس اللعين حين حسد آدم النبي الأمين.

فعليك أرشدك الله إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعيماً لا زحمة فيها، ولذة لا مكدر لها، فلا يوجد ذلك في الدنيا إلاَّ في معرفة الله وصفاته وعجائب ملكوته من أرضه وسمواته، ولا تنال ذلك في الآخرة إلاَّ بهذه المعرفة والعمل بها فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله تعالى تجد لها لذة، فلا غروى أن العِنين لا يشتاق إلى لذة الجماع، والصبي لا يشتاق إلى لذة الملك؛ فإن هذه اللذات يختص بإدراكها الرجال دون المخنثين والصبيان، فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فلا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم؛ لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن

(١) سورة الحجر الآية: ٤٧.

لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل سافلين، ﴿وَمَنْ /يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[١] أعاذنا الله من [٩١] الخذلان؛ فإنه سبب الحرمان[٢].

فصل: فيما ينفى به مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلاّ بالعلم والعمل، أما العلم النافع لمرض الحسد فهو أن تعلم حقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر به على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به في الدنيا والدين، فمهما عرفت هذا يقيناً ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة.

إما كونه ضرراً عليك في الدين فهو إنك بالحسد ساخط لقضاء الله تعالى غير راضٍ بقسمته وهذه جناية على حدقة التوحيد، وقذى في عين الإيمان، وناهيك بها جناية في الدين، وكان يقال: الحسود ساخط على ربه في إنقاذ أقداره؛ إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا لنعمة من الناس أهلاً، وقد انضاف إلى هذا أنك غاش لرجل من المسلمين، تارك لنصيحته، مفارق لأولياء الله في حبهم الخير لعباده، مشاركٌ لإبليس والكفار في محبتهم البلاء للمسلمين، وزوال النعم عنهم وهذه خبائث في القلب تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وإما كونه ضرراً في الدنيا، فهو يتألم بحسرات الحسد، وينحل من أجلها الجسد، ثم لا يجد لحسراته إنتهاء، ولا يرجو لسقام جسده شفاء، وقد قال ابن المعتز: الحسد سقام الجسد. ثم تنحط رتبته وتنخفض منزلته لنفور الناس عنه، ولذلك قيل: الحسود لا يسود. مع ما يظهر منه من الأخلاق الذميمة. وقد قال بعض العلماء: للحاسد ثلاثة علامات: يُتملق إذا حضر ويُغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة.

وقال ابن المعتز: /الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، طالباً لما لا [٩٢] يجده، فما أعجب من العاقل أن يتعرض لسخط الله تعالى وعذابه من غير نفع يناله مع ضرر يتحمله وغم يلازمه، فيُهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه، فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك، فلا بد من دوامها إلى أجل محدود. ويقال شكا نبي من الأنبياء من امرأة ظالمة

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٦.

(٢) راجع الفصل في إحياء علوم الدين بتفصيل (٣/١٨٨: ١٩٠).

مستولية على الناس، فأوحى الله إليه فِرَّ من قدامها حتى تنقضي أيامها. فمهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا إثم في الآخرة، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لكان لم يبق لله عليك من نعمة أيضاً، لأنك لا تخلو من عدو يحسدك، ولزالت على المؤمنين نعمة الإيمان لأن الكفار يحسدون لهم الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[1]. . . . الآية.

نعم فالحسود ضال بإرادتـه الضلال لغيره، فإن إرادة الكفر كفر فهو ضال بإرادته، ولا تزول النعمة بحسده، فكما لا تزول النعمة عنك بحسد غيرك فكذلك غيرك لا تزول عنه النعمة بحسدك.

وأما نفع المحسود بحسدك في الدنيا والدين فهو واضح، أما منفعته في الدنيا فإنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل باللعنة والشتم وذكر مساوئه، وذلك أيضاً هدايا منك تهدي إليه حسناتك فإنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل فأضفت إليه نعمة حسناتك فأضفت إلى نفسك شقاوة غم الحسد إلى شقاوة الخيبة في الحسنات.

وأما منفعته في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الخُلق مساءة الأعداء، وأن يكونوا معذبين مغمومين ولا / عذاب ولا غم أعظم فما أنت فيه من ألم الحسد فقد فعلت بنفسك ما هو مراد أعدائك ولذلك قيل: [٩٣]

لاَ مَاتَ أَعْدَاؤُكَ بَلْ خُلِّدُوا حَتَّى يَرَوْا مِنْكَ الَّذِي يُكْمَدُ
لاَ زِلْتَ مَحْسُوداً عَلَى نِعْمَةٍ فَإِنَّمَا الْكَامِلُ مَنْ يُحْسَدُ

وقد روي عن بعض العلماء بعض العلماء أنه قال: المحسود من الهم كساقي السم فإذا سرى سمه سرَى عنه همه. وقد قيل: العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد. وربما كان الحسد أيضاً منبِّها على فضل المحسد ونقصان الحسود كما قال أبو تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اشْتِغَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ
لَوْلاَ التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَا عَلَى الْمَحْسُودِ

فإذا تفكر الحاسد فيما ذكرنا، واتبع الدين والعقل في اجتناب الحسد، وأكله الحسنات،

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٩.

وما يستقبحه العقل من نتائج الحسد التي هي أذم المذمومات فساعد ورضي به كل الرضا دعاه ذلك إلى ترك الحسد، وشارك الأولياء في المحبة للمسلمين، فقهر حينئذٍ نفسه على مذموم خلقها بالرياضة والتهذيب فيتظاهر بالتخلق حتى يصير بالمواظبة والعادة كالخُلق، قال أبو تمام:

فَلَمْ أَجِدِ الأَخْلاَقَ إلاَّ تَخَلُّقاً وَلَمْ أَجِدِ الأفضَالَ إلاَّ تَفَضُّلاَ

ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال لرجل: كن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، وإن لم تستطع فلا تبغضهم. فقال: سبحان الله لقد جعل الله مخرجاً. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»[١].

وفي الحديث /عن رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ثلاثة: المحسن، والمحب [له][٢]، [٩٤] والكافّ عنه»[٣]. أي يكف عنه الأذى والبغض والكراهة فهذه هي أدوية الحسد فهي نافعة جداً إلاّ أنها مرة جداً، ولكن النفع في الدواء المر، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء.

ولكن ما دام الإنسان محباً للدنيا وللجاه فلا بد أن يحسد من استأثر بهما وحظي بالرياسة دونه، وأن يغمه ذلك لا محالة، وإنما غاية المجاهدة فيه أن يكره ذلك من نفسه ولا يغمه ولا يظهره بقول ولا فعل، فإذا كف ظاهره ومنع جوارحه عن إيذاء المحسود وألزم قلبه مع ذلك كراهة ما يترشح عنه من حب زوال النعمة عنه حتى كأنه يمقت نفسه على ما في طبعه فتكون تلك الكراهة من جهة الفعل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أدّى الواجب عليه ولا يقدر الإنسان إلاّ على هذا ولا يدخل تحت اختياره في أغلب الأحوال أكثر من هذا ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا إلاّ أن يصير قلبه مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاضل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين الرحمة، ويرى العباد وجميع أفعالهم أفعالاً لله تعالى وهم له مسخرون، وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ويرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه والشيطان إلى منازعته إياه بالوسوسة.

وذهب آخرون إلى أن الحاسد لا يأثم إذا لم يظهر أثر الحسد على الجوارح لما روي عن

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٤٨/٨) مسلم في الصحيح (البر والصلة ١٦٥)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٨٥) أبي داود في السنن (٥١٢٧)، الدارقطني في السنن (١/ ١٣٢).

(٢) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/ ١٩٤).

(٣) قال العراقي في المغني (٣/ ١٩٤): لم أجد له أصلاً.

الحسن أن رجلاً سأله: هل يَحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ قال: نعم ولكن غمه في صدرك فلا يضرك ما لم تعديه يد أو لساناً.

[٩٥] وروي عنه موقوفاً / ومرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما وجدت والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرنا من أن تكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطمع لزوال تلك النعمة فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل في(١) ظاهره على أن كل حاسد آثم، والحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال، ومحله القلب دون الجوارح، وكل محب مساءة المسلمين فهو حاسد لأن له فيهم ثلاثة أحوال:

أحدها: أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لذلك، وميل قلبك إليه بعقلك، وتمقت نفسك عليه، وتود أن لو كان لك حيلة في إزالة الميل منك، وهذا معفوّ عنه قطعاً.

الثانية: أن تحب ذلك بقلبك، وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك فهو الحسد المحظور قطعاً.

الثالثة: وهي بين الطرفين أن تحسد بقلبك من غير مقتك نفسك على حسدك ولا إنكار منك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاها، وهذا محل الخلاف والأظهر أن لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك وضعفه، والله أعلم وأحكم وبه العون والتوفيق(٢).

الفصل الخامس: في ذمِّ البخل

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾(٣). وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤)، وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾(٥)... الآية.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء». وروي أنه سمع رجلاً يقول: الشحيح أغدر من الظالم فقال: «لعن الله الشحيح، ولعن الظالم» وعنه أيضاً قال: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا / دماءهم واستحلوا [٩٦]

---

(١) في الأصل: على. وأحسبه تحريف من الناسخ والله أعلم.
(٢) راجع هذا الفصل في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/١٩٢: ١٩٥) مع زيادات ونقص.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨٠.
(٤) سورة الحشر الآية: ٩.
(٥) سورة النساء الآية: ٣٧.

محارمهم» ودماءهم فقطعوا أرحامهم»[١] وقال عليه السلام: «لا يدخل الجنة: بخيل، ولا خب، ولا خائن، ولا سيئ الملكة»[٢].

وفي رواية: «ولا جبار». وفي رواية «ولا منان» وعنه عليه السلام أنه قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[٣]. وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ[٤] الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال»[٥].

وقال: «مثل المنفق[٦] والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق[٧] لا ينفق شيئاً إلاَّ اتسعت على جلده حتى تخفى بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلاَّ قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها فلا تتسع»[٨].

وقال عليه السلام: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق»[٩] وقال في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر»[١٠].

وقال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات[١١] يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله لا

---

(١) رواه مسلم من حديث جابر بلفظ، واتقوا الشح فإن الشح... الحديث ولأبي داود، والنسائي في الكبرى وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا ـ قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧).

(٢) رواه أحمد، والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا منان فهي عند الترمذي، وله ولابن ماجة: لا يدخل الجنة سيء الملكة ـ قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧).

(٣) رواه البزار، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/١٦).

(٤) في الأصل: الشحيح. وهو تحريف والتصويب من الإحياء (٣/٢٤٧).

(٥) رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل والمنان وقال فيه: الغني الظلوم، والطبراني في الأوسط من حديث علي: إنّ الله يبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال وسنده ضعيف. قاله العراقي في المغني: (٣/٢٤٧).

(٦) في الأصل: المنافق وهو تحريف.

(٧) في الأصل: المنافق وهو تحريف.

(٨) متفق عليه من حديث أبي هريرة ـ قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧).

(٩) رواه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب، قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧).

(١٠) رواه البخاري من حديث سعد. قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧).

(١١) في الأصل: ظلمة. والتصويب من الإحياء (٣/٢٤٧).

يحب الفحش ولا التفحش يوم القيامة، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[١].

وروي أنه قال للأنصار: «من سيدكم؟ قالوا: الجد بن قيس على بخل به. فقال عليه السلام: «وأي داوء أدوى من البخل؟. قالوا: وكيف ذلك يا رسول؟ قال: «إن قوماً نزلوا بساحل البحر فكرهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم وقالوا: ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببعد النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بينهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء».

[٩٧] وفي رواية / أخرى أنه قال: «يا بني سلمة من سيدكم؟» قالوا: سيدنا الجد بن قيس إلاّ أنه رجل فيه بخل. فقال: «أي داء أدوى من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح»[٢]. وفي رواية أخرى: قالوا: سيدنا الجد بن قيس قال: «بم سودتموه»؟ قالوا: إنه أكثرنا مالاً وأنا على ذلك لتنزه بالبخل. قال: «وأي داوء أدوى من البخل ليس ذلك سيدكم». قالوا: ومن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «سيدكم بشر بن البراء»[٣]. وعنه ﷺ أنه قال: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»[٤]. قال: وقتل شهيد على عهد رسول الله ﷺ فبكته باكية فقالت: واشهيداه. فقال النبي عليه السلام: «وما يدريك أنه شهيد فلعله قد يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل فيما لا ينقصه»[٥].

وعن جبير بن مطعم قال بينما نسير مع رسول الله ﷺ ومع الناس مقبلة من حنين إذ

---

(١) رواه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا، قال عوضاً عنها وبالخيل فبخلوا بالفجور ففجروا، وكذا رواه أبو داود مقتصراً على ذكر الشح... ولمسلم من حديث جابر: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح. فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش. قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧: ٢٤٨).

(٢) أطراف الحديث عند: الحاكم في المستدرك (٣/٢١٩) الطبراني في الكبير (١٩/٨١)، ابن سعد في الطبقات (٣/٢/١١٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣١٥)، والمتقي في الكنز (٥٨/٣٦).

(٣) وعن نحوه قال العراقي في المغني (٣/٢٤٩): رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ: يا بني سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء، وأما الرواية التي قال فيها: سيدكم عمرو بن الجموح فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن.

(٤) قال العراقي في المغني (٣/٢٤٨): رواه أبو داود من حديث جابر: بسند جيد.

(٥) رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، وللبيهقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت: ليهنك الشهادة. وهو عند الترمذي، إلا أن رجلاً قال له: أبشر بالجنة. قاله العراقي في المغني الموضع السابق.

علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة[١] فخطفت رداءه فوقف عليه السلام فقال: «اعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضدة نَعَماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[٢].

وعن عمر قال قسم النبي ﷺ قسماً، فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم، فقال عليه السلام: «إنهم يخيرونني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلونني ولست ببخيل»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخل على رسول الله ﷺ رجلان، فسألاه ثمن بعيرة، فأعطاهما دينارين، فخرجا من عنده فلقياهما عمر فأثنيا وقالا معروفاً وشكرا ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا، فقال: رسول الله ﷺ: «لكن فلاناً أعطيته ما بين عشرة / إلى مائة ولم يقل ذلك، إن أحدكم يسألني فينطلق بمسألته متأبطها وهي نار». فقال [٩٨] عمر: فلم تعطيه ما هو نار؟ فقال: «ما يأبون إلاَّ أن يسألوني ويأبى الله لي البخل»[٤]. وعن ابن عباس رضي الله عنه ﷺ أنه قال: «الجود من جود الله، فجودوا يَجدِ الله عليكم، ألا إن الله خلق الجود فجعله في صورة رجل، فجعل له رأساً راسخاً في أصل شجرة طوبى، وشبك أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، ألا إن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة، وخلق البخل ومقته، وجعل له راساً راسخاً في أصل شجرة الزقوم، ودلّى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق ببعض منها أدخله النار، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار»[٥].

وعنه عليه السلام أنه قال: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلاَّ سخي والبخل شجرة تنبت في النار ولا يلج النار إلاَّ بخيل»[٦]. وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله يبغض البخيل في حياته السخّي عند موته»[٧].

---

(١) في الأصل، والإحياء سمرة. وأحسبه تحريف.

(٢) رواه البخاري، قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٨).

(٣) في الإحياء بباخل. والحديث رواه مسلم قاله العراقي في المغني الموضع السابق.

(٤) رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار نحوه، ولم يقل أحمد أنهما سألاه ثمن بعير، ورواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) ذكره صاحب الفردوس (أي الديلمي) ولم يخرجه ولده في مسنده، ولم أقف له على إسناد. قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٨).

(٦) قال عنه العراقي كما قال على الذي قبله غير أنه قال: من حديث علي.

(٧) ذكره صاحب الفردوس، ولم يخرجه ولده في مسنده ولم أجد له إسناداً. العراقي في المغني (٣/٢٤٩).

وعن أبي برزة عنه أنه قال: «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل»[١]. وعن أبي هريرة عنه أنه قال: «لا يجتمع الشحّ مع الإيمان في قلب عبد»[٢] وقال أيضاً: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً»[٣] وعنه عليه السلام أنه قال: «يقول قائلكم الشحيح، أغدر من الظالم وأي ظلم أعظم عند الله من الشح حلف الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل»[٤].

وروي أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة البيت إلاَّ غفرت لي ذنبي قال رسول الله ﷺ وما ذنبك صفه لي؟».

[٩٩] / قال هو أعظم من أن أصفه لك قال: «ويحك ذنبك أعظم أم الأرض؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «فذنبك أعظم أم البحار؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «فذنبك أعظم أم السموات؟». قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «فذنبك أعظم أم العرش؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «ذنبك أعظم أم الله؟» قال: بل الله أعظم وأعلى قال: ويحك فصف لي ذنبك».

فقال: يا رسول الله أنا رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأتيني يسألني، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار، فقال رسول الله ﷺ: «إليك عني لا تحرقني بنارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو قمتم بين الركن والمقام، ثم صليت ألف ألف عام، وبكيت حتى تجري من دموعك الأنهار، وتسقي بها الأشجار، ثم مت وأنت لئيم لكبك الله في النار، ويحك أما علمت أن البخل كفر، والكفر في النار، ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٥].

الآثار: وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها: تزيني فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك، فأظهرت عين السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم، ففجر منها في الجنان، وأظهرت أنهار الخمر، وأنهار العسل واللبن، فقال لها: أظهري سرورك وجمالك وكراسيك وحليك وحُلَلك وحور عينك فأظهرت، فنظر إليها فقال:

---

(١) رواه الترمذي بلفظ: ولجاهل سخي... العراقي في المصدر السابق.
(٢) رواه النسائي وفي إسناده اختلاف. العراقي في المصدر السابق.
(٣) لم أره بهذا اللفظ. المصدر السابق.
(٤) لم أجده بتمامه، وللترمذي من حديث أبي بكر لا يدخل الجنة بخيل. المصدر السابق.
(٥) سورة الحشر الآية: ٩، والحديث بطوله باطل لا أصل له قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٩).

تكلمي، فقالت: طوبى لمن دخلني، فقال تعالى: وعزتي لا أسكننك بخيلاً.

وعن أخت عمر بن عبد العزيز أنها قالت: أفٍ للبخيل لو كان البخل قيمصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته. وعن طلحة بن عبد اللَّه أنه قال: إنا نَجُدْ بأموالنا ما يجد البخيل، ولكنا نتصبّر. وقال بعض الحكماء: /البخل جلباب المسكنة. وقال بعض البلغاء: البخيل [١٠٠] حارس نعمة، وحازن ورثته. وأنشد لبعض الشعراء:

إِذَا كُنْتَ جَمَّاعاً لِمَالِكَ مُمْسِكاً فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينُ
تُؤَدِّيه مَذْمُوماً إِلى غَيْرِ حَامِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْواً وَأَنْتَ دَفِينُ

وقال بعض الأدباء: البخيل ليس له خليل وعن محمد بن المنكدر أنه قال: كان يقول: إذا أراد الله بقوم شراً أمَّرَ عليه أشرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم. وقال الشعبي: لا أدري أيهم أبعد غوراً في جهنم، البخيل أو الكذاب؟

وعن عليّ أنه قال في بعض خطبه: أنه سيأتي على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما في يده ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنْسَوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[١]. وقيل ورد على أنو شران حكيم الهند، وفيلسوف الروم فقال للهندي، تكلم. فقال: خير الناس من أُلِفَى عند السؤال سخياً، وعند الغضب وقوراً في القول متأنّياً، وفي الرفعة متواضعاً، وعلى كل ذي رحم مشفقاً. وقام الرومي فقال: من كان بخيلاً ورث عدوه ماله، ومن قل شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب مذمومون، وأهل النميمة يموتون فقراء، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه. وحكي أن بعض ذوي النباهة تظاهر بحب الثناء مع إمساك فيه فقال بعض الشعراء:

أراكَ تُؤَمِّلُ حُسْنَ الثَّنَاء وَلَمْ يَرْزُقْ الله ذَاكَ الْبَخِيلا
وَكَيْفَ يَسُودُ أَخُو بِطْنَةٍ يَمُنُّ كَثِيراً وَيُعْطِي قَلِيلا

وعن الضحاك في قوله: ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً﴾[٢]. قال: البخيل يعني أمسك الله أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى.

وعن كعب أنه قال: ما من صباح إلاّ وقد وكل به ملكان /يناديان اللهم عجل للمسك [١٠١] ماله تلفاً، وعجل للمنفق خلفاً. وفي رواية عن أبي الدرداء ما من يوم غربت شمسه إلاّ وملكان يناديان. الحديث.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٣٧.
(٢) سورة يّس الآية: ٨.

وعن عروة بن الزبير قال قال رسول الله ﷺ السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار[(١)]. وعنه ﷺ أنه بلغه عن الزبير إمساك فجبذ عمامته إليه فقال: «يا زبير أنا رسول الله إليك وإلى غيرك يقول أنفق أُنفق عليك ولا توك فأوك عليك».

وعن الأصمعي قال: سمعت أعربياً وقد وصف رجلاً فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينيه فكأنما يرى السائل إذا راه ملك الموت إذا أتاه. وذكر في كتاب العقد: أن عبد اللّه بن الزبير كان من البخلاء وكان تكفيه أكلة في أيام ويقول: إنما بطني شبر في شبر فما عسى أن يكفيه قال: فقال فيه أبو وجره مولى الزبير:

لو كان بطنُك شبراً قد شبعت وقد ابقيت خيراً كثيراً للمساكين
فإن تصبك من الإيام جائحة لم تبك على دنيا ولا دين
ما زلت في سورة الأعراف تدرسها حتى فؤادي كمثل الخزفي المين
إن امرأ كنت مولا فضيّعني يرجو الفلاح لعندي حق مغبون

قال: وأقبل إليه أعرابي فقال له: أعطني وأقاتل عنك أهل الشام. فقال: إذهب فقاتل فإن أُعييت أعطيتك. فقال: أراك جعلت روحي نقداً ودراهمك نسيئة. قال وأتاه أعرابي يسأله حملانا ويذكر أن ناقته نقبت عليه. فقال: أنعلها بسبت. فقال الأعرابي: إنما أتيتك مستوصلاً ولم آتك مستوصفاً. /وقال: فلا حملت ناقة حملتني إليك. فقال: إن وصاحبها. قال وابن الزبير القائل: أكلتم تمري وعصيتم أمري، فقال فيه الشاعر: [١٠٢]

رَأَيْـتُ أَبَـا بَكْـرٍ وَرَبّـك غَـالِـبٌ عَلَـى أَمْـرِ يَـرْجُـو الْخِـلَافَـةَ بِـالتَّمْـرِ

وعن أبي حنيفة قال: لا أعزل بخيلاً لأنه يحمل البخل على الاستقصاء فيأخذ أكثر من حقه خيفة أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة. وقال عليٌ: والله ما استقصى كريم قط قال الله تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾[(٢)]. يعني عرف النبي عائشة ـ أي أعلمها ـ إفشاء بعض حديثه إياها وهو تحريمه مارية القبطية، ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ قيل: حديثه لها أن الخلافة تكون لأبيها بعده أعرض عنه لئلا تنشر، والله أعلم.

وعن الجاحظ أنه قال: ما بقي عن اللذات إلاّ ثلاث؛ ذم البخلاء، وأكل القديد، وحك

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ٢٤٠): رواه الترمذي وقال: غريب ولم يذكر فيه: وأدوأ الداء البخل. ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه. قلت: وكان ذكر في الإحياء بأتم مما هنا.

(٢) سورة التحريم الآية: ٣.

الجرب. وعن بشر بن الحارث أنه قال: البخيل لا غيبه له، قال ومدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا: صوامه قوامة إلاّ أن فيها بخلاً قال: «فما خيرها إذاً»[١].

وعن بشر أنه قال: النظر إلى البخيل يقسي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين. وفي كتاب العقد ومن أمثال العرب في البخيل قولهم: ما هو إلاّ ابنة عطا وعقد رشا. لأن عقد الرشا المبلول لا تكاد تنحل. وعن يحيى بن معاذ أنه قال: يأبى القلب للأسخياء إلاّ حباً ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إلاّ بغضاً ولو كانوا أبراراً. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه.

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما السلام لقي إبليس اللعين في صورته فقال: يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم عنك. فقال: أحب الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغضهم إلي الفاسق السخي. قال: لِمَ؟ قال: لأن البخيل قد كفاني / بخله، والفاسق السخي أخاف أن [١٠٣] يطلع الله عليه في سخائه فيقبل، ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى ما أخبرتك.

ويقال: ضيف البخيل آمن من التخمة. ومن كتاب العقد قال: قيل لمدينة: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قالت: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده. قيل: فما الذل؟ قالت: وقوف الشريف إلى باب الدنيء ثم لا يؤذن له. قيل فما الشرف؟ قالت: اتخاذ المنن في رقاب الرجال. قال: وتقول العرب لمن لم يظفر بحاجته وجاء خائباً: جاء فلان على حاجبيه صوفة. وأنشد لأبي عطاء السندي في يزيد بن عمرو بن هبير.

ثــلاث حكتهــن لقــوم قيــس   طلبــت بهــا الأخــوة والثنــاء
رجعــن علــى حــواجبهــن صــوف   وعنــد الله يحتســب الجــزاء[٢]

فصــل

ومن كتاب سراج الملوك قال: الشح في كلام العرب: البخل ومنع الفضل.

كان عليه السلام يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من شح نفسي وإسرافها ووسواسها»[٣] قال: وفرّق مفرقون بينهما فقالوا: الشح أشد من البخل؛ فالبخل أكثر ما يقال في النفقة

---

(١) أطرافه عند: ابن المبارك في الزهد (٢٥٧) الخرائطي في مكارم الأخلاق (٥٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٥٣٩).

(٢) راجع أغلب الآثار في إحياء علوم الدين (٣/ ٢٤٩: ٢٥٠).

(٣) أورد القرطبي في تفسير (١٨/ ٣٠).

وأسبابها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾[١].

والشيح مبنيّ على الكراهة والامتناع، فهو يكون في المال وفي سائر البدن قال الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾[٢]. الآية. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾[٣]. الآية. وعن طاوس قال: الشح أن يبخل الرجل بما في أيدي الناس، والبخل أن يبخل بما في يده. وعن ابن عمر قال: الشح أشد من البخل، لأن الشحيح هو الذي يشح بما في يـد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيمسكه، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده، ولذلك قال ابن المبارك: سخاء النفس بما في أيد الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

[١٠٤] وقال رجل لابن مسعود: /إني أخاف أن أكون هلكت، سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآية. وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء. قال: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله، ولكن الشح أن تأكل لحم أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل وليس بالشح. قال ابن عباس: يتبع هواه. وعن النبي ﷺ أنه قال: «بَرِيءَ من الشح من أدى الزكاة، وأقرى الضيف، وأعطى في النائبة»[٤]. وقال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يدعه الشح إلى منع شيء أمره الله به فقد وقى شح نفسه.

واعلم أن البخل يكون سوء الظن بالله تعالى أن يخلف ولا يثيب، وهذا يوهن التصديق بما تكفل الله به، ويؤدي ذلك إلى الامتناع من جميع أوامر الله التي بين العبد وبين الخالق، وبين الخلق من ترك معاونتهم والنصح لهم.

وروي أن كسرى قال لأصحابه: أيّ شيء أضر بابن آدم؟ قالوا: الفقر. قال: الشح أضر من الفقر؛ لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح لا يشبع، والله أعلم.

فصل: في أخبار البخلاء

ومن كتاب العقد قال: أجمع الناس على بخل أهل مرو ثمّ أهل خراسان. قال: وقال ثمامة بن أشرس ما رأيت الديك في بلد قط إلاّ وهو يدعو الدجاج لتلتقط الحب معه إلاّ بمرو؛ فإني رأيته يأكل وحده فعلمت أن لؤمهم في الماء. قال: ورأيت بمرو طفلاً صغيراً وبيده بيضة

---

(١) سورة محمد الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ١٩.

(٣) سورة التغابن الآية: ١٦.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ٢٤١).

فقالت: أعطني هذه البيضة. فقال: ليس تسع يدك. فعلمت أن اللؤم والمنع فيهم طبع مركب.

قال: واشتكى رجل مروزي صدره من سعال فدلوه على سويق اللوز، فاستثقل النفقة، فرأى الصبر على الوجع/ أخف عليه، فبينما هو يماطل الأيام إذ أتيح له بعض الموفقين فدلَّه [١٠٥] على ماء النخالة فقال: إنه يجلو الصدر.

فأمر بالنخالة فطبخت له، فشرب من مائها فجلى صدره، فوجده يعصم، فلما حضر غداءه أمر به فرفع إلى العشاء. فقال لأم عياله: أطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر. فقالت: قد جمع الله لك بهذه النخالة دواء، وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة.

وقال رجل مروزي دخلت على رجل من أهل خراسان بليل، فإذا هو بمسرجة فيها فتيل في غاية الرقة، وقد ألقي في دهن المسرجة شيء من ملح وقد علـق عليها عود بخيط معقود إلى المسرجة فإذا عشى المصباح أشخص رأس الفتيلة بالعود. فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً.

قال: قد شرب الدهن، فإذا لم نحفظه وضاع احتجنا إلى غيره فلم نجده إلاَّ عطشاناً، فإذا كان هذا دائماً ضاع من دهننا في الشهر بقدر ضياء ليلة. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل عليه شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال: أيا فلان فررت من شيء فوقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء؟ أوليس بهذا العود البارحة عند انطفاء السراج إرواء؟ وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قال: قد كنت جاهلاً مثلك حتى وفقنا الله لما هو أرشد، اربط عافاك الله مكان العود إبرة كبيرة أو مسلة صغيرة؛ فإن الحديد أبقى ومع ذلك غير نشاف، والعود والقصبة ربما تتعلق به الشعرة من قطن الفتيلة فتنقص منها، وربما كان ذلك سبباً لانطفائها. فقال الخراساني: ألا وإنك لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأعمال الصالحين. قال: وكان ثمامة بن أشرس يقول: /إياكم وأعداء [١٠٦] الخبز إن تأدموا بها، واعلموا أن أعدى عدو له المملوك، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل. وكان يقول: كلوا الباقلاء بقشره؛ فإن الباقلاء يقول: من أكلني بقشري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشري فأنا أكلته. قال: ومن البخلاء هشام بن عبد الملك، قال خالد بن صفوان: دخلت في هشام فحدثته وأظرفته فقال: سل حاجتك. فقلت: تزيد في عطائي عشرة دنانير. فأطرق ملياً ثم قال: لِمَ؟ وفِيمَ؟ وبم؟ ألعبادة أحدثتها أم لبلاء حسن ابتليته

أمير المؤمنين؟ ألا يا ابن صفوان ولو كان أكره السؤال لم يحتمله بيت المال. فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وسددك وأنت كما قال الأول:

إِذَا الْمَالُ لَمْ يُوْجِبْ عَلَيْكَ عَطَاؤُهُ ... صَنِيْعَةَ قُرْبَى أَوْ صَدِيقٍ تُوَامِقُهُ
مَنَعْتَ وَبَعْضُ الْمَنْعِ حَزْمٌ وَقُوَّةٌ ... وَلَمْ يَسْتَلِبْكَ الْمَالَ إِلاَّ حَقَائِقُهُ

فقيل لخالد: ما حملك على تزيين البخل؟ فقال: أحببت أن يمنع غيري فيكثر من يلومه. قال: وخرج هشام بن عبد الملك متنزهاً ومعه الأبرش الكلبي، فمرّ براهب في دير فعدل إليه فأدخله الراهب بستاناً له فجعل يجتني له أطيب الفاكهة. فقال له هشام: يا راهب بعني بستانك هذا فسكت عنه ثم أعاد عليه الكلام فسكت فقال: ما لك لا تجيبني؟ فقال الراهب: وددت أن الناس ماتوا كلهم غيرك. قال: لماذا ويحك؟ قال: لعلك تشبع. فالتفت هشام إلى الأبرش الكلبي فقال: أسمعت ما يقول هذا؟ فقال: والله ما إن لقيك حُرٌّ مثله. قال: وحضر أعرابيّ صفرة هشام بن عبد الملك، فبينما هو يأكل معه إذ تعلقت شعرة في لقمة الأعرابي فقال له هشام: عندك شعرة في لقمتك يا أعرابي. قال: وإنك تلاحظني / ملاحظة من [١٠٧] يرى الشعرة في لقمتي، والله لا أكلت عندك أبداً فخرج وهو يقول:

ولَلْمَوتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ ... يُلاَحِظُ أَطْرافَ الأَكِيلِ عَلَى عَمْدِ

وقال آخر:

وَلَوْ عَلَيْكَ اتِّكَالِي في الغَذَاءِ إذاً ... لَكُنتُ أَوَّلَ مَدْفُون مِنَ الْجُوعِ
يَقُولُ عَنْدَ دُعَاءِ الضَّيْفِ مُبْتَدِئاً ... صَوْتَ دَلِيْلٍ وَدَاعٍ غَيْرِ مَسْمُوْعِ

ومن كتاب الغزالي[١] قال: وكان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه فقرّب إليه طياهجة بيض، فأكل منه وأكثر وجعل يشرب الماء، وانتفخ بطنه فنزل به الكرب والموت، وجعل يتلوّى فلما أجهده الأمر وصف حاله لطبيب فقال: فقال: لا بأس عليك تقيأ ما أكلت. فقال: هاه أتقيأ طياهجة بيض، أموت ولا أتقيأ طياهجة بيض.

وقيل: أقبل أعرابي يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطّى بكسائه التين. فجلس الأعرابي فقال له الرجل: هل تحسن شيئاً من القرآن. قال: نعم وقرأ: ﴿وَالزَّيْتُونِ[٢] وَطُورِ

---

(١) راجع إحياء علوم الدين (٣/ ٣٥٠).

(٢) جاء قبلها: (والتين). فحذفتها اعتماداً على السياق بعدها ثم أنه موافق لما في إحياء علوم الدين للغزالي (٣/ ٢٥١).

سَينِينَ﴾[١]. فقال: وأين التين؟ قال: تحت كسائك. قال: ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل فسئل نسيب له كان يألفه عنه وقال له قائل: صف لي مائدته فقال: هي فتر في فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش. قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: أفما يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب. وقال: سوأتك بدت وأنت[٢] خاصّ به وثوبك مخرق فقال: أي والله ما أقدر على إبرة أخيط بها، ولو ملك محمد بيتاً[٣] من بغداد إلى الكوفة مملوءاً إبراً، ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يضمنون منه[٤] إبرة وسألوه: أعرناها لنخيط[٥] بها قميص يوسف ابنه الذي قُدَّ / من دبر ما فعل. [١٠٨]

وفي كتاب العقد قال: أخذ المعنى، محمد بن مسلمة يهجو به ابن الأغلب فقال:

لَوْ أَنَّ قَصْرَكَ يَا ابْنَ أَغْلَبَ مُمْتَلٍ ... إِبَراً عَلَى سَعَةِ الفَضَا وَالْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً ... مِنْهَا لِقَدِّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وقال آخر:

لِسَانُكَ أحْلَى مِنْ جَنَا عَسَلٍ وَعْدا ... وكَفُّكَ بِالْمَعْرُوفِ أَضْيَقُ مِنْ قُفْلِ
تَمَنَّى الَّذي يَأْتِيكَ حَتَّى إِذَا انتَهَى ... إِلَى أَمَدٍ نَاوَلْتَهُ طَرَفَ الْحَبْلِ

ومن كتاب العقد قال بعضهم: دخلت على يحيى بن خالد بن عبد الله بن أمية وقوم يأكلون معه، فمدّ يده إلى رغيف من الخوان، فرفعه وجعل يرطله بيده، ويقول: يزعمون أن خبزي صغير فمن هذا الزاني ابن الزانية الذي يأكل من هذا نصف رغيف. قال: ودخلت عليه مرة أخرى والمائدة موضوعة والناس قد أكلوا، فمددت يدي لآكل. فقال: اجهز على الجرحى ولا تتعرض للأصحاء. يقول: عَرِّض للدجاجة التي نيل منها، والفرخ المنزوع الفخذ وأما الصحيح فلا تتعرض له. قال: وشوي لأبي جعفر الهاشمي دجاج، ففقد فخذاً من دجاجة، فأمر فنودي في عقر داره: من هذا الذي فعقر، والله لا يخبز في هذا التنور شهراً أو يرد. فقال ابنه الأكبر: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. قال دعبل: كنا يوماً عند سهل بن هارون فأطلنا

---

(١) أول سورة التين.
(٢) في الأصل: «سوءة له أنت». والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/٢٥١).
(٣) في الأصل: «بيقا». والتصويب من المصدر السابق.
(٤) في الأصل: «عنه». والتصويب من المصدر السابق.
(٥) في الإحياء الموضع السابق: إعارتهم إياها ليخيط.

الحديث حتى ضرّبه الجوع، فأُتي بغدائه، فإذا بصحفة قديمة فيها مرق ديك قد هرم لا يجز فيه سكين ولا يؤثر فيه ضرس، فأخذ قطعة خبز فقلّب بها ما في الصحفة ففقد الرأس. فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟ قال: رميت به. قال: ولِمَ؟ قال: ظننت أنك [١٠٩] لا تأكله. قال: / ولأي شيء ظننت ذلك، والله إنّي لأمقت من يرمي برجله فضلاً عن رأسه، والرأس زين وفيه الحواس ومنه يصيح الديك ودماغه عجب، وفيه عينه التي يضرب بها المثل فيقال: شراب مثل عين الديك، ودماغه ينفع لوجع الكلية، ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه، فإن كان بلغ من جهلك ألاّ تأكله فإن عندنا من يأكله انظر أين هو؟ قال: والله لا أدري أين رميت به. قال: والله أدري رميت به في بطنك.

وفي كتاب الغزالي قال: ويقال كان مروان ابن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم فيرسل غلامه، فيشتري له رأساً فيأكله. فقيل له: نراك لا تأكل إلاّ الرأس في الصيف والشتاء؟ قال: نعم الرأس أعرف بسعره فآمن من خيانة الغلام، ولا يستطيع أن يغشني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، وأما الرأس إن مس أذناً أو عيناً أو خداً وقفت على ذلك، وآكل منه ألواناً أكل عينه لوناً وأذنه لوناً وغلصمته لوناً ودماغه لوناً، وأكفى مؤنة طبخه فقد اجتمعت لي فيه موافق. قال: وخرج يوماً يريد المهدي الخليفة فقالت له امرأة من أهله: مالي عليك إن رجعت بالجائزة قال: إن أعطيت مائه ألف أعطيتك درهماً، فأعطى ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوانق. قال: واشترى لحماً بدرهم فدعاه صديق له فَرَدّ اللحم إلى القصاب بنقصان دانق. وقال: أكره الإسراف. وفي كتاب العقد قال: وقد وقع درهم بيد سليمان بن مزاحم فجعل يقلبه ويقول في شق: لا إله إلا الله وفي شق آخر: قل هو الله أحد، ما ينبغي لهذا أن يكون إلا أن يكون إلاّ تعويذاً أو رقية ورمى به في الصندوق.

[١١٠] ومن البخلاء: / أبو الأسود الدؤلي قال: ودخل أعرابي وهو في فسطاط له وبين يديه طبق رطب فقال: السلام عليكم. فقال أبو الأسود: كلمة مقولة. قال الأعرابي: أدخل. قال: وراءك أوسع لك. قال: إن الرمضاء أحرقت قدميّ. قال: بُل عليهما تبردان. قال: أتأذن لي فآكل معك. قال: سيأتيك ما قدّر لك. قال: بالله ما رأيت رجلاً ألأم منك. قال: قد رأيت إلاّ أنك نسيت. ثم أقبل أبو الأسود يأكل حتى لم يبق في الطبق إلاّ تميرات نبذها إلى الأعرابي فجعل يمسحها بكسائه. فقال له أبو الأسود: يا هذا إن الذي تمسحها به أقذر من الذي تمسحها منه. قال: أكره أن أدعها للشيطان. قال: والله ولا لجبريل وميكائيل ما كنت لتدعها. الهيثم بن عدي قال: نزل على أبي حفصة والد مروان بن أبي حفصة الشاعر رجل باليمامة فأخلى له

المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة، فخرج الضيف فاشترى ما يحتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يَـا أَيُّهَـا الْخَـارِجُ مِـن بَيْتِـهِ   وَهَـارِبـاً مِـنْ شِـدَّةِ الْخَـوْفِ
ضَيْفُـكَ قَـدْ جَـاءَ بِـزَادٍ لَـهُ   فَارْجِعْ تَكُنْ ضَيْفاً عَلَى الضَّيْفِ

قال آخر في هذا المعنى:

تَـرَاهُـمْ خَشْيَـةَ الأَضْيَـافِ خُـرْسـاً   يُقِيمُـونَ الصَّـلاَةَ بِـلاَ أَذانِ

وقال آخر هذا المعنى:

قَـوْمٌ إِذَا أَكَلُـوا أَخْفَـوا كَـلاَمَهُـمُ   وَاسْتَوْثَقُوا مِنْ رِتَاجِ الْبَابِ وَالدَّارِ
قَـوْمٌ إِذَا نَبِـحَ الأَضْيَـاف كَلْبَهُـمُ   قَـالُـوا لأُمِّهِـم بُـولِـي عَلَـى النَّـارِ

وأنشد لبعض الأعراب:

إِنَّ هَـذَا الفَتَـى يَصُـونُ رَغِيفـاً   مَـا إِلَيْـهِ لِنَـاظِـرٍ مِـنْ سَبِيـلِ
هُوَ فِي صُفْرَتَيْنِ مِنْ أدم الطَّـا   ئِـفِ فِـي سُلَّتَيْـنِ فِـي مِنْـدِيـلِ
/فِي جِرَابٍ فِي جَوْفِ تَابُوتِ مُوسَى   والْمَفَـاتِيـحُ عِنْـدَ مِيكَـائِيـلِ [١١١]

وأخبار البخلاء والأشعار المقولة فيهم كثيرة تركتها مخافة التطويل بلا فائدة التحصيل.

احتجاج البخلاء في بخلهم: ومن كتاب العقد الأصمعي، قال أبو الأسود الدؤلي: لو أطعنا المساكين في أموالنا لكنا أسوء حالاً منهم. وقال لبنيه: لا تطيعوا المساكين في أموالكم؛ فإنهم لا يقنعون منكم حتى يروكم في مثل حالهم. وقال: لا تحادوا الله عز وجل ولو شاء أن يغني الناس كلهم لفعل، ولكنه علم أن قوماً لا يصلح لهم إلاَّ الفقر، وقوم لا يصلح لهم إلاَّ الغنى.

وقال رجل من تغلب: أتيت رجلاً من كندة أسأله. فقال: يا أخا بني تغلب إني لم أسألك حتى أحرم من أقرب منك إليَّ، إني والله لو مكنت الناس من داري لنقضوها طوبة طوبة، والله يا أخا بني تغلب ما بقي من يدي من مالي وأهلي وعرضي إلاَّ ما منعته من الناس، وهذا نظير معنى قول الآخر: من أعطى في الفضول قصر في الحقوق.

وقال لقمان لابنه: يا بني أوصيك باثنين لن تزال بخير ما تمسكت بهما: درهمك

لمعاشك ودينك لمعادك[١]. وقال أبو الأسود الدؤلي إمساكك ما في يدك خير من طلبك ما في يد غيرك وأنشد في هذا المعنى:

يَلُومُونَنِي فِي الْبُخْلِ جِهْلاً وَضِلَّةً ... وَلَلْبُخْلُ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ بَخِيلِ

ونظيره قول الملتمس:

وَحِفْظُ الْمَالِ أَيْسَرُ مِنْ لَقَاهِ ... وَضَرْبٌ فِي الْبِلَادِ بِغَيْرِ زَادِ
وَإِصْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ ... وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ

وقيل لخالد بن صفوان: مالك لا تنفق فإن مالك عريض؟ فقال: الدهر أعرض منه. [١١٢] قيل: كأنك تأمل أن تعيش الدهر كله. قال: لا/ ولكنّي أخاف أن لا أموت في أوله. وقال الجاحظ: قلت للحيراني: أترضى أن يقال لك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم؛ لأنه لا يقال لي بخيل إلاّ وأنا ذو مال، فسلِّم لي المال وسَمِّني بأي اسم شئت.

قلت: ولا يقال لك سخي إلاّ وأنت ذو مال، فقد جمع الله لهذا الاسم المال والحمد، وجمع لذلك الاسم المال والذم. قال: بينهما فرق عجيب إن في قولهم بخيل سبباً لمكث المال في ملكي وفي قولهم سخي سبب لخروجه من ملكي، واسم البخل فيه حزم واسم السخاء فيه تضييع والمال نافع ومكرم لأهله، والحمد ريح سخرية لأهله، وما أقل غني الحمد عنه إذا جاع بطنه وعرى جسده وجاع عياله وشمت عدوه.

وقال محمد بن الجهم: من شأن من استغنى عنك ألاّ يقيم معك، ومن احتاج إليك أن لا يزول ومن حبك لصديقك وظنك بمودته ألاّ تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يحوجه إليك.

وقد قيل في مثل هذا: اجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك. فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر، وقطع أسبابه من الشكر، والمعين على الغدر شريك الغادر، كما أن مزين الفجور شريك الفاجر.

---

(١) أرى أن هذا القول وإن كان ظاهر مقبول إلا أنه يجب أن لا يوضع في موضع البخل والشح هذا إن لم يكن غير صحيح وأريد به الطعن من طرف خفي في لقمان عليه السلام فإن لقمان وصفه الله تعالى بالحكمة فلو صح هذا القول إليه وليس مقصوده ما ذهب إليه من وضعه في هذا الباب بل هو التوسط في الانفاق بين الإسراف والتقتير وليست الصدقة من الإسراف بل هي مما ينمي المال ومن أعلم الناس بذلك من آتاه الله الحكمة وأظن أن المؤلف رحمه الله تعالى لم يتنبه إلى ذلك وكان عليه أن يذكره في باب الاقتصاد مثلاً، هذا والله أعلم.

وقال يزيد بن عمرو الأسدي لبنيه: يا بَنيَّ تعلموا الرَّد فإنه أشد من العطاء، فلان تعلم بنو تميم أن عند أحدكم مائة ألف أعظم في أعينهم ممن لو قسمها عليهم، ولأن يقال لأحدكم بخيل وهو غني خير من أن يقال له سخيّ وهو فقير. وقال رجل لثمامة بن أشرس: إن لي إليك حاجة قال: وأنا لي إليك حاجة.

قال: وما حاجتك إليّ؟ قال: لا أذكرها حتى تضمن قضاءها. قال: قد فعلت. قال: حاجتي إليك أن لا تسألني حاجة. قال: فانصرف الرجل. وقال حصين / بن المنذر: وددت [١١٣] لو أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه بشيء. قيل: فما كنت تصنع به؟

قال: لكثرة من يخدمني عليه؛ لأن المال مخدوم. وقال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلاَّ أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً. ومن الأشعار التي يتمثل بها البخلاء:

وَزَهَّدَنِي فِي كُلِ خَيْرٍ صَنَعْتَهُ إِلَى النَّاسِ مَا جَرَّبْتَ مِنْ قِلَّةِ الشُّكْرِ

وقال آخر:

ارْفَعْ قَمِيْصَكَ مَا اهْتَدَيْتَ لِجَيْبِهِ فَـإِذَا أَضَلَّـكَ جِيْبُـه فَـاسْتَبْـدِلِ

وقول ابن هرمة:

قَـدْ يُـدْرِك الشَّـرَف الْفَتَـى وَرِدَاءَهُ خَلِـق وَجَيْـب قَمِيْصِـه مَـرْقُـوعُ

وقال سهل بن هارون: لو قسمت بين الناس مائة ألف لكان أكثر للائمي، وقوله قول ابن الجهم: منع الجميع إرضاء الجميع. ولسهل في كتاب العقد رسالة مشهورة يحتج فيها للبخل تركتها مخافة التطويل، والذي يقطع به جميع احتجاج البخلاء هو أن الله أمر بالانفاق ووعد عليه الفضل والخلف والثواب والمغفرة، ونهى عن البخل وذمه، ووعد عليه العقاب وأمر بمجاهدة الهوى في إنفاق المال الذي هو محبوب النفس أعظم المجاهدة لها، ونهى تعالى عن موافقة الهوى، وفي إمساك المال أعظم شهوات النفس.

وأيضاً أن السخي محبّب إلى القلوب وقد اتفقت الألسن على مدحه، والبخيل مبغض إلى القلوب وقد اتفقت الألسنة على ذمه والله تعالى يوصف بالجنود والكرم ولا يوصف بالشح والبخل، والبخيل يسيء بالله والسخي بخلافه، والله المستعان[١].

---

(١) راجع بعض حكايات وأخبار البخلاء في إحياء علوم الدين منها ما هو هنا ومنها ما ليس مذكور في هذا =

فصــل

[١١٤] اعلم أن البخل ذريعة إلى كل مذمة وقد يحدث في الإنسان بسببه / أربعة أخلاق وناهيك بها ذماً وهي؛ الحرص، والشرة، وسوء الظن، ومنع الحقوق.

فأما الحرص: فهو شدة الكدح والإسراف في الطلب.

وأما الشره: فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة، فهذا فرق بين الحرص والشره من لا يجديه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يغنيه. وقال بعض الحكماء: الشره من عزائم اللوم.

وأما سوء الظن: فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل، فإن كانت بالخالق كانت شكاً يؤل إلى الضلال، وإن كانت بالمخلوق كانت استخانة يصير بها مختاناً وخواناً، لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه، فإن وجد فيها خيراً ظنه بغيره، وإن رأى منها سوءاً اعتقده في الناس.

وقد قيل في المثل: كل إناء ينضح بما فيه. فإن قيل: قد تقدم من قول الحكماء: أن من الحزم سوء الظن. قيل: تأويله قلة الاسترسال إليهم لا اعتقاد السوء فيهم.

وأما منع الحقوق: فإن نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها، فإذا مال البخيل إلى هذه الأخلاق المذمومة لم يبق معه خير موجود لإصلاح مأمول، والله أعلم.

فصل: في علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوة التي لا وصول إليها إلاَّ بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل ولكن له أولاد قاموا في قلبه مقام طول الأمل، وقد جاء في الحديث: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة»[(١)]. فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بضمان الرب تعالى قَوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه طول عمره إذا اقتصر على ما جرت به العادة في النفقة ويفضل ألفاً وهو شحيح، وربما يكون شيخاً كبيراً ولا ولد

= الكتاب (٣/ ٢٥٠: ٢٥١).

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ٢٥٥): زاد في رواية: «محزنة»، رواه ابن ماجة من حديث يعلى بن مرة دون قوله: «محزنة»، رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبي سعيد، والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح.

/له ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسُه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار [١١٥] محباً للدنانير عاشقاً لها يتلذذ بوجودها فيكنزها تحت الأرض، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا لا تسمح نفسه أن يأكل أو يتصدق، وهذا مرض في القلب عظيم عسير العلاج ولا سيّما في كبر النفس فهو مرض مزمن لا يرجى علاجه؛ لأن المقصود بالمال قضاء الحاجة. والفاضل عن قضاء حاجة الإنسان بمثابة الحجر فمحب الدنانير بلا قضاء حاجة كمحب الحجر وذلك غاية الضلال، فهذه أسباب حب المال.

وإنما علاج كل علة بما يضاددها، فعلاج حب الشهوة بالقناعة باليسير والصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، وبموت الأقران، ويعالج إلتفات القلب إلى الولد بأن الذي خلقه تكفّل برزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه شيئاً وحاله أحسن ممن ورث، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده ليتركه بخير وينقلب هو إلى شر، فإن كان ولده تقياً صارت له المنفعة، وإن كان فاسقاً استعان بماله على المعصية ويكثر التأمل أيضاً في أحول البخلاء ونفرة الطبع عنهم.

ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقصود المال، ولماذا خلق من أجله فلا يحفظ منه إلاّ بقدر حاجته والباقي يدخره لنفسه ثواباً ليوم فقره، ويتفكر في شؤم البخل به وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾. إلى قوله: ﴿بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً﴾[١]. الآية. وبلغنا أن هذه الآية نزلت في ثعلبة بن خاطب[٢].

قصة ثعلبة بن خاطب: وذلك أنه روي عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة قال: يا رسول الله أدع الله أن يرزقني / مالاً. قال: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». فألحّ عليه [١١٦] مرتين. فقال: «يا ثعلبة، أمالك فيّ أسوة؟ أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت». قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ولأفعلن ولأفعلن. فقال عليه السلام: «اللّهم ارزق ثعلبة مالاً». فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر مع الجماعة ويدع ما سواهما فنمت وكثرت حتى ترك الصلاة في الجماعة إلاّ الجمعة، فطفقت تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق يلقى الركبان في يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار، فقال ﷺ: «ما فعل ثعلبة بن

---

(١) سورة التوبة الآيات: ٧٥،٧٦،٧٧.

(٢) في الأصل: تغلبة بن خاطب. وهو تحريف، وهو أنصاري بدري قتل بأُحد وما يدور حول قصته هذه محض كذب وافتراء.

حاطب؟» فقيل: يا رسول الله ﷺ اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة، وأخبر بأمره كله. فقال: «يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[١] الآية. فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة، وأمرهما أن يخرجا ويأخذا الصدقة من المسلمين، وقال: «مُرَّا بثعلبة بن حاطب وبفلان من بني سليم وخذا صدقتهما». فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب النبي عليه السلام، فقال: ما هذه إلاَّ أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم تعودان إليَّ، فانطلقا نحو السلمي، فسمع بهما فقام إلى خير أسنان إبله فعزلهما للصدقة، ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالاَ: لا يجب عليك هذا، أو ما نريد نأخذ هذا منك. قال: بل خذاها ونفسي بها طيبة فإنما هيأتها لتأخذاها فلما فرغا من صدقاتهما حتى مَرّا بثعلبة فسألاه الصدقة. فقال: أروني / كتابكما فنظر فيه فقال: ما هذه إلاَّ [١١٧] أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى لقيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة». قبل أن يعلماه، ودعا للسلمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السلمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٢]. الآية. وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما نزل فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أمّ لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك. فخرج حتى أتى النبي عليه السلام فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثي التراب على رأسه فقال عليه السلام: «هذا عملك أمرتك فلم تطعني». فلما أبى، أن يقبل منه رجع إلى منزله، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، فتوفي ثعلبة بعد خلافة عثمان[٣]، فهذا طغيان المال وشؤمه.

فصـــل

وحكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس في أيديهم شيء مما ينتفع به من دنياهم، قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها وصلوا عندها، ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قيّض الله لهم في ذلك معايش من نبات الأرض فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقيل له: أجب الملك ذا القرنين. فقال: ما لي إليه حاجة. فأقبل إليه ذو القرنين،

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٣.
(٢) سورة التوبة الآية: ٧٥.
(٣) قال العراقي في المغني (٣/٢٦٦): رواه الطبراني بسند ضعيف.

فقال له: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت حتى جئت أنا. فقال: لو كانت [لي][(١)] إليك حاجة لأتيتك. فقال ذو القرنين: ما لي أراكم على الحال التي لم أر أحداً من الأمم عليها؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء، أفلا اتخذتم من الذهب والفضة / فاستمتعتم بهما؟ [١١٨] قالوا: إنما كرِهناها لأن أحداً لم يعط منها شيئاً إلاّ تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه. فقال: ما لكم احتفرتم قبوراً فإذا أصبحتم تعهدتموها وكنستموها وصليتم عندها؟ قالوا: أردنا إذا نظرنا إليها وأَمِلْنَا منعتنا قبورنا من الأمل. قال: وأراكم لا طعام لكم إلاَّ البقل من الأرض أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام، فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها. قالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام؛ فإن ما جاوز الحنك لم يجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام، ثم بسط يده ملك تلك الأرض خلف ذي القرنين فتناول جمجمة. فقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا أدري. قال: هو ملك من ملوك الأرض، أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض، فغشم وظلم، فلما رأى الله ذلك منه حسمه بالموت، فصار كالحجر الملقى، قد أحصى الله عليه عمله حتى يجازيه به في آخرته. ثم تناول جمجمة ثانية وقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا، ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الظلم، والغشم فتواضع، وخشع لله، وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجازيه في آخرته. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين، فقال: وهذه الجمجمة كأن قد كانت كهذه فانظر يا ذا القرنين هلاَّ كنت في صحبتي فأتخذك أخاً ووزيراً شريكاً فيما أتاني الله من هذا المال. قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً. قال: ذو القرنين: ولِمَ؟ قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدوّ ولي صديق. / قال: ولِمَ؟ قال: يعادونك لما في يدك من الملك والمال والدنيا، ولا أجد أحداً يعاديني [١١٩] لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء. قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به والله أعلم[(٢)].

فهذه المعاني والحكايات أدوية لعلاج البخل من جهة العلم والمعرفة مع ما سنورده إن شاء الله من الأخبار والحكايات في مدح السخاء وفضله، فإذا تأمل الإنسان ذلك بنور البصيرة عرف أن إعطاء المال خير له من إمساكه في الدنيا والآخرة، فإذا تحقق ما ذكرنا هاجت رغبته

---

(١) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/ ٢٦٧).

(٢) راجع قصة ذي القرنين مع الملك في الإحياء وكثير مما في الباب (٣/ ٢٦٧: ٢٦٨).

في البذل إن كان عاقلاً فإذا تحركت الداعية فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف لأن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ليصده عن الصدقة.

ويقال: كان بعض مشايخ السلف في موضع الخلاء، فدعا تلميذاً له فقال: انزع القميص عني وادفعه إلى فلان. فقال: هلاّ صبرت حتى تخرج. قال: لم آمن على نفسي أن تتغير وكان قد خطر لي بذله. ولا تزول صفة البخل إلاّ بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلاّ بالسفر عن مستقر المعشوق ثم يتكلف أمر الصبر فيسلو عنه قلبه.

فكذلك الذي يريد أن يعالج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً مع الجهد مرة بعد أخرى حتى يميت من نفسه صفة البخل فيصير السخاء له طبعاً ويسقط عنه التعب فيه.

وعن وهب قال: ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحاً إلاّ جعل الله ذلك طبيعة فيه، ومن عرف آفة المال لم يأخذ منه إلاّ قدر الحاجة، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل؛ لأن ما أمسكه لحاجته فليس إمساكه ذلك بخلاً منه، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه بل يبذله وإنما هو كالماء على شاطىء النهر لا يبخل به أحد لقناعة / الناس منه بقدر الحاجة. [١٢٠]

فهذه أدوية من جهة العمل في علاج البخل أيضاً؛ لأن من لم يسلك هذا السبيل حتى يتجافى قلبه عن متاع الدنيا أَنِس بها وأحبها، فإن كان له مثلاً أَلفَ متاع كان له ألف محبوب، ولذلك إذا سرق له واحد منها ألمت به مصيبته بقدر حبه له، فإذا مات نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة؛ لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك.

وقد روي أنه حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج مرصع بالجراهر لم يُر له نظير ففرح الملك به فرحاً شديداً. فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه فقراً أو مصيبة. قال: وكيف؟ قال: إن انكسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر.

ثم اتفق أن كسر يوماً فعظمت مصيبة الملك فيه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا. وهكذا شأن جميع أسباب الدنيا، فإن الدينا عدوة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار، وعدوة لأولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوة لله؛ إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوة نفسها؛ فإنها تأكل نفسها، فإن المال لا يحفظ إلاّ بالخزائن والحراس ولا يمكن تحصيلهما إلاّ بالمال وهو بذل الدنانير والدراهم، فالمال يأكل غيره ثم نفسه حتى يفنى كالنار تأكل غيرها فإذا أعدمته أكلت نفسها فماتت وها نحن نذكر بفضيلة السخاء.

فصل: في فضل السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال: العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء / واصطناع المعروف والتباعد من الشح [١٢١] والبخل فإن السخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة، وعنه عَبَّر عليه السلام حيث قال: «السخاء شجرة في الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة»[١].

وعن جابر عنه أنه قال عن جبريل عن ربه عز وجل: «إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلاَّ السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم». وفي رواية: «ما صحبتموه»[٢] وعن عائشة عنه عليه السلام أنه قال: «ما جَبَّلَ الله وليّاً له إلاَّ على السخاء وحسن الخلق»[٣].

وعنه أيضاً أنه قال: «خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله فأما اللذان يحبهما الله: فالسخاء، وحسن الخلق، وأما اللذان يبغضهما: فالبخل، وسوء الخلق، فإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله على حوائج الناس»[٤]. وعنه عليه السلام أنه قال: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر»[٥].

وعن ابن مسعود رحمه الله عنه ﷺ أنه قال: «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين

---

(١) رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة، وابن عدي، والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة، وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم، ومن حديث الحسين، وأبي سعيد، قاله العراقي في المغني (٣/٢٣٨).

(٢) رواه الدارقطني في المستجاد. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه الدارقطني في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جداً. المصدر السابق.

(٤) رواه أبو منصور الديلمي دون قوله في آخره: وإذا أراد الله بعبد خيراً، وقال فيه: الشجاعة بدل حسن الخلق، وفيه: محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود، وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب، وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفاً على عبد الله بن عمرو، وروى الديلمي أيضاً من حديث أنس: إذا أراد الله بعبده خيراً صير حوائج الناس إليه، وفيه يحيى بن شبيب ضعفه ابن حبان. قاله العراقي في المغني (٣/٢٣٨).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط، والخرائطي في مكارم الأخلاق، وقال الخرائطي أقيلوا السخي زلته، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، ورواه الطبراني فيه، وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني. قاله العراقي في المغني (٣/٢٣٩).

إلى ذروة البعير، وإن الله ليباهي بمطعم الطعام الملائكة»[١] وعن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله، فأمر له بشاء كثيرة من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة»[٢]. وعن ابن عمر عنه أيضاً قال: «إن لله عباداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل وأمسك عن العباد نقلها الله إلى غيره»[٣].

وعن الهلالي أنه قال: أُوتي رسول الله ﷺ بأسارى من بني العنبس[٤] فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلاً. فقال عَلِيّ: يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم. فقال عليه السلام: «نزل جبريل عليه السلام فقال: اقتل هؤلاء واترك هذا فإن الله شكر له / سخاءً فيه»[٥]. [١٢٢]

وعن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام أنه قال: «يقول الله عز وجلّ اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي»[٦]. وعنه أيضاً أنه قال: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال»[٧].

---

(١) لم أجده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن ماجة من حديث أنس، ومن حديث ابن عباس بلفظ: الخير أسرع إلى البيت الذي يغشى، وفي حديث ابن عباس الذي يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير، ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر: الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاء.. الحديث، وكلها ضعيفة ـ المصدر السابق.

(٢) رواه مسلم، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه الطبراني في الكبير، والأوسط، وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين ووثقه ابن معين، يرويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزدي ـ المصدر السابق.

(٤) في الإحياء: «من بني العنبر».

(٥) لم أجد له أصلاً. العراقي في المغني (٣/٢٣٩).

(٦) رواه ابن حبان في الضعفاء والمتروكين والخرائطي في مكارم الأخلاق، والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبد الرحمٰن السدي، وقال إنه مجهول، وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني، والأزدي، ورواه الحاكم من حديث علي وقال: إنه صحيح الإسناد، وليس كما قال: قاله العراقي في المغني (٣/٢٣٨ : ٢٣٩).

(٧) رواه ابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ: ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره، وفيه: أحمد بن مهران، قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من =

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخيّ. وعن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وجعل عليهم قيس بن سعد ابن عبادة، فجهد وأفخر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله ﷺ بذلك فقال: «إن الجود من شيم أهل هذا البيت»(١) الآثار: وعن عليّ بن أبي طالب قال: إذا أقبلت الدنيا فأنفق منها فإنها لا تبقى، وإذا أدبرت عنك فانفق منها فإنها لا تبقى وأنشد:

لَا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ ... فَلَيْسَ يُنْقِصُهَا التَّبْذِيرُ والسَّرَفُ
فَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَىٰ أَنْ تَجُودَ بِهَا ... فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرَتْ خَلَفُ

وقال بعض البلغاء جود الرجل يحببه إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده. وقال بعض الفصحاء: خير المال ما استرق حراً، وخير الأعمال ما استحق شكراً. وقيل في منثور الحكم: الجود أعز موجود. ويروى أن معاوية سأل الحسن بن عليّ عن المروءة، والنجدة، والكرم.

فقال: **أما المروءة**: فحفظ الرجل دينه وحرزه نفسه، وحسن قيامه بضيعته، وحسن المنازعة، والإقدام في الكراهة.

وأما النجدة: فالذّب عن الجار والصبر في المواطن.

وأما الكرم: فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرأفة بالسائل مع بذل النائل. وأنشد لصالح بن عبدوس:

/ وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرءِ فِي النَّاسِ بُخْله ... وَيَسْتُرهُ عَنْهُم جِمْيعاً سَخَاؤُهُ [١٢٣]
تَغَطَّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي ... أَرَى كُلّ عَيْب فَالسَّخَاءُ غطَاؤُهُ

قال: ورفع رجل إلى الحسن بن عليّ رقعة فقال: حاجتك مقضية فقيل له: يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله عن ذل مقامه بين يَدّي حتى اقرأ رقعته. وعن ابن السماك قال: عجباً لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بفعاله. ويروى أن النعمان بن المنذر قال لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأكرمهم طبعاً وأجلهم في النفوس قدراً؟

= حديث عمر بإسناد منقطع وفيه حليس ابن محمد أحد المتروكين، ورواه العقيلي من حديث ابن عباس، قال ابن عبدي يُروى من وجوه كلها غير محفوظ. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٤٠).

(١) رواه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله. قاله العراقي في المغني (١٣/ ٢٤١).

فسكت القوم فقام فتى فقال: أبيت اللعن أفضل الناس عيشاً من عاش الناس في فضله. قال: صدقت. وقيل لبعض الأعراب: من سيدكم؟ قال: من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا، وأغضى عن جاهلنا. وعن عليّ بن الحسين قال: ليس السخي من وصف ببذل ماله لطلابه، وإنما السخي من يبتدى بحقوق الله في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يغنيه بثواب الله تاماً.

وعن جعفر الصادق أنه قال: لا مال أعود ـ أي أنفع ـ من العقل[١]، ولا مصيبة أهم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشورة، ألاّ وإن الله يقول: إني جواد كريم لا يجاورني لئيم، واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة.

قال: ورأى الأحنف رجلاً وفي يده درهم، وقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال لي. فقال: أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وفي معناه قول العرب: مالك إن أنفقته كان لك وإن أمسكته كان عليك. قال قائلهم:

ذرينـي أكـن للمـا رباً ولا يكـن ... لـي المـال ربـا تحمـدي عقبـة غـدا
أرينـي كـريمـاً مـات هـزلاً لعلنـي ... أرى مـا تـريـن أو بخيـلاً تخلـدا

[١٢٤] / وقال آخر:

أنـت للمـال الـذي أمسكتـه ... فـإذا أنفقتـه فـالمـال لـك

قال: وورث بعض السلف خمسين ألف درهم، فبعث بها إلى اخواته صرراً، وقال: قد كنت أسأل الله الجنة في صلاتي لأخواتي فأبخل عليهم بالدنيا. وعن أسماء بن[٢] خارجة أنه كان يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجته؛ فإنه إن كان كريماً أصون عرضه، وإن كان لئيماً أصون عنه عرضي. ويقال: كان مورق[٣] العجلي يتلطف في إدخال الرزق على إخوانه فيضع عند أحدهم ألف درهم ويقول: امسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل إليهم أنتم في حل منها. قال العتبي عن الحكم بن عبد المطلب أنه أعطى جميع ما يملكه، فلما نفد ما عنده ركب فرسه وأخذ رمحه يريد الغزو فمات بمسح. فأخبرني رجل من أهل مسح قال: قدم علينا الحكم، وهو مملق لا شيء معه فأغنانا. قال: وكيف أغناكم وهو مملق؟ فقال: ما أغنانا بمال ولكن

---

(١) في إحياء علوم الدين (٢٤١/٣): لا مال أعون من العقل.
(٢) في الأصل: بنت. وهو تحريف.
(٣) في الأصل: مورقي ـ وهو تحريف.

علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنينا. وقال الحسن: بذل المجهود في بذل الموجود غاية الجود. وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك. قال: من كثرت أياديه عندي. قيل: فإن لم يكن؟ قال: من كثرت أياديّ عنده. قال: وقال المهدي لشيب بن شيبة: كيف رأيت الناس في داري؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً. قال: وتمثل متمثل عند عبد اللّه بن جعفر.

إن الصنيعـــة لا تكـــون صنيعـــة حتـى يصـاب بهـا طـريـق المصنـع
فـإذا اصطنعـت صنيعـة فـاعمـد بهـا لله أو لـــذي القـــرابـــة أو دَعِ

وقال عبد اللّه بن جعفر: إن هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن / أمطر المعروف مطراً [١٢٥] فإن أصاب الكرام كانوا أهلاً له، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً. ودخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين أصابتني فاقة. فقالت: ما عندي شيء فلو كانت عندي عشرة آلاف لبعثتها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف من خالد بن أسيد، فقالت: ما أسرع ما ابتليت، فأرسلت بها في أثره، فاشترى جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد: محمد، وأبو بكر، وعمر بنو المنكدر، فكانوا عُبَّاد المدينة. وقال أكثم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأ والله أعلم. قال الشاعر:

إذا تكـرمـت عـن بـذل القليـل ولـم تقـدر علـى سعـة لـم يظهـر الجـود
بـــث النـــوال ولا يمنعـــك قلتـــه وكـل مـا سـد فقـراً فهـو محمـود

حكايات الأسخياء

ومن كتاب سراج الملوك عن الأصمعي قال: كانت حروب البادية ثم اتصلت بالبصرة، فتفاقم الأمر حتى مشى بين الناس في الصّلح فاجتمعوا في المسجد الجامع. قال: فبُعثت أنا وغلام إلى ضرار بن القعقاع بن دارم، فاستأذنت عليه فأذن لي، فإذا هو في شملة يخبط نوى لعنزة حلوب، فأخبرته بمجمع القول، فأمهل حتى أكل العنزة، ثم غسل القصعة. وقال: يا جارية غدينا فأتت بزيت وتمر. قال: فدعاني فقذرته أن أكل معه، فلما فرغ وثب إلى طين في الدار ملقى، فغسل يده ثم صاح: يا جارية استقيني بماء فلمّا شرب مسح فضله على وجهه. ثم قال: الحمد لله ماء الفرات وتمر البصرة بزيت الشام متى يؤدى شكر هذه النعمة. ثم قال: عَليَّ بردائي فأوتي برداء عدني فارتدى به على تلك الشملة. قال الأصمعي: فتجافيت عنه استقباحاً لزيّه فدخل المسجد فصلى ركعتين، فمشى إلى القوم فلم تبق حبوة إلاّ حلت إعظاماً له ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء من / ديات الأموات في ماله وانصرف. [١٢٦]

وفي كتاب الغزالي: وعن محمد ابن المنكدر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها قالت: أن ابن الزبير بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية هات فطوري فجاءتها بخبز وزيت. فقالت: لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لحماً تفطرين عليه. فقالت: كنت لو ذكرتني لفعلت. وعن أبان ابن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبد اللّه بن عباس فأتى وجوه قريش، فقال: يقول لكم عبد اللّه تغدون اليوم عندي، فأتوه حتى ملأوا عليه الدار. فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر فأمر عبد اللّه بشراء فاكهة، فأمر قوماً فطبخوا وخبزوا، وقدّم إليهم الفاكهة، فلم يفرغوا حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا.

فقال عبد اللّه لوكلائه: أموجود هذا كلما أردت؟ قالوا: نعم. قال: فليتغد هؤلاء عندنا كل يوم إلى انقضاء شهر. وعن مصعب بن الزبير قال: حج معاوية فلما انصرف من المدينة قال الحسين بن عليّ لأخيه الحسن: لا تلقه ولا تسلم عليه. فلما خرج معاوية قال الحسن بن عليّ: إن عَلَيَّ ديناً ولا بد من إتيانه، فركب في أثره حتى لحقه، فسلَّم عليه فأخبره بدينه فمروا عليه ببختى عليه[1]. ثمانون ألف دينار، وقد أعيى وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه. فقال معاوية: ما هذا؟ فذكر له فقال: اصرفوه بما عليه لأبي محمد. وعن واقد بن محمد الواقدي قال: حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر له فيها كثرة الديْن، وقلة صبره عليه. فوقَّع المأمون على ظهر رقعته: إنك رجل اجتمعت فيك خصلتان سخاء وحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك، وأما الحياء فهو الذي يمنعك من تبليغنا ما أنت عليه وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد / في بسط يدك، وإن لم أكن أصبت فجنايتك على نفسك، وأنت حدثتني إذ كنت على قضاء الرشيد. [١٢٧ب]

عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ قال للزبير بن العوام: «يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش يبعث إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثَّر كُثر له ومن قَلَّل قلِّل عليه»[2].

قال الواقدي: فوالله لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إليّ من الجائزة ومن مائة ألف. قال: وسأل رجل الحسن بن عليّ حاجة له فقال له: يا هذا حق سؤالك إياي يعظم

(١) في الأصل: فأمر له ببختى عليه. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ٢٤٢).

(٢) رواه الدارقطني فيه وفي إسناده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالعنعنة ولا يصح. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٤٢).

عليّ، ومعرفتي بما يجب لك يكثر عليّ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلف من واجبك فعلت. فقال: يا ابن رسول الله، أقبل وأشكر العطية، واعذر على المنع، فدعا الحسن بوكيله فجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفاضل من الثلاث مائة ألف، فأحضر خمسين ألفاً. قال: فما فعلت الخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي. فقال: أحضرها. فأحضرها فرفع الدنانير والدراهم إلى الرجل، فقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين فدفع له الحسن رداءه لكراء الحمالين فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم. فقال: ولكني أرجو أن يكون لي عند اللَّه أجر عظيم. قال: واجتمع قرّاء البصرة إلى عبد اللَّه بن عباس وهو عامل البصرة. فقالوا: أجارٌ لنا صوّام قوّام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوّج بنيّة له من ابن أخيه وهو فقير، وليس عنده ما يجهزها به. فقام ابن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقاً فأخرج منه ست بدر. فقال: احملوها، فحملوها. فقال ابن عباس: ما أنصفناه حيث / أعطيناه ما يشغله عن صيامه وقيامه، ارجعوا بنا نكون أعواناً [١٢٨] على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه، وما بنا من التكبر ما لا نخدم أولياء الله، ففعل ففعلوا.

قال: وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن أسعد أميرهم فقال: والله لأعلمن الشيطان إني عدوه فَعَالَ محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، ورهنهم بها حلّي نسائه وقيمته خمس مائة ألف ألف، فلما تعذر عليه ارتجاع الحلى كتب إليهم ببيعة، ودفع الفاضل منه عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء، فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدمّني إلى القاضي وأدعَّ علي بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها فإن أهلي لا يتركونني محبوساً ففعل، فلم يمس حتى دفعت إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس.

قال: وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقيين بالبصرة، فحضر ببابه شاعر، فأقام مدة وأراد الدخول إلى معن فلم يتهيأ له. فقال يوماً لبعض خدم معن: إذا دخل الأمير البستان فعرفني، فلما دخل أعلمه فكتب الشاعر بيتاً على قصبة وألقاها في الماء الذي يدخل ببستان معن، وكان معن على رأس الماء فلمّا أبصر بالقصبة أخذها وقرأها فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معن بحاجتي　　فما لي إلى معن سواك شفيع

قال: فدعا بالرجل فأنشد البيت فأمر له بعشر بدر، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ثم قرأ معن البيت في اليوم الثاني فأمر له بمائة ألف درهم فهرب لئلا تؤخذ منه. ثم قرأه بعد ذلك فدعا به / فلم يوجد. فقال: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي دينار ولا درهم. [١٢٩]

ومن كتاب سراج الملوك قال: وأما طلحة بن عبد اللّٰه بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات قال: وإنما سمي بهذا الاسم لأنه كان عظيم البذل في كل وجه، وكان يبتاع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ولد ذكر اسمه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل، كلٌ يسمى طلحة فسمي لذلك طلحة الطلحات وفيه يقول القائل:

رحـــم الله أعظُمـــاً دفنـــوهـــا بسجستـــان طلحـــة الطلحـــات

قال أبو الحسن المدني خرج الحسن، والحسين، وعبد اللّٰه بن جعفر حجاجاً فعالتهم أثقالهم، فجاعوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباءٍ لها فقالوا: هل من شراب؟. قالت: نعم فأناخوا إليها، وليس لها إلاّ شويهة في كسر الخيمة فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك فقالوا: هل من طعام؟ قالت: لا إلاّ هذه فليذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم ما تأكلون. فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا، فلما أبردوا وارتحلوا، فقالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألميّ بنا فإنّا صانعون بك خيراً ثم ارتحلوا.

وأقبل زوجها وأخبرته خبر القوم والشاة، فغضب فقال: ويلك تذبحين شاة لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين نفر من قريش. قال: ثم بعد ذلك ألجأتهما الحاجة إلى المدينة، فدخلاها فجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه، فمرت العجوز في بعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن عليّ جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة فبعث الحسن غلامه فدعا العجوز. فقال لها: يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا. وقالت العجوز: بأبي أنت وأمي هو؟! قال: نعم، ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شاء الصدقة ألف شاةٍ / ثم أمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى الحسين. فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار. فأمر لها الحسين بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد اللّٰه بن جعفر. فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ فقالت: بألفي دينار وألفي شاة. فأمر لها عبد اللّٰه بألفي شاة وألفي دينار فقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهم، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار. [١٣٠]

قال: وقدم رجل من قريش من السفر، فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق وقد

أقعده الدهر وأضرّ به المرض. فقال: يا هذا أعِنَّا على الدهر. فقال الرجل لغلامه: ما بقي من النفقة فادفعه إليه فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما يبكيك؟ لعلك استقللت ما أعطيناك. قال: لا ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

قال: واشترى عبد اللَّه بن عامر من خالد ابن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان في الليل سمع بكاء أهل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قال: يبكون لدارهم. فقال: يا غلام أئتهم وأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً. قال: وقيل أنفذها هارون الرشيد إلى مالك بن أنس بخمس مائة دينار. فبلغ ذلك الليث بن سعيد وأنفذ إليه ألف دينار. فغضب هارون فقال: أعطيته خمس مائة دينار وأعطيته أنت ألف دينار وأنت من رعيتي فقال: يا أمير المؤمنين إن في غلتي كل يوم ألف دينار، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم. وحكي أنه لم تجب عليه زكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار، وفي مثله يقول القائل:

مُلأتْ يَدِي مِنَ الدُّنْيَا مِرَاراً فَمَا طَمِعَ الْعَوَاذِلُ فِي اقْتِصَادِ
/ وَلاَ وَجَبَتْ عَلَيَّ زَكَاة مَال وَهَل تَجِبُ الزَّكَاةُ عِلَى جَوَادِ [١٣١]

وروي أن امرأة سألت الليث بن سعد[١] شيء من عسل فأمر لها بزق وقال: إنها سألتنا على قدرها ونعطوها على قدر النعمة علينا. وقال: كان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاث مائة وستين مسكيناً[٢].

وعن الأعمش قال: اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمٰن يعودها بالغدو والعشي ويقول: هل استوفت علفها، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد اجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد. حتى وصل إليّ في علة الشاة أكثر من ثلاث مائة دينار من بره، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

---

(١) في الأصل: الليث بن سعيد، وهو تحريف، وهو الفقيه المصري الشهير.
(٢) قلت: اشتهر الإمام الليث بن سعد بالزهد والكرم والثراء، وما زال نسله إلى اليوم بالقاهرة يقدمون مشروب الشاي كل يوم بعد صلاة الفجر لكل المصلين الذين يصلون بالمسجد الذي دفن فيه بمصر، وكانوا قبل فترة قصيرة يقدمون وجبة إفطار كاملة لكل المصلين، ثم اقتصروا الآن على مشروب الشاي ولما سألت عن ذلك أخبرت أنهم على ذلك العهد منذ وفاته رحمه الله، فأرجو منه الله أن يوسع عليهم وأن يعودوا لما كانوا عليه من الإطعام، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم وأن يجعل أجر تلك السنة لجلهم الليث بن سعد وأن يرحمنا جميعاً بكرمه. آمين (سيد).

ويروى أن عبد الملك بن مروان قال لأسماء ابن خارجة: بلغتني عنك خصال فحدثني بها قال: هي من غيري أحسن منها مِنِّي. قال: عزمت عليك إلاَّ تحدثني بها. قال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس قط، ولا صنعت طعاماً فدعوت عليه قوماً إلاّ كانوا أَمَنَّ عليَّ مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط ليسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيه إياه.

قال: ودخل سعيد بن خالد على سليمان ابن عبد الملك، وكان سعيد رجلاً جواداً فإذا لم يجد شيئاً كتب لمن سأله الصكاك على نفسه حتى يخرج عطاءه، فلما نظر إليه سليمان تمثّل بهذا البيت:

إنـي سمعـت مـع الصبـاح منـاديـاً يـا مـن يعيـن علـى الفتـى المعـوان

قال: ما حاجتك؟ قال: ديني. قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال الملك: لك دينك ومثله. وقيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدَّين. فقال: أخذ الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ثم أمر منادي فنادى: من كان عليه لقيس حق فهو منه في حل. قال: فعسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده وروي [١٣٢] / أن الشافعي لما مَرِضَ مَرَضُ موته قال: مروا فلاناً يغسلني. فلما توفي بلغه خبر موته فحضر فقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم، فكتبها على نفسه فقضاها عليه فقال: هذا غسلي إياه، أي إرادته هذا.

وعن الشافعي قال: لا أزال أحب حماد ابن سليمان لشيء بلغني عنه، أنه كان ذات يوم اكباً حماراً فحركه، فانقطع زره فَمَرَّ على خياط فأراد أن ينزل ليسوي زره، فقال الخياط: والله لا نزلت، فقام الخياط إليه فسوّى[1] زره فأخرج صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قلّتها.

قال الربيع بن سليمان: قال: أخذ رجل بركاب الشافعي فقال: يا ربيع اعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني. وقال الربيع: سمعت الحميدي يقول: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارجاً من مكة فنشرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه فقبض قبضة فأعطاه حتى صلى الظهر فنفض الثوب وليس عليه شيء وأنشد الشافعي لنفسه فيما قيل:

---

(١) في الأصل: سوى. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ٢٤٥).

يَا لَهفَ نَفْسِي عَلَى مَالٍ أَجُودُ بِهِ عَلَى الْمُقِلِّينَ مَنْ أَهْلِ الْمُرُوءَاتِ
إنَّ اعْتَذِارِي إلَى مِنْ جَاءَ يَسْأَلُنِي مَا لَيسَ عِنْدِي مِنْ إحْدَى الْصُيبَاتِ

وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلّما يمسك شيئاً من سماحته فقلت له: ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك. قال: فخرج ثم قدم علينا فسألناه عن ذلك المال فقال: ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفتي بأصلها وقد وقف أكثرها ولكن بنيت بما معي ما يكون لأصحابنا إذا حجّوا أن ينزلوا فيها وأنشد للشافعي:

أرى نفسي تتوقى إلى المعاني ويقصر دون مَبلغِهنَّ مالي
/ فلا نفس تساعدني ببخلٍ ومالي لا يبلغني فَعالي [١٣٣]

وعن محمد بن عباد المهلبي قال: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم. فلما قدم من عنده تصدق بها فأخبر بها المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء الظن بالمعبود فوصله بمائة ألف أخرى.

قال: وجاء رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فقال: يا غلام أعطه خمس مائة فرجع الغلام مستفهماً فقال: دنانير أو دراهم؟ فقال: ما أردت إلاّ دراهم فأما إذا رجعت فصيّرها دنانير. فقعد الرجل يبكي فقال ما يبكيك؟ فقال: أبكي أن الأرض تأكل مثلك. وسأل سعيداً رجلاً آخر فأمر له بمائة ألف درهم فبكى. فقال سعيد: ما يبكيك؟ فقال: أبكي أن الأرض تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى. وينشد في هذا المعنى:

لعمرك ما المصيبة هدم دار ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن المصيبة موت حر يموت لموته بشر كثير

قال: ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه فيها فوجده عليلاً، فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه وقال: عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه فأقام شهرين، فأوحشه طول المقام فكتب إليه:

أن حراماً قبول مدحتنا وترك ما يرتجى من الصفد
كما الدنانير بالدراهم في الصرف حرام إلاّ يداً بيد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب؟ قال: شهرين. قال: أعطه ثلاثين ألفاً وجئني بدواة فكتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا ... قِلاًّ فلو أمهلتنا لم يقلل
وخذ القليل وكن كأنك لم تقل ... ونكون نحن كأننا لم نفعل

[١٣٤] / ويروي أنه كان لعثمان على طلحة خمسون ألف درهم. فقال طلحة: قد تهيأ مالك فاقبضه. قال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك وفي مثله قال الشاعر:

إذا أسيل معروفاً تبسم ضاحكاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله
هو البحر من أي النواحي أتيته ... فلجته المعروف والجود ساحله

وفي مثله قال الشاعر:

كريم إذا ما جئت تطلب نائله ... حياك بما ضمت عليه أنامله
فلو لم يكن في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

قال: وقالت سعدى بنت عوف: ودخلت على طلحة فرأيت معه ثقلاً فقلت: ما لك؟ فقال: اجتمع عندي مال قد غمني. قلت: وما يغمك أدع قومك. فقال: يا غلام عليّ بقومي، فقسمه بينهم. فسألت الخادم: كم كان؟ فقال: أربع مائة ألف.

قال: وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله فتقرب إليه برحم فقال: إن هذا الرحم ما سألني به أحد قبلك إن لي أرضاً قد أعطي فيها عثمان ثلاث مائة ألف فإن شئت فاقبلها وإن شئت بعتها لعثمان ودفع إليك الثمن. فقال: الثمن. فباعها من عثمان ودفع الثمن إليه وينشد:

وَإمَّارَةٌ بِالْبُخْلِ قُلْتُ لَهَا اقْصِرِي ... فَذَلِكَ شَيْءٌ مَا إلَيْهِ سَبِيلُ
أرَى النَّاسَ خِلاَّن الْجَوَاد وَلاَ أرَى ... بَخِيلاً لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ
وَمِنْ خَيْرِ حَالاَتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمْتَهُ ... إذَا نَالَ شَيْئاً أن يَكُونَ يُنِيلُ
فَإنِّي رَأَيْتُ الْبُخْلَ يُزْرِي بِأَهْلِهِ ... فَأكْرَمْتُ نَفْسِي أنْ يُقَالَ بَخِيلُ

ومن كتاب الجواهر: ويحكى أن عبد اللّٰه ابن عباس خرج يريد معاوية فأصابته سماء فرفعت له خيمة فتيممها فإذا بها شيخ من الأعراب وامرأته وابنتاه وعندهم عنز، ورحبّ به [١٣٥] وأنزله. فقال الشيخ: اذبحها / لضيفي. فقالت المرأة: تموت ابنتاي جوعاً. فقال: الموت خير من اللؤم، فأخذ الشفرة وهو يقول:

يا مرتنا لا توقظي ابنتيه ... إن توقظا تنبعثا إليّه
وتنزعا الشفرة من يديه ... ابغض بهذا وبها إليه

قال: فذبح العنز فأضافه بها، فلما أصبح ابن عباس رضي الله عنه قال لغلامه: كم بقي من النفقة؟ قال: خمسمائة دينار. فقال؛ صبها للأعرابي. قال: يكفيك ضعف قيمة الشاة. قال: سبحان الله جاد علينا بدنياه كلها أفلا نجود له ببعض دنيانا. قال: فأعطاها الشيخ فارتحل يريد معاوية فلما انصرف من عنده اجتاز على الشيخ فوجده صاحب إبل ومراج فكان الشيخ ينشد فيه:

توسمته لما رأيت مهابة ... عليه فقلت المرء من آل هاشم
وإلاّ فمن آل المزار فإنهم ... ملوك ملوك من ملوك أعاظم
فقمت إلى عنز بقية أعنز ... فأذبحتها فعل امرىء غير عاتم
فعوضني منها غنائي ولم يكن ... يساوي لحميمى غير خمس دراهم
بخمس مئين من دارهم صرفت ... إليّ فما جادت بها كف آدم
فقلت لعرسي في الخلا وصبيتي ... ءألحق هذا أم هو أضغاث حالم؟
فقالوا جميعاً لا بل الحق هذه ... تخب بها الركبان وسط المواسم

قال: فبلغ ذلك معاوية فقال: لله در ابن عباس من أي بيضة خرج وفي أي عش درج.
وهذه الحكايات قرأتها قديماً فحفظي فيها مضطرب ولعلي إن لم آت بصريح ألفاظها فقد أتيت بمعناها وأنا استغفر الله على ما بدلت من الألفاظ وغيرها.

ويحكى أن رجلاً أتى إلى صديق له في أربع مائة دينار عليه فأخبره بها، فوزن له أربع مائة فعاد يبكي. فقالت له امرأته: لمَ أعطيته إذ شق /عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم اتفقد [١٣٦] حاله حتى احتاج لمفاتحتي. والله أعلم، وحكايات الأسخياء كثيرة، ولو استقصيناها لطال الكتاب[١].

فصل

اختلف الناس في حد البخل والسخاء. فقال قوم: حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما وجب عليه فليس ببخيل. وقال آخرون البخيل هو الذي يستصعب العطية. وهذان القولان قاصران إذ من يرد اللحم إلى القصاب أو الخبز إلى الخباز بنقصان حبه أو نصف حبه لا يعد بخيلاً بالإنفاق، وكذلك لا يكون بخيلاً باستصعاب العطية دون الإمساك.

---

(١) أورد الغزالي من ذلك كثير أيضاً في كتابه إحياء علوم الدين فراجعه (٣/٢٤٢: ٢٤٦) غير أن هذا فاق عليه في ذكر الشعر فقد أورد منه أكثر مما يورد الغزالي رحمنا ورحمهما الله.

وقد روي عن طلحة أنه قال نجد في أموالنا ما يجد البخيل ولكنا نتصبر. وكذلك تكلموا في السخاء والجود: فقال قوم: السخاء أن تسخو نفسك بما في يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما في أيدي الناس ولا تبالي بمن أكل الدنيا. وقال قوم: الجود عطايا بلا منّ. وقيل: الجود عطية بغير مسئلة على رؤية التقليل. وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن.

وقيل: السخاء هو الرتبة الأولى، ثم الجود، ثم الإيثار، فمن أمسك البعض وأتى البعض فهو صاحب سخاء، ومن أعطى الأكثر وأمسك لنفسه الأقل فهو صاحب جود، ومن قاس الضرّ وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو بخيل. ويقال: أصل السخاء هو السماحة وأن يؤتي ما يؤتيه عن طيب نفس فإن أعطى عن منازعة نفس فهو متسخ وليس بسخيّ.

وفي كتاب الغزالي[1] قال: وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة البخل والجود، قال: بل ونقول المال خُلِقَ لصلاح حاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه ويمكن إعطاؤه إلى ما لا يحسن الإعطاء فيه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ / ويبذل حيث يجب البذل فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الامساك تبذير وبينهما وسط وهو المحمود. [١٣٧]

وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يُؤمر رسول الله ﷺ إلاَّ بالسخاء وقيل له: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[2]. وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[3]. والجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين القبض والبسط، فإن كان بذله في موضعه بطيبة نفس فهو سخي، وإن كان عن صبر ومنازعة فهو متسخ. وهذا القول عندي أعدل الأقوال؛ لأن من زاد على حد السخاء فهو مبذر، ومن قصّر عنه فهو بخيل، ومن وقف عليه فهو كريم.

وحد السخاء على هذا المعنى هو بذل ما يحتاج إليه مستحقه عند الحاجة؛ ولأن الحكماء قالت: الفضائل هبات متوسطة بين خلتين ناقصتين، وأفعال الخير توسط بين رذيلتين، فالشجاعة: متوسطة بين الجبن والتهور، والسكينة: واسطة بين السخط وضعف الغضب، والغيرة: واسطة بين الحسد وسوء العادة، والتواضع: واسطة بين الكبر ودناءة النفس،

---

(١) راجع الإحياء (٣/ ٢٥٤) وإن كان ما قبل ذلك من قول منه أيضاً فلا أدري لما ذكره.
(٢) سورة الإسراء الآية: ٢٩.
(٣) سورة الفرقان الآية: ٦٧.

والحلم: واسطة بين إفراد الغضب وعدمه، والمودة: واسطة بين الملال وجساء الخلق، والحياء: واسطة بين الوقاحة والخفر، والوقار: واسطة بين الهزل والسخافة، والظرف: واسطة بين الخلاعة والعدلمة، والعلة: واسطة بين الشره وضعف الشهوة، والحكمة: واسطة بين الشر والجهالة، والسخاء: واسطة بين التقتير والتبذير والله أعلم؛ فأوسط الأمور أعدلها فلذلك كان عليه السلام ما خُيِّر قط بين أمرين إلاّ اختار أوسطهما. وقال بعض الحكماء: الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد، ويُنشد:

لا تجد بالعطاء في غير حقٍ ليس في منع غير ذي الحق بخل
/ إنما الجود أن تجود على من هو للبذل والعطاء منك أهل [١٣٨]

واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما؛ فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم، وذم التبذير أعظم؛ لأن المسرف مخطىء في الزيادة، والمبذر مخطىء في الجميع وقد قال معاوية: كل سرف فبإزائه حق مضيّع.

وصدق لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق أو غيره، وقد قال بعض العلماء: الحلال لا يحتمل السرف.

واعلم أنه لا يتم السخاء حتى تسخو نفس الإنسان عما بيد غيره، فلا يميل إلى طلب ولا يكف عن بذل. وقد حكي أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أتدري لم اتخذتك خليلاً؟ قال: لا رب قال: لأني رأيتك تحب أن تعطي ولا تحب أن تأخذ.

وعن أيوب السجستاني أنه قال: لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم قال: وكتب كسرى إلى ابنه هرمز: يا بني استقلل الكثير مما تُعْطِي، واستكثر القليل مما تأخذ، فإن قرة عيون الكرام في الإعطاء وسرور اللئام في الأخذ، ولا تعد الشحيح أميناً ولا الكذاب حُرّاً؛ فإنه لا عفة مع الشُّح، ولا مروءة مع الكذب. وقال: بعض البلغاء: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعاً. وينشد:

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة وإذ كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل على وجهين:

أحدهما: ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال.

والثاني: ما كان عن طلب وسؤال فالمبتدىء أطبعهما سخاءً وأشرفهما عطاءً، وقد سُئل عن السخاء فقال: ما كان منه ابتداء، وأما ما كان منه عن مسألة فحياء وتكرّم. وقال بعض

الحكماء: أَجَلَ النوال ما وصل قبل السؤال، وقيل للحسن البصري: ما السخاء؟ فقال: أن تجود بما لك في الله. قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنع ما لك فيه. قيل: وما الإسراف؟ قال: الإنفاق لحب الرئاسة.

فصـــل

اعلم أن النوال الذي يقع ابتداء يكون لأسباب:

منها: أن يرى فاقة يتمكن من إزالتها، فلا يدعه الكرم أو الدّين إلاّ أن يكون زعيم إصلاحها رغبة في الأجر أن تدين وفي الشكر أن تكرم.

ومنها: أن يكون في ماله فضل على كفايته فيضعها حيث تكون له ذخر اليوم فقره، أو حسن ثناء وحمده من أهله ويُنشد:

وما ضاع مال ورَّث الحمد أهله ... ولكن أموال البخيل تضيع

ومنها: أن يكون بتعريض يتنبه إليه بفطنته[1] فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف وكالذي حكي: أن رجلاً ساير بعض الولاة فقال: ما أهزل برذونك! فقال: يده مع أيدينا. فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ ما لم يبلغه صريح السؤال.

ومنها: أن يكون ذلك لرعاية يد أو جزاء على صنيعة، فيرى تأدية الحق عليه طوعاً ليكون من رق الإحسان عتيقاً، وقد قال بعض الحكماء: المعروف رق والمكافئات عتق قال أبو العتاهية[2].

وليست أيادي الناس عند غنيمة ... ورُبَّ يد عندي أشد من الأسر

ومنها: أن يستعطف الناس بذلك ليذعنوا لرئاسة هو لها محب، وعلى طلبها منكب. وقد قال بعض الأدباء: بالإحسان يرتبط الإنسان وقال بعضهم: من أبذل ماله أدرك آماله. ويُنشد:

أترجو أن تسود ولن تغنا ... فكيف يسود ذو الدعة البخيل

---

(١) في الأصل: لتعريض يتنبه عليه بفطنته. وأرى أن العبارة قد أصابها غموض، أو تحريف. فكتبتها على ما هو مباشر ومتبادر إلى الفهم والذهن.

(٢) هو شاعر الزهد والحكمة إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق العنزي الكوفي كان في أول حياته ماجناً فوصفوه بالعته ثم تاب الله عليه وزهد في الدنيا وكتب من الأشعار ما يرقق أفئدة العاصين ويؤمل القانطين ويشرح صدور اليائسين فعليه وعلينا رحمات الله آمين.

ومنها: أن يدفع به سطوة الأعداء ليكونوا له إخواناً إما لصيانة عرض أو حراسة مجد قال أبو تمام:

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصدي ولا المجد في كف امرىء والدراهم
ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم في الأقوام وهي مغانم

ومنها: أن يربى بها صنيعة أولاها كي لا ينسى ما أولاه؛ لأن مهمل الإحسان / مقطوع [١٤٠] منسى قال:

وسمت امرء بالعرف ثم اطّرحته ومن أفضل الأشياء رب الصنائع

ومنها: أن يكون ذلك لمحبة يؤثر بها المحبوب على ماله؛ لأن النفس إلى محبوبها أشوق فلا يبخل عليه بماله.

ومنها: أن يعطي ذلك لغير سبب، وإنما هي سجية فطر عليها، وشيمة طبع عليها فلا يميز بين مستحق ومحروم كما قال بشار[١]:

ليس يعطيك للرجاء وللخوف ولكن يلذ طعم العطاء

وقد اختلف في هذا فقال: قوم هذا هو السخاء طبعاً وللمدح منسوب والتمييز شطر البخل، والبذل لسبب الجاه ضرورة. وقال الحسن بن سهل: إذا لم أعط إلا مستحقاً فكأني أعطيت غريماً. وقال بعض السلف: العجب لمن يرجو من فوقه كيف يحرم من دونه وأنشد لبشار:

وما الناس إلاّ صاحبان فمنهم سخي ومغلول اليدين من البخل
وسامح يداً ما أمكنتك فإنها تغل وتشري والعواذل في شغل

وقال آخرون: هذا خارج عن السخاء المحمود إلى التبذير المذموم؛ لأن العطاء إذا كان لغير سبب كان المنع لغير سبب؛ لأن المال يقصر عن الحقوق فما يناله من الذم غير المستحق أكثر مما يناله من حمد غير المستحق وحسبك بمن كانت أفعاله تصدر من غير تمييز وتوجد لغير علة قال الشاعر:

---

(١) هو بشار بن برّد أبو معاذ البصري الضرير المُرَعَّث الشاعر المشهور قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٤): قال أبو تمام: هو أشعر الناس والسيد الحميري في وقتهما.. قلت: أي الذهبي اتهم بالزندقة فضربه المهدي سبعين سوطاً ليُقِرَّ فمات منها. وقيل: كان يُفَضِّل النار، وينتصر لإبليس. هلك سنة سبع وستين ومائة، وبلغ التسعين.

لـو كـان المـال يـأتينـا فكنـا نبـذره وليـس لنـا عقـول
أفلمـا أن تـولـى المـال عنـا عقلنـا حيـن ليـس لنـا فضـول

وأما إذا كان البذل عن سؤال فشروطه معتبرة في السائل والمسؤول، أما ما كان معتبراً في السائل فهو ثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون السؤال لضرورة فلا لوم عليه ولا حرج، قال الشاعر:

[١٤١] / ألا قبـح الله الضـرورة إنهـا تعلـمُ أعلـى الخلّق أدنـى الخـلائـق
ولله در الاتسـاع فـإنـه يبيـن فضـل السبـق مـن غيـر سـابـق

فإن ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة إلى السؤال لدفع ضرر يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون فإن النفس تحتمل من الضرر ما أطاقت، ومن الشدة ما تحملت ليبقى تجملها، قال الشاعر:

علـى كـل حـال يـأكـل المـرء زاده علـى البـؤس والضـراء والحـدثـان

فالفضل في مثل هذا ما قيل لبعض الزهاد: لو سألت حمارك لأعطاك. قال: والله لا أسأل الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها. ووصف بعض الشعراء قوماً فقال:

إذا افتقروا عضواً على الضر حسبه وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر
وإمـا أن يسـأل لغيـر ضـرورة مست ولا لحاجة دعت فذلك صريح

اللؤم ومحض الدناءة، وقلّ ما تجد مثله ملحوظاً وممولاً محظوظاً؛ لأن الحرمان ساقه إلى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء إلاّ أراقه ولا ذل إلاّ أذاقه ولو استقبح العار لوجد غير السؤال، مكسباً يمونه وقد قال الشاعر:

ولا تطلبـن معيشـة بتـذلـل فليـأتينـك رزقـك المقـدور
واعلـم بـأنـك آخـذ كـل الـذي هـو فـي الكتـاب محبّـر مسطـور

والثاني: من شروط السؤال: أن يضيق الوقت على إبطائه فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة فيصير حينئذٍ من المعذورين، وداخلاً في عدد المضطرين، وأما إذا كان الوقت متسعاً فتعجيل السؤال لؤم وقنوط قال:

أبى لي إغضاء الجفون على القذا يقينـي أن لا عسـر إلاّ مفـرَّج
ألا ربمـا ضـاق الفضـاء بـأهلـه وأمكـن مـن بيـن الأسنـة مخـرج

/ والشرط الثالث: اختيار المسؤل أن يكون مرجوّ الإجابة مأمول النجح إما لحرمة [١٤٢] السائل، أو كرم في المسؤول فإن من سأل لئيماً لا يرى حرمة ولا يولى مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم.

وقد قال بعض الحكماء: المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة وقال بعض البلغاء: أنذل من الليئم سائله وأقل من البخيل نائله. قال الشاعر:

من كان يأمل أن يرى من ساقط نيلاً سنياً   فقد رجا أن يجتبى من عوسج رطباً جنياً

وأما الشروط المعتبرة في المسؤول فثلاثة أيضاً:

أحدها: أن يكتفي بتعريض السائل دون سؤاله ليصونه عن ذل الطلب فإن الحال ناطقة وربما فهم المسؤول الإشارة فصرّح بالعبارة تهجيناً للسائل ليستحيى فكيف كما قال أبو تمام[1]:

مـن كـان مفقـود الحيـاء فـوجهـه   مـن غيـر بـواب لـه أبـواب

والثاني: أن يتلقا بالبشر والترحيب ليكون مشكوراً إن أعطى ومعذوراً إن منع. وقال: وحكى ابن لبكر أن أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة فلم يقضها وظهر له منه ضجر فقال:

لا تـدخلنـك ضجـرة مـن سـائـل   فلخيـر دهـرك أن تُـرى مسـؤولا
لا تجبهـن بـالـرد وجـه مـؤمـل   فبقـاء عـزك أن تُـرى مـأمـولاً
تلقـى الكـريـم فتستـدل ببشـرة   وتـرى العُبُـوس على اللئيم دليـلاً
واعلـم بـأنـك عـن قليـل صـائـر   خبـراً فكـن خبـراً يـروق جميـلاً

والشرط الثالث: تصديق الأمل وتحقيق الظن به، ثم اعتبار حاله وحال السائل فإنها لا تخلو من أربعة أحوال:

أحدها: أن يكون السائل مستحقاً والمسؤول متمكناً، فالإجابة هاهنا تستحق كرماً وتلزم

---

(١) شاعر العصر أبو تمام حبيب بن أوس بن قيس الطائي من حوران أسلم وكان نصرانياً مدح الخلفاء والكبراء وشعره في الذروة، وكان أسمر طوالاً فصيحاً عذب العبارة مع تمتمة قليلة، ولد في أيام الرشيد وكان أولاً حدثاً يسقي الماء بمصر، ثم جالس الأدباء وأخذ عنهم وكان يتوقد ذكاءً، وسحت قريحته بالنظم البديع... وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة. (والذهبي في سير أعلام النبلاء ١١/ ٦٣).

مروءة، وليس إلى الرد سبيل إلاَّ من استولى عليه البخل فيكون كما قال فيه عبد الرحمٰن بن حسان[1]:

[١٤٣] /إني رأيت من المكارم حسبكم — أن تلبسوا حر الثياب وتشبعوا
فإذا تذكرت المكارم مرة — في مجلس أنتم به فتقلعوا

فإذا لم يكن للرد في مثل هذه الحالة سبيل نظر فإن كان التأخير مضراً عجل بذله، وقطع مطله وكانت إجابته فعلاً لا قولاً. وقد قال: بعض الحكماء: من مروءة المطلوب إليه أن لا يلجأ إلى الإلحاح عليه قال: محمد بن الحازم.

ومنتظر سؤالك بالعطايا — وأشرف من عطاياه السؤال
إذا لم يأتك المعروف طوعاً — فدعه فالتنزه عنه مال

فإن كان في التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه: فذهب بعضهم إلى أن الأولى تعجيل الوعد قولاً ثم يتعقبه الإنجاز فعلاً فيكون السائل مسروراً بعاجل الوعد، ثم بآجل الإنجاز، ويكون المسؤول مرهوناً بالكرم ملحوظاً بالوفاء. وفي الحديث: «العدة عطية»[2].

ومنهم من ذهب إلى: أن تعجيل البذل فعلاً من غير وعد أولي، وإنما يقدم الوعد أحد رجلين: إما معوز ينتظر جدةً، وإما شحيح يروض نفسه توطنه للعطاء، وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصلح لما يخاف في الوعد من تغيير حال الإنسان من يسار إلى أعسار قال بعض الشعراء:

يا أيها الملك المُقَدَمُ أمره شرقاً وغرباً — فامنن بختم صحيفتي ما دام هذا الطين رطباً
واعلم بأن جفافه مما يعيد السهل صعباً

والحالة الثانية: أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤول غير متمكن، ففي الوعد فسحة وفي المنع عذر غير أنه يلين عند الرد ليناً يقيه الذم ويظهر عذراً ينفي عنه اللوم، فليس كل مقل يعرف ولا كل معذور ينصف.

---

(١) هو ابن حسان بن ثابت الأنصاري المدني الشاعر ابن الشاعر وأمه هي سيرين خالة إبراهيم ابن النبي ﷺ توفي سنة أربع ومائة. (قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٤: ٦٥).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف، وأبو نعيم في الحلية من حديث بن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/١٢٩)؛

والثالثة: أن يكون السائل مستوجباً والمسؤول /غير متمكن فيعطي ما أمكن من يسير [١٤٤] ليسدّ خلّة، ويوضح من القول أن يظهر من التوجع ما يعُذر به كما قال النظر العتبي:

الله يعلـم أنـي لسـت ذا بخـلٍ ولست ملتمساً في البخل لي عللا
لكـن طـاقـة مثلـي غيـر خـافيـة والنمل يعذر في القدر الذي حملاً

الحالة الرابعة: أن يكون السائل غير مستوجب المسؤول متمكناً فينظر فإن خاف بالرد قدح عرض أو قبح هجاء ممكن، كان البذل مندوباً صيانةً لا جوداً.

وعن الأصمعي قال: كتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين: أنه يعاب علينا إعطاء الشعراء فكتب إليه: خير المال ما وقى العرض. فإن أمكن ذلك فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة ولما فيه من اعتياد البذل المفضي إلى السخاء كذلك اعتياد الرد مفض إلى الشح. وأنشد الأصمعي:

كـأنـك فـي الكتـاب وجـددت لالا محـرّمـة عليـك فـلا تحـل
فمـا تـدري إذا أعطيـت مـالاً أيكثـر مـن سمـاحـك أم يقـل
إذا حضـر الشتـاء فـأنـت صيـف وإن حضـر المصيـف فـأنـت ظـل

ومن الناس من غلّب المنع في هذا إذا كان العطاء في غير حق يقصر به عن الحقوق إذا عرضت والله أعلم.

وأما من وعد بالبذل النوال، فلا سبيل له إلى الرد والمنع لأنه قد صار بوعده مرهوناً وصار وعده بالوفاء مقروناً، فإن رد السائل استوجب مع ذم المنع لوماً ولخلف الوعد، ومقت الغادر وهجنه الكذوب، ثم لا سبيل إلى مطله بعد الوعد، لما في المطل من تكدير المنع، وتمحيق الشكر والعرب تقول: المطل أحد المنعين واليأس أحد النجحين وقال بَشّار بن بُرْد:

أظلـت علينـا منـك يـومـاً غمـامـة أضـاءت لنـا بـرقـاً فـأبطـأ رشـاشهـا
فـلا غيمهـا يجلـى فيـأس طـامـع ولا غيثهـا يـأتـي فيـروي عطـاشهـا

/ ثم إذا أنجز وعده بالعطاء فليكن مسروراً بما أولى إذ كانت الأرزاق مقدرة فجعلت [١٤٥] على يده جارية ومن جهته واصلة.

وحكي أن رجلاً شكى كثرة عياله إلى بعض الزهاد، فقال: انظر من كان منهم ليس رزقه على الله فحوله إلى منزلي. ويروى عن بعض السلف أنه كان يقول: إذا جاءكم المسكين

جاءكم الغسال. وقال عليه السلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[١]. اليد العليا المنفقة واليد السفلى السائلة. قال الشاعر:

فـإنـك لا تـدري إذا جـاء سـائـل أأنـت بمـا تعطيـه أم هـو أسعـد
عسـى سـائـل ذو حـاجـة إن منعتـه مـن اليـوم سُؤلاً أن يكـون لـه غـد

ويروى أن سيرين قال لرجل كان يأتيه على دابة ففقدها قال: ما فعل برذونك؟ قال: اشتدت عليّ مؤنته فبعته. قال: أفتراه خلق رزقه عندك وأنشد لابن الرومي:

إن لله غيـر مـرعـاك مـرعـى تـرتعيـه وغيـر مـائـك مـاء
إن لله بـالـبـريـة لطفـاً سبـق الأمهـات والآبـاء

فإذا سخطت نفسه بالعطية فأولاها فينبغي أن يكون قصده ابتغاء وجه الله تعالى ليرضاها ولا يضيع عنده جزاءها كالذي حكي عن أبي مهاصر رحمه الله أنه أعطى بغلاً له ليحمل عليه مريضاً من الغرباء. فقالوا: أين نلقاك؟ فقال بالبربرية: آشَ آنْ وَندَدْ مَغْرَنْ ـ أراد يوم القيامة.

وروي أن امرأة وقفت ببابه سائلة فقال: ادخلي. فاعتذرت إليه من رثاث ثيابها فرمى إليها كساءة كحلا ـ وهي الطاق بالبربرية ـ وأعطاها ويبة شعير وويبة تين فخرجت، ثم رمت بالطاق. فقال: ما أعطيته لك لترديه. وروي أن أعرابياً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

يـا عمـر الخيـر جـزيـت الجنـه اكـس بنـاتـي وأمّهنـه
وكـن لنـا مـن الـزمـان جنـه واجعـل جـوابـي إنْ أَنّ أنـه
أقسـم بـاللّه لتـفعلنـه

قال عمر رضي الله عنه: فإن لم أفعل فماذا يكونن؟ فقال: إذاً أبا حفص لأذهبنّه. قال: إن ذهبت فماذا يكونن؟ قال:

تُسـئل عـن حـالـي وحـالتهنّـه ومـوقـف المسـؤول بيـنهنّه
إمّـا إلـى نـارٍ وإمّـا إلـى جنّـه

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٣٩/٢)، ومسلم في الصحيح (٧١٧)، أبي داود في السنن (١٦٤٨)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٤٣) والنسائي في المجتبى (٦١/٥، ٦٩) مالك في الموطأ (٩٩٨)، وأحمد في المسند (٤/٢)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٤١)، ابن أبي شيبة في المصنف (٢١١/٣).

فبكى عمر رحمه [الله][(١)] حتى أخضلت الدموع لحيته، فقال عمر لغلامه: أعطه فعسى لذلك اليوم لا لشعره أما والله لا أملك غيره. فإذا كان العطاء على هذا الوجه خلا عن طلب جزاء وشكر، وعرى عن إمتنان ونشر، فكان ذلك أشرف للباذل وأهنأ للسائل، أما إذا كان العطاء لطلب الشكر والثناء فالمعطى خارج عن حكم السخاء والكرم، وإن طلب به الجزاء والمكافأة كان تاجراً مربحاً بالتجارة.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾[(٢)]. أنه الذي يعطي عطية يلتمس بها أفضل منها. وعن الحسن قال: معناها لا تمنن بعملك تستكثره على ربك.

إنما ينبغي لمن عنده فضل من المال أن يجعله برّاً مدخوراً لهول يوم النشور لأن له في ماله شريكين يأخذانه من غير مشورته؛ وهما المصائب والرثة، فإن استطاع أن لا يكون أخسّ الثلاثة فليفعل. وقيل للبخيل: لم حبست مالك؟ قال: للنوائب قيل: قد نزلت بك. قال:

مالَك منْ مالِك إلاّ الذي ... قدمت فابذل طائعاً مالكا
تقول أعمالي ولو فتشوا ... رأيت أعمالك أعمى لكا

فينبغي لمن قدر على إسداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويتبادر به خيفة عجزه وقد روي عن النبي ﷺ وسلم أنه قال: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنه»[(٣)].

وعنه أيضاً أنه قال: «ثمرة المعروف تعجيل السراح»[(٤)]. وقيل لأنوشروان: ما أعظم المصائب عندكم؟ قال: أن تقدر على المعروف ولا تصنعه حتى يفوت. / وقال بعض السلف: [١٤٧] من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها. قال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ... ولا تدري السكون متى يكون

واعلم أن للمعروف شروطاً لا يتم إلاّ بها.

---

(١) لفظ الجلالة سقط سهواً من المخطوط واثبتناه بين معقوفين.
(٢) سورة المدثر الآية: ٦.
(٣) أطراف الحديث في: كنز العمال للمتقي الهندى (٤٣٣٤)، الزهد لأحمد بن حنبل (٣٩٤).
(٤) طرفة عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٧٥)، القرطبي في التفسير (٥/ ٣٨٤).

من ذلك: ستره وقد قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره فإذا اصطنع إليك فانشره. على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعي نشره لما جبلت عليه النفوس من إظهار ما أخفى وإعلان ما إكتتم. وأنشد لسهل بن هارون:

خـل إذا جئتـه يـومـاً لتسـألـه أعطـاك مـا ملكـت كفـاه واعتـذرا
يخفـي صنـائعـه والله يظهـرهـا إن الجميـل إذا أخفيتـه ظهـرا

ومن شروط المعروف: تصغيره وتقليله. وقد روي عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: لا يتم المعروف إلاّ بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجلته فقد هنيته، وإذا صغرته فقد عظمته، وإذا سترته فقد أتممته. قال الشاعر:

زادك معـروف عنـدي عظمـاً إنـه عنـدك مستـور حقيـر
وتنـاسيـت كـأن لـم تـأتـه وهـو عنـد النـاس مشهـور كثيـر

ومن شروط المعروف: مجانبة الامتنان به: لما فيه من إسقاط الشكر وإحباط الأجر. قال الشاعر:

أبطلت بالمن ما قدمت من حسن ليـس الكـريـم إذا أعطـى بمنـان

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر» ثم تلى ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنّ وَالأَذَى﴾[١]. وينشد للشافعي:

لا تحملـن لمـن يمـنّ عليـ ك مـن الأنـام منّـه
واختـر لنفسـك حظهـا واصبـر فـإن الصبـر جنـه
مـنّ الـرجـال علـى القلـوب أشـد مـن وقـع الأسنـه

ومن شروط المعروف: أن لا يحقر منه شيئاً: فإن فعل الخير أفضل من تركه. وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا يمنعكم من المعروف صغره» وقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٢]. على أن المعروف ما لا مشقة فيه على موليه وإنما هو حباة يستظل به الأدنى ويرتفق به التابع. وقال الشاعر:

ظـل الفتـى ينفـع مـن دونـه ومـالـه فـي ظلـه حـظُّ

---

(١) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة، والحديث أورده القرطبي في تفسير (٣/ ٣١٢).

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٢/ ١٢٦): مسلم في الصحيح (الزكاة ٦٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٢٥)، وابن خزيمة في الصحيح (٢٤٢٨)، الدارمي في السنن (١/ ١٩٠).

واعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يوسع جميع الناس معروفه ولكن ينبغي أن يعتمد به أهل الفضل والرعاية ليكون معروفه فيهم نامياً وصنيعه عندهم زاكياً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تنفع الصنيعة إلاَّ عند ذي حسب ودين»[١]. وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه في أهل الحفاظ»[٢].

وقيل في منثور الحكم: لا خير في معروف إلى غير معروف. وقال بعض الحكماء: على قدر المغارس يكون اجتناء الفارس: فنظمه الشاعر فقال:

لعمرك ما المعروف في غير أهله ... وفي أهله إلاَّ كبعض المزارع
فمستودع ضاع الذي كان عنده ... ومستودع ما عنده غير ضائع
فمزرعة طابت واضعف نبتها ... ومزرعة كدت على كل زارع
وما الناس في شكر الصنيعة عندهم ... وفي كفرها إلاَّ كبعض المزارع

أما من أهدي إليه معروفاً فقد صار به موثوقاً ولزمه إن كان من أهل المكافئات أن يكافىء عليها وإلاّ فليقابل المعروف بنشرة ويقابل الفاعل بشكره. وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «من أودع معروفاً فلينشره ومن نشره فقد أدّىٰ شكره وإن كتمه فقد كفره. / وعن عائشة [١٤٩] رضي الله عنها أنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أتمثل بهذين البيتين:

ارفع ضعيفك لا يحوبك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك فإن من ... اثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام: «رُدّي على قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبريل عليه السلام برسالة من ربي تعالى أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء إلاَّ الدعاء والثناء فقد كافأه.

وقيل في منثور الحكم: المعروف رق والمكافأة عتق. وقال بعض الأدباء:

شكر الإلٰه بحسن الثناء ... وشكر الولاة بصدق الوَلاء
وشكر النظير بحسن الجزاء ... وشكر من دون بسيب العطاء

وقال بعض العلماء: من لم يشكر الأنام فاعدوه من الأنعام. ومن أشكر الناس الذي يقول:

---

(١) طرفه عند: ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٣٦٤)، ابن عدي في الكامل (٢/ ٧٧٤).
(٢) أورد نحوه المتقي الهندي في كنز العمال (١٢٦٣٣).

لأشكرنك معروفاً هممت به — إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر — فالشيء بالقدر المحتوم معروف

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يشكر الله من لم يشكر الناس»[1] فإن من شكر معروف من أحسن إليه فقد أدى حق النعمة التي عليه ولم يبق عليه إلاَّ استدامة ذلك اتماماً لشكره ليكون مستحقاً للمزيد من جهة صاحب الإحسان المفيد، وصلى الله على سيدنا محمد.

فصل: في الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل ينقسم كل واحد منهما إلى درجات، فأرفع درجات السخاء: الإيثار وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه، كما أن أخس درجات البخل أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فيمرض ولا يتداوى، ويشتهي الشيء فيمنعه البخل من قضاء شهوته، فهذا يبخل على نفسه مع / الحاجة، وذلك يؤثر غيره على نفسه مع الحاجة، فانظر ما بين الرجلين فإن [١٥٠] الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أثنى الله على الصحابة فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

وعن أنس قال: أهدي لبعض الصحابة رأس شاة مشوي وكان مجهوداً، فبعث به إلى رجل له فوجه به إلى بيت آخر فتداولته سبع بيوت حتى رجع إلى الأول فنزلت الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.

وعن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوماً إلى اليرموك أطلب ابن عم لي ومعي شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك فأشار إليَّ نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي أن انطلق إليه فجئته، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت له: أسقيك فسمع آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته، فإذا هُو قد مات ورجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، ورجعت إلى ابن عم لي فإذا هو قد مات.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيما رجل اشتهى شهوة وآثر على نفسه أخاه غفر له»[3].

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٤٨١١) أحمد في المسند (٢/٢٠٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٦/١٨٢)، الطبراني في الكبير (١/١٦٢)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٧٧)، البغوي في شرح السنة (١٣/١٨٧).

(٢) سورة الحشر الآية: ٩.

(٣) قال العراقي في المغني (٣/٢٥١): رواه ابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن =

وعن نافع قال: اشتهى ابن عمر سمكة بعدما نقه من مرضه، فالتُمست له بالمدينة فلم توجد إلاّ بعد كذا وكذا، فاشتُريت بدرهم ونصف وشويت وجيء بها على رغيف فوضعت بين يديه فقام السائل بالباب فقال: لفها برغيفها فادفعها إليه. فقال له الغلام: أصلحك الله قد اشتهيتها منذ كذا وكذا. فقال: لفها فادفعها إليه.

قال: ففعل الغلام فقال للسائل هل لك أن تأخذ درهماً وتردها؟ قال: نعم. فأخذها منه ووضعها بين يديه. فقال: لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول الحديث المتقدم.

/ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متواليات حتى [١٥١] فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا(١). قال: ونزل ضيف برسول ﷺ فلم يجد عند أهله شيئاً فذهب به رجل من الأنصار إلى أهله فوضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من صنيعكم إلى ضيفكم»(٢). ويقال أيضاً: فيه نزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(٣).

فالجود من أخلاق الأنبياء، والإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك من دأب رسول الله ﷺ حتى سماه الله عظيماً فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٤). وعن سهل بن عبد اللّه قال: إن موسى عليه السلام قال: يا رب أرني بعض درجات محمد وأمته، قال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك، لكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلتُه بها عليك وعلى جميع خلقي. قال: وكشف له عن ملكوت السماء ونظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها.

قال: يا رب بماذا بلغته به هذه الكرامة؟ قال: بخلق أخصصته به من بينهم هو الإيثار، يا موسى لا يأتي أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلاّ استحييت من محاسبته وبوّأته من جنتي

= عمر بسند ضعيف.

(١) رواه البيهقي في الشعب بلفظ: ولكنه كان يؤثر على نفسه، وأول الحديث عند مسلم بلفظ ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُر حتى مضى لسبيله، وللشيخين: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاث ليال تباعاً حتى قبض، زاد مسلم من طعام. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢٥٢).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة. المصدر السابق.

(٣) سورة الحشر الآية: ٩.

(٤) سورة القلم الآية: ٤.

حيث يشاء. وقيل: خرج عبد اللّٰه بن جعفر ـ وهو أحد الأجواد ـ إلى ضيعة له فنزل على حائط قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أوتي الغلام بقوته ثلاثة أقراص ودخل الحائط كلب فدنى من الغلام فرمى إليه بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث: فأكلهما، وعبد اللّٰه ينظر. فقال عبد اللّٰه: يا غلام كم قوتك كل يوم؟

قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب إنه جائز مسافر بعيد جائع فكرهت ردّه. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: / أطوى يومي هذا. قال عبد اللّٰه: [١٥٢] ألامُ على السخاء؟! فهذا! أسخى مني فاشترى الغلام والحائط وما فيه من الآلات فأعتق الغلام فوهبه له.

وعن بعض الصوفية قال: كنا بطرسوس، فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد، فاتبعنا كلب من البلد، فلما بلغنا باب الجهاد إذ بدابة ميتة، فصعدنا إلى موضع خال فقعدنا، فلما نظر الكلب إلى الميتة رجع إلى البلد، ثم رجع بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً، فجاء إلى تلك الميتة فقعدنا ناحية ووقعت الكلاب بالميتة حتى أكلتها وذلك الكلب ينظر، ثم رجعت الكلاب إلى البلد، فقام ذلك الكلب إلى تلك العظام فأكل ما بقي على العظم قليلاً ثم انصرف.

ومن كتاب سراج الملوك قال: ويروى أن إبراهيم بن أدهم[1] قال لشقيق الزاهد علام بنيتم أمركم هذا؟ قال: إذا وجدنا أكلنا وإذا لم نجد صبرنا. قال إبراهيم: هكذا تعمل الكلاب ببلخ إذا وجدت أكلت وإن منعت صبرت، قال: نحن إذا وجدنا آثرنا وإن لم نجد صبرنا. ويروى أن امرأة من المتعبدات قالت ليحيى بن هلال وهو في جماعة من أصحابه: ما السخاء عندكم في الدنيا؟ قال: البذل والإيثار. قالت: فما السخاء في الدين؟ قال: أن تعبد الله سبحانه سخية به نفسك غير مكرهة. قالت: أفتريدون على ذلك أجراً؟ قال: نعم لأن الله وعد على الحسنة بعشرِ أمثالها. قالت: فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشراً فبأي شيء سخيتم؟ وإنما السخاء أن تعبدوا الله متلذذين بطاعته غير كارهين، لا تريدون بذلك أجراً، ألا تستحيون أن

---

(١) الإمام العارف سيد الزهاد أبو إسحاق العجلي، وقيل: التميمي، الخراساني، البلخي، نزيل الشام، مولده غير حدود المئة.. كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبُزاة (أي الصقور) فبينا إبراهيم في الصيد على فرسه يُركضه، إذ هو يصوت من فوقه: يا إبراهيم، ما هذا العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ (المؤمنون: ١١٥) اتق الله، عليك الزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته ورفض الدنيا.. وتوفي سنة اثنتين وستين ومئة وقبره يُزار، وترجمته في تاريخ دمشق في ثلاث وثلاثين ورقة. سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧).

يطلع الله على قلوبكم فيعلم منها أنها تريد شيئاً بشيء. ويقال: السخاء في الدين أن تسخُو بنفسك وتتلفها بإراقة دمك لله تعالى سماحة من غير كراهة لا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا آجلاً حتى يفعل الله بك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك والله أعلم.

الفصل السادس: / في الاستعجال [١٥٣]

قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُوا الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً﴾(١). وقال أيضاً: ﴿خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾(٢). قيل: من طين، وقيل: هو من المقلوب تقديره: خلق العجل من الإنسان.

وعن حاتم الأصم أنه قال: كان يقال: العجلة من الشيطان إلاَّ في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ وهي: إطعام الضيف إذا دخل، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب.

وفي الخبر: أن نوحاً عليه السلام قال لإبليس ـ لعنه الله ـ وذلك أن الله أوحى إلى نوح عليه السلام آن كلمه فإني سأنطقه بحجتي عليه فقال: أي عدو الله، أي أخلاق بني آدم أعون لك ولجنودك على إضلاله؟ فقال إبليس: نعم الخبير سألت ـ إذا وجدنا ابن آدم شحيحاً أو حريصاً أو حسوداً أو جباراً أو عجولاً تلقفناه، فإن اجتمعت لنا فيه هذه الإخلاق سميناه فينا: شيطاناً مريداً رجيماً، وسأخبرك عن هذه الأخلاق بما تعرف به الحق: ألم تعلم أن الله أسكن أباك آدم الجنة، ثم فوضها إليه بجميع ما فيها وحرم عليه شجرة واحدة وحمله الحرص على تناولها فخرج بالحرص من جميع الجنة؟ ألم تعلم أن الله تعالى عرضنا للسجود لآدم فأدركني الحسد والبغي فخرجت بذلك من ملكوت السموات وصرت شيطاناً لعيناً؟ ألم تعلم أن ابن آدم قابيل شَحَّ بأخته على أخيه فحمله الشح على أن قتل أخاه فصيره إلى العقوق وإلى النار؟ ألم تعلم إنما هلك من هلك من قومك بالتجبر في الأرض والتكبر فصاروا بذلك إلى النار؟ ألم تعلم أن العجلة والحدة حملاك على أن دعوت الله على ابنك فغيرت دعوتك لونه وألوان أولاده من بعده إلى يوم القيامة؟ والله أعلم. واعلم أن العجلة تبدو منها أربع آفات:

أحدها: أن العابد ربما يقصد منزلة في الخير فيجتهد فربما يستعجل في إدراكها وليس ذلك بوقتها، فإما / أن يفتر ويترك الاجتهاد وييأس منها فيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو في [١٥٤]

---

(١) سورة الإسراء الآية: ١١.
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.

الجهد، وإتعاب النفس فينقطع عن تلك المنزلة، فهو بين إفراط وتفريط وكلاهما نتيجة الاستعجال. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»(١). وقال: «شر السير الحفحفة». وهو الإسراع، وفي المثل السائر: إن لم تستجل تصل: قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية: أن تكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى، ويكثر الدعاء ويجد، فربما استعجل الإجابة قبل وقتها فلا يجدها فيفتر ويسأم ويترك الدعاء ويُحرم حاجته.

الثالثة: أن يظلمه إنسان فيغيظه فيستعجل في الدعاء عليه، كالذي قدمنا من دعاء نوح عليه السلام على ابنه حام، فربما يهلك مسلم بسببه، أو يتجاوز الحد في الدعاء عليه فيقع في معصية.

الرابعة: أن أصل العبادة وملاكها الورع، وأصل الورع النظر والبحث التام في كل شيء معرض للمتورع من أكل أو شرب أو لبس أو كلام أو فعل، فإذا كان الرجل مستعجلاً في الأمور غير متأمل ولا متثبت لم يقع توقف ونظر في الأمور كما ينبغي فيقع في الحرام والشبه والخطأ والغلط فيفوته الورع، وأي خير في عبادة بلا ورع، ولذلك قيل للمؤمن وقّاف، والمنافق وثّاب، وفي الحديث: «المؤمن: كيّس فطن، حذر متثبت، وقّاف لا يعجل، عالم ورع، والمنافق: همزة لمزة حطمة، كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب وفيما انفق»(٢) وإذا كان في العجلة الانقطاع عن منازل الخير، وحرمان الحاجات، وهلاك المسلمين وهلاكه، وخطر فوات الورع الذي هو رأس المال فحقيق على الإنسان أن يهتم لها بالإزالة وإصلاح النفس منها.

وحقيقة العجلة: هي المعنى الراتب في القلب، والباعث على الإقدام على الأمر، فأول خاطر دون التوقف فيه. والاستعجال: إتباع ذلك والعمل به، وضدها الإناءة: وهي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاحتياط في الأمور والنظر فيها، والتأني في اتباعها والعمل بها. [١٥٥]

---

(١) رواه أحمد من حديث أنس، والبيهقي من حديث جابر. قاله العراقي في المغني (٤/٧٧).
(٢) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٠٥)، ابن حجر في الفتح (١٠/ ٥٣٠)، الألباني في الضعيفة (٧٦٠).

وأما التوقف: فضده التعسف، قال بعض العلماء: الفرق بين التوقف، والتأني: أن التوقف قبل: الدخول في الأمر حتى يستبين له رشده. والتأني: بعد الدخول فيه حتى يعطي الكل جزاء حقه. ثم مقدمات الإناءة ذكر وجوه الخطر في الأمور التي تعترض الإنسان وضروب الآفات المخوفة فيها، وذكر ما في النظر والتثبت من السلامة وما في التعسف والاستعجال من الندامة.

فصــل

اعلم أن الحلم والرفق والإناءة خصال محمودة في الإنسان، وأظنها نتيجة حسن الخلق، أما الحلم فحده ضبط النفس عند هيجان الغضب، والتحلم تكلف ذلك، وقد قيل للأحنف بن قيس[1]: أنت حليم. قال: لا إنما أنا أتحلم. فقيل له: من أين تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: وما كان من حلمه؟ قال: كان ذات يوم في مجلس متقلداً سيفه عاقداً حبوته وهو يحدث جلسائه، إذ جيء بأحد بنيه مقتولاً، وبابن أخيه مكتوفاً، فمضى على حديثه حتى أتمه ثم التفت إلى أحد بنيه فقال: ما هذا؟ قال: هذا ابنك قتله ابن أخيك. قال: فوالله ما تغير له لون ولا تلجلج له لسان ولا حلّ حبوته، فنظر إلى ابن أخيه فقال: رميت سهمك في جسمك، وقطعت يدك بيدك. ثم قال لابنه: اطلق كتاف ابن عمك، وادفن أخاك، وادفع لأمه مائة ناقة، فإنها غريبة فينا مسكينة. ثم أنشأ يقول:

أقــول للنفــس تــأسيــاً وتعــزيــه   إحــدى يــدي أصــابتنــي فلــم نــزد
كــلاهمــا خلــف مــن فقــد صــاحبــه   هــذا أخــي حيــث أنعــوه وذا ولــد

وقد تقدم في فضل الحلم ما يكفي. وأما الرفق: فضده العنف والخرق، ونتيجة الرفق: الإناءة، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق ومعنى حسن الخلق / أن يكون الإنسان سهل [١٥٦] العريكة لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة. وأما الأناة: فقد تقدم معناها، قال الشاعر:

---

(١) الأمير الكبير العالم النبيل أبو بحر التميمي أحد من يضرب بحلمه وسؤدُدِه المثل.. كان من قواد جيش علي يوم صفين.. قال قتادة عن الحسن. ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحنف وقيل: كانت عامة صلاة الأحنف بالليل، وكان يضع أصبعه على المصباح، ثم يقول: حَسِّ (كلمة تقال عند الألم) ويقول: ما حملك يا أحنف على أن صنعت كذا يوم كذا؟ عن الأحنف: عجبت لمن يجري مجرى البول مرتين كيف يتكبر؟! قال الفسوي: مات الأحنف سنة سبع وستين، وقال غيره: توفى سنة إحدى وسبعين، وقال جماعة: مات في إمرة مصعب بن الزبير على العراق رحمه الله، قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨٦/٤: ٩٧).

أنـــاةً وحلمـــاً وانتظـــاراً بهـــم غـــداً فما أنا بألواني وإلا الصَّرع العُمر

فصل: في فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلاَّ حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلاَّ بضبط قوة الغضب، وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال، ولأجل ذلك اثنى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه فقال: «يا عائشة، أنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»[١].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»[٢] وقال: «إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلاَّ حرموا [محبة الله]»[٣]. وقال عليه السلام: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»[٤].

وقال عليه السلام: «يا عائشة أرفقي، فإن الله تعالى إذا أراد بأهل بيت خيراً يَدُلهم على باب الرفق»[٥]. وعنه عليه السلام: «أيَّما والٍ ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة»[٦]. وقال عليه السلام: «أتدرون من يحرم على النار؟ كل لين سهل قريب»[٧]. وقال عليه السلام: «الرفق يمن والخرق شؤم»[٨] وقال: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»[٩] ويُنشد:

---

(١) رواه أحمد، والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمٰن بن أبي بكر المليكي وضعفه، عن القاسم عن عائشة، وفي الصحيحين: من حديثهما: «يا عائشة أن الله يحب الرفق في الأمر كله» قاله العراقي في المغني (٣/ ١٨١).

(٢) رواه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشُعب بسند ضعيف من حديث عائشة. المصدر السابق.

(٣) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/ ١٨١) وعلق العراقي على الحديث بهامش فقال: رواه الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضعيف.

(٤) رواه مسلم من حديث عائشة: العراقي في المغني (٣/ ١٨١).

(٥) رواه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع، ولأبي داود: يا عائشة ارفقي: المصدر السابق.

(٦) رواه مسلم من حديث عائشة، وفي حديث فيه: ومن ولى من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به. المصدر السابق.

(٧) رواه الترمذي من حديث ابن مسعود. المصدر السابق.

(٨) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف. المصدر السابق.

(٩) رواه أبو يعلى من حديث أنس، وورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل ابن سعد بلفظ الأناة من الله. المصدر السابق.

الـرفـق يمـن والأنـاة سعـادة والطيش أقبح بالرجال وأخرق
لو سار ألف مدجج في حاجة لـم يقضهـا إلاَّ الـذي يتـرفـق

ويروى عنه عليه السلام أن رجلاً أتاه فقال: يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصصني منك بخير. فقال: «الحمد لله» مرتين أو ثلاثاً. ثم أقبل عليه فقال: «هل أنت مستوصٍ» مرتين أو ثلاثاً. / قال: نعم. قال: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان [١٥٧] رشداً فامضه، وإن كان سوى ذلك فانته»[١]. وعن عائشة أنها كانت معه عليه السلام في سفر على بعير صعب، فجعلت تصرفه يميناً وشمالاً فقال: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلاَّ زانه ولا ينزع من شيء إلاَّ شانه»[٢].

وفي الخبر موقوفاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيّمه، والرفق والده، والبر واللين أخواه، والصبر أمير جنوده»[٣]. الآثار: قال بعض العلماء لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل.

قال: قد قيل أن تضع الأمور مواضعها، الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه. هذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين، والفظاظة بالرفق. كما روي عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني لا تكن حلواً عند السفهاء فيبتلعوك، ولا مُرّاً عند الفقهاء فيرفضوك. ويُنشد:

وضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر.

وعن عمرو بن العاص أنه قال لابنه عبد اللّه: ما الرفق؟ قال: أن تكون ذا أناة، وتلاين الولاة. قال: فما الخرق؟ قال: معاداة إمامك، ومناوأة من يقدر على ضرك.

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر هو المسمى: عبد الله بن مسور الهاشمي ضعيف جداً، ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده: إذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته. وإسناده ضعيف. قاله العراقي في المغني (٣/ ١٨١: ١٨٢).

(٢) رواه مسلم العراقي في المغني (٣/ ١٨٢).

(٣) رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب، وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف. المصدر السابق.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بلغه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيتها الرعية، إن لنا عليكم حق النصيحةِ بالغيب، والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة: إن للرعية عليكم حقاً، واعلموا أنه لا حلم أحب إلى الله ولا أعظم من حلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله ولا أعم من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن / بين ظهرانيه يرزق العافية ممن هو دونه. [١٥٨]

وقال وهب بن منبه: الرفق من الحلم. وقال بعض السلف: ما أحسن الإيمان يزينه العلم وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى عمل. وروي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية: أما بعد فإن التفهم في الخير زيادة رشد، وأن الرشيد من رشد عن العجلة، وأن الخائب من خاب عن الأناة، وأن المتثبت[1] مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العاجل مخطىء أو كاد أن يكون مخطئاً، وإن من لم ينفعه الرفق يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالي. فأجابه عمرو: اعلم أنه وإن حث الشرع على الرفق فإن العنف في محله حسن أيضاً. وقد روي عن ابن عون الأنصاري، أنه قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلاّ وإلى جانبها كلمة تجري مجراها. وقال أبو حمزة الكوفي: لا تتخذ من الخدم إلاّ ما لا بد لك منه فإن مع كل إنسان شيطاناً واعلم أنه لا يعطونك بالشدة شيئاً إلاّ أعطوك باللين ما هو أفضل منه.

فهذا ثناء أهل العلم على الرفق؛ وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال، وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور، وإنما الكامل من يميز موضع الرفق من مواضع العنف ويستعمل كلاً في موضعه، وإن أشكل عليه بعض الوقائع فليكن ميله إلى الرفق، فإن النجاح صعب في الأكثر[2]، والله أعلم.

فصل: في حسن الخلق

قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3]. وعن عبد اللّه بن عمر قال: قلت لعائشة رضي الله عنها صفي لي خلق رسول الله، فقالت لي: أما تقرأ القرآن؟ كان خلقه القرآن. وحسبك بهذا الاسم منقبة بالرسول وتعريفاً له بحسن الخلق، إذ القرآن يجمع كل

(١) في الأصل: القبث. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/ ١٨٢).
(٢) راجع في معظم الآثار الواردة هنا إحياء علوم الدين (٣/ ١٨١ : ١٨٢).
(٣) سورة القلم الآية: ٤.

فضيلة وينهى عن كل نقيصة ورذيلة، قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[١]. قال عليه السلام: / «ما هذا يا جبريل؟». [١٥٩]

قال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعفو عمّن ظلمك وتعطي من حرمك وتحسن إلى من أساء إليك. فانظر أين أخلاق الخاصة اليوم فضلاً عن العامة، فإن أحدهم ليقطع من وصله، ويحرم من أعطاه، ويظلم من سالمه، ويغضب على التهمة. وإنما اقتصر على هذه الكلمة لأنها أصل الفضائل وينبوع المناقب: لأن في أخذ العفو صلة القاطع، والصفح عن الظالم وإعطاء المانع.

وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وصلة الرحم، وصون اللسان، وغض الطرف عن المحرمات، وفي تقوى الله تدخل جميع آداب الشرع فرضها ونفلها، وفي الإعراض عن الجاهلين الصفح والحلم وتنزيه النفس عن مجازاة السفية وممارة اللجوج، فهذه الأصول الثلاثة تتضمن محاسن الشرع نصاً وتنبيهاً، وقال عليه السلام: «بعثت لأُتمم محاسن الأخلاق»[٢]. وعنه أيضاً سئل: أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً»[٣].

وقال «إن الله اختار لكم الإسلام ديناً فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكمل إلاّ بهما». قال عليه السلام: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن»[٤] وقال معاذ: قال لي رسول الله ﷺ: «حسّن خلقك للناس».

وقال عليه السلام: «يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق»[٥] وقال رجل: يا رسول الله أوصني. قال: «اتق الله حيثما كنت» قال: زدني. قال: «خالق الناس بخلق حسن»[٦]. قال عليه السلام: «أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً الموطؤن أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»[٧].

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٢) رواه أحمد والحاكم، والبيهقي من حديث أبي هريرة (المغني ٣/ ٤٨).

(٣) رواه أبو داود والترمذي، والنسائي، والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكمل المؤمنين وللطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً.

(٤) رواه أبو داود، والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء. المصدر السابق.

(٥) رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه. قاله العراقي في المغني في ما هو أتم منه (٢/ ١٥٥).

(٦) رواه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح. المصدر السابق.

(٧) قال العراقي عن نحوه في المصدر السابق: رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

وقال: «حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوى الداء؟ قالوا: بلى. قال: الخلق الدنيء والسؤال البذيء. وقال بعض البلغاء: من ساء خلقه ضاق رزقه. وعلة هذا القول ظاهرة.

وقال بعض البلغاء: الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة، والسيء الخلق / الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء. وقال بعض الأدباء: عاشر أهلك بأحسن [١٦٠] أخلاقك فإن السواء فيهم قليل. وقال عليه السلام: «ما حسّن الله خلق امرىء وخلقه فتطعمه النار»[١] ويُنشد:

إذا لم تتسع أخلاق قوم يضيق بهم الفسيح من البلاد
إذا ما المرء لم يخلق لبيباً فليس اللب عن قدم الولاد

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]. أنه لا يُخاصَم ولا يُخاصِم من شدة معرفته بالله عز وجل. وقيل: معناه لم يؤثر فيك جفاء الخُلق بعد معرفتك بالخَلق. وقيل: حسن الخلق استصغار ما منك واستعظام ما إليك، وقيل: حسن الخلق تحمّل أثقال الخلق، وقيل: هو كف الأذى واحتمال الجور، وقيل: حسن الخلق احتمال المكروه بحسن المداراة. وقيل: حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق، وقضاء الحق بلا ضجر ولا ملق.

وقال بعض الحكماء: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق، فإذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه وقل معادوه، فسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب. وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «[إنكم] لن تسعوا الناس بأموالكم فاسعوها ببسط الوجوه وحسن الخلق»[٣]. وهذا الفصل واسع جداً تركت بعضه، واختصرت مخافة التطويل والله أعلم.

الباب الثاني
في اللسان

اعلم أن اللسان ترجمان القلب يعبر عن مستودعات ضمائره، ويخبر عن مكنونات

---

(١) رواه ابن عدي والطبراني في مكارم الأخلاق في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة قال ابن عدي في إسناده بعض النكرة. قاله العراقي في المغني (٣/ ١٥٥).

(٢) سورة القلم الآية: ٤.

(٣) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين ن(٣/ ٤٩) وعلق عليه العراقي بهامشه بقوله: رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة، وبعض طرق البزار رجاله ثقات.

سرائره، فيحق على العاقل أن يحذر من زلله بالإمساك عنه أو بالإقلال منه؛ لأن اللسان أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً، وأكثرها فساداً وعدواناً.

وروي أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ عليه السلام بلسان نفسه ثم قال: «هذا». وقال عليه السلام: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يخزن من لسانه».

/ وروي أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يستقيم أحدكم حتى يستقيم دينه، ولا يستقيم [١٦١] دينه حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»[١] وعنه عليه السلام أنه قال: «أفضل العبادات الصمت وحسن الخلق» وقال عليه السلام: «رحم الله من قال خيراً فسلم أو سكت عن شر فسلم»[٢]. وقال لمعاذ: «يا معاذ أنت سالم ما سكت فإذا تكلمت فلك أو عليك».

وقال بعض العلماء: وجدت نفسي تحتمل مؤنة الصوّم في الحر الشديد بالبصرة، ولا تحتمل ترك كلمة لا تعنيها. وعن أبي هريرة أنه قال: من لم ير أن كلامه من عمله، وأن خلقه من دينه هلك وهو لا يشعر.

قال: بعض العلماء: سعد من لسانه صموت، وطعمه قوت. وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: ما شيء أحق بطول. سجن من اللسان.

وعن ابن عمر أنه قال: من عد كلامه من عمله قلّ كلامه إلاّ فيما يعنيه. وعن ابن عباس رحمه الله أنه رئي بين الركن والمقام قائماً آخذاً بثمرة لسانه وهو يقول: ويحك قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم. فقيل له: يا ابن عباس: ما لك آخذاً بثمرة لسانك فقال: بلغني أن العبد ليس عليه شيء من جسده بأحنق منه على لسانه يوم القيامة. فعلى الإنسان أن يحتفظ منه جداً فليذكر في ذلك خمسة أصول:

أحدهما: ما روي عن ابن سعيد الخدري أنه قال: إذا أصبح ابن آدم قالت أعضاؤه كلها للسانه: نناشدك الله فينا، فإنك إذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت أعوججنا.

---

(١) رواه الطبراني بنحوه في الكبير (١٠/ ٢٨٠)، وقال العراقي في المغني (٣/١٠٦) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف.

(٢) أطرافه بنحوه عند: العجلوني في كشف الخفا (١/٥١٤)، السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (٨٩).

قيل: المعنى في ذلك أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان نحو ما روي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا رأيت قسوة في قلبك ووهناً في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك.

الثاني: حفظ الوقت لأن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى أقله أن يكون لغواً يضيق الوقت به. وذكر عن حسان بن أبي سنان أنه مَرَّ على غرفة فقال: مذ كم بنيت هذه الغرفة؟ ثم أقبل على نفسه فقال: يا نفس الغرور تسئلين عما لا يعنيك / فعاقبها بصوم سنة. [١٦٢] وفي الخبر: أن رجلاً قتل في المعركة فقال قائل: هنيئاً له بالجنة، فقال عليه السلام: «فما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه»(١). ولقد أحسن القائل:

أغنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت مستريحاً
وإذا ما هممت بالنطق في الباطل فاجعل مكانه تسبيحاً

الأصل الثالث: حفظاً لأعمال الصالحات فإن من يُكثر الكلام لا بد له أن يقع في غيبة المسلمين، والغيبة هي الصاعقة المهلكة للطاعات كما روي: أن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجيقاً يرمي به حسناته شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً.

الأصل الرابع: السلامة من آفات الدنيا. وقال بعض السلف: لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك وقال بعض الحكماء: مقتل الرجل بين فكيه. قال الشاعر:

أيا رب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها
وما ينتقص من سباب الرجال يزد في نُهاها وألبابها

وقال بعض البلغاء: كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقصر منه على القليل، / وإياك وما يسخط سلطانك، أو يوحش إخوانك فمن أسخط سلطانه تعرض [١٦٣] للمنية، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية. وقال بعضهم: لا تبسطن لسانك فيفسد عليك شأنك. ويُنشد لابن مطيع:

لسان المرء ليث في كمين إذا خلّاً عليه له أغاره
فسسه عن الخنا بلجام صمت تكن لك في بليته ستاره

---

(١) أطراف الحديث عند: المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٤١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣)، وابن عبد البر في التمهيد (١٠/٢٢٨)، السيوطي في الدر المنثور (٦/١٩٦)، والقرطبي في التفسير (٥/١٨٨).

الأصل الخامس: ذكر آفات الآخرة وعاقبتها وقد قال عليه السلام لمعاذ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم»[١]. وفي حديث آخر: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيهوى بها في نار جهنم سبعين/ خريفاً»[٢]. [١٦٣]

فإذا تحقق العبد هذه الأصول وعلم أن لسانه إنما خلق لذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وإرشاد الخلق إلى طريقه، ولإظهار ما في ضميره من حاجات نفسه ديناً ودنيا فليستعمله في مقتضى هذه المعاني، وإلاّ فقد كفر نعمة الله فيه واستحق العقوبة بمساوئه، والواجب عليه أن يحفظ لسانه من كل لفظ قبيح ولا سيما أشياء كأصول وسنذكر ذلك في فصول.

الفصل الأول: في الكذب

فليحفظ منه اللسان جهده لا في جد ولا في هزل؛ لأنه جماع كل شر، وأصل كل ذم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بَآيَاتِ اللهِ﴾[٣] الآية. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «الكذب فاتحة الكفر».

وقال: «من كذب وأصرّ فهو في النار خالداً مخلداً». أو قال عليه السلام: «الكذب ريبة والصدق طمأنينة»[٥]. وعن صفوان بن سليم أنه قال: قيل يا رسول الله أفيكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» قيل: أفيكون بخيلاً؟ قال: «نعم». قيل: أفيكون كذاباً؟ قال: «لا».

وقال بعض الحكماء: الكذاب لص؛ لأن اللص يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك. وقال بعض الحكماء: الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة. وقال بعض الشعراء:

وما شيء إذا فكرت فيه ... بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه ... وأذهب بالبهاء من الرجال

وعن النبي ﷺ أنه قال: «تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة ففيه النجاة، وتجنبوا

---

(١) أطراف الحديث عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦١٦)، وابن ماجة في السنن (٣٧٩٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٢) أطراف نحو هذا الحديث عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣١٤) أحمد في المسند (٢/ ٢٣٦)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥٣٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٥)، (١٠/ ٢٩٧).

(٣) سورة النحل الآية: ١٠٥.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٦١.

(٥) أطرافه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٨٥)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٨٩).

الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة»[1]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لأن يضعني الصدق وقلّ ما يفعل أحب إليّ من أن يرفعني الكذب. وقال بعض العلماء: ليكن مرجعك إلى الحق، ومفزعك إلى الصدق، والحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين. ويُنشد:

عوّد لسانك صدق القول تحظ به ... إن اللسان لما عوّدت منقاد
موكل بتقاضى ما مننت له ... في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

[١٦٤] / وفي منثور الحكم: من قلّ صدقة قلّ صديقه. واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه:

منها: أنه إذا لقنته الحديث تلقنه، ولم يكن بين ما تلقنه وبين ما أورده فرق عنده.

ومنها: أنك إذا أشككته فيه تشكك حتى كاد أن يرجع، ولولاك ما تخالجه فيه شك.

ومنها: أنك إذا أوردت عليه قوله حصر وارتبك، ولم يكن عنده برهان الصدق. ولذلك قال عليّ: الكذاب كالسراب.

ومنها: ما يظهر عليه من ريبة الكاذب وذلة المتهوم لأن هذه الأمور لا يمكن للإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من آثارها. ولذلك قالت الحكماء: العينان أنمّ من اللسان. وقال بعض العلماء: الوجوه مرايا تريك أسرار البرايا. ويُنشد:

تريك أعينهم ما في صدورهم ... إن العيون يود سرها النظر

وإذا اتهم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وزيادات معقولة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه. وقال بعض الشعراء:

حسب الكذوب من البلية ... بعض ما يحكى عليه
ما إن سمعت بكذبةٍ ... من غيره نسبت إليه

وعن محمد بن مسلم أنه قال: ما كان شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب وما اطلع عليه السلام على كذبه من أحد إلا خرجت من صدره حتى يحدث الآخر توبة وكان يقول: علة الكذوب أقبح علة وزلة المرتقى أشد زلة. وقال ميمون: من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقة. وصَدَق لأنه إن تحرى الصدق اتهم حتى لا يعتقد قوله: قال الشاعر:

---

(١) أطراف الحديث عند: المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٩٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/٧١)، المتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٠٤٤، ٢٤٠٦٦).

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكن يصدق في شيء وإن كان صادقاً
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان صادقاً

والكذب جماع كل شر وأصل كل إثم، ألا ترى أن شاهد الزور كاذب مردود /الشهادة، وكذلك الحاكم بغير ما أنزل الله، وكذلك القاذف كاذب وقال ابن المقفع: لا [١٦٥] تتهاون بإرسال الكذبة من الهزل فإنها تسرع إلى إبطال الحق. وفي منثور الحكم: لا يلزم الكذب شيئاً إلاَّ غلب عليه، ويُنشد:

لي حيلة فيمن ينسم وليس في الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليله
فعلى الملفق والمزوّر لعنة الله العظيمه
وأنا المهذب ليس لي في الزور والبهتان شيمه

واعلم أن الكذب من أمهات الكبائر ولكن قد وردت السنة بإرخاص الكذب في: الحرب، وإصلاح ذات البين على وجوه التورية والتأويل دون التصريح؛ لأن السنة لا تجوّز أن ترد بإباحة الكذب لما فيه من التنفير، وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض، كما سئل عليه السلام وقد تطرف بدراً، وانفرد عن أصحابه فقال له رجل: ممن أنت؟ فقال: «من ماء».

فورّى عن الإخبار بنفسه بأمر محتمل، فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد عليه السلام أنه من الماء الذي خلق منه الإنسان فبلغ ما أحب من إخفاء نسبه وصدقه في خبره. وقد قال عليه السلام: «في المعارض لمندوحة عن الكذب»[١]. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن في المعارض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب، والله أعلم.

الفصل الثاني: خلف الوعد

وليحذر أن يعد أحد وعداً ثم يخلفه؛ فإن إخلاف الوعد من خبائث الأخلاق وأمارات النفاق وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وعدت أخاك قليلاً أو كثيراً فلا تخلفه فتستبدل بالمودة بغضاً لإن عدة المؤمن أخذ بالكف»[٢].

---

(١) طرف الحديث عند: ابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٢٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٧٢).
(٢) أطراف نحو هذا الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٠٨)، الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٢).

وقال عليه السلام: «العدة عطية»[١]. وقال في صفة المؤمن: «إنه من إذا تحدث صدق وإذا أؤتمن لم يخن» وفي صفة المنافق: «أنه إذا تحدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» قال الشاعر:

[١٦٦] / نفـاق المـرء يعـرف فـي ثـلاث   وإن عـرفـوا لـه طـول السجـود
إذا كـذب الحـديـث وخـان فيـه   أمـانتـه ولـم يـف بـالعهـود

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لا تعد أحداً وعد ولكن من اسمع ما تقول: فإن يقدر الله شيئاً يكن، إن شاء الله، فإن وعدته فلا تخلفه فإنه من أبواب النفاق. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل في ذلك فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[٢].

قيل: كان بينه وبين إبليس لعنه الله موعداً أن لا يبرح حتى يعود إليه، وكان في ضميره أنه لو أقام سنة لم يخلف موعده، حتى أتى جبريل عليه السلام فقال: إن الفاجر الذي سألك أن تقعد حتى يعود إليك إبليس فلا تقعد له ولا كرامة، فسماه الله صادق الوعد. وروي أن النبي ﷺ وعد رجلاً عند شجرة بظاهر المدينة فنسى الرجل الوعد فقعد النبي عليه السلام بعيد عن المدنية ثلاثة أيام فخرج الناس في طلبه، والرجل معهم ناسياً لوعده فقال له عليه السلام: «إنك لو لم تأتني لكان الحشر من هاهنا» وكذلك لا يعطي أحداً عهداً إلاّ وفيّ به قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾[٣].

وقال عليه السلام: «لا دين لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[٤] ومن كتاب الضياء قال أبو مالك: بين العهد والوعد فرق، قال: وصفة العهد هو أن ينقض عهداً بينه وبين الله فيما تعبّده به من أمر الدين أو نقض عهداً أخذه عليه إمام عادل أو كان فيه لأحد إتلاف مال أو نفس أو إدخال ضرر كثير، قال: فهذه صفة العهد.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً. العراقي في المغني (١٢٩/٣).

(٢) سورة مريم الآية: ٥٤.

(٣) سورة النحل الآية: ٩١.

(٤) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (٢٩٦/٨)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٩٢)، أحمد في المسند (١٣٥/٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٣١/٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/١)، وفي موارد الظمآن (٤٧)، ابن عبد البر في التمهيد (٢٥٥/٩)، المنذري في الترغيب والترهيب (٨١/١).

وأما صفة الوعد: فهو ما لا يتعلق به حق لمخلوق، ولا يؤدي إلى ضرر. فقال: وهذا ونحوه مما يأثم به الناس دون الكفر والهلاك قال أبو محمد: من وعد وعداً ثم أخلفه فتلف به مال أو نفس ضمن والله أعلم.

وأما أسير المشركين إذا أعطاهم العهد على أن / يرجع إليهم فلا يحل له الوفاء بذلك؛ [١٦٧] لأنه رجوع إلى الشرك، وأما أسير أهل القبلة فلا يحل له أن ينقض العهد بل يرجع إليهم والله أعلم. والذي ينبغي للإنسان أن لا يعد أحداً شيئاً بل يكون إحسانه فعلاً لا قولاً، وإذا تكلم بكلام صدقه بعمل وينشد لمحمود الوراق[١]:

القـــول مـــا صـــدقـــه الفعـــل ... والفعـــل مـــا وكـــده العقـــل

لا يثبـــت القـــول إذا لـــم يكـــن ... يطلبـــه مـــن تحتـــه الأصـــل

وعن سفيان الثوري أنه قال: إن للكذاب منازل فأسوأها أثراً وأعظمها ضرراً خلف الوعد والله أعلم.

الفصل الثالث: في الغيبة

وليحفظ لسانه من الغيبة؛ لأنها وإن كانت صدقاً فهي في القبح والمعرة تزيد على الكذب ونقض العهد؛ لأنها جناية وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً﴾[٢]. ويعني والله أعلم أنه كما لا يحل له لحمه ميتاً فلا تحل له غيبته حياً.

وفي الخبر: الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام[٣]. وروي أن امرأتين على عهد النبي ﷺ وجعلتا تغتابان الناس، فأخبر بذلك النبي عليه السلام فقال: «صامتا على ما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله عليهما»[٤].

---

(١) هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي خير شاعر مجود سائر النظم في المواعظ.. سير أعلام النبلاء للذهبي (١١/ ٤٦١).

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢.

(٣) بنحو هذا الطرف عند ابن أبي حاتم في العلل (٢٤٧٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٥١١)، التبريزي في المشكاة (٤٨٧٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٥٣٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩١).

(٤) رواه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وفيه رجل لم يسم، ورواه أبو يعلى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المبهم، قاله العراقي في المغني (٣/ ١٣٩).

وروي أنه قال: «يا أبا هريرة إن أحببت أن يغشى الله لك الثناء الحسن في الدنيا والآخرة فكف لسانك عن غيبة المسلمين». وعنه عليه السلام أنه قال: «نظرت في النار ليلة أسري بي فإذا بقوم يأكلون الجيف فقلت ما هذا يا جبريل؟» فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس.

وقال أيضاً: «ما صام من ظلّ يأكل لحوم الناس». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يعجبنكم من الرجل طنطنته ولكن من أدى الأمانة وكفّ عن أعراض الناس فهو الرجل.

[١٦٨] وعن ابن عباس أنه قال: اذكر أخاك /إذا توارى عنك بما تحب أن يذكرك إذا تواريت عنه. وعن مالك بن دينار أنه قال: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين. وقال عدي بن حاتم: الغيبة رعي اللئام. ويُنشد:

لا تكشفن من مساوي الناس ما ستروا فيكشف الله ستراً عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيكا

وعن الحسن البصري أنه كان يقول: الغيبة فاكهة الناس. وقال ابن السماك: لا تُعن الناس على غيبتك بسوء عيبك وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ رحمه الله: «اقطع لسانك عن حملة القرآن، وطلاب العلم، ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار»[١].

وعن أبي قلابة أنه قال: إن في الغيبة خراب القلب من الهدى. فنسأل الله العصمة، وحسبك من الغيبة شؤماً محقها الحسنات وإبطالها الطاعات، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الغيبة تفطر الصائم وتنقض الوضوء»[٢].

وبلغنا عن الحسن أنه قيل له: إن فلاناً اغتابك فبعث إليه بطبق فيه رطب، فقال: بلغنا أنك أهديت لنا حسناتك فأردنا أن نكافئك بهذا فاعذرني على التمام. فقال: إبراهيم بن أدهم لما بلغه: يا مكذوب بخلت بدنياك عن أصدقائك وجُدت بحسناتك على أعدائك فما أنت بما تبخل عنهم بمعذور ولا أنت فيما سخوت به بمشكور.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «احذروا على حسناتكم أن تنسل منكم بالاغتياب كما ينسل

---

(١) نحو طرف هذا الحديث عند: الزيلعي في نصب الراية (٢/٤٨٢)، أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/٢٧٦)، العجلوني في كشف الخفا (٢/١٦٣)، الربيع بن حبيب في المسند (١/٢٥، ٦٣).
(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

الماء من يد أحدكم» وعنه أيضاً أنه قال: «ما النار باليبيس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد»[١] وعن ابن السماك أنه قال: لو كنت مغتاباً لاغتبت أمي لأنها أحق بحسناتي.

وذكر عن حاتم الأصم أنه فاته القيام ذات ليلة فلما أصبح عزته زوجته فقال: إن أقواماً صلوا بالليل البارحة فلما أصبحوا نالوا مني فتكون صلاتهم في ميزاني يوم القيامة، ومعنى الغيبة أن تذكر إنساناً / بما يكره لو سمعه. [١٦٩]

وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال: «هي أن تقول في أخيك ما يكره فإن كنت صادقاً فقد اغتبته وإن كنت كاذباً فقد بهته»[٢]. وروي أن امرأة دخلت على النبي ﷺ تستفتيه فلما خرجت قالت عائشة: يا رسول الله ما أقصرها فقال: «مهلاً إياك والغيبة». قالت: يا رسول الله إنما قلت ما فيها. قال: «أجل ولولا ذلك لكان بهتاناً» ويقال: إياك وغيبة القراء المرائين، وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح مثل قولك: أصلح الله فلاناً لقد غمّني ما جرى عليه فيجمع بين خبيثين: أحدهما: الغيبة إذا حصلت بالتفهم، والأخرى تزكية النفس والتمدح بالصلاح؛ لأنه إن كان المقصود بقوله: أصلحه الله الدعاء له فليدع في السر، وإن اغتم بسبب فعله فلا يظهره للناس. والذي يمنع الإنسان من الغيبة أن ينظر في عيوبه، فإن عجز عن تطهير نفسه منها، ومع ذلك لا يحب من يفضحه، فليعلم أن عجز أخيه كعجزه هو وكراهة من يفضحه ككراهته هو، والله أعلم.

والغيبة المحرمة إنما هي غيبة المسلم، وأما المنافق والمبتدع فلا لقوله عليه السلام: «اذكر الفاسق بما فيه ليعرفه الناس»[٣]. وعنه عليه السلام أنه قال: «ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر، وشارب الخمر، والمعلن بفسقه».

وقال أيضاً: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»[٤] وأما المسلم إذا اغتابه أو قذفه فعليه التوبة والمحاللة منه، وقد ورد في الحديث: «أن الغيبة لا تغفر حتى يغفرها صاحبها» وإن تاب

---

(١) لم أجد له أصلاً، قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٣/١٤٥).

(٢) نحو هذا الطرف عند: ابن أبي حاتم في العلل (١٨٨١)، الألباني في الصحيحة (١٩٩٢)، وعن نحوه أيضاً قال العراقي في المغني (٣/١٤١): رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) بنحو هذا الطرف عند: العجلوني في كشف الخفا (١/١١٤)، (٢/٤٩٢)، ابن حجر في الكاف الشاف (١٥٧).

(٤) رواه ابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (١/٢١٧).

ولم يجد من اغتابه أن يحالله فإنه قد ورد في الحديث: «أنه يستغفر له فيكون ذلك كفارة له»[١].

والمستمع للغيبة شريك للمغتاب، وإنما الواجب عليه أن ينكر على المغتاب وإن لم يقدر فليعتزله وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على الله أن يحرم لحمه على النار»[٢].

وأخسس بأخ يرى الكلاب تمزق في لحم أخيه فلا تحركه الشفقة على الذب عنه[٣] والله أعلم. ويقال: من يغتاب الناس كمثل الجعل يعجز عن نيل الطرائف / وينكب على العذرة [١٧٠] فالغيبة مراتع الشيطان وإذام السنة الغافلين، وهي فاكهة القراء، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفصل الرابع: في النميمة والسعاية

اعلم أن النميمة تجمع إلى مذمة الغيبة رداءة وشراً وتضم إلى لؤمها دناءة وغدراً؛ لأنها تؤل إلى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحابين قال الله تعالى في وصف الكافر: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءِۭ بِنَمِيمٍ﴾[٤].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «شراركم المشاؤن بالنميمة المفسرون بين الأحبة الباغون للناس العيوب»[٥] وعنه أيضاً قال: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شغار، ملعون كل قتات، ملعون كل منان»[٦].

الشغار: المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة. وفي حديث آخر: «ملعون من حرش بين بهيمتين». والقتات النمام، وقيل: النمام: هو الذي يكون مع قوم يتحدثون فينم حديثهم، والقتات: والذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون فينم حديثهم. والمنان: هو الذي يصنع الخير ويمن به قال الشاعر:

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٥٠) عن نحوه: رواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف.

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/ ١٤٣): رواه أحمد، والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد.

(٣) في الأصل: عليه وأحسبه تحريف من الناسخ.

(٤) سورة القلم الآية: ١١.

(٥) رواه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري (المغني ٣/ ١٥١).

(٦) طرفه عند العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٣٠١).

فلا زلت منسوباً إلى كل نعمة ولا زلت منسوباً إليك النعائم
تمشيت فينا بالنميم وإنما يفرق بين الأحباء النمائم

وقيل في منثور الحكم: النميمة سيف قاتل: وقال بعض الأدباء: لم يمش ماش شر من واش. قال الشاعر:

من نم في الناس لا تؤمن عقاربه على الصديق ولا تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد من أين جاء ولا من أين يأتيه

وقال عليه السلام: «لا يدخل الجنة قتات»(١). وعنه أيضاً قال: «من مشى بنميمة بين اثنين سلط الله عليه ناراً تحرقه في قبره إلى يوم القيامة» وقال عليه السلام: «شر الناس ذو الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»(٢).

وعن ابن عباس أن النبي عليه السلام مَرَّ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير / أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ [١٧١] بجريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة فقالوا: يا رسول الله لم فعلت ذلك؟ قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»(٣) وذلك ببركة يديه عليه السلام.

وأما السعاية: فهي شر من الغيبة والنميمة وهي المهلكة الحالقة؛ لأنها تجمع إلى مذمة الغيبة ولؤم النميمة التغرير بالنفوس، والأموال، والقدح في المنازل، والأحوال. ومعنى السعاية: أن يسعى إنسان إلى ذي سلطان بإنسان آخر فيهلكه، وقد روي عن ابن قتيبة أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة ديوث ولا قلاع»(٤).

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٨/ ٢١)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ب ٤٥ رقم ١٦٩، ١٧٠)، أبي داود في السنن (٤٨٧١)، الترمذي في الجامع (٢٠٢٦)، النسائي عن المجتبى (٨/ ٣١٨)، أحمد في المسند (٥/ ٣٨٢)، البيهقي في السنن (٨/ ١٦٦).

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/ ١٥٥): متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخاري وهو عند أبي الدنيا بلفظ المصنف (أي الغزالي وهو نحوه).

(٣) وعن نحوه قال العراقي في المغني: (٣/ ١٤٠): رواه ابن أبي الدنيا في الصمت، وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة، وللطيالسي فيه: أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس، ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه بإسناد جيد.

(٤) أطرافه عند: عبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٣٧)، ابن حجر في المطالب العالية (٢١٤٥)، المتقي الهندي في الكنز (٤٣٧٤٩).

فالديوث: هو الذي يجمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لأنه يذب عنهم والقلاّع: هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء، فلا يزال يقع في الرجل المتمكن عند الأمير حتى يقلعه ولذلك سمي قلاّعاً.

وقال بعض الحكماء: الساعي بين منزلتين قبيحتين إما أن يكون صَدَق فقد خان الأمانة، وإما أن يكون كذب فقد خان في المروءة. وقال بعض حكماء الفرس: الصدق يزين كل أحد إلاّ السعاية؛ فإن الساعي أذمّ وأنم ما يكون إذا صدق، وأنشد للستالي:

فعلــى الملفــق والمــزور لعنـــة الله العظيمـــه
إن كنــت تفخــر بــالسعــايــة والمعـــازة والنميمـــه
فــأنــا المهــذب ليــس لــي فــي الــزور والبهتــان شيمــه

قال الراجز:

يــا أيهــا المــولــع السعــايــة شُلَّت يـدا مخطيك في الـرمـايه
أضرمــت نــاراً مــا لها مــن غايــة أخســس بــذاك الحـظ والعـنايـه
تلــك لعمــري خطــة الخــزايــة للقــاعــديــن القعــد الفســايــه

ويروى أن أسقف نجران لما لقي عمر بن الخطاب الله عنه قال: يا أمير المؤمنين احذر [١٧٢] قاتل الثلاثة قال: وما قاتل الثلاثة؟ قال: رجل يأتي الإمام / بالحديث الكذب فيقتله الإمام فيكون قد قتل نفسه، وصاحبه، وإمامه. فقال: ما أراك أبعدت.

ويروى أن رجلاً سعى بجار له إلى الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: أما أنت فتخبرني أنك جار سوء، وإن شئت أرسلنا معك فإن كنت صادقاً أبغضاك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت تركناك؟ فقال: اتركني يا أمير المؤمنين. قال: قد تركناك.

وروي أن رجلاً سعى برجل إلى الفضل بن سهيل، فوضع الفضل على ظاهر كتابه: نحن نرى قبول السعاية شراً منها؛ لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز؛ لأن من فعل شر ممن قال، فاتقوا الساعي فإنه إن كان في سعايته صادقاً كان أثماً إذا لم يحفظ الحرمة ويستر العورة.

وقال حكيم العرب: إياك والسعاة فإنهم أعداء عقلك ولصوص عدلك يغرقون بين قولك وفعلك وفي المثل السائر: من أطاع الواشي ضيّع الصديق، ويروى أن الإسكندر قال لساع سعى إليه برجل: أتحب أن نقبل منك ما تقول فيه على أن نقبل منه ما يقول فيك؟ قال: لا. قال: فكف عن الشر يكف عنك الشر.

وقال بعض البلغاء: النميمة دناءة، والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر. وعن كعب قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى عليه السلام فخرج ببني إسرائيل يستسقي مراراً فلم يُسقوا، فأوحى الله تعالى إليه لا استجيب لك ولا لمن معك فإن فيكم نمّاماً. قال: يا رب دلني عليه حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله إلى موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمّاماً، فتابوا جميعاً فَسُقوا. وقال مروان بن زنباعة العبسي: يا بني عبس من نقل إليكم نقل عنكم.

وكان بعض الحكماء يقول: من أراد أن يسلم من الإثم وتبقى له الإخوان، فليكن قاضياً حكيماً بينه وبينهم بالعدل، ولا يقبل قول أحد في أحد ولا في نفسه إلاّ بشهادة عدول. قال: فإنا قد أحببنا بقول أقوام وأبغضنا بقول أقوام فأصبحنا على فعلنا نادميـين. ويقال: من لُطف الله تعالى في النميمة أن حكم بفسق صاحبها حتى لا يقبل له قول / ويستريح الخلق من شره لما [١٧٣] علم الله من شؤمها، واستظهاره شرها وعموم مضرتها في الورى، والله أعلم[١].

الفصل الخامس: جامع لجملة من منكرات اللسان يجب على الإنسان التحفظ منها

من ذلك صوت الغناء والمزامير عند اللهو والنعمة قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾[٢]. قيل: هو الغناء والباطل. وفي الحديث: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[٣].

ومنها: الدعاء بالويل والثبور، ورفع الصوت عند النياحة، قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[٤]. أي لا ينخن. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: صوت مزمار عند نعمة، ومرنة عند مصيبة»[٥]. وبكى عليه السلام لما مات

---

(١) راجع باب الغيبة والنميمة في إحياء علوم الدين في آفات اللسان (٣/١٣٨ : ١٥٤) فقد فصل فيها تفصيلاً مفيداً. فجزاه الله خيراً.

(٢) سورة لقمان الآية: ٦.

(٣) قال العراقي في المغني (٣/٢٨٣) قال المصنف: (أي الغزالي): والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسمّ رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤي ورواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً.

(٤) سورة الممتحنة الآية: ١٢.

(٥) أطراف الحديث عند: الربيع بن حبيب في المسند (٢/٥٥)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٥٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٣)، المتقي الهندي في الكنز (٤٠٦٦).

ولده إبراهيم فقيل له: أتبكي وتنهانا عن البكاء. فقال: «إنما بكيت رحمة له ولكن إنما نهيتكم. . .» الحديث.

ومنها: القذف بالزنى وهو من أعظم الكبائر؛ لأن على صاحبه الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

ومنها: الحكم بغير ما أنزل الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ الله فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْفَاسِقُونَ﴾[٢]. وقال عليه السلام: «الحكام ثلاثة: اثنان في النار وهما: الحاكم بالهوى، والحاكم بالجهل، وواحد في الجنة: وهو الحاكم بالحق»[٣].

ومنها: شهادة الزور وقال عليه السلام: «عدلت بشهادة الزور الشرك بالله» ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾[٤].

ومنها: القول بغير علم وهو مقرون بالشرك وغيره قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٥]. وفي الحديث: «من أفتى مسألة بغير علم أو فسر رؤيا بغير علم كان كمن وقع من السماء وصادف بئراً لا قعر له ولو أنه أصاب الحق»[٦].

ومنها: لعن المخلوقات من طعام أو أرض أو حيوان ما خلا أهل الكبائر من الجن والإنس، وفي الحديث / «المؤمن لا يكون طعاناً ولا لعاناً»[٧]. وقال عليه السلام: «إذا قال العبد: لعن الله الدنيا قالت الدنيا لعن الله أعصانا لربه»[٨]. [١٧٤]

ومنها: الثناء على النفس، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن

(١) سورة النور الآية: ٢٣.
(٢) سورة المائدة الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧.
(٣) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧/ ٢٧٥٢).
(٤) سورة الحج الآية: ٣٠.
(٥) سورة الأعراف الآية: ٣٣.
(٦) طرفه عند: الربيع بن حبيب في المسند (١/ ١٢، ١٦).
(٧) طرف الحديث بنحوه عند الحاكم في المستدرك (١/ ١٣).
(٨) بنحو هذا الطرّف عند: الحاكم (٤/ ٣١٢)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٣١٣)، الذهبي في الميزان (٣٤٩٥)، ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ٣٣٢، ١٥٥٠).

اتَّقَى﴾[١]. وقيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟ قال: ثناء المرء على نفسه. وصَدَق لأن ذلك يورث المقت عند الله تعالى ويحط القدر والمكانة عند الناس، ومنها التجسيسُ عن أخبار الناس والبحث عن عوراتهم قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَجَسَّسُوا﴾[٢]. .

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]. فأوجب العذاب لمن أحب ذلك فكيف بمن أذاعه وأفشاه.

ومنها: التنابز بالألقاب قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوق بَعْدَ الإِيمَانِ﴾[٤].

ومنها: السخر قال الله تعالى: ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾[٥]. وعن عبد الرحمٰن بن زيد أنه قال أنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه والله أعلم.

ومنها: الدعاء بالسوء على أحد من الخلق وإن كان ظالماً، فإنه ينبغي للمظلوم أن يكل أمره إلى الله. وفي الحديث: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر»[٦] وفي حديث آخر: «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة» ويروى أن بعضهم طوّل لسانه على الحجاج، فقال بعض السلف: إن الله لينتقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه.

ومنها: المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام فإن ذلك أذى للمخاطب وتجهيل له مع الثناء على النفس والاتصاف بمزيد أو فضل والفهم في ذلك والتعرض لعداوة الناس، فإنه لا يماري سفيهاً إلاَّ أذاه، ولا حليماً إلاَّ حقد عليه وجفاه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في رياض[٧] الجنة، ومن تركه وهو محق بني له ببيت في أعلى الجنة». والشيطان يستجم الحمقى إلى الشر في معرض الخبر بأن يقول لهم: أظهروا

---

(١) سورة النجم الآية: ٣٢.
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢.
(٣) سورة النور الآية: ١٩.
(٤) سورة الحجرات الآية: ١١.
(٥) سورة الحجرات الآية: ١١.
(٦) قال العراقي في المغني: (٣/١٢٢): لم أقف له على أصل، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف: من دعا على من ظلمه فقد انتصر.
(٧) في إحياء علوم الدين (٤٨/١): «ربض»، وعلق العراقي على الحديث بهامشه في المغني فقال: رواه الترمذي، وابن ماجة من حديث أنس مع اختلاف، قال الترمذي حسن.

الحق ولا تداهنوا. نعم إظهار الحق حسن مع من يقبل من الإنسان ويفهم عنه ولكن ذلك على وجه النصيحة والذبُّ عنه.

الفصل السادس: في فصول حفظ اللسان

[١٧٥] / التي هي من بقية قنطرة النفس، وهي تحتوي: على كتمان السر، والمشورة، والنصيحة.

فصل: في كتمان السر

فالواجب على الإنسان حفظ لسانه عن إذاعة السر المودع فيه؛ لأنه أمانة وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدث الرجل حديثه ثم التفت فهو أمانة» ألا ترى إلى النبي ﷺ سماه سراً، ولو لم يستكتمه فكيف إذا استكتمه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «استعينوا على الحاجات فإن كل ذي نعمة محسود عليها»[١].

وعن علي بن طالب أنه قال: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحق، ضنيناً بالأسرار عن جميع الخلق. وقال النبي ﷺ: «المجالس بالأمانات»[٢].

وقال بعض الأدباء: من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشى سره كان الخيار عليه. وقد قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾[٣]. فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته فحلّ ما حل. واعلم أن حمل ثقل الأموال أخف من حمل ثقل الأسرار لما يلحقه في كتمان السر من القلق والكرب فإذا أذاعه استراح قلبه، فكأنما ألقى عن نفسه حملاً فمن قلق بسره فغيره به أقلق. ويُنشد:

إذا ضاق صدر المرء من سر نفسه ... فصدر الذي يستودع السر أضيق
إذا المرء أفشى سره بلسانه ... فلام عليه غيره فهو أحمق

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسنة مفاتيحها، فليحفظ كل امرىء مفتاح سره. ويقال: إن من أعجب الأمر أن أغلاق الدنيا كلما كثر خزانه كان أضيع له. قال الشاعر وهو أنس بن أسيد:

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٨٤): رواه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.
(٢) قال العراقي عن أتم منه في المغني (٢/١٧٦): رواه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه.
(٣) سورة يوسف الآية: ٥.

لا تُفْشِ سترك إلاَّ إليك ... فإن لكل نصيحة نصيحا
/ ألم تر أن غواة الرجال ... لا يتركون أديماً صحيحا [١٧٦]

وكان يقال: أصبر الناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيه. وكان يقال: لا تطلع النساء على سرك يصلح لك أمرك. وقال أنوشروان: من حصن سره فله بتحصينه خصلتان: الظفر بحاجته والسلامة من السطوات.

واعلم أن إذاعة الرجل سر غيره أقبح من إظهار سر نفسه؛ لأنه يبوء بإحدى وصمتين إما الخيانة إن كان مؤتمناً، أو النميمة إن كان مستودعاً وإما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا وكلاهما مذموم قال الأحنف بن قيس: يضيق صدر أحدكم بسره حتى يحدث به ثم يقول: أكتمه عليّ. وفي أمثال الفرس: إذا أفشيت لي سرّك وأوصيتني أن لا أبوح به فهلاّ بذا توصي نفسك. قال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث ... وأفشيته الرجال فلا تلوم
إذا عاتبت من أفشى حديثي ... وسرى عنده فأنا الظلوم

وقيل لبعض الحكماء: ما أصعب الأشياء على الإنسان؟ قال: أن يعرف ويكتم سره. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر. وفي منثور الحكم: صدور الأحرار قبور الأسرار.

واعلم أن كتمان السر على جواهر الرجال، فكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها، كذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره. ويقال: من صفات أمين السر أن يكون ذا عقل صادق، ودين حاجز، ونصح مبذول، وود موفور، وكتوماً بالطبع فإن هذه الأمور تمنع من الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كانت فيه فهو عنقاء مغرب. ويُنشد لجعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعتني سره ... لا ترج أن تسمعه مني
/ لم أُجِره قط على خاطري ... كأنه لم يجر في أذني [١٧٧]

واعلم أن الاسترسال بالسر يدل على ثلاثة أحوال كلها مذمومة.

أحدها: ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لا يتسع لسر، ولا يقدر على صبر.

الثانية: يدل على الغفلة عن تحرز العقلاء والسهو عن فطنة الأذكياء.

الثالثة: يدل على أنه ارتكب الغرر ولم يتوق من الخطر. وقد قال بعض الحكماء: سرك

من دمك فإذا تكلمت به فقد أرقته. وقال بعضهم: تفرد بسرك ولا تذعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون.

واعلم أن من الأسرار ما لا استغناء به عن مطالعة صديق، واستشارة ناصح، وليختر العاقل لسره أميناً إن لم يجد إلى كتمانه سبيلاً، وليتحر في اختياره أمين السر الذي قدّمنا صفاته إن وجده وإلاَّ فليختر خير من وجد وليحذر أن يودعه عند من يحب الوقوف عليه: لأن طالب الوديعة خائن. وقيل في منثور الحكم: لا تنكح خاطب سرك إنه للسر خوان.

قال صالح بن عبد القدوس: لا تذع سراً إلى طالبه منك، إن طالب السر مذيع. وليحذر كثرة المستودعين لسره؛ لأن ذلك سبب الإذاعة لأمرين:

أحدهما: أن اجتماع شروط الأمانة في الكثرة معوز.

والثاني: أن كل واحد يبتغي إذاعة السر عن نفسه ويضيف ذلك إلى غيره. قال الشاعر:

وسرك ما كان عند امرىء ... وسر الثلاثة غيرُ الخفي

وقال قيس بن حطيم:

أجود بمكنون التلاد وإنني ... بسرك عمن سألني لضنين

إذا جاوز الاثنين سر فإنه ... يبث وتكثير الوشاة قمين

قال بعض: أراد بالاثنين المودع والمودع فيه، ولا يبعد أن يريد به الشفتين، وأيضاً فإن من سلم السر من إذاعتهم لم يسلم صاحبه من استطالتهم عليه. ولذلك قالت الحكماء: من أفشى سره كثر المتآمرون عليه، فإن اضطر فأودع سره أميناً وجب على المستودع فيه حفظ الأمانة بالتناسي / حتى لا يخطر له بباله ويرى ذلك حرمة يرعاها ولا يستطيل على صاحبه. [١٧٨]

وحكي أن رجلاً أسرّ إلى صديق له حديثاً سراً فقال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت. قال بعض الشعراء:

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت ... مني الضلوع على الأسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره ... إذ كنت من نشرها يوماً على خطر

وحكي أن عبد اللّه بن طاهر[١] تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال عبد اللّه:

---

(١) هو الأمير العادل أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر. له يد في النظم والنثر. قلده المأمون مصر، وإفريقية، ثم خراسان، وكان ملكاً مطاعاً سائساً مهيباً جواداً ممدحاً من رجال الكمال، وقيل: إنه وقّع =

ومستــودع ســراً تضمــت ســره فــأودعتـه مـن مستقـر الحشـا قبـرا

فقال ابنه عبد اللّه:

ومـا الســر مـن قلبـي كثـاٍ وبحفـرة لأنـي أرى المـدفـون منتظـر الحشـرا
ولكننـــي أخفيــه حتــى كــأنـــه من الدهر يوماً ما أحطت به خبرا

ومن كتاب الضياء: وحكي أن النبي عليه السلام رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منيره كما يتداول الصبيان الكورة، فخلاّ بأبي بكر وعمر رحمهما الله، فقص عليهما رؤياه، فلما تفرق سمع عليه السلام الحكم بن أبي العاص يخبر برؤياه فاشتد ذلك عليه، فاتهم بإفشاء سره عمر وبرأ أبا بكر فقال: «أشهد أن أبا بكر ما فعل». فقال عمر: ولا أنا والله يا رسول الله. قال: «فمن أظهر حديثي». فقال عمر: تعود إلى مجلسك حتى نتحدث كما كنا نتحدث، فأنا آتيك بمن أفشى سرك. ففعل عليه السلام، فأقاموا في الحديث حتى كاد عليه السلام أن ينسى ما قعد له، ثم خرج عمر مبادراً فإذا الحكم يستمع، فنفاه عليه السلام من المدينة.

مسـألـة

وعن الوضاح بن عقبة أنه قال: إذا استسر معك أخوك سراً، وأنت تعلم أنه لا يحب إظهاره فأظهرته فأنت آثم، فإن تقدم عليك فيه فأظهرته فأنت منافق. وقال بعض الحكماء: من طلب لسره موضعاً فقد أشاد به وصدق إلاَّ المضطر، فلا لوم عليه إذا اختار له موضعاً حصيناً / وأميناً كتوماً. كما قال الشاعر: [١٧٩]

ومستــودع ســراً كتمــت مكــانــه عن الحس خوفاً أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة وأودعتـه مـن حيـث لا يبلـغ النفس

فصل: في المشورة

قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[1]. وعن قتادة قال: أمر بمشاورتهم تألفاً لهم وتطييباً لأنفسهم. وقال الضحاك: أمر بمشاورتهم لما فيه من الفضل. وقال الحسن: ليستن به المسلمون وإن كان من مشورتهم غنياً.

= مرة على رقاع بصلات فبلغت ألفي ألفٍ وسبع مئة ألف. ومات بالخانوق سنة ثلاثين ومتين. (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٨٤).

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

وقد شاور عليه السلام أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في أسارى بدر، فاختلفا عليه، فمال إلى رأي أبي بكر فعاتبه الله على أخذ الفداء فقال: ﴿لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾[١]. الآية. وقد شاور عليه السلام أصحابه حين أراد النزول نحو بدر وقد أمرهم لما اجتمع الأحزاب، بمصالحة عيينة بن حصن الفزاري على بعض الثمار، فأشاروا بترك ذلك فقبله.

فصحّ بما ذكرنا من الحزم لذي لب أن لا يبرم أمراً إلاّ بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ابنه عزيمة عليه، فحمله حسن الأدب على المشاورة فقال لابنه: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[٢]. وروي أن النبي ﷺ أنه قال: «المشورة حصن من الندامة وأمان من الملامة».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيصدرها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي، ورجل حائر بائر لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً.

وعن ابن عباس قال: الرجال ثلاثة: رجل ونصف رجل ولا شيء، فالرجل هو المشاور في أموره، ونصف الرجل المشاور في بعض أموره ولا شيء الذي لا يشاور.

وقيل: إن عمر رحمه الله يشاور حتى المرأة، وقال سيف بن ذي يزن: من أعجب برأيه لم يشاور، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيداً. وقيل في منثور الحكم: المشورة راحة لك وتعب على غيرك. وقال بعض الحكماء: / ما خاب من استخار ولا ندم من استشار. [١٨٠]

وقال بزرجمهر: إذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل اللؤلؤ فجمع ما حول مسقطها فالتمسها فوجدها، كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي فيضرب بعضها ببعض حتى يخلص الصواب. وقال عمر رحمه الله: الرأي الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين، والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع، وينشد لبشار ابن بُرْد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... مكان الخواف قوةً للقوادم

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٨.

(٢) سورة الصافات الآية: ١٠٢.

وقال بعض الأعراب: ما عثرت حتى عثر قومي. قيل: له وكيف؟ قال: لا أفعل شيئاً حتّى أشاورهم. ويقال: لو لم يكن في فضيلة المشورة إلاّ أن الإنسان إذا استبد برأيه فأصاب سلبت فائدة إصابته، وإن كانت حسنة؛ لأنه لا بد من قائل يقول هذا إتفاق، ولو فعل كذا لكان أحسن، فإذا شاور فأصاب حمدت الجماعة رأيه؛ لأنهم إنما يحمدون أنفسهم، فإذا أخطأ حملوا خطأه؛ لأنهم عن أنفسهم يكافحون والله أعلم. فإذا عزم على المشاورة فليختر من اجتمعت فيه خمس خصال.

إحداها: عقل كامل مع تجربة سالفة، فإن بكثرة التجارب تصح الرؤية؛ لأنه قيل في منثور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا»(١) وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم. فقالوا: نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأنا ألف حازم. وقال بعض السلف لابنه: احذر مشاورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدواً. وكان يقال: إياك ومشاورة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب، أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه.

والثانية: أن يكون ذا دين وتقي؛ لأنه مأمون السريرة موفق العزيمة، وقال عليه السلام: «من أراد أمراً فليشاور / امرأ مسلماً أرشده الله لأرشد أموره»(٢). [١٨١]

والثالثة: أن يكون ناصحاً ودوداً؛ فإن النصح والمودة يمحصان الرأي. وقال بعض الحكماء: لا تشاور إلاّ الحازم غير الحسود، واللبيب غير الحقود، وإياك ومشاورة النساء؛ فإن رأيهن إلى الأفن، وعزمهن إلى الوهن.

والرابعة: أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل؛ لأن الرأي لا يسلم مع الهموم. وقد قالت الحكماء: لا تشاور معلماً ولا راعي غنم، ولا كثير لقعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضائها ولا جائعاً ولا من يرهقه أحد السبيلين. وقالوا: لا رأي لحاقن، ولا لحاقب ولا لحازق، ولا تشاور من لا دقيق عنده. فالحاقب: الذي يجد في بطنه رزاء والحازق: الذي يضيق عليه الخف، والله أعلم.

---

(١) أطراف الحديث عند: الذهبي في الميزان (٣٤٩٦)، ابن حجر في لسان الميزان (٣/٣٣٣)، (٤/٨٠٨)، والألباني في الضعيفة (٦١٧).

(٢) نحو طرفه عند: ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٧٣٤).

الخصلة الخامسة: أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صادٌّ، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد، ويُنشد:

وقد تحكم الأيام من كان جاهلاً ... ويردى الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحسد في الأمر الفتى وهو مخطىء ... ويعذل في الإحسان وهو مصيب

فإذا استكملت هذه الخصال في رجل كان أهلاً للمشورة ومعدناً للرأي فلا يعدل عنه الإنسان استيثاقاً برأيه فإن رأي غير ذي الحاجة أسلم، وهو إلى الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلوة من الهوى والشهوة، وقد قال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأي: ويُنشد:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد ... أشيرا على اليوم ما تريان

وقال بعض البلغاء: إذا اشتكلت عليك الأمور فارجع إلى رأي العقلاء، فلأن تسأل وتسلم خيرٌ من أن تستبد وتندم. وقد قيل في منثور الحكم: من أكثر المشاورة لم يعدم عند الصواب مادحاً، وعند /الخطأ عاذراً. وإن كان الخطأ من الجماعة بعيداً ثم إذا استشار [١٨٢] الجماعة، وقد اختلف أهل الرأي في اجتماعهم عليه أو إفراد كل واحد منهم، فمذهب الفرس أن الاجتماع أولى ليذكر كل واحد ما نتجه فكرة حتى إن كان فيه قدح نقض عليه بالمناظرة.

وذهب غيرهم إلى أن انفراد كل واحد منهم أو ليحيل رأيه طمعاً في الحظوة والصواب والله أعلم.

ثم إذا أشار على الإنسان من استَشاره بالرأي أخذ به وأمضاه، فإن أصاب فذاك، وإن أخطأ فلا يوجه اللوم على المستشار، فإنما على الناصح الاجتهاد دون ضمان النجاح، ولا سيما والأقدار غالبة تجري على ما ليس في التقدير. إذا ظفر برأي خامل اغتنمه، فإن الرأي كالضالة تؤخذ حيث ما وجدت ولا تترك لذلة صاحبها والدرة لا يضيعها مهانة غائصها، والله أعلم.

فصل: في النصيحة

اعلم أن النصيحة للخلق أجمعين من سنة المرسلين، قال الله تعالى حكاية عن شعيب صلوات الله على نبينا وعليه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فكيف آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[1]، في أمثالها من القرآن.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٧٩.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»[١]. قالها ثلاثاً، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وخاصتهم». والنصح في اللغة: فعل الشيء الذي به الصلاح تقول العرب: هذا قميص منصوح أي مخيط مأخوذ من النصاحة وهي السلوك التي يخاط بها.

وعن معاذ عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، والاعتصام بجماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»[٢]. / وقال عليه [١٨٣] السلام: «إن العبد إذا نصح لسيده وأدى عبادة الله فله أجره مرتين»[٣].

وعن أبي الدرداء أنه قال: العلم يبلغه البار والفاجر والحكمة ينطق بها البر والفاجر، والنصيحة لله لا تثبت إلّا في قلوب المؤمنين الذين نصحت قلوبهم، وصدقت نياتهم، فالنصيحة لله سبحانه وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما لا يليق به، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والقيام بتعظيمه، والبعد عن مساخطته وموالات من أطاعه، ومعادات من عصاه، والجهاد في رد العصاة إليه قولاً وفعلاً، والقيام بحقوقه والرغبة في محابه، وإرادة ما ذكرنا لعباده.

والنصيحة لكتابه: إقامة حدوده، وتلاوته بالتفكر في معانيه، والذب عنه، وحفظه من تأويل المحرفين. والنصيحة لرسوله: مؤازرته ونصرته حياً وميتاً، واتباع سنته، وإحياء طريقته في بث الدعوة، وتأليف الكلمة والنصيحة للأئمة: معاونتهم ونصرتهم في جمع الكلمة لهم ما استقاموا على الطريقة، وإقامة الحق، والنصح لخاصة المسلمين: الشفقة عليهم وموالاتهم.

والنصيحة لعامتهم: أن يحلم عنهم، ويعلموا دينهم، والنصيحة لجميع الملل أن يحب إسلامهم ويدعوهم إليه بالقول وبالسيف إن كان ذا سلطان حتى يسلموا، أو يكونوا ذمة، فيؤدي حقوقهم، وأن يصانوا عن الظلم والله أعلم.

---

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/ ٢٢)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٣ رقم ٩٥)، الترمذي في الجامع (١٩٢٦)، النسائي في المجتبى (٧/ ١٥٧)، أحمد في المسند ٢/ ٢٩٧)، الدارمي في السنن (٢/ ٣١١)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥١٩).

(٢) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٤/ ٨٠)، والدارمي في السنن (١/ ٧٥)، الحاكم في المستدرك (١/ ٨٨)، ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥١٦)، الترمذي في الجامع (٢٥٦٨)، وقال العراقي في المغني (٤/ ٣٦٤): رواه الترمذي وصححه من حديث النعمان ابن بشير.

(٣) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان: ٤٣)، وأبي داود في السنن (٥١٦٩)، البيهقي في السنن (٨/ ١٢)، البخاري في الأدب (٢٠٢)، البغوي في شرح السنة (٩/ ٣٤٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٤).

واعلم أن النصيحة مرة لا يقبلها إلاّ أولوا العزم، كان عمر رحمه الله يقول: رحم الله عبداً أهدى إليّ عيوبي. وعن ميمون / بن مهران أنه قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره. وكان يقال: أخوك من احتمل ثقل نصيحتك. ويُنشد عن أبي العيناء: [١٨٤]

النصح أرخص ما باع الرجال فلا ... تردد على ناصح نصحاً ولا تلم

إن النصائح لا تخفى مناهجها ... على الرجال ذوي الألباب والفهم

وقيل في منثور الحكم: ودك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك. والنصيحة لله في أرضه هي التي بعث بها المرسلون ولكن النفوس مستثقلة لها، مائلة إلى ما يوافق هواها، ولبعضهم:

عرضت نصيحتي مني ليحيى ... فقال غششتني والنصح مر

وما بي أن أكون أعيب يحيى ... ويحيى طاهر الأخلاق بر

ولكن قد أتاني أن يحيى ... يقال عليه في نفعاء شر

فقلت له تجنب كل شيء ... يعاب عليك إن الحر حر

وعن وهب أنه قال: إنما يُحسن الاختيار لغيره، من يُحسن الاختيار لنفسه. وقالت العلماء: لا ينصحك امرء لا ينصح نفسه. وقال بعضهم: رأيي ورأيك في المعرفة أمثل لنفسك. من رأيك؛ لأنه خلق من هواك، قال الله تعالى عن نبيه عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[1]. قال الشاعر:

وعلى النصيح نصيحتي ... وعليّ عصيان النصيح

وعن أبي الدرداء أنه قال: إن شئتم لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويعملون في الأرض نصحاً. قال:

أجب أخاك إذا استشارك ناصحاً ... وعلى أخيك نصيحة لا تردد

[١٨٥] / وعن النبي ﷺ أنه قال: «حق المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه»[2]. اعلم

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٧٩.

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٢/ ٩٠)، مسلم في الصحيح (١٧٠٤)، أحمد في المسند (٢/ ٥٤٠)، البيهقي في السنن (٥/ ٣٤٧) البخاري في الأدب (٩٢٥)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٠٦).

أنه لا عذر لمن استشير أن يكتم رأياً عدواً كان المستشير له أو صديقاً؛ لأن النبي عليه السلام قال: «المستشير مُعان والمستشار مُؤتمن»[(١)] ولا ينبغي للإنسان أن يشير قبل أن يستشار إلاّ فيما مست الحاجة إليه، وعن النبي ﷺ قال عن لقمان: «قال لابنه: إذا استشهدت فاشهد وإذا استعنت فاعن وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر». وقال الشاعر:

من الناس من أن يستشرك فتجتهد   له الرأي يستغششك ما لا تتابعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله   فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

وإنما ذكرنا باب النصيحة ها هنا لأنه من باب التحفظ من آفات اللسان، وهي مما ينبغي أن يتكلم بها الإنسان؛ لأن النصيحة من حق المستشير على المستشار فذكرناها بجانب فصل المشورة، والله تعالى نستهديه الرشاد والهداية.

الفصل السابع: في حفظ اللسان عن المدح والتمدح

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تمادحوا واحثوا التراب في وجوه المادحين».
وعن مكحول عنه ﷺ أنه قال: «لا تكونوا عيابين ولا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين»[(٢)].

وروي أن بعض الصحابة قيل له: «لا تزال بخير ما أبقاك الله، فوجد من قول المادح، فقال: إني لا أحسبك أعرابياً وما يدريك ما يُغلق عليه بابي. وروي عن النبي ﷺ أنه سمع رجلاً يزكي رجلاً فقال له: «قطعت مطاه لو سمعك ما أفلح بعدها».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: المدح / ذبح. وقال ابن المقفع: قابل المدح كمادح [١٨٦] نفسه. وعن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والتمدح فإنه الذبح، إن كان أحدكم يمدح أخاه لا محالة فليقل: أحسب ولا أزكى على الله أحداً»[(٣)].

وقال بعض الحكماء: من رضي أن يُمدح بما ليس فيه فقد أمكن التساخر منه الساخر.
وقيل فيما أنزل الله من الكتب السالفة: عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه، كيف يفرح، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب! قال بعض الشعراء:

---

(١) بنحو هذا الطرف عند: أبي داود في السنن (٥١٢٨)، الترمذي في الجامع (٢٨٢٢)، ابن ماجة في السنن (٣٧٤٥)، أحمد في المسند (٥/ ٢٧٤) البيهقي في السنن (١٠/ ١١٢)، الدارمي في السنن (٢/ ٢١٩)، الحاكم في المستدرك (٤/ ١٣١).

(٢) أطراف الحديث عند: الدارمي في السنن (٢/ ١٣٢)، المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٩٩٤).

(٣) أطراف الحديث عند: ابن ماجة في السنن (٣٧٤٣)، أحمد في المسند (٤/ ٩٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٥٠)، ابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٦).

يـا جـاهـلاً غـره إفـراط مـادحـه لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك

أثنـى وقـال بـلا علـم أحـاط بـه وأنت أعلم بالمحصول من ربئك

وروي أن بعض الخلفاء سأل رجلاً عن شيء فقال: يا أمير المؤمنين أنت خير منا وأعلم فغضب وقال: لم آمرك أن تزكيني. وروي أن رجلاً مدح بعض السلف فغضب فقال: اللهم إن عبدك تقرب إلي بمقتك وأشهدك على مقته. وحكى الأصمعي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون. وقال الشاعر:

إذا المرء لـم يمدح بحسـن فعالـه فمـادحـه يهـذي وإن كـان مفصحـاً

وينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه عن المدح ويمقت نفسه عند سماعه من غيره، لأن المدح عادة المتملقين، وحرفة المتقربين إلى الجورة من الجهال، والسلاطين، جعلوا النفاق عندهم عادة ومكسباً، والتملق خديعة وملعباً، فإذا وجدوه / مقبولاً إلى العقول الضعيفة غروا [١٨٧] أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى استخالهم والاستهزاء بهم.

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها المدح ويمنعها من تصديق المادح لها، فإن للنفس ميلاً إلى حب الثناء وسماع المدح كما قال الشاعر.

يهـوى الثنـاء مبـرز ومقصـر حـب الثنـاء طبيعـة الإنسـان

ويعلم أن المتقرب إليه بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع المنع والإباء، ولتكن تهمة المادح أغلّب عليه، فقلّ مدح كان جميعه صدقاً، ولا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو أعرف بحقيقته، فإن لم يفعل وسامح نفسه في مدة الصبوة وتابعها على هذه الشهوة، تشاغل بذلك عن الفضائل الممدوحة، ولهى بها عن المحاسن الممنوحة، فصار الظاهر من مدحه كذباً، والباطن من ذمه صدقاً وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الأمرين والله أعلم.

واعلم أن المدح ربما خل بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه إما لتوهمه أن الناس قد غفلوا عن فضله، وإما أن يخدعهم بتدليس نفسه، فيعتقدوا أن قوله حق متبع، وإما ليتلذذ بسماع الثناء ويسر نفسه بالمدح والإطراء، كما يتغنى لنفسه طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً، ولا يرَ ذلك كان، فهو الجهل والنقص الفاضح، كما قال الشاعر:

ومـا شـرف أن يمدح المرء نفسـه ولكـن أخـلاقـاً تـذم وتمـدح

وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيبك حافظ ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم / أصفياء القلوب ومرايا المحاسن [١٨٨] والعيوب على ما ينبهون عليه من مساوئه التي صرفه حسن الظن عنها، فإنهم أمكن نظراً وأسلم فكراً، ويجعل تنبيههم إياه على مساوئه عوضاً من تصديق المدح فيه. وقد قال عليه السلام: «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيباً أصلحه»(١).

وقد قال عمر رضي الله: رحم الله عبد أهدى إلينا مساوئنا. وقيل لبعض الحكماء: أتحب أن تهدى إليك عيوبك؟ قال: نعم من ناصح. وقيل في منثور الحكم: من أظهر عيب نفسه فقد زكاها، والله أعلم.

الفصل الثامن: في حفظ اللسان من الاسترسال في المزاح والضحك

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى». وقال عمر بن عبد العزيز: اتقوا المزاح فإنها حمقة تورث ضغينة. وقال: إنما المزاح سباب إلاَّ أن صاحبه يضحك وقيل في منثور الحكم: المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب.

وقال النخعي: المزاح من سخف أو بطر. وعن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والمزاح فإنه فيه التذابح إن خيره لا ينال وشره لا يقال»(٢) قال النيسابوري.

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال

وقال بعض الأدباء: من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته. وقال بعض البلغاء: من قل عقله كثر هزله. ويقال: المزاح مخلفة للصداقة مذهبة للمروءة مكسبة للعداوة.

ويقال لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح. وقيل المزاح: لقاح الضغينة وسباب النوكا. ويقال: المزاح / أوله فرح وآخره ترح قال النيسابوري. [١٨٩]

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٤٩١٨)، البيهقي في السنن (٣/ ٣٧٥)، البخاري في الأدب (٢٣٩)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٤)، ابن عدي في الضعفاء (٦/ ٢٢٣٦)، العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٠٦).

(٢) أطراف الحديث عند: ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤/ ١٥٢٧)، ابن حجر في لسان الميزان (١/ ١٥٠٩)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٢٤).

إن المـــزاح بـــدؤه حـــلاوة لكنمـــا آخـــره عـــداوه

وقد يقال: إن كثر المزاح من الفتى تدعو إلى التلاح، يحقد منه الرجل الشريف، ويجترىء بسخفه السخيف. وأوصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بني، إياك والمزاح فإنه يذهب ببهاء المؤمن ويطفىء نوره ومن يكثر من شيء عرف به. قال: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: امنع الناس من المزاح فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدر.

وحكي أن خالد بن صفوان[1] ذكر المزاح فقال يصك أحدكم بأشد من الجندل وينقشه أحرف من الخردل، ويفرغ عليه أحر من المرجل، ثم يقول: إنما كنت أمازحك. ويروى أن بعض الأشراف مازح صديقاً له بكلمة فتهاجرا حتى ماتا. ويُنشد.

أمـا اللجـاجـة والمـزاح فـدعهمـا خلقـان لا أرضـاهمـا الصـديـق

إنـي بلـوتهمـا فلـم أحمـدهمـا لمجـــاور دان ولا لـــرفيـــق

ويقال: إنما سمي المزاح مزاحاً لأنه أزيح عن الحق، ولعمري إن المزاح يزيح عن الحقوق، ويخرج إلى القطيعة والعقوق، ويصم المازح بزوال الهيبة والبهاء، وجرأة السُّفهاء عليه والغوغاء، ويؤذي المماذح بلدغته، ويحزن قلبه بحرقته إن أمسكه عنه تغيظ وإن أجاب صاحبه تورط بسقوط الأدب، وحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمه مساوئه. قال:

فـإيـاك إيـاك المـزاح فـإنـه يجري عليك الطفل والدنس الرذلا

[١٩٠] /ويـذهـب مـاء الـوجـه بعـد بهـائـه ويـورث بعـد العـز صـاحبـه ذلا

اعلم أن المزاح قل ما يعرى منه من كان سهلاً، فإذا كان لا بد للعاقل منه فليتوخ به إيناس المصاحب، والتودد إلى المخالط، وليقتصد في مزاحه فإن الأفراط منه يذهب البهاء، ويجرىء السفهاء. والتقصير فيه يقبض المؤانس، ويوحش المصاحب، وليكن مزاحه بما حسن من القول وبسط من مستحسن الفعل، نحو ما روي عن الشعبي أنه سئل عن أكل لحم الشيطان؟ فقال: نحن نرضى منه بالكفاف.

وقيل له: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذلك نكاح ما شهدناه. وقد كان صهيب بن سنان

---

(١) العلامة البليغ فصيح زمانه أبو صفوان المنقري الأهتمي البصري، وقد وفد على عمر بن عبد العزيز، ولم أظفر له بوفاة: إلا أنه كان في أيام التابعين... وهو القائل: ثلاث يعرفون عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند اللقاء، والصديق عند النائبة. (الذهبي في سير أعلام النبلاء ٦/٢٢٦).

رحمه الله مزاحاً فقال له النبي ﷺ: «أتاكل تمراً وبك رمد؟». فقال: يا رسول الله إنما أمضغ على الناحية الأخرى»[١].

وإنما استجاز لصهيب ليتعرض له المزاح لأن استخباره عليه السلام قد كان يتضمن المزاح، فأجابه بما وافق استخباره مساعدة له وتقرباً من قلبه، لأن من جعل جواب الرسول عليه السلام هزلاً فقد عصى الله تعالى، وصهيب كان أطوع لله ولرسوله من أن يكون منه بهذه المنزلة.

وقد قال عليه السلام: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش»[٢] ووجه آخر يجوز فيه المزاح أيضاً وهو أن ينفي الإنسان بمزاحه عن نفسه ما يطرأ عليه من هم أو منام أو يبس طبيعة أو حادث وحشة، ولذلك قال أبو الدرداء أو غيره: إني لاستجم نفسي بشيء من اللهو. وقديماً قيل: لا بد للمصدور أن ينفث لأن النفس ملولة ولها في اللهو / والمزاح استراحة ونشاط إلى مملول العبادة. قال الشاعر: [١٩١]

أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... يجم وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد روي أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يبعد أن يكون على هذا الوجه وقد قال عليه السلام: «إني لأمزح ولا أقول إلاّ حقاً»[٣]. فمن مزاحه عليه السلام مثل قوله للعجوز التي قالت: ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «إن الجنة لا تدخلها العجائز».

فصرخت فتبسم وقال لها عليه السلام: «أما قرأت ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾[٤]. ومثل قوله لمحمد بن أبي طلحة وكان له نغير فمات فإذا رآه قال: «أبا عمير ما فعل النغير»[٥]. وهو طير.

---

(١) قال العراقي في المغني: (٣/١٢٧): رواه ابن ماجة والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات.

(٢) أطراف الحديث عند: ابن أبي حاتم في العلل (٢٥٧٧)، ابن عدي في الضعفاء (٧/٢٦٢٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/١٩٩)، وأبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/٤٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٤٢)، والطبراني في الكبير (٨/١٣١)، والصغير (١/١٠٤).

(٣) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (١٢/٣٩١)، العجلوني في كشف الخفا (١/٥٧٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٧)، الشفا للقاضي عياض (٢/٤٢٤).

(٤) سورة الواقعة الآية: ٣٥، ٣٦ والحديث عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/١٢٥: ١٢٦): رواه الترمذي في الشمائل هكذا مرسلاً وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف.

(٥) متفق عليه (من حديث أنس). المغني (٣/١٢٦).

هذا أو مثله من المزاح وهو حق كله. ويروى أن علياً أوتي برجل ومعه خصم له فقال له الخصم إنه احتلم على أمي فقال عليّ: أرى أن يقام في الشمس ويضرب ظله الحد. وفي رواية قال الرجل: احتلمت على أمي فقال عليّ: هذه القولة.

ويروى أن رجلاً قال لغلام بكم تعمل معي؟ قال: بطعامي. قال: أحسن قليلاً. فقال الغلام: أصوم الاثنين والخميس. هذا وأمثاله من المزاح لا بأس به وأما الاسترسال في ممازحة العدو فليحذره العاقل لئلا يجعل له طريقاً إلى إعلان المساوي ويفسح له في التشفي. وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك.

وأما ما فيه إغراء إلى ريبة أو يتوهمه الجاهل إرخاص في معصية فينبغي أن يتوقى نحو ما روي عن أبي صالح بن حسان أنه قال لأصحابه يوماً مازحاً أفقه الناس وضاح اليمن في قوله:

إذا قلت هات نوليني تبرمت ... وقالت معاذ الله من فعل ما حرم

[١٩٢] /فما تولت حتى تضرعت عندها ... وانبأتها ما أرخص الله في اللمم

هذا ومثله يتوهمه الجاهل إذا سمعه إن الله تعالى رخص في الصغائر من الذنوب فيجتري على القبلة المحرمة والنظرة والمحسة ويظنها صغائر، والله تعالى لم يرخص في ارتكاب معصية صغيرة ولا كبيرة.

وكذلك المزاح الذي يخرج إلى حد الخلاعة ويورث الهجنة والمذمة كالذي حكى عن أبي معاوية الضرير وكان محدثاً أنه خرج يوماً على أصحابه وهو يقول:

فإذا المعدة جاشت، فارمها بالمنجنيق ... بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق

انظر إلى ما جنى على نفسه بخلاعته حيث جعل للتهمة عليها طريقه فيما لعله بريء منه ومن مستسمح المزاح ما حكي أن القيشري وقف عليه شيخ من الأعراب فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني عقيل. قال: من أي عقيل؟ قال: من بني خفاجة. فقال القشيري: رأيت شيخاً من بني خفاجة فقال الأعرابي: ما شأنه؟ فقال: له إذا جن الظلام حاجة فقال الأعرابي: ما هيه؟ قال: كحاجة الديك إلى الدجاجة. فاستفز الأعرابي ضاحكاً، فقال: قاتلك الله ما أعرفك بسرائر القوم.

وهذا غاية ما يتسامح به الكبراء من الخلاعة والنزاهة عن مثل هذا أولى، وليحذر الإنسان من الاسترسال في المزاح.

وذكر أن أبا هريرة كان مسترسلاً في مزاحه قال وحكى ابن قتيبة في المعارف أن مروان كان يستخلفه على المدينة فيركب حماراً مشدوداً ببرذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول: الطريق قد جاء الأمير، قال: وربما أتى الصبيان وهم يلعبون فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجليه فيفزع الصبيان فيفرون.

/ وهذا خروج عن القدر والمزاح المستسمح به ولا يبعد أن يكون له تأويل عندهم يسوغ [١٩٣] في الشرع، وإنما الأحسن ما قدمناه من مزاح رسول الله ﷺ. فقد روي أيضاً أن امرأة أتته عليه السلام في حاجة لزوجها فقال لها: «ومن زوجك»؟ قالت: فلان. قال: «الذي في عينه بياض» قالت: لا. فقال: «بلى». فانصرفت عجلى إلى زوجها فجعلت تتأمل عينه، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: أخبرني النبي عليه السلام أن في عينيك بياضاً، فقال لها: أما ترين أن بياض عيني أكثر من سوادها[١].

ويروى أن ابن سيرين سأله رجل عن رجل فقال له: توفي البارحة فلما رأى جزع السائل عليه تلى هذه الآية: ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنفس حِينَ مَوْتِهَا﴾[٢]... الآية والله أعلم.

فصل: في الضحك والفرح

اعلم أن كثرة الضحك وإظهار الفرح بالدنيا ليس من أخلاق الصالحين، واعتياد الضحك أيضاً شاغل عن الأمور المهمة وليس لمن أكثر منه وقار ولا هيبة. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم.

وعن أبي ذر عنه عليه السلام أنه قال: «إياك وكثرة الضحك إنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه»[٣] وعنه عليه السلام أنه قال: «أحيوا قلوبكم بقلة الضحك وطهروها بالجوع تنظروا إلى عظمة الله»[٤].

وقال: «اعطوا قلوبكم حظها من قلة الطعام يكثر فكرها ويقل ضحكها فإن الله يبغض كل غافل وضاحك» وعن الحسن أنه قال: يا ابن آدم إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلوب.

---

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/١٢٦): رواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف.

(٢) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(٣) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (١/١٦٨)، ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٣٥٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٩٦)، المتقي الهندي في الكنز (٤٤١٥٨).

(٤) قال العراقي في المغني (٣/٨٢): لم أجد له أصلاً.

[١٩٤] وعن عروة بن الزبير /أنه قال: إنما أفرح في ساعة الغفلة، فكيف يفرح من يمشي بين الجنة والنار ولا يدري إلى أيتهما يصير. ويقال: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك.

وروي عن طلحة أنه ضحك يوماً، فوثب على نفسه فقال: فيم الضحك؟ إنما يضحك من قطع الأهوال وجاز الصراط. ثم قال: آليت أن لا افتر ضاحكاً حتى أعلم بم تقع الواقعة، فما رأى ضاحكاً حتى صار إلى الله تعالى.

وروي عن وهيب بن الوردي أنه نظر إلى قوم يضحكون في يوم الفطر فقال: إن كان هؤلاء غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين، ولئن كانوا لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين. ويُنشد:

عجبت لضحك المرء والموت خلفه ... وللمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وروي عن مالك بن دينار أنه قال: ما رأيت محمد بن واسع قط ضاحكاً، ولقد كان يبكي حتى نرحمه، قال: ولقد ذكرت له ذلك. فقال: وكيف يضحك من لا يدري بم يختم له. وروي أنه جلس يوماً إلى ثابت البناني فسمعه يمزح فقال له محمد: تمزح في مجلسك، ولقد كنا نجلس إلى الحسن فكان إذا خرج إلينا خرج كأنه قد عاين الآخرة ثم جاء يحدثنا عنها.

وعن جعفر بن سليمان أنه قال: كنت إذا وجدت من قلبي قساوة ذهبت فنظرت إلى محمد بن واسع، وكنت إذا نظرت إليه حسبته وجه ثكلى. وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيْرَةً﴾[1]. أنها التبسم، ﴿وَلاَ كَبِيْرَةً﴾ أنها الضحك مع الاستهزاء.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من كثر ضحكه قلَّت هيبته. وعن علي بن [١٩٥] أبي طالب أنه قال: إذا ضحك العالم ضحكة مج من /العالم مجة. وقيل في منثور الحكم: ضحك المؤمن غفلة من قلبه. وحسبك وعيداً على الضحك وتهديداً قول الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيْلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾[2].

والقول في الضحك كالقول في المزاح، إن تجافاه الإنسان نفر عنه، وأوحش منه، وإن أَلِفَهُ كانت حاله كما وصفنا، فليكن حاله عند الإيناس بدل الضحك تبسماً وبشرى؛ لأن النبي عليه السلام كان يبتسم حتى تبدو نواجذه، وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك الذي يكون

---

(١) سورة الكهف الآية: ٤٩.
(٢) سورة التوبة الآية: ٨٢.

استهزاءاً وتعجباً. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التبسم دعابة. والله أعلم وبه الحول والتوفيق.

الفصل التاسع: في كف اللسان عن الشماتة وعما لا يعنيه

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»[١] ويروى أن علي بن أبي طالب أُوتي برجل قد جنى جناية فرأى ناساً يسيرون خلفه فقال: لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلاَّ عند سوءة.

وقال الله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام: قال لأخيه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾[٢]. ويروى في قصة أيوب عليه السلام أنه قيل له: أيُّ الأشياء كان في بلائك أشد عليك؟ قال: شماتة الأعداء. قال الشاعر:

إذا ما الدهر جَرّ على أناس　　كلا كله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا　　سيلقى الشامتون كما لقينا

وقال آخر:

ذهب الذين من الثقات عرفتهم　　لم يبق إلاَّ شامت أو حاسد
فإذا صفا لك من زمانك واحد　　فهو المراد وأين ذاك الواحد

وعلى الإنسان أن يضبط نفسه حتى لا تفرح بمساءة أحد، ويكف لسانه حتى لا يشمت بأحد؛ فإن ذلك ليس من أخلاق العقلاء والأولياء؛ لأن العاقل قد تيقن أن الدنيا دار البلايا، وأن من كان فيها فلا يعطى له الأمان من الرزايا، والأولياء من صفاتهم الرحمة لأهل البلاء.

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى ارحم عبادي المبتلى منه والمعافى، قال: يا رب هذا المبتلى، فما بال المعافَى؟ قال: لقلة شكره إياي على عافيتي له.

فصل

وينبغي للإنسان أن يحترز من كثرة الكلام فيما لا يعنيه فيكفيه منه ما بلغ به حاجته، فلا ينبغي أن يكثر الحكايات ولا السؤال عن تفاصيل البلاد إلاَّ أن يريد الانتقال إليها.

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/ ١٨٤): رواه الترمذي من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب، وفي رواية ابن أبي الدنيا: فيرحمه الله.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٠.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١) وعنه أيضاً أنه قال: «أكثر الناس ذنوباً أكثرهم كلاماً فيما لا يعنيه»(٢).

وقيل لبعض الحكماء: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: فراغ القلب عما لا يعنيه، ليتفرغ لما يعنيه. ويروى أنه قيل للقمان الحكيم: بماذا نلت ما نلت من الحكمة؟ قال: بثلاث خصال، بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني.

ويقال: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به. وفي أثر العلماء: أن في المباح من الكلام أربعة أمور:

أحدها: شغل الكرام الكاتبين بما لا فائدة فيه وحق على المرء أن يستحيي منهما، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٣).

[١٩٧] **الثاني**: إرسال كتاب إلى الله سبحانه من اللغو، والهدر / فليحذر العبد من ذلك وليخش الله تعالى. ويروى أن بعض السلف نظر إلى رجل يتكلم بالخنا فقال: «يا هذا إنما تُملي كتاباً إلى ربك فانظر ما تملى.

الثالث: قراءته بين يدي الملك الجبار يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد بين الشدائد والأهوال عطشاناً عرياناً جوعاناً مقطوعاً عن الجنة محبوساً عن النعمة.

الرابع: اللوم والتعيير لماذا قلت، وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة، وقد قيل: إياك والفضول، فإن حسابه يطول. وكفى بهذا واعظاً لمن اتعظ وقد قال النبي ﷺ: «إن اللسان أملك شيء للإنسان، وإن كلام ابن آدم كله عليه لا له إلاَّ: ذكر الله تعالى أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو إصلاحاً بين مؤمنين». ثم لم تمض الأيام حتى نزلت هذه الآية: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(٤). والله أعلم.

الفصل العاشر: في الصمت وفضيلة الكلام

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كيف يدخل أحدكم الجنة مع لسانه من تكلم فليقل

---

(١) قال العراقي في المغني (٣/١٠٩): رواه الترمذي وقال غريب وابن ماجة من حديث أبي هريرة.
(٢) أطراف الحديث عند: العقيلي في الضعفاء (٣/٤٢٤)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/٢١٦)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٤٠)، والزبيدي في الإتحاف (٧/٤٦٢).
(٣) سورة قٓ الآية: ١٨.
(٤) سورة النساء الآية: ١١٤.

خيراً أو ليصمت». وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله ربه ويعلم ما يقول»[١] وينشد:

وإذا خشيت ملامة من منطق ... فاخزن لسانك في اللهات وأطرق
واحبس لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

ويروى أن أعرابياً كان يجالس الشعبي فكان يكثر الصمت فقال له الشعبي يوماً: ما لك لا تتكلم. قال: أسكت فأسلم وأسمع فأعلم.

/ وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت السكوت. قال: ومتى [١٩٨] أسكت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام. وكان بعض العلماء يحسم الرخصة في الكلام فيقول: إذا جالست الجهال فانصت لهم، وإذا جالست العلماء فانصت لهم. قال: فإن إنصاتك إلى الجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك إلى العلماء زيادة في العلم. ويُنشد:

لعمر كان صمتك ألف عام ... لأصلح من كلامك في الفضول
فأمسك أو ترى للقول وجهاً ... يبين صوابه لذوي العقول

وقال بعض الحكماء: إذا تكلمت فلا تتكلم إلاَّ بخير، فلعله أن يكون آخر كلامك من الدنيا. وكان بعض السلف يقول: اطلب من يسكت، فإن من يتكلم كثير.

ويروى أن يونس عليه السلام كان يطيل الصمت بعد ما خرج من بطن الحوت، فقيل له: ألا تتكلم قال: الكلام صيرني إلى بطن الحوت. وينشد لأبي نواس[٢]:

خل جنبيك لرام ... وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير ... لك من داء الكلام
إنما السالم من الجسم فاه بلجام
كم كلام ساق ختفاً ... لفئام وفئام

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (٨/ ١٦٠، ٣٥٢)، الخطيب في تاريخ بغداد (٩/ ٣٢٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٣٤).

(٢) هو: رئيس الشعراء أبو علي الحسن بن هانىء الحكمي، وقيل: ابن وهب: ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة.. قيل: لقب بهذا (أي بأبي نواس) لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقه أي تضطربان... ولأبي نواس أخبار وأشعار رائقة في الغزل والخمور، وحُظْوةٌ في أيام الرشيد والأمين مات سنة خمس أو ست وتسعين ومئة، وقيل: سنة ثمان وتسعين عفا الله عنه ـ وعنا معه آمين ـ (الذهبي في سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٧٩).

ويما استفتح بالمزح معاليق الحمام
والمنايا أكلات شاربات للأنام

وعن مجاهد أنه قال: ما شيء تكلم به العبد إلاَّ أحصى عليه حتى أنينه في مرضه. وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: من لم يعد كلامه من عمله كثرة خطاياه.

وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك، أو يتلف نفسك، فلا شيء أولى /بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب. وعن طاوس أنه كان [١٩٩] يقول: لساني سبع إن أرسلته أكلني. ويُنشد لبعضهم:

منع اللسان من الكلام لأنه كهف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكراً لا تنسه وأحمده في الحالات

ويروى عن داود عليه السلام أنه قال: رب كلام ندمت عليه، وما ندمت على صمت قط.
وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: من اتقى الله لم لم يدر ما يقول، فإنه يخاف من كل ما يتكلم به من الخير والشر، إن تكلم بالخير خاف المقت أن يقول ما لا يفعل، وإن تكلم بشر خاف العقوبة. وقال بعض السلف: إذا طلبت صلاح قلبك، فاستعن عليه بحفظ لسانك، وأنشدوا:

القول كاللبن المحلوب ليس له رد وكيف يرد الحالب اللبنا
في ضرعه وكذا القول ليس له في الصدر رد قبيحاً كان أو حسنا

وقال بعض الحكماء: ألزم الصمت تعد حكيماً جاهلاً كنت أو عالماً. وقال بعض الفحصاء: اعقل لسانك إلاَّ عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تشكرها. وقيل لبعضهم: إنك قد أطلت سجن لسانك فقال: إنه غير مأمون إذا أطلق. قال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثاً مغيراً

ويروى عن أبي الحجاج العابد أنه كان ألزم نفسه أن لا يكلم أحداً وكان لزم مكة فدخل عليه هارون الرشيد فكلمه فلم يجبه، فَكُلِّم في ذلك فكتب لهم في الأرض: هو لا يقبل من الله وقد أمره ونهاه، ويقبل مني أنا؟ إني أجل الله من أن أنزل نفسي / هذه المنزلة. [٢٠٠]

وعن بعض أصحاب الربيع بن خُثَيْم[١] أنه قال: صحبت الربيع عشرين سنة، فما أعلم

(١) في الأصل: الربيع بن خثيم وهو تحريف، وهو الإمام القدوة العابد أبو يزيد الثوري الكوفي أحد =

أني سمعت منه في تلك العشرين إلاَّ كلمة تصعد. ويقال: لما قتل الحسين ابن علي قال قوم: اليوم يتكلم الربيع، فاتوه فقالوا له: قتل الحسين، قتل ابن فاطمة. فقال: قتلوه، فمد بها صوته ثم قال: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾(١) . . . الآية.

وروي عن بلشة زوج يوسف بن أسباط أنها قالت: كان إذا دخل شهر رمضان لم يكلم يوسف أحداً حتى يفطر، وكان إذا جاء السحر جاء إلى الزنبيل معلقاً فأدخل يده فيه، فما أصاب من شيء أكله، ثم يخرج إلى صلاة الفجر ثم لا ينصرف حتى يصلي العشاء فإذا انصرف صلى إلى السحر فلا يزال دأبه ذلك حتى يفطر. وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس ألا أدلكم على أمرين خفيف مؤنتها، عظيم أجرها، لم يلق الله بمثلهما طول: الصمت، وحسن الخلق». ومن أحسن ما يُنشد في الصمت:

أيها المرء لا تقولن قولاً لست تدري ماذا نجاتك منه
وإذا الناس أكثروا في حديث ليس مما يزينهم فألهُ عنه
واخزن القول إن في الصمت حكماً وإذا أنت قلت قولاً فزنه

ويروى أن رجلاً أتى بعض العلماء فاثنى عليه في وجهه ثم سأله عن الزهد في الدنيا ما هو؟ فقال: يا بطّال تسأل عن الزهد في الدنيا، وأنت لا تزهد في الكلام فكيف تزهد في الدنيا، اذهب فاعمل في ضبط لسانك عشرين سنة ثم بعد ذلك فاسأل عن الزهد والله أعلم.

فصل: في /فضيلة الكلام [٢٠١]

اعلم أنه وإن أطنبنا في فضل الصمت، فإن الكلام الحسن أفضل منه؛ لأن في الصمت السلامة وفي التكلم بالخير الغنيمة والكرامة ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «رحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت عن شر فسلم»(٢).

وقال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع الملك فلما كلّمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا

= الأعلام، أدرك زمام النبي ﷺ وأرسل عنه. . . وكان يعد من عقلاء الرجال. . . روى منصور عن إبراهيم قال: قال فلان: ما أرى الربيع بن خثيم تكلم بكلام منذ عشرين سنة إلاّ بكلمة تصعد، وعن بعضهم قال: صحبت الربيع عشرين عاماً ما سمعت منه كلمة تعاب. . قيل توفي الربيع بن خثيم قبل سنة خمس وستين. (الذهبي في سير أعلام النبلاء).

(١) سورة الزمر الآية: ٤٦.

(٢) نحو هذا الطرف عند: العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥١٤)، السيوطي في الدرر المنتثرة (٨٩).

﴿مِكِينٌ أَمِينٌ﴾[1]. وإنما بأن فضله بكلامه. ويقال أن يوسف لمّا دخل على الملك كلّمه الملك بسبعين لساناً، فأجابه يوسف عنها كلها ثم كلمه يوسف بالعبرانية، فلم يكن عند الملك منها شيء فقال: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم كلّمه يوسف بالعربية فلم يعرفها الملك. فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان نبي يبعث في آخر الزمان وهو لسان أمته، وهو كلام أهل الجنة في الجنة. فقال له الملك: يا يوسف بارك الله لك في العقل الذي به فهمت، وبارك الله لك في الفهم الذي به نطقت، وبارك الله لك في المنطق الذي به فسرت وعبرت ويقال: من أفضل الكلام: أن الصمت يمدح بالكلام، ولا يمدح الكلام بالصمت، وما عبر عن شيء فهو أفضل منه.

وقال بعض العلماء: ما أحسن الكلام، وأحسن منه معناه، وما أحسن المعنى، وأحسن منه استعماله، وما أحسن العمل، وأحسن منه ثوابه، وما أحسن الثواب، وأحسن منه رضى من علمت له. قال:

لولا الكلام لما تبين الهدى ... وتفصلت في ديننا الأحكام

[٢٠٢] ويقال: الصمت منام، والكلام يقظة. وقال بعض الأدباء / كلام المرء وافد أدبه وقال بعض البلغاء: يستدل على عقل الرجل بقوله، وعلى أصله بفعله.

وعن سليمان بن عبد الملك أنه ذم الكلام في مجلسه فقال: كلا إن من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن وأنشد لأبي الفتح البسيّ:

تكلم وسدد ما استطعت فإنما ... كلامك حيّ والسكوت جماد

فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله ... فصمتك عن غير السداد سداد

وقال بعض الحكماء: إن الله رفع درجة اللسان عن سائر الجوارح فانطقه بتوحيده. ويروى أن النبي ﷺ قال لعمه العباس: «يعجبني جمالك» قال: وما جمال الرجل يا رسول الله؟ قال: «لسانه».

وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان، هل كان إلاَّ بهيمة مهملة أو صورة ممثلة. وقال بعض الحكماء: اللسان وزير الإنسان. قال أبو تمام[2]:

---

(١) سورة يوسف الآية: ٥٤.

(٢) شاعر العصر أو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي من حوزان من قرية جاسم، أسلم وكان نصرانياً. قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٦٣/١١).

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من خدم الفؤاد

وقال الشاعر:

رأيت العز في أدب وعقل وفي الجهل المذلة والهوان

وما حسن الرجال لهم بحسن إذا لم يسعد الحسن البيان

كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان

واعلم أن للكلام شروطاً لا يسلم المتكلم من الذلل إلاَّ بها ولا يعرى من النقص إلاَّ بإستيعابها وهي أربعة شروط:

أحدها: أن يكون الكلام لداع يدعوه إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضر؛ لأن ما لا داعي له ولا سبب؛ هذيان وهجر. ومن سامح نفسه في الكلام إذا عرض ولم يراع صحة دواعية وإصابة / معانيه، كان قوله مردوداً ورأيه مغلولاً كالذي حكى ابن عائشة أن شاباً كان [٢٠٣] يجالس الأحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف، فخلت الحلقة يوماً فقال الأحنف: تكلم يا ابن أخي. فقال: يا عم أرأيت لو أن رجلاً سقط من شرفة هذا المسجد، أكان يضره شيء. فقال: يا ابن أخي ليتنا تركناك مستوراً ثم تمثل الأحنف بقول الأعور الشيخي:

وكأين ترى من ساكت لك معجب زيادته ونقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلاَّ صورة اللحم والدم

وكالذي حكي عن أبي يوسف الفقيه: أن رجلاً كان يجلس إليه فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تسأل؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس. قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل. قال: فتبسم أبو يوسف، وتمثل ببيتي الخطفاء جد جرير فقال:

عجبت بإزراء العيي بنفسه وصمت الذي قد كان بالعلم أعلما

وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

وانظر كيف أبان الكلام عن جهل هذين إذ لم يكن لهما داع إليه ولا روية فيما تكلما به، ولو صدر عن روية ودعي إليه داع لسلموا من شينه وبرؤا من عيبه، ولذلك قال عليه السلام: «لسان العاقل[١] من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له»[٢].

---

(١) في الإحياء: «المؤمن».

(٢) قال العراقي في المغني (٣/١٠٧): لم أجده مرفوعاً وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية =

الشرط الثاني: أن يأتي بالكلام في موضعه، فإن الكلام في غير حينه لا يقع موقع الانتفاع به، وما لا ينتفع به من الكلام فهو هجر وهذيان، / فإن قدم ما يقتضي التأخير كان [٢٠٤] عجلة وخرفاً، وإن أخرّ ما يقتضي التقديم كان توانياً وعجزاً؛ لأن لكل مقام قولاً وفي كل زمان عملاً. وأنشدوا:

تحدث بصدق إن تحدثت وليكن   لكل حديث من حديثك حين
وما القول إلاّ كالثياب فبعضها   عليك وبعض في التخوت مصون

وقال آخر:

تضع الحديث على مواضعه   وكلامها من بعده نزر

الشرط الثالث: الاقتصار منه على قدر الحاجة؛ لأنه إن لم ينحصر كان إما عياً وحصراً إن قصر، وإما هدراً وخطلاً إن كثر. ويروى أن أعرابياً تكلم عند النبي عليه السلام فطوّل، فقال له عليه السلام: «كم دون لسانك من حجاب»؟ فقال: شفتي وأسناني. قال: «فإن الله يكره الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرىء أوجز في كلامه واقتصر على حاجته»[1] وحكي أن بعض الحكماء رأى رجلاً يكثر في الكلام ويقل السكوت فقال: إن الله عز وجل إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به.

وذهب بعضهم إلى أن الكلام إذا كثر وكان صواباً فهو البيان والسحر الحلال. وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيب إلاّ كثرة الكلام. قال: أفتسمعون صواباً أو خطأ. قالوا: لا بل صواباً. قال: فالزيادة من الخير خير.

وروي عن الجاحظ أنه قال: ليس الأمر كما قال، لأن للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعي إلى الاستقلال والملال فذلك الفاضل هو الهدر.

[٢٠٥] وقال بعض البلغاء: من تسلم به خير من نطق تندم عليه / فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وفضوله؛ فإنها تزل القدم وتورث الندم. وقال بعض الفصحاء: فم العاقل ملجم، وإذا هَمَّ بالكلام أحجم، وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق وقال الشاعر:

إن الكلام يغر القوم حلوته   حتى يلج بهم غيٌّ وإكثار

= الحسن البصري قال: كانوا يقولون.

(١) أطرافه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٤٦٧)، السيوطي في الدر المنثور (٣/ ١١٢).

وقول الجاحظ أمثل؛ لأن الإكثار من الكلام وإن كان صواباً يمل السامع ويكل الخاطر، فهو صادر عن إعجاب لولاه لقصر عنه، ومن أعجب بكلامه استرسل فيه فيكثر زلله ويدوم عثاره. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أبغضكم إليّ المتفيهق المكثار والمُلحّ المهدار» والله أعلم.

الشرط الرابع: هو اختيار اللفظ الذي يتكلم به: لأن اللسان عنوان الإنسان يترجم عن مجهوله، ويبرهن عن محصوله، فلزمه أن يكون بتهذيب ألفاظه جديراً، وليس يصح اختيار الكلام إلاَّ لمن اعتاد البلاغة ولزم الفصاحة، فلا يأتي بلفظ مستكره، ولا بمعنى مختل؛ لأن البلاغة ليست معاني مقدرة، ولا ألفاظ عارية وإنما البلاغة أن تكون المعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ صحيحة فصيحة فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: اختيار الكلام، وتصحيح الأقسام. وقيل للرومي، فقال: حسن الاقتصاد عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للعربي، فقال: ما حسن إيجازه، وقلّ مجازه. وقيل للحضرمي، فقال: ما كثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه. / قال الشاعر: [٢٠٦]

خيــــر الكــــلام قليــــل ... علــــى كثيــــر دليــــل
والعــــي معنــــى قصيــــر ... يحــــويــــه لفــــظ طــــويــــل
وفــــي الكــــلام فضــــول ... وفيــــه قــــال وقيــــل

وأما صحة المعنى: فتكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: إيضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة.

والثاني: استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج عنها ما هو منها.

والثالث: صحة مقابلاتها أعني مقابلة المعنى بما يوافقه في الائتلاف، أو بما يضاده مع الاختلاف.

وأما فصاحة الألفاظ: فتكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع.

والثاني: تنكب اللفظ المستبذل، والعدول عن الكلام المسترذل، حتى لا يستسقطه خاصي، ولا ينبؤ عن فهمه عامي.

والثالث: أن تكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة، فالمناسبة معناها أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ. والمطابقة معناها أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا يزيد

عليها ولا ينقص منها. وقد قال بعض البلغاء: لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك.

وأما معاطات الإعراب، وتجنب اللحن: فإنما هو من صفة الصواب، والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الأدباء، فضلاً عن أن يكون في عدد البلغاء الفصحاء. واعلم أن للكلام آداباً إن أغفلها / المتكلم أذهب رونق كلامه وشغل الناس عن محاسن لفظه مساوىء أدبه. [٢٠٧]

منها: أن لا يتجاوز في مدح، ولا يسرق في ذم، وعلى أن السلامة من الكذب فيهما متعذرة، وحكي عن الأحنف أنه قال: سهرت ليلتي أتفكر في كلمة أُرضي بها سلطاني ولا أسخط بها ربي فما وجدتها.

وعن ابن مسعود أنه قال: إن الرجل يدخل على السلطان ومعه دينه ويخرج وما معه دين. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يرضيه بما يسخط الله تعالى. قال: وسمع ابن الرومي رجلاً يصف رجلاً ويبالغ في مدحه فقال ابن الرومي[1]:

إذا مـــا وصفـــت أمـــر الأمـــراء فـــلا تغـــل فـــي وصفـــه واقصـــد
فـــإنـــك إن تغـــل تغـــل الظنـــو ن فيـــه إلـــى الأمـــد الأبعـــد
فيضـــوئـــل مـــن حيـــث فحمتـــه بفضـــل المغيـــب علـــى المشهـــد

ومنها: أن لا تبعثه الرغبة ولا الرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عن الوفاء بهما، فإن من أطلق بهما لسانه، ولم يستقل بهما فعله صار وعده نكثاً ووعيده عجزاً.

وحكي أن سليمان عليه السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول لها؟ قالوا: لا يا نبي الله. قال: إنه يخطبها إلى نفسه وهو يقول زوجيني نفسك اسكنك أي غرف دمشق شئت.

قال سليمان عليه السلام: وكذب العصفور غرف دمشق مبنية بالصخر وليس يقدر أن يُسكنها هناك ولكن كل خاطب كذاب.

---

(١) شاعر زمانه مع البُحتري، أبو الحسن علي بن العباس ابن جريج مولى آل المنصور، له النظم العجيب، والوليد الغريب، رتب شعره الصُّولي ، وكان رأساً في الهجّاء، وفي المديح.. مولده سنة إحدى وعشرين ومئتين، ومات لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقيل: سنة أربع. قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٩٠).

ومنها: أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللطف، وإن كان ترهيباً قرنه بالخشونة والعنف / لئلا يتعطل المقصود بهما ويصير الكلام لغواً. وقد قال [٢٠٨] أبو الأسود الدؤلي لابنه: إذا كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من فوقك فيمقتوك ولا بكلام من دونك فيزدروك.

ومنها: أن لا يرفع بكلامه صوتاً مستقبحاً، ولا ينزعج انزعاجاً مستهجناً، وليكف عن حركة تكون طيشاً وعن إشارة تكون عبثاً، فإن نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة.

وقد حكي أن الحجاج قال لأعرابي: أخطيب أنا؟ قال: نعم لولا أنك تكثر الرد، وتشير باليد، وتقول أما بعد.

ومنها: ان يتجافى هجر القول وفحش الكلام، وليعدل إلى الكناية عما يستقبح صريحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه. وعن محمد بن علي في تأويل قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً**﴾[1]. قال: إذا ذكروا الفروج كنوا عنها. ومما يجري مجرى فحش القول في وجوب اجتنابه ما كان مستنكر الظاهر، وإن كان مع التأمل سليماً، مثل قول الشاعر:

إنني شيخ كبير كافر بالله سيرى   أنت ربي وإلهي رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أي لابس؛ لأن الكفر في اللغة التغطية، وقوله: بالله سيري أقسم عليها بالله أن تسير، وقوله: أنت ربي يعني مربي ولدك، وإلهي رازق الطفل الصغير كما أنه رازق الكبير.

انظر إلى هذا التكلف البشيع ما اعتاض به صاحبه إلاّ لو ما بعد الكفران أحسن فيه الظن، أو ذماً ان قوي فيه الارتياب، ولعل ما يكون ذلك إلاّ من خليع بطر أو مرتاب أشر.

ومنها: أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء والأدباء، فإن لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم، فلا تجد لساقط الأمثال ساقطاً، قال الصنوبري:

وللسقاط أمثال فمنها   تمثلهم لذا الشيء المريب
إذا ما كنت ذا بول صحيح   ألا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان:

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧٢.

إحداهما: أن الأمثال من هواجس الهمم، مع تجرد لذي الهمة الساقطة، فلم تجد لذي الهمة الساقطة إلا مثلاً مرذولاً.

والثاني: أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها، فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم. واعلم أن للأمثال مواقع في الأسماع، وتأثيراً في القلوب؛ لأن المعاني بها لائحة، والعقول لها موافقة، ولذلك ضرب الله الأمثال في كتابه، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنها مقبولة في القلوب ولها أربعة شروط:

أحدها: صحة التشبيه وإصابة التمثيل.

والثاني: أن يكون العلم بها سابقاً والكلام عليها موافقاً.

والثالث: أن يسرع وصولها إلى الفهم من غير كد فكر في استخراجها.

والرابع: أن يناسب حال السامع ليكون أبلغ تأثيراً وأحسن موقعاً. فإذا جمعت الأمثال هذه الشروط الأربعة كانت زينة الكلام وحلى المعاني،والله أعلم وأحكم وبه الحول والتوفيق.

الباب الثالث
في تنزيه السمع

اعلم أرشدك الله أن كل لفظ يجب العقاب عليه حرام عليك الاستماع إليه، فإن القائل والمستمع شريكان في شر القول وخيره، قال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا. . .﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾[١].

وفي الحديث: «المستمع شريك القائل والمستمع إلى الغيبة أحد المغتابين»[٢] الواجب على الإنسان أن يصون سمعه عن لفظ المنكر والبدعة والفحش والخنا، كما أنه واجب عليه أن يصون لسانه عن التكلم به، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ. . .﴾[٣] [٢١٠] الآية. قيل: إنها نزلت في استماع الغناء. وعن ابن مسعود / رحمه الله أنه قال: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع.

---

(١) سورة النساء الآية: ١٤٠.

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/٢٤٣): رواه الطبراني من حديث ابن عمر: نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف.

(٣) سورة لقمان الآية: ٦.

وروي عن نافع أنه قال: سمع ابن عمر في سفر صوت زمارة راعٍ، فعدل راحلته عن الطريق وجعل أصبعيه في أذنيه وهو يقول: يا نافع أتسمع؟ فأقول: نعم، حتى إذا قلت لا أرسل أصبعيه وعاود الطريق. ويقال: الاستماع إلى الغناء ينبت النفاق في القلب ويحرق خصب الإيمان. وفي الحديث: «من سمع صوت غناء فالتذ به لم تقبل له صلاة إلى ذلك الوقت من الغد».

ومن غنى كذلك ورد الخبر: وعن محمد بن المنكدر أنه قال: بلغنا أن الله عز وجل يقول يوم القيامة أين عبادي الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان، احلوُّهم رياض المسك وأخبروهم أني قد أحللت عليهم رضواني.

وسئل القاسم بن محمد عن الغناء أحرام هو؟ فسكت ثم أعيد عليه السؤال. فقال للسائل: إن الحرام هو ما حرمه الله في القرآن أرأيت إذا أُتي بالحق والباطل إلى الله عز وجل في أيهما يكون الغناء؟ قال السائل: في الباطل. قال له القاسم: وأنت فافت لنفسك.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من استمع إلى حديث قوم وهم يفرون منه صب في أذنيه الآنك يوم القيامة»[1]. وقال بعض العلماء: إذا رأيت قوماً اجتمعوا لصوت الغناء فلعبوا ولهوا، فاجتنبوهم فإنهم عن سبيل الحق قد ضلوا وعموا. وقال: نزهوا أصواتكم عن صوت الغناء والشتم فإنه يقسي القلوب، ويصم الهمم، ويخرج عظمة الله من قلب سامعه، وينبت خصب النفاق في قلب قائله ولا تصغو الفحشاء الكلام؛ فإنه شر لكم، ووبال عليكم، فإن الشر إذا ثبت في القلب صعب على العبد معالجة زواله، والخير إذا رسخ في القلب سهلت على العبد معالجة كماله.

ويقال: نزه سمعك / عن كلام النساء فإن فيه لذة ومكامن الفتنة، فمن سمع كلاماً والتذ [٢١١] به اشتاق إلى الرؤية، فعلى العبد صيانة سمعه عن الخنا، وفضول الكلام وذلك لأمرين:

أحدهما: كما قدمنا أن المستمع شريك القائل. قال الشاعر:

تحـــر مـــن الطـــرق أوســـاطهـــا ... وعـــد عـــن الجـــانـــب المشتبـــه
وسمعــك صــن عــن سمــاع القبيــح ... كصــون اللســان عــن النطــق بــه
فــإنــك عنــد سمــاع القبيــح ... شــريــك لقــائلــه فــانتبــه

---

(١) قال العراقي في المغني (٢/١٩٩) عن نحوه: رواه البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً عليه وعلى أبي هريرة أيضاً.

والأمر الثاني: أن ذلك يهيج الوساوس في القلب، ثم تبدوا الاشتغال من البدن، فما يبقى بعد ذلك شيء للعبادة. ويقال: مثل الكلام الذي يقع في قلب الإنسان وسمعه، كالطعام الذي يقع في جوفه، منه الغذاء النافع ومنه السم الناقع.

بل بقاء الكلام في القلب أعظم وأطول لأن الطعام يزول عن المعدة، وله دواء يزيل عن الجسم أثره. وأما الكلام في القلب فربما يبقى طول عمر الإنسان ولا ينساه، فإن كان كلاماً رديئاً فلا يزال يتبعه، ويعنيه وترد بسببه وساوس في القلب يحتاج أن يعرض عنها وعن ذكرها، ويستعيذ بالله من شرها، ولا يأمن أن تحمله على بلية توقعه في آفة عظيمة بسبب ذلك؛ ولو حفظ سمعه عما لا يعنيه لكان من هذه المؤنة مستريحاً. قال:

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه ... كان به عن كل فاحشة وقراً
سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ... ولا مانع خيراً ولا قائل هجراً

وروي عن الحسن أنه قال: إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله تعالى، يعلم أنه مأخوذ عليه في لسانه وسمعه وسائر جوارحه والله أعلم.

[٢١٢]

/ الباب الرابع
في غض البصر

اعلم أن لكل شيء سبباً وسبب العفة غض البصر فليحذر الإنسان أن ينظر إلى ما حرم الله عليه تلذذاً وليحفظ من خطاب سيده ما عهد به إليه قال الله سبحانه ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾[1] الآية. يعني يكفوا عن النظر إلى ما لا ينبغي لأن الله تعالى إنما خلق العينين: ليهتدي بهما العبد في الظلمات، ويستعين بها في الحاجات، وينظر بهما إلى ملكوت الأرض والسموات، فيعتبر بما فيهما من الآيات، فالواجب أن يحفظهما الإنسان من ثلاثة أشياء:

أحدها: أن لا ينظر إلى غير ذات محرم منه وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «النظر إلى محاسن النساء سهم مسموم من نبال إبليس فمن غض بصره أذاقه الله عبادة يجد طعم لذتها».

---

(١) سورة النور الآية: ٣٠.

وروي عن أبي مرداس مهاصر رحمه الله: أنه نظر إلى امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة. وعن محمد بن سيرين أنه قال ما تثبت في وجه امرأة قط إلاَّ ثلاث نسوة أمي وأختي وامرأتي. ويقال: أن حسان بن أبي سنان انصرف من العيد فقالت له امرأته: كم من امرأة حسناء نظرت إليها اليوم؟ فقال لها: ويحك ما جاوز بصري إبهامي منذ خرجت عنك حتى رجعت إليك. وقال بعض العلماء: النظرة الأولى فجأة والثانية فتنة والثالثة ريبة.

ومن كتاب محجة السعادة قال: ولا تجعل محاسن النساء علفاً لعينيك فتخرج عظمة الله من قلبك، فإن النظر إلى محاسن النساء خربة للدين، فإنهن شباك نصبن فيصطاد بهن اللعين، فاحذروهن فإنهن كحل جهنم لاعينكم وسموم أرقيمها لفروجكم، وقسوة تميت قلوبكم، ومرض يشيـن/ إيمانكم، وداء يبعدكم عن مليككم، فلهن تمثيل يعرض عنها خياركم ويستنشقها شراركم. [٢١٣]

وقال ابن عبد اللّه: محاسن النساء بحر من سم ناقع، وغض البصر سفينة من عود مانع، فمن ركب السفينة نجا ومن تخلف عنها غرق. وقال بعض المتقدمين: لا يجوز ترديد النظر إلى امرأة شابة من ذوي المحارم إلاَّ عند الضرورة كالشهادة ونحوها، وإنما أبيح النظر إلى النساء القواعد التي لا يرجون نكاحاً والسلامة من ذلك أفضل.

وقال ابن عبد اللّه: يا ابن آدم دينك قطن، ومحاسن النساء زيت، ومكائد الشيطان نار، وإياك والجمع بينهم فإنه مراد الشيطان وأمنيته.

والثاني: لا ينظر بهما إلى الصور المليحة بشهوة قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾. ويقال في هذه الآية ثلاثة معان: تأديب، وتنبيه، وتهديد.

وأما التأديب: فقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا...﴾. الآية وهو أمر واجب لا بد للعبد من أمتثاله والتأديب بآداب سيده، وإلاَّ فقد استحق العقاب والطرد والحجاب.

وأما التنبيه: فقوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾. أي أطهر لقلوبهم لأن الزكاة الطهارة، وقيل ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أنمى لخيرهم وأكثر لأن الزكاة في الأصل النموّ والزيادة فنبه أن في غض البصر، وتطهير القلب، وتكثير الطاعة والخير، وفي إرساله بالنظر إلى الحرام تعمداً ذنب كبير وربما فسد به القلب أبداً.

وقد ورد في الخبر: أن العبد لينظر النظرة ينفل فيما قلبه كما ينفل الأديم في دباغ لا ينتفع به أبداً.

وأما التهديد: فقوله: ﴿إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١]. وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورِ﴾[٢]. وينشد:

[٢١٤] /إن العيون على القلوب إذا جنت ... كانت بليتها على الإنسان

وقد روي عن عيسى عليه السلام أنه قال إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال علي بن أبي طالب: العيون مصائد الشيطان.

وقال النبي عليه السلام لعلي بن أبي طالب: «لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك»[٣]. وفي قوله: «لا تتبع النظرة النظرة»: تأويلان.

أحدهما: لا تتبع نظر عينك نظر قلبك.

والثاني: لا تتبع النظرة الأولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي توقعها عمداً. وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه أورده حتفه، وأطال أسفه. وقال ذو النون: نعم حاجب الشهوة غض البصر قال الشاعر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً ... لعينك يوماً اتبعتك المناظر
رأيت الذي لأكله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وفي المثل: رب حرب جنيت من لفظة، وعشق غرس من لحظة. ومن كتاب محجة السعادة: قال ابن عبد الحميد: غضوا أبصاركم من محارم الله عز وجل تجل عظمته في قلوبكم وتجول في ملكوت السماء عقولكم.

وقال ابن عبد اللّه: غضوا أبصاركم فإنه يزيد الإيمان كمالاً، ويزيد المؤمن جمالاً، ويزيد الشيطان نكالاً وتتجدد لذات الطاعة في قلوبكم وتبدو معالم الإيمان في صدوركم.

قال ابن عبد الحميد: رأيت امرأة كنت أعرفها مجتازة لبعض حاجاتها، فمرت برجل فاهتز لرؤيتها اهتزازاً عظيماً وأنا انظر إليه، فنظر إليه ابن عبد اللّه وقال له: اردد نظرك، [٢١٥] واغضض بصرك، واغتنم عمرك، واحذر الإناث، وانبذ الشهوات /فإن العرض آتٍ، وكل شهوة تزول تورث حزناً يطول، ولا تقرع من الشر باباً هو عندك مقفول فإنه شر الذكور من تلذذ

---

(١) سورة النور الآية: ٣٠.

(٢) سورة غافر الآية: ١٩.

(٣) أطراف الحديث عند: الترمذي في الصحيح (٢٧٧٧)، وأبو داود في السنن (النكاح ب ٤٤)، الدارمي في السنن (٢/٢٩٨)، والحاكم في المستدرك (٣/١٢٣)، وأحمد في المسند (٥/٣٥١،٣).

بالمحظور وهتك المستور، ولا تجعل دينك نفقة لشهواتك، ولا محرماً طعماً لمقلتك، ولا تحول دنياك من آخرتك، فإن النظر إلى الشر شر، والوقوف مع الحق مر، ولن يخفى على الله من أمرك أمر، ولو عرفت ما خلقت له لاشتغلت عما أنت فيه[١] لكن الغافلون في سكرة وحيرة.

وروي أن بعض العلماء كان إذا مشى لم يلتفت وكان يقول: هون[٢] العالم أن يكثر الالتفات إذا مشى. ويقال كثرة الالتفات من علامة النفاق.

وروي أن رجلاً وقف على باب النبي عليه السلام ليستأذنه. فوقف على الباب فقال له النبي عليه السلام: «هكذا عنك إنما الاستئذان لأجل النظر»[٣] وعن سعد بن حبير أنه قال: إنما جاءت فتنة داود عليه السلام من أجل النظرة، فقال: دواد لابنه سليمان عليه السلام امشِ خلف الأسد والأسود ولا تمشِ خلف المرأة.

وقيل ليحيى بن زكريا عليه السلام: ما بدأ الزنا؟ قال: النظر والتمني. وعن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه: لأن يزاحم أحدكم جملاً أجرب مطلياً بقطران أحب إليه من أن يزاحم امرأة.

وقال مجاهد: غض البصر يورث محبة الله تعالى. ويقال: كان الربيع بن خيثم من مداومته على غض البصر أن النساء إذا مررن به كن يقلن: ما أجمله إلاَّ أنه أعمى.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود، كان إذا خرج من بيته خرج متقنعاً بثوبه آخذاً بيمينه على شماله يمشي إلى المسجد وينظر إلى موضع قدميه وإذا دخل المسجد قال: الحمد لله رب العالمين الذي عافاني من الخبيث. وأنشدوا لمحمود الوراق:

من أطلق الطرف اجتنى شهوة ... وحارس الشهوة غض البصر
يطوي لسان المرء أخباره ... والطرف لا يملك طيء الخبر

وللدارمي:

---

(١) جاء بالهامش لفظ «عليه» وجاء فوقها حرف الخاء.

(٢) جاء بالهامش لفظ: «وهن» وجاء فوقها حرف الخاء.

(٣) طرف الحديث عند: أبي داود في السنن (الأدب ب ١٣٧) ابن أبي شيبة في المصنف (٥٦٩/٨)، السيوطي في الدر المنثور (٢٩/٥)، وابن كثير في التفسير (٣٧/٦)، ابن حجر في فتح الباري (٢٤٤/٢).

مـا ضـر جـار إلـى اجـاوره أن لا يكـون لبـابـه سـتـر

غيره:

وإذا بـدت لـي جـارتي فـرأيتهـا فمـن المـروءة أن أغـض جفـونـي

ويقال: نظر بعض القراء إلى غلام بشهوة فعوقب بنسيان القرآن. ويقال نظر حماد بن الهيثم إلى غلام فقال: كم من عزيز أذله الله بنظرة جعلها سبباً لخسران دنيا وآخرته، فلقيه وهو عليه بها ساخط شغله بوجه حائل[1] وبلاء قاتل، فأحبط الله عمله وخيب من عفوه أمله.

قال: ونظر طلحة بن رويم إلى غلام فقال: ويحك يا عين كم تنظرين، ومن نظر الله إليك لا ترعوين ومن أليم عقابه لا ترهبين، ومن شديد وعيده لا تخافين، وفيما يُدنِيك من جَناتِهِ لا ترغبين حتى متى أنا من نظرك في عناء، وقلبي منك في بلاء، وجسمي منك في ضنى، أتاح الله لك العمى، وحكم لي عليك بأحسن القضاء، حتى لا تنظرين أرضاً ولا سماءً، وعوضني منك جميل الرضى.

قال: ونظر غانم بن هشام إلى غلام فقرأ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[2]. ثم قال: اللهم لا تستدرجنا من حيث لا نعلم وارجع بنا إلى توبة تقربنا من رحمتك وتدنينا من عفوك ولا تسلط علينا لحظات هي أعمل في قلوبنا من السيوف المرهفات / والمنايا القاضيات. قال بعض الشعراء: [٢١٧]

سـاق طـرفـي إلـى فـؤادي البـلايـا إن طـرفـي علـى الفـؤاد مشـؤوم
إن يكـن ينفـع البكـاء عليهـم فـابـك حتـى تمـوت يـا محـروم

وقال: ونظر تميم بن علوان إلى غلام فقال: واشؤم نظري واشؤم صباحي قيل له: ما أمرك؟ قال: نظرت إلى وجه خلقه الله بلاء على الناظرين وفتنة للعاصين وقد تخوفت أن أكون في نظري هذا من جملة الفاسقين.

قال: ونظر أمية بن الصلت إلى غلام فقال: أين الفرار من سجن وقد حصنه بملائكة غلاظ شداد تبارك الله ما أعظم ما امتحنني به من النظر إلى هذا الغلام ما شبهت نظري إليه إلاَّ بنار وقعت في قصب يوم ريح عاصف فما أبقت ولا تركت، ثم قال: استغفر الله مما جنته

(١) جاء بالهامش لفظ «مائل» وجاء فوقها حرف «خ» ووضع على حائل علامة تشير إلى ما جاء بالهامش.
(٢) سورة القلم الآية: ٤٤.

عيناي على قلبي لقد خفت أن لا أنجو من معرته ولو وافقت القيامة بعمل سبعين صدِّيقاً، ثم بكى حتى كاد أن يقضي، ثم قال: يا طرفي والله لأشغلنك بالبكاء عن النظر إلى البلاء.

ونظر الحكم إلى غلام فقال: عيون تنظر، وقلوب تشغل، ونفوس تذهل، وأرواح تذهب، وأجساد تضنى، وأعمار تفنى، وصحف لا تطوى، وكتب لا تبلى، وذنوب لا تنسى، فسبحان من أضحك هذه العيوب بالنظر إلى المنايا القاضيات، فليتها إذا نظرت ما أبت ولا رجعت قال الشعر:

يقـولـون لا تنظـر فتلـك بليـة بلـى كـل ذي عينيـن لا بـد نـاظـر

وقال بعض الصوفية: رأيت راهباً في بلاد الشام قد أشرف من صومعته وهو يكلم غلاماً جميلاً من النصارى، ويتبسم إليه: فقلت له: ينبغي لمن كان بهذه المنزلة أيها / الراهب أن لا [٢١٨] يتبسم في وجه من لا تؤمن فتنته عليه، ولا سرعة احتيال الشيطان إليه. قال: فبكى فقال: هو لعمري كما قلت، غير أني أعاهد الله تعالى أن لا أفتح عيني سنة عقوبة لها، ثم غض عينيه وأدخل رأسه في صومعته فانصرفت عنه وهو يبكي وينتحب.

قال: ونظر علي بن طاهر إلى غلام، فقال: إن العيون رسل القلوب إلى حاجتها، مساعدة لها على شهواتها ولا أعلم رسولاً أشد خيانة ولا أدل على بليّة كامنة منها، أحذرك يا نفسي من نظر يكون أوله حيرة وآخره حسرة.

قال: ونظر أحمد بن أبي الحواري إلى رجل يضاحك غلاماً جميلاً، فقال: أيها الناظر إلي هلكته، والواقف على معرته لقلة معرفته، هل تدري بين يدي من أنت واقف؟ قال: وبين يدي من أنا؟ قال: بين يدي من تمور السماء لهيبته، وتسير الجبال لخشيته، وتقف المياه بقدرته، وتسكن الرياح لعظمته، وتذل الملوك لعزته، فقال: فسقط الرجل مغشياً عليه. وأنشدوا:

نظـرت عينـي لحينـي منظـراً وافـق شينـي

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما اللمس، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، ويصدق ذلك ويكذبه الفرج»[١].

---

(١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٢/ ٣٧٢)، الطبراني في الكبير (١٠/ ١٩٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٢٥٦)، الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٢٤٨)، الربيع بن حبيب في المسند (٢/ ٥٥).

[٢١٩] **الثالث**: أن لا ينظر /بهما إلى عورة آدمي ذكراً كان أو أنثى. وقد قال عليه السلام: «ملعون من نظر إلى عورة أخيه «أو قال»: إلى فرج أخيه»[١]. وقال: «لعن الله الناظر والمنظور إليه»[٢]. يعني في أمر العورة قالا: [الا][٣] نثى عورة بجميع بدنها وعورة الرجل من السرة إلى الركبة، والأمة مثل الرجل في العورة، ولكن نظر الشهوة حرام إلى الرجال والنساء.

وعن أبي الدرداء أنه قال: من غض بصره عن نظرة الحرام زوج من الحور العين حيث أحب، ومن اطلع في بيوت الناس حشر يوم القيامة أعمى. وعن داود الطائي أنه قال لرجل وقد أحد النظر إلى بعض من ينظر إليه قال: يا هذا اردد نظرك إليك، فإنه بلغني أن الرجل يسئل عن فضل نظره كما يسئل عن فضل عمله.

قال وسئل يحيى بن معاذ عن سبب الذنب؟ فقال: اعقل ما تقول فإنها من مسائل الصدِّيقين أكشفه لك، فإن للمذنب أسباباً ظاهرة وباطنة فأول سببه: الخطرة فإن تداركتها ذهبت وإلاّ تولدت منها الفكرة، فإن تداركتها ذهبت وإلاّ امتزجت الوسوسة بالفكرة، فتولدت بينهما الشهوة، فإن تداركت الشهوة بطلت، وهذا كله بعد في الباطن، وإلاّ تولد منها الطلب فتقع في أسباب الظاهر في الطلب والسعي والوجود والموافقة قال: فحرب الصدِّيقين مع الخطرة وحرب الأبدال[٤] مع الفكرة، وحرب الزاهدين مع الشهوة، وحرب التوابين مع الطلب، وحرب أهل التخليط مع الفكرة.

وقال غيره أول أسباب الذنب: النظرة، ثم الخطرة إلى سائر أسبابه. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اطلع في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار»[٥].

وجملة الأمر: أن الله حرم النظر بالشهوة، والنظر إلى كل عورة، والنظر إلى كل مستور عن الناس، من كتاب سراً، وبيت فيه حرمة، والنظر إلى المسلم بعين المحقرة، والنظر إلى الدنيا بعين الرغبة.

---

(١) رواه الربيع بن حبيب في المسند (٢/٥٦).
(٢) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (٢/ ٥٧٠)، التبريزي في المشكاة (٣١٢٥)، المتقي الهندي في الكنز (١٩١٦٢).
(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل.
(٤) مصطلح صوفي يزعمون أن الأرض لا تخلو من أربعين رجلاً من الصالحين كلما مات واحد منهم أبدل بآخر ويبنون ذلك على أحاديث ضعيفة.
(٥) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (الدعاء ب ١) الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠)، الزيلعي في نصب الراية (٦٢١٣)، العقيلي في الضعفاء (٤/٣٤١)، البغوي في شرح السنة (١١/ ٧٤).

وأما النظر إلى المباح فليس بحرام، ولكن التنزه عن كثرة النظر أفضل. وفيما يروى عن بعض الحكماء أنه قال: أصل فساد الدنيا والدين في الفضول الأربعة: فضول الكلام، وفضول الطعام، وفضول اللباس، وفضول النظر.

وقال بعض العلماء: كل كلام ليس بذكر الله فهو لغو، وكل صمت ليس فيه تفكر فهو سهو، وكل نظر ليس فيه اعتبار فهو لهو. وقال بعضهم: البصر شبيه بالمرآة المصقولة، ومحاسن النساء تتجلى فيها، والقلب ناظر كما يتجلى في المرآة، فيلتذ به فيكون ضعف همته، وعمى بصيرته بقدر ما تمكن فيه من لذة ما يتجلى في المرآة، فإذا نظر في أنواع الملكوت عشي عنها، وإذا نظر إلى ظلمة ما يتجلى في المرآة ارتاح إلى ذلك.

قال: ومثله أيضاً كمثل العين المرمودة إذا نظرت إلى شعاع الشمس أو ضوء النهار عشيت عن ذلك، وإذا نظرت إلى سواد الظلمة ارتاحت إليها، فمن كانت هذه صفته كانت ناصيته بيد الشيطان قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً...﴾[١] الآية.

فهذه صفة القلب الأعمى على الحقيقة ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢]. واعلم أن حفظ الجوارح فريضة وترك الفضول فضيلة. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٣]. وينشد لإبراهيم الشامي:

يا من يبيت على اللذات معتكفاً ... هل أنت عن طلب اللذات مزدجر

/ وعامل لمحل سوف تشهده ... يوماً تكور فيه الشمس والقمر [٢٢١]

لا تحقرن يسير الخير تفعله ... فرب نفع لسيء وهو يحتقر

وجانب الشر لا تسلك طريقته ... ولا يكن لك في أصحابه أثر

فكل نفس ستجزى بالذي عملت ... وليس للخلق من ديانهم وزر

تأتي الجلود وأيدينا وأرجلنا ... فيشدون معاً والسمع والبصر

فنبئني كل من كانت جوارحه ... هي الشهود عليه كيف يعتذر؟

أم أين يهرب أم ماذا يقول ... وهل يطيق دفعاً لها أم كيف ينتصر؟

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٦.

(٢) سورة الحج الآية: ٤٦.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

فصل: في ضبط الفرج عن الحرام

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. . .﴾[١] الآية. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العفاف إلى الله الفرج والبطن». وقال عليه السلام: «من وقى شر ذبذبة، ولقلقة، وقبقبة، فقد وقى»[٢] يريد بذبذبة فرجه، ولقلقة لسانه، القبقب البطن.

وروي أن معاوية سأل عمر عن المروءة فقال: تقوى الله وصلة الرحم. وسأل المغيرة فقال: العفة عما حرم الله، والحرفة فيما أحل الله. وسأل يزيد ابنه فقال: هي الصبر على البلوى، والشكر على النعماء، والعفو عند المقدرة، فقال معاوية أنت مني حقاً.

وقال أنوشروان لابنه هرمز الكامل: المروءة من حصَّن دينه. ووصل رحمه، وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم اجتنب المحارم ويقال: عار الفضيحة يكدر لذتها. وأنشد للحسن بن عليّ:

الموت خير من ركوب العار والعار خير من دخول النار
والله من هذا أو هذا جار

[٢٢٢] اعلم أنه لا يصل العبد إلى حفظ إلاَّ بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن / الفكرة، وحفظ البطن عن الشبهة والشبع، فإن هذه مفارس الشهوة ومحركاتها، فإذا لم يحترس من ذلك غاية الاحتراس، فإنه قَلَّ ما ينجو من شر فرجه، فإن فكر في الزنا ولم يفعله كان كما روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: يا معشر بني إسرائيل إن موسى نهاكم عن الزنا فنعما نهاكم عنه، وإني أنهاكم أن تحدثوا به أنفسكم، فإن مثل من حدث به نفسه ولم يعمل به كمثل بيت مزخرف يوقد فيه فإن لم يحترق إسود من الدخان؛ فلعمري [أنه][٣] لكذلك، فإن وقع في زنا الفرج مسُلب الإيمان وإذا تاب ألبسه.

وقال عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[٤] مع ما ينضم إلى سلب

---

(١) سورة المعارج الآية: ٢٩.

(٢) قال العراقي في المغني (١٠٥/٣): رواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ: فقد وجبت له الجنة.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والسياق يقتضيه.

(٤) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٧٨/٣)، مسلم في الإيمان (الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠)، أبي داود في السنن (٤٦٨٩)، الترمذي في الجامع (٢٦٢٥)، النسائي في المجتبى (٨/ ٦٤)، ابن ماجة في السنن (٣٩٣٦).

الإيمان من عقوبات الدنيا والآخرة. كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاثاً في الدنيا وثلاثاً في الآخرة، فاللواتي في الدنيا: يقطع الرزق، ويذهب بالبهاء، ويعجل الفناء، واللواتي في الآخرة: سوء الحساب، وسخط الرحمٰن والخلود في النار»(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾(٢). وأوجب عليه الحد في الدنيا بالجلد والرجم مع ما يتحمل صاحبه من العار سواء هذا الزنا كان منه بالإناث أو بالذكور أو بالبهائم. وقد قال الله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ...﴾(٣) الآية.

وقال عليه السلام: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط». قالها ثلاثاً ثم قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(٤). وذكر عن أبي بكر رضي الله عنه في رجل وجد في بعض نواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة وقامت عليه بذلك بينة / فكان أشدهم فيه قول علي بن أبي طالب، وقال: إن هذا ذنب لم تعص الله به أمة من الأمم [٢٢٣] إلاّ أمة واحدة فصنع الله بها ما علمتم أرى أن تحرقه بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار فحرقه بالنار فيما غير واحد من الامراء. وأوجبت طائفة على فاعله الرجم أحصن أو لم يحصن. روي ذلك عن عليّ أيضاً وابن عباس وجابر بن زيد والشعبي وغيرهم. وذكروا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اقتلو البهيمة وناكحها»(٥).

وقيل: إن امرأة سألت جابر بن زيد رضي الله عنه فقالت: إن زوجي كان يأتي شاتي أفيحل لي لبنها؟ فقال: تسألين عن لبن شاتك وقد حرم عليك زوجك فكره جابر لبنها. وقد كرهوا أن يستمنى الرجل بيده لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾(٦).

وروي أن ابن عباس أو غيره سئل عن ذلك فقال: ذلك نائك نفسه. ويقال إنه يجيء يوم

---

(١) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (١١١/٤)، ابن حبان في المجروحين (٩٨/١)، ابن الجوزي في الموضوعات (١٠٧/٣)، الذهبي في الميزان (١٨، ٨٥٢٧)، ابن حجر في لسان الميزان (٣٠/١).
(٢) سورة الإسراء الآية: ٣٢.
(٣) سورة الشعراء الآية: ١٦٥.
(٤) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند: (٣٠٩/١)، الهيثمي في موارد الظمآن (٥٣)، والطبراني في الكبير (١١، ٢١٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٧/٣).
(٥) طرفه عند أحمد بن حنبل في المسند (٢٦٩/١).
(٦) سورة المؤمنون الآية: ٥.

القيامة ويده حبلى منه. وروي أن شاباً كان في مجلس ابن عباس فلما افترق المجلس بقي الشاب فسأله ابن عباس؟ فقال: أردت أن أسألك وأنا أجلك وأهابك فقال ابن عباس: العالم بمنزلة الوالد فما أفضيت به إلى والدك فافض به إلى عالمك. فقال: ليست لي زوجة وربما استمني بيدي فأعرض عنه ابن عباس، ثم قال: أف وتف نكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنا والله أعلم وأحكم.

ويروى أن قوم لوط كانت فيهم، عشر خصال فأهلكهم الله بها: كانوا يتغوطون في الطرقات، وتحت الأشجار المثمرة، وفي المياه الجارية، وفي شطوط الأنهار، وكانوا يقذفون الناس بالحصى فيعورونهم، فإذا اجتمعوا في المجالس أظهروا المنكر / بإخراج الريح منهم، [٢٢٤] واللطم على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا، ويأتون الطامة الكبرى وهي اللوطية ـ قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالِ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ﴾[1]. .

ويلعبون بالحمام، ويرمون بالجلامق، وضرب الدفوف، وشرب الخمور، وقص اللحية، وتطويل الشارب، والتصفيق ولبس الحرير، وتزيد عليهم هذه الأمة بإتيان النساء بعضهم بعضاً.

فصل

اعلم أن الداعي للزنا شيئان:

أحدهما: إرسال الطرف، وقد تقدم فيها ما فيه الكفاية.

والثاني: اتباع الشهوة؛ لأنها خداعة للعقول مستحسنة للقبائح وليس عطب إلاَّ وهي له سبب، ولذلك قال النبي عليه السلام: «أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان: من ملك نفسه حين ترغب، وحين ترهب، وحين تشتهي، وحين تغضب» وقهرها عن هذه الأمور يكون بثلاثة أمور:

أحدها: غض الطرف عن إثارتها فإنه الرائد المهلك، والرسول الخائن المهلك. وروي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «تقبلوا إليَّ بست أتقبل لكم بالجنة». قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا اؤتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم»[2].

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٢٩.

(٢) أطراف الحديث عند: الحاكم في المستدرك (٢/٣٥٩) الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠١)، ابن حجر في المطالب العالية (٢٦١٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٣).

والثاني: ترغيبها في الحلال عوضاً، وإقناعها بالمباح بدلاً، لأن الله عز وجل ما حرم شيئاً إلاّ وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوناً على طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما أمر الله بشيء إلاَّ وأعان عليه، ولا نهى عن شيء / إلاّ وأغنى عنه. [٢٢٥]

الثالث: إشعار النفس بتقوى الله عز وجل في أوامره واتقاؤه في زواجره، وإلزامها ما ألزم من طاعته، وتحذيرها ما حذر من معصيته، وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير، ولا يعزب عنه قطمير، وإنه يجازي المحسن ويكافىء المسيء، بذلك نزلت كتبه، وبلغت رسله. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن آخر ما نزل من القرآن: **﴿وَٱتَّقُوا يَوماً تُرجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله...﴾**[١] الآية.

وآخر ما نزلت من التوراة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت، وآخر ما نزل من الإنجيل: شر الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً، وآخر ما نزل من الزبور: من يزرع خيراً يحصد غبطة. وأعون الأشياء على ترك الزنا ومخالفة الهوى الصبر وإدامة الصوم مع تقليل الطعام، واشتغال النفس مع الحياء وهو على ثلاثة أوجه:

أحدها: حياؤه من الله تعالى.

والثاني: حياؤه من الناس.

والثالث: حياؤه من نفسه.

فأما حياؤه من الله تعالى: فيكون بامتثال أوامره والكف عن زواجره، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قيل: يا رسول الله كيف نستحيي من الله حق الحياء؟ قيل: يا رسول الله كيف نستحي من الله حق الحياء؟

قال: «من حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلا، فقد استحى من الله حق الحياء»[٢] وروي أن علقمة بن علاثة قال: يا رسول الله عظني، فقال: «استحيي من الله استحياءك من ذي الهيبة من قومك»[٣].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨١.

(٢) أطراف الحديث عند: الترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم (٣٢٣/٤)، أحمد في المسند (٣٨٧/١)، الطبراني في الكبير (٢٤٦/٣)، في الصغير (١٧٧/١)، أبي نعيم في الحلية (٣٥٨/١).

(٣) طرف الحديث عند: ابن عساكر في التاريخ (٦٦/٧)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٤٠/٣)، والمتقي في الكنز (٥٧٥٠).

وهذا النوع من الحياء يكون من قوة اليقين، وقد قال عليه السلام: «الحياء نظام الإيمان، فإذا انحلّ نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق».

[٢٢٦] **وأما حياؤه من الناس**: فيكون بكف / الأذى والمجاهرة بالقبيح، وقد قال عليه السلام: «إن من تقوى الله إتقاء الناس». وروي أن حذيفة رضي الله عنه أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا، فتنكب الطريق عن الناس، فقال: لا خير فيمن لا يستحيى من الناس. ويُنشد لبشار بن بُرْد:

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء حياءً وجبة في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكراً في الغد حديث الأعاد

وهذا النوع من الحياء يكون من كمال المروءة وحب الثناء، ولذلك قال عليه السلام: «من ألقى جلبات الحياء فلا غيبة له»[1] يعني لقلة مروءته. وقال أيضاً: «من مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلفه وجليسه». وأُنشد لبعض الشعراء:

وأعرض عن مطاعم قد أراها وأتركها وفي بطني إنطواء
أما والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلاَّ الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً لقوحاً تقلب في الأمور كما يشاء

وعن النبي ﷺ يقال: «مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»[2]. قيل: معناه إذا لم يستحيى دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء فليستحيى فإن الحياء يردع الإنسان. وقيل: معناه إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بها فلم تستحيى منها لخستها، فاصنع ما شئت، منها قال الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فافعل ما تشاء

آخر:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً ولم تخش مخلوقاً فما شئت فاصنع

---

(١) أطرف الحديث عند: البيهقي في السنن (١٠/ ٢١٠)، إتحاف السادة المتقين (٤/ ١١٧)، الخطيب في التاريخ (٤/ ١٧١)، ابن الجوزي في تذكرة الحفاظ (١٦٩، ١٧٠).

(٢) رواه أحمد في المسند (٥/ ٢٧٣).

وأما حياؤه من نفسه: فيكون بالعفة وصيانة المخلوقات / وقد قال بعض الحكماء، ليكن [٢٢٧] استحياءك من نفسك أكثر من استحياءك من غيرك.

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر مع ما قدمنا من مجاهدة النفس وترك الخلوة بمن لا تؤمن منه الفتنة والتباعد عنهم، فإن ذلك من أقوى أسباب السلامة قال الشاعر:

وإنـي ليثنينـي عـن الجهـل والخنـا ... وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حيـاء، وإسـلام، وتقـوى، وإننـي ... كـريـم، ومثلـي مـن يضـر وينفـع

ولا ينبغي للإنسان أن يحسن الظن بنفسه فيخلو بمن لا تؤمن فتنته من امرأة أو غلام اعتماداً على إنه قوي على مجاهدة نفسه عند هجوم الشهوة عليه. قال الشاعر:

لا تـأمنـن علـى النسـاء أخـا أخـي ... مـا فـي الـرجـال علـى النسـاء أميـن
كـل الـرجـال وإن تعفـف جهـده ... لا بـد أن بنظـرة سيخـون

وهذا يوسف الصديق صلى الله على نبينا وعليه في عصمته يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ...﴾[١] الآية. وقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾[٢].... الآية.
وقال عليه السلام: «لا يخلون أحدكم بامرأة ليست بذات محرم منه فإن الشيطان أحدهما»[٣].
أو قال: «ثالثها» وليحذر أيضاً من مواضع التهمة، فإن من يدخل مداخل السوء يتهم وكفى بصاحب التهمة شراً إن صحت عليه التهمة افتضح، وإن لم تصح ارتهن في الأئمة المتهومين، وتحمل ذلة المذنبين، وقد / قال عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٤]. [٢٢٨]

وليحذر أن يجعل إلى نفسه سبيلاً من تصديق التهم، فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة، هذا رسول الله وهو أبعد خلق الله من الريب، وأصونهم عن التهم، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣.
(٢) سورة يوسف الآية: ٣٣، ٣٤.
(٣) أطرافه عند: أحمد في المسند (١/ ١٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٩).
(٤) أطرافه عند: الترمذي (٢٥١٨)، النسائي في المجتبى (الأشربة ب ٤٨)، أحمد في المسند (١/ ٢٠٠)، البيهقي في السنن (٥/ ٣٣٥)، الحاكم في المستدرك (٢/ ١٣) بالطبراني في الكبير (٣/ ٧٥).

على باب مسجده يحادثها وكان معتكفاً، فمرَّ به رجلان من الأنصار فلما رأياه أسرعا فقال لهما: «على رسلكما إنها صفية بنت حُيَيّ». فقالا: سبحان الله أو يتخالجنا شك فيك يا رسول الله؟ فقال: «مه إن الشيطان ليجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه، فخشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً فكيف بمن تخالجت فيه الشكوك وركبت فيه الشهوات وليس بمعصوم؟ هل يعرى في مواقف الريب من قاذف محقق ولائم مصدّق.

وقد روي عن فتح الموصلي أنه قال: صحبت ثلاثين شيخاً يعدون من الأبدال، كلهم أوصوني عند فراقي أياهم، وقالوا: اتق معاشرة الأحداث.

وفي كتاب عن بعض العلماء قال: من أصعب الأفات صحبة الأحداث، قال: ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك، فإجماع الشيوخ أن ذلك عبد أهانه الله وخذله، بل عن نفسه قد شغله ولو بألف كرامة أهّله قال: وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب حتى يعده هيناً، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وهُوَ عِنْدَ الله عَظِيمٌ﴾[1].

وروي أنه قيل لبعض العلماء: الزاهد العارف يزني؟ فأطرق ثم رفع رأسه فقرأ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً﴾[2]. والمانع من التهمة شيئان: الحياء، والحذر، فإذا استعملهما الإنسان ترك مظان التهم، ولم يقف موقف الاعتذار، ولم يختلج في نزاهته شاك، ولم يقدح في عرضه آفك.

[٢٢٩] وقال سهل بن هارون: مؤنة التوقف أيسر من/ تكلف التعسف. وقال بعض الحكماء: من أحسن ظنه فيمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع، وينشد لأبي بكر الموصلي يقول:

أحسنت ظني بأهل دهري ... فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا ... ما الخوف إلاَّ من الأمان

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «إذا لم يشق امرء إلاَّ بما عمل فقد سعد» والله أعلم.

فصل: في حكايات الأعفاء من الرجال والنساء

قال الله سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[3]. وقال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله

---

(١) سورة النور الآية: ١٥.
(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٨.
(٣) سورة الرحمٰن الآية: ٤٦.

في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله»[1] يريد ظل عرشه فذكر منهم. «رجلاً رعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله».

ويقال دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا بثينة ما أرى شيئاً مما كان يقول جميل. فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إليّ بعينين ليستا في رأسه. قال: وكيف صادفته في علته؟ فقالت: كما وصف نفسه حيث يقول:

لا والـــذي تسجـــد الجبـــاه لـــه ... مـــا كـــان لـــي دون ثـــوبهـــا خبـــر
ولا بفيهـــا ولا هممـــت بـــه ... مـــا كـــان إلاّ الحـــديـــث والنظـــر

أخرى: وحكي أن عبد الملك بن مروان وجد على بعض عماله، فحبسه فقيّده في داره، فأشرفت عليه جارية لعبد الملك فنظر إليها وأنشأت تقول:

أيّها الرامي بالطرف وفي الطرف الحتوف ... إن ترد الوصل فقد أمكنك الظبي الألوف

فأجابها الفتى:

إن تريني زاني العينين فالفرج عفيف ... ليس إلاّ النظر القاتل والشعر الظريف

فأجابته:

/ قد أردناك على أن تعتنق ظبياً رسوفاً ... فتـأبيـت فـلا زلـت لقيـدك حليفـاً

فأجابها:

مـا تـأبيت لأنـي كنت للظبـي عنـوفـاً ... غير إني خفت رباً كان بي براً لطيفاً

قال: فبلغ ذلك عبد الملك فدعا به فزوجها إياه، ودفعها إليه والله أعلم.

أخرى: وحكي عن محمد بن السماك أنه قال: كان عندنا بالكوفة فتى من الزهاد، وكان يخرج من منزله إلى المسجد، فهويته جارية من العرب على طريقه، فلما عيل صبرها، ترصدت له في الطريق ونادت يا فتى سألتك بمن ترجوه لشدتك إلاّ توقفت عليَّ قليلاً واستمعت كلامي ، فلما سمع ذلك الفتى ارتعد، وقال: تكلمي وامض فإن هذا موقف التهمة، ويحك ما كلام النساء للرجال الذين ليسوا لهن بمحرم؟ فقالت الجارية: والله ما حملني على

---

(١) طرف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/ ١٦٨)، مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٣ رقم ٩١)، الترمذي في الجامع (٢٣٩١)، النسائي في المجتبى (٨/ ٢٢٢)، أحمد في المسند (٢/ ٤٣٩)، ابن خزيمة في الصحيح (٣٥٨)، البغوي في شرح السنة (٢/ ٣٥٤).

ذلك جرأة تقدمت مِنيِّ على كلام الرجال، غير أن المقادير تسوق العباد إلى مثل هذا، والذي حملني على أني لقيتك بنفسي في هذا الأمر أني أعلم أنكم معاشر النساك أمثال القوارير أدنى شيء يعيبه، وجملة ما أكلمك به أني قد أصبحت وقلبي فارغ من أحوال الدنيا كلها إلاَّ منك، فالله الله في أمري فإني أسأل الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما عسر من أمرك والسلام. قال: فلما سمع كلامها تغير لونه وأطرق ملياً، ثم قال: أف لشيطان علمك هذا الكلام، والله لأكيدنه فيك. ثم انصرف إلى مسجده وكان طويل الصلاة، فعارضته الفكرة فيها فاستعاذ بالله منها، فانصرف إلى منزله فقدم فطوره فقال: لا حاجة لي فيه وانقطع عن ورده تلك الليلة، وعرضت له وساوس من أمر الجارية، فلمَّا أن أصبح / دعى بدواة وقرطاس فكتب: [٢٣١]

بسم الله الرحمٰن الرحيم أما بعد: يا جارية إنك تدعونني إلى المعاصي كأنما لي ولك جنة من عذاب الله، اعلمي أن الله تعالى إذا عصي ستر وحلم، فإذا عاد العبد إلى المعصية عاد الله في ستره وحلمه، فإذا اتخذ العبد المعصية شعاراً وجعلها دثاراً غضب الله عليه غضباً لا يقوم لغضبه السموات والأرضون وما فيهن وعليهن، يا جارية إن يكن ما ذكرت باطلاً فإني أحذرك يوم الطامة والصاخة والواقعة، يوم تكون السماء كالمهل، وتجث الملائكة على الركب لصولة الجبار، لا يستمكن منه الحجاب، وتطايرت منهم الكتب بالأيمان والشمائل، فالسعيد يومئذٍ من قدم عملاً يكون أنساً له في وحدته، وأخاً مساعداً له في وحشته. وإن يكن ما ذكرت حقاً فإني أدلك على الطبيب الشقيق الرفيق الذي يداوي، فعليك بصدق المسألة، وحقيقة الاستكانة، لعله يكشف عنك ما ذكرت فإني متشاغل عنك بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾[1]. ثم طوى الكتاب، وخرج فإذا الجارية جالسة، فرمى الكتاب في حجرها فأخذته مسرورة، ورجع الفتى إلى منزله فأقام أياماً لا يخرج إلى مسجده، فلما كان بعد أيام قال: والله لأخرجن لعلها انقطعت فنظر إليها جالسة فهمَّ بالرجوع.

فنادته: يا فتى سألتك بالله لما وقفت عليّ أكلمك فهذا آخر يوم أكلمك إلاَّ بين يدي الله. فلما سمع وقف فقالت: قد فهمت ما خوفتني به والله إني لكذلك، وعلم يا فتى أنه كلما طالت المدة عظم البلاء فعظني فوالله لأقطعن حنجرة طمعي فيك باليأس / ولأنفضن كفي منك بالإفلاس فقال لها: يا جارية أحذرك من نفسك لنفسك، وفكيها من حبسك، ثم ذهب ليولى فتعلقت به فقال لها: ما وراءك؟ فقالت: تحفظ عني هذه الأبيات وهي: [٢٣٢]

---

(١) سورة غافر الآية: ١٨.

لا أنسى ما آنسى منه يوم موقفه إذ جئت انبئه جهدي وبلواي
وقد نشرت له صحفي فغضَّ لها منه الجفون ولم ينصت لشكواي
وطرفه خاشع من خوف سيده يا حسنه خائفاً من خوف مولاي
لألبسن لهذا الدهر مدرعة وأهجرن هواي خوف عقباي
ولا أبوح بما قد كنت تكرهه ولا أدعيت ولو حققت معناي

قال: فانصرفت إلى منزلها فلم تزل راكعة ساجدة قائمة صائمة وكان إذا غلب عليها الأمر تدعو بكتابه وتضعه على عينها، فيقال لها: وما يغني عنك هذا؟ فتقول: وهل دواء غيره. وكانت إذا جن عليها الليل نادت:

يا واهب الأرض هب لي منك مغفرة فكدت أفعل فعل الماجن الزاني
وانظر إلى قلقي يا مشتكى حزني بنظرة منك تجلو كل أحزاني

قال: فلم تزل كذلك حتى فارقت الدنيا فبلغ الفتى وفاتها فحزن عليها، وأخبر والدته. فقالت: يا بني ألا أخبرتني بأول حديثها كنت أزوجك بها حلالاً؟ فقال: إليك عني يا أماه والله لقد وهبتها لله تعالى منذ أول نظرة نظرت إليها، فكنت استحيى أن أرجع في شيء وهبته له. فلبث الفتى كذلك مدة والجارية ما تختلج بقلبه، ثم أنه رآها في المنام وعليها ثياب بيض، قال: فلانة. قال: فلانة. قال: ما فعل الله بك. قالت: غفر لي بثلاث دعوات كنت أقولهن دبر كل صلاة، اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل وأعوذ بك/ [٢٣٣] من حياة تمنع خير الممات. قال الفتى: فهل تذكرينني؟ قالت: «والله إني لكثيرة الذكر لك، وقد سألت ربي أن يجمع بيني وبينك في الآخرة، فما لبث الفتى إلاَّ أياماً حتى لحق بالجارية»[1].

أخرى: حكي أن فتى من المتعبدين أحب جارية في حيه، فبعث إليها يا هذه إنك وقعت في قلبي موقعاً شغلتني به عن كثير مما كنت أحبه من طاعة الله عز وجل وذكر الآخرة، فكيف السبيل إلى الإتصال بك؟ فأرسلت إليه؛ أما كان في طاعة الله وذكر الآخرة ما يشغلك عن التمسك بحبائل النساء. فاستحيى حياءً شديداً وقال: المعذرة إلى الله فيما صنعت، وندم على الذي كان وأنشأ يقول:

ولربما عدل الفتى عن رشده فيرى البصيرة بعدها فيراجع

غيره:

(١) راجع إحياء علوم الدين (٣/١٠٣: ١٠٤) ففيه القصة بنحوها وقصص أخرى.

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمنعني   منه الحياء وخوف الله والحذر
أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم   وليس لي في حرام متهم وطر

ويكفي في حفظ الفرج قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[1] الآية. وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ...﴾[2] الآية. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

الباب الخامس
في حفظ البطن وإصلاحه

وليعلم أن البطن أشق الأعضاء إصلاحاً على الإنسان، وأعظمها ضرراً عليه؛ لأنه المنبع والمعدن ومنه تهييج الأمور في الأعضاء من عفة وجماع وقوة وضعف، فعلى الإنسان حفظه عن الحرام والشبهة أولاً، ثم عن فضول الحلال ثانياً، ثم كيفية تناوله من الحلال. وهذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول:

[٢٣٤] **أحدها**: في مذمة/ الحرام.

والثاني: في فضيلة الحلال.

والثالث: في حد الحلال والحرام وكيفية التناول من الحلال.

الفصل الأول: في مذمة الحرام

وليعلم أن الحرام والشبهة يلزم الإنسان البحث عنهما لثلاثة أمور:

أحدها: حذراً من نار جهنم. قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً...﴾[3] الآية. وقال النبي عليه السلام: «كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به»[4]. وقال النبي عليه السلام: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أي باب أدخله النار»[5].

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٥.

(٢) سورة النور الآية: ٣٠.

(٣) سورة النساء الآية: ١٠.

(٤) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (١٣٦/١٩)، في الصغير (٢٢٥/١)، القيسراني في تذكرة الموضوعات (٥٩٧).

(٥) قال العراقي في المغني (٩١/٢): رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر قال =

وقال عليه السلام: «القليل من أموال الناس يورث النار»[١] وعنه عليه السلام أنه قال: «من اكتسب المال من حرام فإن تصدق به لم يتقبل منه وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار»[٢] وفي حديث آخر: «من أصاب مالاً من مأثم ووصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جمعاً ثم قذفه في النار»[٣].

والثاني: أن أكل الحرام والشبهة مطرود عن خدمة الله غير موفق لطاعته إذ لا يصلح لخدمة الله إلاَّ كل طاهر مطهر ألا ترى أن الله تعالى منع الجُنب من الدخول إلى بيته ومنع المحدث عن مس كتابه فقال تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ﴾. إلى قوله: ﴿وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[٤].

وقال: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[٥]. مع أن الجنابة والحدث أثر مباح فكيف بمن هو منغمس في أقذار الحرام ونجاسة الشبهة والحطام متى يدعى إلى خدمة الغني العزيز وذكره الشريف كلاَّ فلا يكون ذلك.

وقد روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: الطاعة مخزونة في خزائن الله تعالى، ومفاتيحها الدعاء، وأسنانها لقمة الحلال. فإذا لم يكن للمفتاح اسنان فلا ينفتح /الباب، وإذا لم ينفتح [٢٣٥] باب الخزانة كيف يصل إلى ما فيها من الطاعة؟

الثالث: إن أكل الحرام والشبهة محروم وأن اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه فإذاً لا يكون له من ذلك إلاَّ العناء والكدر وشغل الوقت. وقد روي عن ابن عباس عن النبي عليه السلام أنه قال: «إن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي: من أكل الحرام لم يقبل منه صرف ولا عدل»[٦].

قيل: الصرف: النافلة، والعدل: الفريضة. وعنه عليه السلام أنه قال: «من اشترى ثوباً

= ابن العربي في عارضة الأحوذي شرح الترمذي أنه باطل لم يصح ولا يصح.

(١) رواه الربيع بن حبيب في مسنده (٢/٦٦).

(٢) قال العراقي في المغني (٢/٩١): رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، ولابن حبان من حديث أبي هريرة: من جمع مالاً من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه.

(٣) رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مرسلاً، المصدر السابق.

(٤) سورة النساء الآية: ٤٣.

(٥) سورة الواقعة الآية: ٧٩.

(٦) قال العراقي في المغني (٢/٩٠): لم أقف له على أصل، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة الحديث وهو منكر.

بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه»[١] وعن ابن عباس أنه قال: لا يقبل الله صلاة امرء وفي جوفه حرام. ولما ذكر رسول الله ﷺ الحريص على الدنيا قال: «[رب]»[٢] أشعث أغبر مشرداً في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يرفع يديه ويقول: يا رب فلا يستجاب لذلك».

وفيما يحكى عن إبليس اللعين أنه كان يقول: خصلة واحدة أريدها من بني آدم، ثم أخلى بينه وبين ما يريد من العبادة، أراد كون كسبه حراماً، إن صلى صلى بحرام، أو صام فأفطر على حرام، أو حج حج بحرام لم يقبل منه.

وعن سفيان الثوري أنه قال: من أنفق من الحرام في طاعة الله كمن طهر الثوب بالبول والبول لا يطهره إلاّ الماء والذنب لا يكفره إلاّ الحلال. وروي في أثر السلف: أن الواعظ إذا جلس للناس قالت العلماء تفقدوا منه ثلاثاً؛ فإن كان معتقداً للبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيء اللقمة فعن الهوى ينطق، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد بكلامه أكثر مما يصلح، فلا تجالسوه. ويقال: إذا طاب/ المكسب زكي العمل، ويقال: من أكل من الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه. وهو تأويل قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣]. [٢٣٦]

وفي حديث أبي هريرة أنه قال: «المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا سقمت صدرت العروق بالسقم»[٤] ومثل الطعام من الدين مثل الأساس من البنيان فإذا ثبت الأساس وقوي استقام البنيان وارتفع وإذا ضعف الأساس أو اعوج إنهار البنيان ووقع، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ...﴾[٥].

الفصل الثاني: في فضيلة الحلال

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[٦]. أمر بالأكل من الطيبات وهي

---

(١) رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٢) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٢/ ٩٠) وعلق العراقي على الحديث بقوله: رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر.

(٣) سورة المطففين الآية: ١٤.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط والعقيلي في الضعفاء وقال باطل لا أصل له. قاله العراقي في المغني ٢/ ٩١.

(٥) سورة التوبة الآية: ١٠٩.

(٦) سورة المؤمنون الآية: ٥١.

الحلال قبل العمل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[١].

ولما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». قال بعض العلماء: أراد به طلب علم الحلال والحرام، وجعل المراد بالحدثيين واحداً. وعنه ﷺ أنه قال: «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه»[٣] وفي رواية: «زهده الله في الدنيا».

وروي أن سعداً سأل النبي ﷺ أن يسأل الله إن يجعله مجاب الدعوة فقال له: «أطب طعمتك تستجب دعوتك»[٤].

وقال /عليه السلام: «العبادة عشرة أجزاء فتسعة منها في طلب الحلال»[٥] وعنه [٢٣٧] عليه السلام أنه قال: «من أمسى وانياً في طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راضٍ»[٦].

وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأله؟ فقال: تكهنت لقوم فأدخل أصبعه في فيه وجعل يقيء حتى كادت نفسه أن تخرج، ثم قال: اللهم إني اعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء.

وروي أن النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل في جوفه إلاَّ

---

(١) رواه ابن ماجة من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما قاله العراقي في المغني (١/٣).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: من سعى على عياله ففي سبيل الله، ولأبي منصور في مسند الفردوس: من طلب مكسبه من باب حلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين وإسنادهما ضعيف. قاله العراقي في المغني (٣/ ٩٠).

(٣) رواه أبو يعلى في الحلية من حديث أبي أيوب: من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسى، وقال حديث منكر. المصدر السابق.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه. المصدر السابق.

(٥) رواه أبو منصور الديلمي من حديث أنس إلا أنه قال: تسعة في الصمت، والعاشر كسب اليد من الحلال، وهو منكر. (المغني ٣/ ٩١).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له، وفيه ضعف، المصدر السابق.

طيباً»[١]. وكذلك روي أن عمر رضي الله عنه شرب من إبل الصدقة غلطاً وأدخل إصبعه وتقيأ.

وعن بعض السلف أنه قال: لم يدرك من أدرك إلاّ من كان يعقل ما يدخل في جوفه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول من المسلم؟ قال: «الذي إذا أمسى سأل من أين كِسْرَته» قالت: يا رسول أو كُلف الناس هذا؟ قال: «نعم ولكنهم غشموا المعيشة غشماً».

وقال بعض العلماء: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي عن الظاهر والباطن والصبر على ذلك إلى الموت.

وقال: من أحب أن يكاشف باب الصديقين فلا يأكل إلاّ حلالاً، ولا يعمل إلاّ في سنة أو ضرورة. وقال بعض السلف: إن أول لقمة يأكلها العبد من الحلال يغفر له بها ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما تساقط ورق الشجر والله أعلم.

فصل: في الشبْهة

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور متشابهات / لا يعلمها كثير من الناس، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»[٢]. وقال [٢٣٨] عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٣].

وقال عليه السلام: «الأمور ثلاثة: أمر بان رشده فاتبعوه، وأمر بان غيه فاجتنبوه، وأمر أُشكل عليكم فكلوه إلى عالمه». فلما كان الأمر على ما وصفنا كان الواجب على الإنسان استعمال الحلال واجتناب الحرام، والورع عن الشبهات.

وقد قال بعض العلماء: ردّ درهم من الشبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى تبلغ ستمائة ألف. وقال: اجتمع الفضيل، وابن عيينة، وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة فذكر الرطب فقال وهيب: هو من أحب الطعام إليّ إلاّ أني لا أكله لاختلاط رطب

---

(١) رواه البخاري من حديث عائشة: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، وقال له الغلام أتدري ما هذا؟ فقال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، فذكره دون المرفوع منه فلم أجده، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير: قاله العراقي في المغني (٢/٩٩).

(٣) رواه النسائي، والترمذي، والحاكم وصححاه من حديث الحسن بن علي. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار.

مكة ببساتين زبيدة وغيرها. فقال ابن المبارك: إن نظرت إلى هذا ضاق عليك الخبز.

قال: وما سببه؟ قال: إن أصول الضياع بالصوافي. فغشي على وهيب. فقال سفيان: قتلت الرجل. قال ابن المبارك: ما أردت إلاّ أن أهون عليه. فلما أفاق قال: لله عليَّ أن لا آكل خبز أبداً فكان يشرب اللبن؛ فأتته امرأة بلبن فسألها؟ فقالت: هو من شاة بني فلان. فسأل عن ثمنها وأنه من أين له، فذكرت ذلك، فلما أدناه من فيه قال: بقي أنها أين كانت ترعى؟ فسكتت، فلم يشربه. قال: لأنها كانت ترعى من موضع للمسلمين فيه حق. فقالت له أمه: اشرب يغفر الله لك. فقال: ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنال مغفرة بمعصيته والله أعلم.

الفصل الثالث: في حد الحرام والشبهة والتناول من الحلال

اختلف العلماء في حد الحرام والشبهة، فقال بعضهم ما تيقنت كونه ملكاً / للغير، منهياً [٢٣٩] عنه في الشرع فهو حرام محض، وأما إذا لم يكن لك يقين بذلك ولكن يغلب في ظنك أنه كذلك فهو شبهة.

وقال آخرون: بل الحرام المحض ما يكون به علم أو غالب ظن، لأن غلبة الظن مما يجري مجرى العلم في كثير من الأحكام. وأما إذا تساوى الأمران في ذلك حتى تبقى نشاكاً لا يكون لأحدهما ترجيح عندك فذلك شبهة يشبه أنه حلال ويشبه أنه حرام. ثم الامتناع عن الذي هو حرام محض فرض لازم وعن الذي هو شبهة تقوى وورع وذلك عن ثلاث درجات:

أحدها: ورع الصالحين، وهو الامتناع عن كل ما يتطرق إليه احتمال التحريم وذلك كالأكل ممن أكثر ماله حلال ولكنه لا يتقي الحرام، فالورع اجتنابه لقوله عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[1]. وقد قال أصحابنا: الريبة على وجهين: محققة، ومعارضة.

فالمحققة: مثل ما يكون في أيدي السرايا، وقطاع الطرق، حدثان غارتهم، وذلك كالحرام المحض.

والمعارضة: مثل ما يكون في أيدي من لا يتقي الحرام فليخرج عن معاملته ورع الصالحين.

---

(١) رواه النسائي والترمذي والحاكم وصححاه من حديث الحسن بن علي. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار.

الدرجة الثانية: ورع المتقين وهو كل ما لا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أن يؤدي إلى محرم وهو ترك ما لا بأس فيه مخافة ما فيه البأس.

وقال عليه السلام: «إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس فيه مخافة البأس»[1]. وقال ابن عباس: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام. وقال أبو الدرداء: إن تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً فيكون حجاباً بينه وبين النار:

[٢٤٠] **الدرجة الثالثة**: ورع الصديقين وهو ترك ما لا/ بأس فيه أصلاً، ولا يخاف أن يؤدي إلى ما به البأس ولكنه يتناول لغير الله أو يقصد به غير التقوى على عبادة الله.

كما روي عن بعضهم أنه شرب دواء فقالت له امرأة: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء فيك. فقال؛ هذه مشية لا أعرفها فكأنه لم تحضره نية تتعلق بالدين في مشيته تلك.

كما روي عن ذي النون المصري: أنه كان جائعاً محبوساً فبعثت له أخته في الله طعاماً على يد السجان، فلم يأكل فاعتذر إليها وقال: جاءني على طبق ظالم ـ يعني القوة التي أوصلت إليه الطعام اكتسبت بالغذاء الحرام.

وهذه أقصى درجات الورع أعني ورع الصدِّقين، والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عن كل ما تحرمه الفتوى، وذلك الورع وفرض واجب وله غاية، وهو ورع الصدقين وهو الامتناع عن كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه، أو اتصل بسببه مكرو. وبينهما درجات في الاختلاط وكلما كان العبد أشد تضيقاً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة.

مسـالة

فإن قيل ما تقول في قبول جوائز السلطان في هذا الزمان؟ فاعلم أن بعض السلف قال: قد اختلف العلماء في ذلك فقال قوم: كل ما لا يتيقن أنه حرام فله أخذه. وقال آخرون: لا يحل أن يأخذ ما لا يتحقق أنه حلال لأن الأغلب في هذه الأعصار على أموال السلاطين الحرام، والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز.

---

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني: (٣/ ٩٥): رواه ابن ماجة.

وقال قوم: إن صلات السلاطين تحل للغني والفقير إذا لم يتحقق أنها حرام، وإنما التباعة على المعطي، قالوا لأن النبي عليه السلام قبل هدية المقوقس ملك الأسكندرية، واقترض من اليهود مع / قوله تعالى فيهم: ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾[1]. قالوا: وقد أدرك جماعة من [٢٤١] الصحابة أيام الظلمة وأخذوا منهم الأموال، منهم: أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب وجرير بن عبد اللّٰه، وجابر، وأنس المسور بن مخرمة، وابن عباس، وابن عمر، فاخذا أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد من عبد الملك، وأخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج، وأخذ كثير من التابعين منهم الشافعي والحسن البصري وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وقال آخرون: لا يحل من أموالهم شيء لغني ولا لفقير إذ هم موسومون بالظلم والغالب على أموالهم السحت والحرام والحكم للأغلب فيلزم الاجتناب. وقال آخرون: ما لا يتقين أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغني إلاَّ أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب، فليس له أخذه إلاَّ أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب فليس له أخذه إلاَّ أن يرده على مالكه ولا حرج على الفقير أن يأخذه من مال السلطان، لأنه إن كان ذلك من مال السلطان فله أخذه بلا شك، وإن كان من فيء أو خراج أو عشر فللفقير فيه حق، وكذلك أهل العلم.

وقد روي عن علي أنه قال: خذ من السلطان ما أعطاك فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر. وعن علي بن أبي طالب أيضاً أنه قال: من دخل الإسلام وقرأ القرآن ظاهراً فله في بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم، وفي رواية مائتا دينار فإن لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخرة. قالوا: فإذا كان الأمر كذلك فالفقير والعالم يأخذ من حقه، قالوا وإذا كان مختلطاً بمال مغصوب ولا يمكن تمييزه أو غصباً لا يمكن رده على صاحبه وذريته فلا مخلص للسلطان منه إلاَّ أن يتصدق به، وما / كان الله ليأمره بالصدقة على الفقير وينهي الفقير [٢٤٢] عن قبوله أو يأذن للفقير في القبول وهو عليه حرام.

فإذاً للفقير أن يأخذ إلاَّ عين الغصب والحرام، والذي أرى والله أعلم أن أموال السلاطين اليوم الغالب عليها الحرام لأن أكثرها من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المكوسات والغصب بخلاف الأموال التي كانت في أيدي الملوك والجبابرة الماضين من الأمويين والعباسيين وغيرهم، ولذلك ساغ لجابر بن زيد وأبي بلال مرداس وغيرهم من الصحابة والتابعين الأخذ منهم.

---

(١) سورة المائدة الآية: ٤٢.

وقد روي أن جابر بن زيد سأله رجل عن جار له عشار يهدي إليه؟ فقال: خذ من جارك ما أعطاك. وروي عن سعيد بن جبير أنه أكل من طعام العشارين والتنزه عن مثل هذا أفضل.

مسألة

فإن قيل ما تقول في صلة أهل الأسواق وغيرهم ممن ليس له نظر في المعاملات؟ قيل له إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر فلا حرج على الأخذ منه ولا يلزم البحث بأن يقول فسد الزمان لأن ذلك سوء ظن بالمسلمين وتجسس عن أحوالهم. ثم اعلم ما هو الأصل في هذا الباب وهو أن هاهنا شيئين:

أحدهما: حكم الشرع الظاهر الموضوع على اليسر والسماحة وهو أن تأخذ ما أتاك به من ظاهره الصلاح ولا تسأل إلاّ إن استربته أو تيقنت أنه حرام أو غصب بعينه.

والثاني: حكم الورع الموضوع على التضييق والتشديد كما قيل: الأمر على المتقي أضيق من عقد التسعين فحكم الورع أن لا يأخذ شيئاً من أحد حتى يسأل أو يبحث غاية البحث كما سأل أبو بكر غلامه عن اللبن الذي شربه / فتقيأه، وكما سأل عمر عن اللبن الذي شربه فأخبر [٢٤٣] أنه من إبل الصدقة، والورع أيضاً من الشرع وكلاهما في الأصل واحد ولكن للشرع حكمان: حكم جواز، وحكم الأفضل الأحوط، فحكم الجواز يقال له: حكم الشرع، وحكم الأحوط الأفضل يقال له: حكم الورع، وهما واحد في الأصل غير أن حكم الورع شديد فمن سلك طريقه فلا بد له أن يوطن نفسه على احتمال الشدائد وإلاّ فلا يتم له ذلك.

وليكن عنده أكل ما يتداوله الناس في أيديهم بمنزلة الميتة لا يقدم عليها إلاّ عند الضرورة، ثم لا يتناول منها إلاّ مقدار ما يبلغه إلى الطاعة فيكون له عذر في ذلك ولا يضره إن كان في أصله شبهة، أو هو حرام مجهول فإن الله تعالى أولى بالعذر. ولهذا قال الحسن البصري: إذ فسد السوق فعليكم بالقوت.

وقد روي عن وهيب بن الورد أنه كان يجوع نفسه يوماً أو يومين أو ثلاثة ثم يأخذ رغيفاً فيقول: اللهم إنك تعلم إني لا أقوى على العبادة وأخشى الضعف وإلاّ لم آكله، اللهم وإن كان فيه شيء من خبث أو حرام فلا تؤاخذني ثم يبل الرغيف في الماء فيأكله.

ويقال: إن بعض الورعين قيل له: من أين تأكل؟ فقال: مما تأكلون، ولكن ليس من يأكل ويبكي مثل من يأكل ويضحك. وقال: يد أصغر من يد ولقمة أصغر من لقمة. فهكذا كانوا يتحرزون من الشبهات فهذه طريقة الطبقة العليا من أهل الورع فيما بلغنا. وأما من دونهم

فلهم احتياط ويحث على مقدار ولهم أيضاً من الورع على مقدار، وبقدر ما يعتني الإنسان يكون ما يتمنى والله تعالى / لا يضيع أجر من أحسن عملاً. [٢٤٤]

الفصل الرابع: في الأخذ من الحلال

فإن قال قائل: فهذا جانب الحرام قد بينته فأخبرنا عن جانب الحلال؟ وما حد الفضول الذي يلزم منه الحساب؟ وما المقدار الذي إذا أخذه العبد يكون ذلك أدباً ولا يكون فضولاً ولا عليه فيه حبس ولا حساب؟ قيل له: قال بعض السلف: اعلم أن أحوال المباح في الجملة ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يأخذها العبد مكاثراً مفاخراً مباهياً مرائياً، فيكون الأخذ منه فعلاً منكراً يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعيير، وهو منكر وشر يستوجب على باطن فعله الذي هو التكاثر والتفاخر عذاب النار، وذلك القصد منه معصية وذنب لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[١]. الآية.

وقال النبي عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً مباهياً مكاثراً مفاخراً مرائياً لقي الله وهو عليه غضبان»[٢]. فالوعيد حصل له على قصده ذلك بقلبه.

القسم الثاني: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك شر يستوجب عليه الحبس والحساب لقوله تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[٣]. وقال عليه السلام: «حلالها حساب»[٤].

القسم الثالث: أن يأخذ من الحلال في حال العذر قدراً يستعين به على عبادة الله تعالى ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنه وأدب ولا حساب عليه ولا عتاب، بل مستوجب عليه الأجر والمدحة لقوله تعالى حكاية عن المسلمين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾. إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾[٥].

---

(١) سورة محمد الآية: ٣٩.
(٢) سورة التكاثر الآية: ٨.
(٣) قال العراقي في المغني (٣/ ٢١٧) عن نحوه. رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.
(٤) رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقة موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ: وحرامها النار، ولم أجده مرفوعاً. قاله العراقي في المغني (٣/ ٢١٥: ٢١٦).
(٥) سورة البقرة الآيتان: ٢٠١، ٢٠٢.

[٢٤٥] وقال عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً/ استعفافاً عن المسألة وتعطفاً على جاره وسعياً على عياله جاء يوم القيامة كالقمر ليلة البدر»(١). وذلك لما قصد بها هذه المقاصد المحمودة لله سبحانه.

فصل: في آفات فضول الحلال

اعلم أن فضول الحلال هي آفة العبادة وبلية الاجتهاد، قال عليه السلام: «من أخذ من حلال الدنيا أكثر ما يكفيه أخذ حتفه وما يشعر»(٢). قال بعض العلماء: تأملت آفات الفضول فإذا هي عشر آفات هن أصول في هذا الشأن.

الأول: أن في كثرة الأكل قسوة للقلب وذهاب نوره وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء»(٣) وقد شبه بعض العلماء بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلي، والبخار يرتفع إليه وكثرة البخار تكدره وتسمجه.

الثانية: أن في كثرة الأكل فتنة الأعضاء وانبعاثها للفضول والفساد، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والبطنة فإنها مفسدة للدين، مورثة للقسم، مكسلة عن العبادة»(٤).

وقد صدق فإن الرجل إذا كان شبعاناً بطراً اشتهت عينه النظر إلى ما لا يعنيه، من الحرام والفضول، والأذن الاستماع إليه، واللسان التكلم به، والفرج الشهوة، والرجل المشي إليه، وإذ كان جائعاً كانت الأعضاء كلها ساكنة لا تطمح إلى شيء منها.

وقال بعض العلماء: البطن عضو إن جاع هو شبع سائر الأعضاء، وإن شبع جاع سائر الأعضاء. وجملة الأمر أن أفعال الرجل وأقواله على حسب طعامه وشرابه إن أدخل الحرام خرج الحرام، وإن / أدخل الفضول خرجت الفضول كأن الطعام بدل الأفعال والأفعال تبدو منه. [٢٤٦]

والثالثة: أن في كثرة الأكل قلة العلم والفهم؛ لأن البطنة تذهب الفطنة، ولقد صدق

---

(١) تقدم قبل الذي قبله.

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/٢٢٩): رواه البزار من حديث أنس وفيه؛ هانيء بن المتوكل ضعفه ابن حبان.

(٣) قال العراقي في المغني (٣/٧٨) لم أقف له على أصل.

(٤) أطراف الحديث عند: ابن حبان في المجروحين (١/١٢٣)، ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٣٥٣)، ابن حجر في لسان الميزان (٣/١٢٧١)، المتقي الهندي في الكنز (٦٣٠٩).

بعض الحكماء حين قال: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها؛ فإن الأكل يغير العقل وهذا أمر ظاهر علمه لمن اختبره.

والرابعة: أن في كثرة الأكل قلة العبادة، وإذا كثر الأكل ثقل بدنه، وغلبته عيناه، وفترت أعضاؤه فلا يجيء منه شيء وإن اجتهد. وقد ذكر عن يحيى عليه السلام أن إبليس بدا له وعليه معاليق. فقال يحيى: ما هذه؟ قال: الشهوات التي أصيد بها بني آدم. قال: هل تجد لي شيئاً؟ قال: لا إلاّ أنك شبعت ذات ليلة، فثقلناك عن صلاتك. فقال يحيى: لا جرم أني لا أشبع بعدها أبداً. فقال إبليس لعنه الله: لا جرم أني لا أنصح بعدها أحداً أبداً. فهذا فيمن لم يشبع في عمره إلاّ ليلة واحدة فكيف بمن لم يجع في عمره ليلة ثم يطمع في العبادة؟ قال بعض العلماء: العبادة حرفة حانوتها الخلوة، وآلاتها المجاعة.

والخامسة: أن في كثرة الأكل فقد حلاوة العبادة. وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: ما شبعت منذ أسلمت لأجل حلاوة عبادة ربي ولا رويت منذ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربي وهذه صفة المكاشفين. وكان رضي الله عنه مكاشفاً وإليه أشار النبي ﷺ بقوله: «ما فضلكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام وإنما هو شيء وَقَرَ في نفسه»[1]. وقال بعض السلف: أحلى ما تكون العبادة / إذا التزق ظهري ببطني. [٢٤٧]

والسادسة: أن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام؛ لأن الحلال لا يأتيك إلاّ قوتاً والحرام يأتيك جزفاً جزفاً.

والسابعة: أن فيه شغل القلب والبدن بتحصيله أولاً، وبتهيئته ثانياً، ثم بأكله ثالثاً، ثم بإفراغه والتخلص منه رابعاً، ثم بالسلامة منه خامساً، من أن تبدو منه في البدن آفة أو آفات وعلل، وقد قال عليه السلام «أصل كل داء البردة». يعني الحمة. «وأصل كل دواء اللازم»[2]. يعني الحمية.

ويقال: من رفع يده من الطعام وهو يشتهيه ولا يأكل إلاّ وهو يشتهيه، واستفرغ بدنه من البول قبل النوم لم يحتج إلى طبيب أبداً. ويقال: مكتوب على مائدة كسرى: ليهنى طعام من

---

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني (١/ ٢٤): رواه الحكيم الترمذي في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

(٢) أطراف الحديث عند: ابن عدي في الكامل (٢/ ٥٢٣١)، (٣/ ٩٨٦)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ١٧٨)، ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٠٢)، الذهبي في الميزان (١٣٤١)، ابن حجر في لسان الميزان (٣/ ١٦٧٠)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ١٤٦).

أكله من حله، وأفضل على ذوي الحاجة من فضله ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته، وما أكلت وأنت لا تشتهيه فقد أكلك.

ويقال: اجتمع أربعة من الأطباء عند هارون الرشيد أو غيره من الملوك، طبيب هندي ورومي وعراقي وسوداوي. فقال الملك: ليصف كل منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الهندي: هو الإهليلج الأسود. وقال الرومي: هو حب الرشاد الأبيض. وقال العراقي: هو الماء الحار.

وقال السوداوي: الإهليلج يعفن المعدة، وحب الرشاد يرقق المعدة، والماء الحار يرخي المعدة. فقالوا له: ما الدواء الذي لا داء فيه؟ قال: أن لا تضع يدك في الطعام إلاَّ وأنت تشتهيه وترفع منه وأنت تشتهيه. فقالوا صدقت. وأيضاً فإن في كثرة الأكل مقت النفس وتكثير الوضوء، وإن المسلمين يدورون في المساجد، والكثير الأكل يدور في المزابل.

[٢٤٨] وعن مالك بن دينار / أنه كان يقول مع زهده: يا هؤلاء لقد اختلفت إلى الخلاء حتى استحييت مع ما في هذا من طلب الدنيا، والطمع إلى الناس، وتضييع الوقت بسبب الأكل ما لا يخفى.

الثامنة: من أمور الآخرة شدة سكرات الموت، وقد ورد في الخبر أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا، فمن أكثر من هذا أكثر له من تلك.

التاسعة: نقصان الثواب في الآخرة وقال الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا﴾[1] الآية ويروى أنه بقدر ما يأخذ العبد من لذات الدنيا ينقص له من لذات الآخرة وقد روي أن الله تعالى عرض الدنيا على نبينا محمد عليه السلام فقيل له: ولا ينقص لك من آخرتك شيء خصه بذلك، فدلّ أن لغيره النقصان إلاَّ أن يتفضل الله عليه بذلك.

ويروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير، ويطعم عياله دقيق القمح، ويطعم المساكين الحواري. وروي أن عمر رضي الله عنه عطش فدعى بماء، فأعطاه رجل أدواة فيها ماء نبذ فيها ثمرات، فلما قربها عمر من فيه وجد الماء بارداً حلواً، فأمسك فقال: أوه. فقال الرجل: ماء آلوته حلاوة. فقال عمر: ذلك الذي منعني، ويحك لولا الآخرة لشاركناكم في عيشكم.

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٢٠.

والعاشرة: أن كثرة الأكل تنسي أهل الجوع في الدنيا حتى لا يتفضل عليهم مع ما يناله في الآخرة من الحبس والحساب والتوبيخ واللوم في ترك الأدب في أخذ الفضول وطلب الشهوة، والله أعلم. فهذه جملة العشر وفي واحدة منها كفاية لمن نظر واعتبر فعليك أيُّها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوة لئلا تقع في حرام أو شبهة فيلزمك العذاب، ثم الاقتصار من الحلال على ما يكون عمدة على عبادة الله تعالى لئلا تقع / في شر وتبقى في [٢٤٩] الحساب.

فصل

فإن قيل: فما شرط المباح حتى يصير خيراً أو حسنة؟ قيل له: يحتاج في الأصل إلى شرطين.

أحدهما: الحال.

والثاني: القصد.

فأما الحال: فهو أن يكون في حال عذر وضرورة، وإن لم يأخذ البلغة ينقطع بسبب ذلك عن فرض أو سنة أو نفل هو أفضل من ترك المباح فذلك حال العذر.

وأما القصد: فهو أن يقصد بأكله التقوى على طاعة الله والاستعانة به على عبادته، ومعنى القصد أن يذكر بقلبه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله لما أخذ ذلك، فإن كان في حال عذر لم يكن له هذا القصد، أو كان به هذا القصد ولم يكن في حال عذر فلا يصير ذلك الفعل من جملة الخيرات، ثم الاستقامة على حفظ ذلك الأدب يحتاج إلى بصيرة وقصد مجمل، بأنه لا يأخذ من الدنيا إلاَّ للاستعانة بها على العبادة، حتى أنه إن سهى عن ذكر الحجة في بعض الأحوال أجزاه ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة.

فإن قيل: فإن أخذ الحلال بشهوة فهل هذا معصية؟ أو يلزمه عذاب؟ وهل الأخذ بالعذر فرض أم لا؟ قيل له: إن ذلك فضيلة وخير وحسنة والأمر فيه أمر تأديب، وليس في تركه معصية ولا عذاب، وإنما عليه الحبس عن الجنة والحساب عليه مدة، بأن يُسأل العبد يوم القيامة عما ذا اكتسب؟ وفيما انفق؟ وماذا أراد بذلك؟ والحبس عن الجنة مقدار الحساب في عرصة القيامة بين أهوالها ومخاوفها عطشاناً عرياناً وكفى بذلك بلية. فإن قيل: فالله تعالى قد أحلَّ لنا هذا الحلال فاللوم والتعيير في أخذه لماذا؟

/ قيل له: لترك الأدب كمن أُجلس على مائدة الملك فترك الأدب فإنه يعير بذلك [٢٥٠]

ويلام، والأصل في هذا الباب أن الله تعالى خلق العبد لعبادته وهو عبد اللّٰه تعالى من كل وجه، فحق العبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه ذلك ويجعل أفعاله كلها عبادة من أي وجه أمكنه، وإن لم يفعل ذلك وآثر شهوته واشتغل عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك من غير عذر ـ والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة ـ فقد استحق الملوم بذلك والتعيير من سيده، فتأمل هذا الأصل راشداً ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

فصـل

واعلم أن الداعي إلى الأكل والشراب شيئان: حاجة ماسة وشهوة باعثة.

فالحاجة: تدعو إلى ما سد الجوعة وسكن العطش وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس، ولذلك ورد النهي عن الوصال في الصوم؛ لأن يضعف الجسد ويعجز عن العبادة.

وأما الشهوة: فعلى نوعين:

أحدهما: شهوة في الإكثار على مقدار الكفاية.

والثاني: شهوة في تناول الألوان الملذة.

فأما النوع الأول: وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة فهو ممنوع في الشرع والعقل؛ لأن تناول ما زاد على الكفاية نهم وشره مضر كما كان قدر الكفاية مندوباً إليه في العقل والشرع وقال بعض العلماء: الرغب لؤم، والنهم شؤم. قال الشاعر:

فكـم مـن أكلـة منعـت أخـاهـا بلـذة سـاعـة أكـلات دهـر
فكـم مـن طـالـب يسعـى لأمـر وفيـه هـلاكـه لـو كـان يـدري

[٢٥١] وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابن /آدم وعاء شر من البطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلثاً للطعام، وثلثاً للشراب، وثلثاً للريح»[1].

وأما النوع الثاني: وهو شهوة الأشياء الملذة وطلب الأنواع الشهية، فمذاهب الناس في ذلك مختلفة فمنهم من يرى أن صرف الناس عنها أولى ليذل له قيادها حتى لا تطغى؛ لأن شهواتها غير متناهية فإن أعطاها ذلك صار الإنسان أسير شهوات لا تنقضي، ومن كان كذلك لا يرج له صلاح وينشد لأبي الفتح البستي:

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني (٤/٢): رواه الترمذي وقال حسن، والنسائي، وابن ماجة من حديث المقداد بن معد يكرب.

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته لتطلب الربح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وروي أن أبا حازم كان يمر على الفاكهة ويشتهيها فيقول: موعدك الجنة. وقال آخرون: بل تمكين النفس من لذاتها أولى لما في ذلك من ارتياحها ونشاطها بنيل شهواتها فتخسر عنها لذة المقهور وبلادة المحصور فلا تقصر عن درك مأمول، ولا تكل عن استعانة في الأمور. وقال آخرون: بل توسط الأمرين أولى؛ لأن في إعطائها كل شهواتها سلاطة، والنفس السليطة معاندة، وفي منعها من جميع شهواتها بلادة، والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة، وهذا لعمري أشبه المذاهب بالسداد؛ لأن التوسط في الأمور أحمد والله أعلم.

ثم عليك أيُّها الطالب بالأدب في الأكل وإلاَّ كنت حمالاً للطعم، مضيّعاً للأيام، إذ علمنا يقينا أن العبادة لا يجيء منها شيء إذا امتلأت / المعدة وإن أكرهت النفس على ذلك فلا [٢٥٢] تكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك قيل: لا تطمع بحلاوة العبادة مع كثرة الأكل فأي نور في نفس بلا عبادة وفي عبادة بلا حلاوة.

ولهذا المعنى روي عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: صحبت أكثر رجال الله تعالى فكانوا يوصونني: إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع: قل لهم من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيراً لا يجد في عمره بركة، ومن يطلب رضى الناس فلا ينتظر رضى الرب تعالى، ومن يكثر الكلام بفضول وريبة فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام.

وقال بعض العلماء: جماع الخير كله في هذه الخصال الأربعة وبها صارت الأبدال[١] أبدالاً؛ إخماص البطون، والصمت، والاعتزال عن الخلق، وسهر الليل. وقال بعض الحكماء: جاهد نفسك بأنواع الرياضات، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض في المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأنام. فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات، من قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات.

فصل

فعليك أرشدك الله بمراعاة هذه الأعضاء الخمسة المشروحة في هذه الأبواب المتقدمة

(١) سبق أن تكلمت عن تعريف الأبدال.

وهي: القلب، واللسان، والعين، والسمع، والبطن، فاحترس عليها غاية الإحتراس، حتى لا توقعك في معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال، فإذا حصلت صيانة هذه الأعضاء فمرجو أن تكفي شر سائر الأركان من اليدين والرجلين؛ لأنهما تبع لهذه الأعضاء / .

[٢٥٣] / واحفظ اليدين من أن تضرب بهما أحداً ظلماً، أو تناول بهما مالاً حراماً، أو تلمس بهما ملموساً حراماً، أو تؤذي بهما أحد من الخلق أو تكتب بهما ما لا يحل النطق به؛ فإن القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم مما يجب حفظ اللسان منه.

وأما الرجلان فاحفظهما عن المشي بهما إلى حرام أو تسعى بهما إلى باب سلطان ظالم بغير ضرورة؛ لأن ذلك تواضع له وتكثير لسواده، وقد قال عليه السلام: «من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه»(١). هذا في غني صالح فما ظنك بغني ظالم.

وعلى الجملة فإن حركاتك وسكناتك بأعضائك عمل من أعمالها فلا تحرك شيئاً منها في معصية الله تعالى أهلاً واستعملهما في طاعة الله. واعلم أن العبادة شطران.

أحدهما: شطر اكتساب الخيرات.

والشطر الثاني: ترك السيئات وهي التقوى، فشطر اجتناب المعاصي والسيئات على كل حال أسلم وأصلح وأشرف من شطر اكتساب الطاعات. ولذلك قال العابد الثاني ليونس عليه السلام: يا يونس من الناس من حببت إليهم الصلوات فلا يؤثرون عليها شيئاً وهي عمود العدة بالنيات لله تعالى والصدق والتضرع والابتهال، ومنهم من حبب إليهم الصوم فلا يؤثرون عليه شيئاً، ومنهم من حببت إليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها شيئاً.

يا يونس وأنا مفسر لك هذه الخصال فاجعل صومك الصمت عن كل سوء، واجعل صدقتك كف الأذى فإنك لا تتصدق بشيء أفضل منه ولا تصم بشيء أزكى منه فإذا جانب الاجتناب للمعاصي أولى بالرعاية والاجتهاد فيه، فإن حصل لك الشطران جميعاً واكتساب الطاعات واجتناب المعاصي فقد استكمل أمرك، / وحصل مرادك، ولقد سلمت وغنمت، فإن [٢٥٤] لم تبلغ إلاَّ إلى أحدهما فليكن ذلك جانب اجتناب المعاصي فتسلم إن لم تغنم، وإلاَّ خسرت الشطرين جميعاً، فما ينفعك قيام الليل وتعبه ثم يحبط بإرادة واحدة، وما ينفعك صيام نهارك وتفسده بكلمة واحدة.

---

(١) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٣٤)، السيوطي في الدرر المنتثرة (١٥٧)، على القاريء في الأسرار المرفوعة (٣٤٩)، المغني في تذكرة الموضوعات (١٧٥).

ولقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قيل له: ما تقول في رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر والآخر قليل الخير قليل الشر؟ فقال: لا أعدل بالسلامة شيئاً.

ومثال ما قلناه حال المريض وذلك أن معالجة المرض صنفان: صنف هو الدواء وصنف هو الاحتماء إذا اجتمعا فكأنك بالمريض قد برىء وصحّ وإلاّ فالاحتماء به أولى، إذ لا ينفع دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء، وقد قال عليه السلام: «أصل كل دواء الحمية». والمعنى والله أعلم أنها تغني عن كل دواء وبالله التوفيق.

فصل

اعلم أن هذه القناطر الأربعة المتقدمة هي قناطر العوائق عن الله، وعن سلوك طريق الآخرة وهي الدنيا، والشيطان، والخلق، والنفس.

أما الدنيا: فحق لك أن تحذرها وتزهد فيها؛ لأن الأمر فيها لا يخلو من ثلاثة أوجه: إن كنت من أهل البصائر فحسبك أن الدنيا عدوة لله تعالى وهو حبيبك ووليك، وأن الدنيا نقيضة عقلك والعقل قيمتك.

وأما إن كنت من ذوي الهمم في عبادة الله تعالى والاجتهاد فيها فحسبك أن الدنيا بلغ من شؤمها ما يمنعك من إرادة العبادة فضلاً عن اكتسابها.

وأما إن كنت من أهل الغفلة، لا بصيرة لك بالحقائق، ولا همة لك تبعث على اكتساب المكارم، فحسبك / أن الدنيا لا تبقى إما أن تفارقها أو تفارقك كما قال الحسن: إن [٢٥٥] بقيت لك الدنيا لم تبق لها. فأيُّ فائدة إذاً في طلبها، وإنفاق العمر العزيز عليها؟ ولقد أحسن القائل:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ... أليس مصير ذاك إلى زوال
وما دنياك إلاّ مثل ظل ... أظلك ثم آذن بارتحال

فإذا نظرت بعقلك وعلمت أن الدنيا لا بقاء لها، وأن نفعها لا يفيء بضرها، وتبعاتها من كد البدن وشغل القلب في الدنيا، والعذاب الأليم والحساب الطويل في الآخرة، زهدت في فضولها ولا تأخذ منها إلاّ ما لا بد لك منه، لتستعين به على عبادة ربك وتدع التلذذ والتنعم إلى الجنة دار النعيم في جوار رب العالمين.

وأما الشيطان: فيكفيك منه ما قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

﴿الشَّيَاطِينِ﴾[1]. الآية فإذا كان الرسول عليه السلام مع معرفته بربه وعصمته من عدوه محتاجاً إلى أن يستعيذ من الشيطان، فكيف بك مع جهلك ونقصك وخبث الشيطان وتجرده لمعاداتك، فإذاً لا ينجيك منه إلاّ الاستعاذة بالله من مكائده والجد في طاعة الله ودوام ذكره.

فإن فعلت ذلك وأظهرت عزيمة الرجال يئس منك الشيطان قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءامَنُوا﴾[2]... الآية ولقد صدق أبو حازم حيث قال: ما الدنيا؟ وما إبليس؟ أما الدنيا: فما بقي فحلم وما مضى فأماني، وأما الشيطان: فوالله لقد أطيع فما نفع ولقد عصى فما ضر، والله أعلم.

[٢٥٦] **وأما الخلق**: فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقتهم في أهوائهم / أثمت وأفسدت أمر آخرتك، وإن خالفتهم تعبت بأذاياتهم وجفواتهم، وكدرت عليك أمر دنياك، ثم لا تأمن أن يلجئوك إلى معاداتهم فتقع في شرهم ولأنهم مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب، وإن دموك وحقروك أخاف عليك الحزن تارة، والغضب لغير الله أخرى فكلا الأمرين آفة مهلكة.

ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت في القبر ثلاثة أيام كيف يتركونك ويهجرونك وينسونك، فلا يكادون يذكرونك كأنك لم ترهم يوماً ولم يروك، فلا يبقى إلاّ الله سبحانه وصالح عملك. أفلا يكون من الغبن العظيم أن تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق مع قلة الوفاء منهم، وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى الذي إليه مصيرك، وبه حولك وتوفيقك، ولا يبقى لك إلاّ هو أبد الأبدين، فعوّل عليه يا مسكين في جميع حاجاتك، واتكل عليه في جميع أمورك، تجده أمامك، وعند جميع مهماتك، وبالله التوفيق.

وأما النفس: فحسبك منها ما تشاهده من حالاتها ورداءة إرادتها وسوء إختيارتها فهي في حال الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سبع، وفي حال المصيبة تراها طفيلاً، وفي حال النعمة تراها فرعوناً، وفي حال الجوع تراها مجنوناً، وفي حال الشبع تراها مختالاً، إن أشبعتها بطرت وإن جوعتها صاحت وجزعت، وهي كما قال الأول:

كحمـــار الســـوء أشبعتـــه ... رمـــح النـــاس وإن جـــاع نهـــق

فإياك أيها الرجل أن تغفل عنها فإنها كما قال خالقها العالم بها جلَّ جلاله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ

---

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩٧.

(٢) سورة النحل الآية: ٩٩.

[٢٥٧] لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[١]. وكفى بهذا تنبيهاً/ لمن عقل ولقد صدق القائل وأحسن:

تـوق نفسـك واحـذر مـن غـوائلهـا فالنفس أخبث من سبعين شيطاناً

فتنبه رحمك الله لهذه الخدّاعة الأمارة بالسؤ ووطن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب وتسلم، ثم عليك بإلجامها بالتقوى لا حيلة لها سواه. وقد قال القائل:

إنـي ابتليـت بـأربـع يـرمـونـنـي بـالنبـل مـن قـوس لهـا تـأثيـر
إبليـس والـدنيـا ونفسـي والهـوى أنـت يـا رب على الخلاص قـديـر

ونسأل الله خير مسؤول أن يمدنا بحسن التوفيق وأن يعيننا على سواء الطريق
فإنه الكافي لكل مهم وهو على كل شيء قدير
تمت قنطرة النفس بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه بمنه وكرمه[٢]

---

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣.
(٢) تناثر مضمون هذه القنطرة في إحياء علوم الدين من الجزء الأول إلى الرابع الأخير.

القنطرة الثانية عشرة
قنطرة العوارض

وفيها أربعة أبواب:

أحدها: باب الرزق وتطالب النفس به وكفايتها بالتوكل.

والثاني: باب الأخطار التي تخطر على القلب من شيء يخافه الإنسان أو يرجوه أو يريده أو يكره ولا يدري صلاحه في ذلك أو فساده وكفايتها بالتفويض.

والباب الثالث: باب المصائب والشدائد وكفايتها بالصبر.

والباب الرابع: القضاء من الله سبحانه بالخلق والأمر يرد عليه حالاً فحالاً، والنفس تسارع إلى السخط وكفاية هذا الباب بالرضى عند نزول القضاء. فهذه الأربعة هي العوارض التي تعترض الإنسان فتشغله عن العبادة، فالواجب عليه أن يسد سبيلها لئلا تشغله /عن [٢٥٨] مقصوده من عبادة الله سبحانه.

باب
في الرزق

اعلم يا أخي رحمك الله أن الله تبارك وتعالى قسم الأرزاق بين عباده على ما شاء من تدبيره، وأن القدر سيجري عليك بقسمك منه، ويوفيكه غير متزايد فيه، بحولك وقوتك، ولا منقص منه بضعفك وعجزك قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[(١)]. الآية. وقال تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّموات والأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[(٢)]..

وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءَ﴾[(٣)]...

---

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٢.

(٢) سورة الشورى الآية: ١٢.

(٣) سورة الشورى الآية: ٢٧.

الآية. وقال النبي ﷺ: «أن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، واتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوا شيئاً من فضل الله بمعصيته، فإنه لن ينال ما عند الله إلاّ بطاعة الله»[١].

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الجليل جل جلاله لما استوى على عرشه قال: عبادي أنتم خلقي، وأنا ربكم، أرزاقكم بيدي، فلا تتهموني بما تكفلت لكم، فاطلبوا إليّ أرزاقكم، وارفعوا إلي حوائجكم، فقضاءها بيدي، انصفوا من أنفسكم أصب عليكم أرزاقكم، عبادي: أنفقوا انفق عليكم، ووسعوا أوسع عليكم، فلا تضيقوا فأضيق عليكم، ولا تضروا أحداً فأضركم، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات، موصل إلى العرش، لا يغلق ليلاً ولا نهاراً، أنزل الرزق على كل امرىء بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته، من أكثر أكثر له ومن أمسك أمسك عنه».

ويقال: إن الله تعالى خلق الأرزاق قبل الأجسام بألفي عام ثم بسطها بين السماء والأرض / ثم أمر الرياح ففرقتها إلى مشارق الأرض ومغاربها، فروي عن النبي ﷺ أنه قال: «فمنكم من [٢٥٩] وقع رزقه في ألفي موضع ومنكم من وقع رزقه في خمسمائة موضع وغير ذلك».

وقال عليه السلام: «لو فر أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه الموت»[٢] وعن أبي حازم أنه قال: وجدت الدنيا شيئين فشيء منها هو لي فلن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض، وشيء منها هو لغيري فذلك ما لم أنله فيما مضى ولا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري منيِّ، ففي أيُّ هذين فني عمري، ووجدت ما أعطيت من الدنيا شيئين فشيء يأتي أجله قبل أجلي وأغلب عليه وشيء يأتي أجلي قبل أجله فأموت وأخلفه لمن بعدي ففي أي هذين أعصي ربي وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[٣].

فكما لا يخفى عليه أمرها فكذلك لا يضيعها في رزقها. وقد روي عن أنس بن مالك أنه قال: جئت يوماً إلى النبي ﷺ بماء ليتوضىء وطير على شجرة أعمى يضرب بمنقاره في الشجرة فقال النبي ﷺ: «يا أنس أتعرف ما يقول هذا الطائر؟» فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال عليه

---

(١) أطراف الحديث عند: الشهاب في مسنده (١١٥١، ١١٥٢)، البغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٠٤).
(٢) أطراف الحديث عند: الطبراني في الصغير (١/ ٢٢)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٣٦)، العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢٦٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧٢).
(٣) سورة هود الآية: ٦.

السلام: «يقول يا رب أنت خلقتني وسويت خلقتي وأعميت بصري وقد جعت فأطعمني». قال أنس: فما أتم النبي عليه السلام الكلام حتى جاءت جرادة إلى فم الطائر فأكلها ثم جعل يضرب بمنقاره على الشجرة، فقال النبي عليه السلام: «يا أنس أتدري ما يقول؟» قلت: الله ورسوله [٢٦٠] أعلم. قال: «يقول الطائر: ومن يتوكل على الله / لا ينساه». وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1]. قيل: المطر، وقيل: مكتوب في السماء رزق فلان كذا وفلان كذا. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾. قيل: من خير وشر مكتوب في السماء. وقيل: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني الجنة. ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[2].

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية اشتمل قوم من أصحاب النبي ﷺ على سيوفهم فقالوا: يا رسول الله من هذا الذي ضمن الله له رزقه فلم يرض به حتى أقسم له بنفسه دلنا عليه. قال: «وما تصنعون به؟» قالوا: نضربه بسيوفنا. وعن الأصمعي أنه قال: خرجت ذات يوم من مسجد البصرة إذ طلع عَلَيَّ أعرابي حافياً متقلداً بسيفه. فقال لي: من الرجل؟ قلت: من بني الأصمعي. قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الله. قال: أولله كلام يتلوه الأدميون؟ قلت: نعم. قال: اتلي عليَّ منه. فابتدأت بالذاريات حتى بلغت. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. فقال: يا أصمعي هذا كلام ربي. فقلت: أي والله. فقال: حسبك، فمال إلى ناقته فنحرها وقسَّم لحمها وكسر سيفه وولّى وهو يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. فقضى الله لي الحج مع هارون الرشيد، فبينما أنا أطوف إذ أنا بالأعرابي مصفر اللون فسلم علي فأجلسني، فقال: اتل علي ما كنت تتلوه، فعرفته حتى بلغت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ...﴾[3] الآية. فصاح فقال: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً يا أصمعي، هل غير هذا؟ فقلت: نعم: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرْضِ إِنَّه لَحَقٌّ...﴾[4] الآية. [٢٦١] فصاح الأعرابي فقال: من ذا الذي أغضب الجليل جل جلاله حتى / أقسم، وخرجت نفسه. وكان يقال: من لم يقنع برزقه عذب نفسه وأنشدوا:

على آيـة أقتـل النفـس هـم وقــد قســم الله رزق الأمــم
وأقســم فــي ســورة الــذاريــات علـى الـرزق مـن ليـس بـالمتهم

(١) سورة الذاريات الآية: ٢٢.
(٢) سورة الذاريات الآية: ٢٣.
(٣) سورة الذاريات الآية: ٢٢.
(٤) سورة الذاريات الآيتان: ٢٢، ٢٣.

فمـن كـان فـي ظلمـات ثـلاث   فـلا بـد للـرزق يـأتيـه ثـم
الأكـل مـا كـان أو مـا يكـون   فقـد جـف عنـه مـداد القلـم

فإذا كنت يا أخي تعرف ربك وتعرف عدله، فلا تتهمه في رزقك، فلا يحملنك الحرص وضيق النفس على أن تستبطىء رزقه وفضله، فإنه لا يدعك حتى يأتيك بما قسم لك من حيث لا تعلم. وروي عن موسى عليه السلام أنه قال في مناجاته: إلٰهي إني جائع، فأوحى الله إليه: إني أعلم بذلك يا موسى. قال إلٰهي فأطعمني. قال: حتى أريد. قال تعالى: ﴿الله يَبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[1]. فدلنا تعالى بهذه الآية على التوكل والثقة، فلتسكن يا أخي من اضطرابك، ودع حيلتك، وسل من بيده البسط أن يوسع عليك وأنشدوا:

جـرى قلـم القضـاء بمـا يكـون   فسيَّـان التحـرك والسكـون
جنـون منـك أن تسعـى بـرزق   ويـرزق فـي غشـاوتـه الجنيـن

ويروى أن هرم بن حيان قال لأويس القرني[2] رحمه الله: أين تأمرني أن أكون؟ فأومى إلى الشام. فقال هرم: كيف المعيشة بها؟ قال أويس: أف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة، فعليك يا مسكين بطلب الأرزاق ممن تكفل لك بها، ولا تطلبها من طالب مثلك لا ضمان عليه وإن وعدك أخلفك. وأنشدوا لعلي بن أبي طالب:

/ أتطلـب رزق الله مـن عنـد غيـره   وتصبـح مـن خـوف العـواقـب آمنـا [٢٦٢]
أتـرضـى بصـراف وإن كـان مشـركـاً   ضمينـاً ولا تـرضـى بـربـك ضـامنـا
كـأنـك لـم تعـرف بمـا فـي كتـابـه   فـأصبحـت مـدخـول اليقيـن مباينـا

---

(١) سورة الرعد الآية: ٢٦.

(٢) هو: هَرِمُ بن حيان العبدي ويقال: الأزدي البصري أحد العابدين.. ولي بعض الحروب في أيام عمر، وعثمان ببلاد فارس، قال ابن سعد: كان عاملاً لعمر، وكان ثقة له فضل وعبادة، وقيل: سمي هَرِماً لأنه بقي حملاً سنتين حتى طلعت أسنانه: قال أبو القاسم بن عساكر: قدم هرم دمشق في طلب أويس القرني.
عن سعدويه عن يوسف ابن عطية حدثنا المعلي بن زياد قال: كان هَرِم يخرج في بعض الليل وينادي بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها؟! وعجبت من النار كيف نام هاربها؟! ثم يقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً﴾ [الأعراف: ٩٧]. قاله الذهبي في سير الأعلام (٤/٤٨).
أما أويس القرني فهو: القدوة الزاهد سيد التابعين في زمانه أبو عمرو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني، وقرن بطن من مراد، وفد على عمر، وروي قليلاً عنه وعن علي... وأخبار أويس مستوعبة في تاريخ الحافظ ابن عساكر... قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/١٩). قلت: وترجمته جليلة طويلة مفيدة ذكرها الذهبي في سيره فراجعها إن أحببت (٤/١٩ : ٣٣).

فصــل

وقال أهل العلم: إن الرزق ينقسم على أربعة أقسام: مضمون، ومقسوم، ومملوك وموعود.

فالمضمون: هو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الأسباب، فالضمان من الله تعالى لهذا النوع والتوكل يجب بإزائه بدليل العقل والشرع على ما سيأتي إن شاء الله بيانه؛ لأن الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد به خلل البنية لتقوم بما كلفنا. وروي عن بعض مشايخ الكرامية: أن ضمان أرزاق العباد واجب في حكمة الله تعالى لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه السيد ونحن العبيد وعلى السيّد مؤنة كفاية العبيد كما أن على العبد خدمة السيّد.

الثاني: أنه إنما خلقهم محتاجين إلى الزرق ولم يجعل لهم سبيلاً إلى طلبه إذ لا يدرون ما هو رزقهم؟ وأين هو؟ ومتى هو ليطلبوه بعينه من مكانه في وقته ليصلوا إليه فوجب أن يكفيهم أمر ذلك ويوصلهم إليه.

والثالث: أنه كلفهم الخدمة وطلب الرزق شاغل عنها فوجب أن يكفيهم المؤنة ليتفرغوا للخدمة، والقائل بالوجوب على الله مخطىء إلاّ أن أراد أن ذلك واجب في جوده وكرمه فنعم[1] والله أعلم.

وأما الرزق المقسوم: فهو ما قسم الله سبحانه وكتبه في اللوح المحفوظ من جميع ما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدر ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر عما كتبه / بعينه. قال عليه السلام: «الرزق مقسوم مفروغ، منه، ليس تقوى تقي يزايده، ولا فجور فاجر يناقصه»[2]. [٢٦٣]

وأما الرزق المملوك: فهو ما يملكه الإنسان من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسّم له أن يملكه، وهو من رزق الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾[3]. أي مما ملكناكم.

---

(١) قلت: هذا تعليق طيب من المؤلف رحمنا الله وإياه يدل على صحة عقيدته وعدم شططه أو غلوه في بعض المسائل العقائدية.

(٢) نحو هذا الطرف عند: العجلوني في كشف الخفا (١/٥١٧)، والقيسراني في تذكرة الموضوعات (١٠٦١).

(٣) سورة المنافقون الآية: ١٠.

وأما الموعود: فهو ما وعد الله تعالى للمتقين من عبادة بشرط التقوى، حلالاً من غير كدّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾(١). فهذه أقسام الرزق والتوكل، إنما يجب بإزاء المضمون منها فاعلم ذلك وبالله التوفيق.

فصل: في التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيْراً﴾(٢). قيل: قرأ بعض العلماء بهذه الآية فقال: ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الله فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(٣). وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليّ الأمم فجعل النبي والنبيون يمرون ومعهم الرهط والنبي ليس معه أحد حتى رفع إلى سواد عظيم فقلت: ما هذا؟ هذه أمتي؟ قيل: هذا موسى وقومه، قيل لي: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، فقيل لي: هذه أمتك، ويدخل الجنة مع هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب تضيء وجوههم إضاءة القمر». ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم فقالوا: نحن الذين آمنوا واتبعوا رسوله فنحن هم، أو أولادنا؟ ولدوا على الإسلام فإنّا ولدنا في الجاهلية. وفي حديث آخر: فقال بعض المسلمين: نحن قد ذقنا الشرك، وربما هؤلاء الأنبياء ومن يأتي من بعد من أبنائنا، فبلغ ذلك النبي / ﷺ فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، [٢٦٤] وعلى ربهم يتوكلون»(٤). وقال عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(٥). من توكل عليه كفاه كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله تعالى إليها. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: سأل بعض الحكماء من أين تأكل؟ فقال: ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟ وقال رجل لأعرابي في فلاة: من أين معيشتك؟ فقال: لو كنا لا نعيش إلاّ من حيث نعلم لطال جوعنا. وكان يقال: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً.

وقال: دخل جماعة إلى بعض الزهاد فقالوا: نطلب الرزق؟ فقال: إن علمتم أين هو فاطلبوه. فقالوا: نسأله؟ فقال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه. وقالوا: ندخل البيت فنتوكل؟

---

(١) سورة الطلاق الآية: ٢، ٣.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٥٨.
(٣) سورة المائدة الآية: ٢٣.
(٤) عن نحو هذا الحديث العراقي في المغني (٤/ ٥٣١): رواه البخاري.
(٥) قال العراقي في المغني (٤/ ٢٣٩): رواه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر.

قال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وعن أويس القرني[١] رحمه الله قال: لو عبدت الله تعالى بعبادة أهل السموات وأهل الأرض لما تقبل منك حتى تصدقه. قيل: فكيف نصدقه؟ قال: تكون آمناً بما تكفل الله به من أمر رزقك ويرى جسمك فارغاً لعبادته.

ويروى أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فلما بلغ أصابته آفة، فاشتد ذلك عليهم حتى رىء فيهم فخرجت أعرابية منهم فقالت: ما لي أراكم جلوساً مغيرة ألوانكم ميتة قلوبكم، هو ربنا فليفعل بنا ما شاء وليرزقنا من حيث شاء ثم قالت:

لو أن في صخرة في البحر راسية صماءُ ململمةٌ ملساءُ نواحيها
رزقنا لنفس براها الله لانفلقت حتى تؤدّي إليها كل ما فيها
[٢٦٥] / أو كان بين طباق السبع مسلكها لسهل الله في المرقى مراقيها
حتى تنال الذي في اللوح خط لها فإن أتته وإلاّ سوف يأتيها

وعن سعيد بن جبير أنه قال: التوكل جماع الإيمان.

فصل

اعلم أن التوكل محله القلب ومعناه مأخوذ من قولك: توكل فلان على فلان وهو أن يتخذه بمنزلة الوكيل القائم بأمره. وحقيقة التوكل هو سكون القلب في ضمان الرب، وهو أن تعلم أن الله تعالى لم يترك أمراً مهملاً بل فرّغ من الأشياء وقدرها، وإن اختلف منها شيء في المعقول، أو تشوش في المحسوس، أو اضطراب في المعهود، فهو المدبر وشأنه سوق المقادير إلى المواقيت.

فحقيقة التوكل يرجع إلى أصل واحد وهو أن تعلم أن الله تعالى ضامن لما تقوم به بنيتك، مقدّر لما يجري عليك فتوطن نفسك على ذلك، وتريح قلبك من التعلق إلى غيره.

وأما حصن التوكل الباعث عليه فهو ذكر ضمان الله تعالى، وحصن حصن التوكل ذكر عظمة الله وكماله ونزاهته عن الخلف والسهو والعجز، فإذا واظب القلب على هذه المعاني بعثته على التوكل على الله تعالى في أمر الرزق؛ لأنه تعالى قرن الرزق بالخلق فقال: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾[٢].

---

(١) سبق أن ترجمت له ترجمة مختصرة قبل قليل.

(٢) سورة الروم الآية: ٤٠.

فدلّ أن الرزق منه تعالى لا غيره كالخلق، ثم لم يكتف بالأدلة حتى وعد فقال: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[١]. ثم لم يكتف بالوعد حتى ضمن فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾[٢]. ثم لم يكتف بالضمان حتى أقسم فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[٣]. ثم لم يكتف بذلك كله حتى أمر بالتوكل فأبلغ وأنذر فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾[٤].

فمن لم يعبأ بقوله ولم يكتف بوعده ولم يطمئن / لضمانه، ولم يقنع بقسمه، ثم لم يبال [٢٦٦] بأمره ووعده ووعيده، فانظر ماذا يكون حاله، فهذه والله محنة عظيمة ومصيبة جسيمة وقد قال الحسن: لعن الله أقواماً أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه.

ويروى أن الملائكة قالت عند نزول هذه الآية: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ الآية. هلكت بنو آدم أغضبوا ربهم حتى أقسم لهم على أرزاقهم والله أعلم وأحكم.

مسألة

اعلم أن الجاهل قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، والتدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجاهل، وذلك حرام في الشرع؛ لأنه قد أثنى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بارتكاب محرماته بل نكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وذلك محصور في أربعة أوجه:

أحدها: إما أن يكون لجلب نافع مفقود يحصله بالكسب، أو لحفظ موجود عنده يصونه بالإدخار، أو لدفع ضر لئلا ينزل به: كاللص والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به: كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعد وهذه الوجوه.

وإما جلب نافع: فيكون على ثلاثة أوجه:

أحدها: مقطوع به مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها، بتقدير الله عز وجل ارتباطاً مطرداً لا يختلف مثل الطعام الموضوع بين يدي الجائع المحتاج إليه، فلا يمد اليد إليه فيقول:

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٨.
(٢) سورة هود الآية: ٦.
(٣) سورة الذاريات الآية: ٢٣.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٥٨.

أنا متوكل. وشرط التوكل ترك السعي ومد اليد سعي وحركة، وكذلك مضغه بالأسنان فهذا جنون، وليس من التوكل في شيء فإنه إن انتظر أن يخلق الله فيه شبعاً دون أكل الخبز، ودون أن يتحرك إليه، أو انتظر أن يسخر /له ملكاً يمضغ له فقد جهل سنة الله في البلاد والعباد، [٢٦٧] وكان بمنزلة من طمع في الزرع بغير بذر ولا حرث، وطمع في الولد بغير جماع زوجة وأمثال هذا مما يكثر فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم.

وأما العلم فهو أن يعلم أن الله خالق الطعام واليد وأنه الذي يطعمه ويسقيه. وأما الحال فيكون سكونه واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام إذ تجف اليد ويسلب الطعام في الحال، فإذا كان هكذا علمه وحاله فليمد اليد إليه فإنه متوكل.

والوجه الثاني: الأسباب التي ليست متعينة لكن الغالب أن المسبب لا يحصل دونها كالذي يسافر في البادية بغير زاد فهذا متوكل بشرطين.

أحدهما: أن يكون قد راض نفسه على الصبر على الطعام أسبوعاً أو ما قاربه.

والثاني: أن يكون بحيث يتقوت بالحشيش أو الأشياء الخسيسة. فبين الوجهين فرق، لأنه في هذا الوجه يحتمل أن يجد طعاماً أو ينتهي إلى محلة أو قرية، والوجه الأول أن يتحرك الطعام ممضوغاً في فيه فبينهما فرق ولكن الثاني قريب من معنى الأول.

وقد روي أن زاهداً أقام في جبل أسبوعاً وقال لا أسأل أحد فأوحى الله إليه فوعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، ففعل فأتاه الناس بالطعام فأوحى الله إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك أما علمت أني أرزق عبدي على أيدي عبادي أحب إليّ أن أرزقه بيد قدرتي.

ولذلك قال بعض العلماء: لو انحاز إليّ جبل لا ماء فيه ولا حشيش ولا يطرقه إنسان وجلس فيه متوكلاً لكان آثماً مساعياً في إهلاك نفسه. فلما كان الأمر على ما وصفنا، كان التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة، فالأول /متوكل بالحال والعلم، والثاني متوكل [٢٦٨] بالحال والعلم والشرط إذ يمكن أن يؤخذ الزاد من صاحبه فيموت جوعاً والله أعلم.

الوجه الثالث: القاعد في مسجد قرية تاركاً للكسب فهذا متوكل ولكنه أضعف من الأول؛ لأنه بالقعود في المصر متعرض لأسباب الرزق ولكن هذا لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى مسخر سكان البلد لا إلى الساكن في البلد والله أعلم.

وكما روي أن عابداً كان بالحرم، وكان رجل يأتيه كل يوم بقرصيتن يفطر عليهما ولا

يشتغل بغير الله عز وجل فقالت له نفسه: يا هذا أسكنت إلى هذا المخلوق ونسيت رازق المخلوقين والله ليرزقنك على يد غيره، ما هذه الغفلة وما هذا السكون لغير الله تعالى، فبينما هو يعاتب نفسه فإذا هو بالرجل قد أتاه بالقرصتين فردهما عليه وانتهره وبقي العباد ثلاثة أيام لمن يفتح عليه بقوت، فشكى ذلك إلى الله تعالى فرأى في منامه كأنه واقف بين يدي الله، فقال له: عبدي لم رددت عبدي بما أرسلته به إليك. فقال: يا رب بما قام في نفسي من السكون إلى غيرك. فقال: عبدي من أرسله إليك؟ قال: أنت يا رب. قال: فأنت ممن تأخذه؟ قال: منك يا رب. قال: فخذ لا تعد. فنام الرجل الذي يأتيه بالقرصتين فرأى كأنه واقف بين يدي الله تعالى، فقال له: لم قطعت عن عبدي القرصتين؟ فقال: يا رب ردهما عليّ وانتهرني. قال: لمن كنت تعطي؟ قال: لك يا رب. قال: فمر على عادتك وثوابك الجنة.

الوجه الرابع: أن يكتسب على الوجه المباح في الشرع يرى كسبه وبضاعته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الكاتب، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك الكاتب بماذا يتحرك / وإلى ماذا يميل فإذا كان هكذا فهو ببدنه مكتسب، وبقلبه عنه منقطع [٢٦٩] فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما تقدم.

وقد قال بعض علماء السلف: التوكل بالقلب والاكتساب بالبدن، فإذا اكتسبت ببدنك، واتكلت على الله بقلبك فأنت متوكل، وإن تركت العمل ببدنك واشتغل قلبك بالخلق فلست بمتوكل وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله في باب القدر.

وأما حفظ الموجود الذي في أيدي الإنسان بالصيانة والإدخار: فإنه إن استوثق بما في يده وظن أنه لا يزول ولا يفارقه فهذا اتكال على غير الله.

وأما إن اتكل على هذا وأيقن أنه من عند الله وهو قادر على إزالته وذهابه ولم يمنع حقاً من حقوقه فهذا اتكال على الله.

ويقال: من ضعف اليقين الإستيثاق بما في يده دون ما في يد الله.

وقيل أيضاً: الثقة بالموجود سوء ظن بالمعبود والله أعلم.

وأما دفع ضار لم ينزل به من لص أو سبع أو غير ذلك من جميع المضار من الحر والبرد وغيرهما: فإن ذلك أمر مأمور به في الشرع قال الله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ. . . .﴾[1] الآية.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧١.

وقد روي: أن النبي ﷺ ظاهر بين ذرعين، واتخذ خندقاً حول المدينة ليحترس به من العدو، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لامة الحرب، وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...﴾[1] الآية.

وأما إزالة ضار قد نزل به: كالتداوي من المرض، فذلك مباح في الشرع أيضاً فقد روي أن النبي ﷺ أمر بالمداوات وقال: «إن الذي أنزل الداء / أنزل الدواء»[2]. [٢٧٠]

ويقال أنه عليه السلام شرب السناء بالتمر، واستعاط بالسمسم. وقال: «عليكم[3] بالحبة السوداء فإنها شفاء من كل داء إلاَّ السام» يعني الموت.

ويروى أن موسى عليه السلام قال: ممن الداء؟ قال: مِنِّي. قال: فممن الدواء؟ قال: مِنِّي. قال: فما ينفع الأطباء؟ قال: يطيبون نفوس عبادي.

فهذه الأخبار تدل على إباحة التداوي وإزالة المضار إذا كان نظر الإنسان إلى رب الدواء يتوقع الشفاء والفَرَجُ من عنده لا إلى الدواء في نفسه أنه ينفع العلاج به أو يضر تركه والله أعلم.

فإن قيل: أليس قد روي أن النبي ﷺ قال: «من استرقى واكتوى فقد برىء من التوكل»[4].

قلنا: أليس قد ظاهر بين ذرعين وشرب الدواء وسائر ما ذكرناه آنفاً؟ فإن قيل: فما المخرج؟ قيل قال بعض العلماء: من استرقى أو اكتوى متوكلاً على الرقية والكي وأن البرء من قِبَلهما خاصة فهذا يخرجه من التوكل ويلحقه برتبة الكفر إذا كان يضيف الحوادث إلى غير الله.

وأما من آمن بمسبب الأسباب، وخالق الأدوية، وتعاطى المداوات بها على ما جرت عادة الله تعالى في خلقه غير معتمد على شيء من تلك الأسباب بل هو واثق القلب أن ما حصل من ذلك فبتيسيره وما تعسّر فبتقديره، فهذا متوكل على الله بشرط أن يسلك في جميع ذلك طريق الشرع والطاعة ولا يسلك طريق المعصية والمخالفة، وبالله التوفيق.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

(٢) نحو هذا الطرف عند: أحمد في المسند (١/٤٤٣)، الحاكم في المستدرك (٤/١٩٧)، البيهقي في السنن الكبرى (٩/٣٤٣)، الطبراني في الكبير (١/١٤٨)، ابن أبي شيبة في المصنف (٧/٣٦٠) والزيلعي في نصب الراية (٤/٢٨٣).

(٣) طرفه عند أحمد في المسند (٢/٥١٠)، (٦/١٣٨).

(٤) طرف الحديث عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/٣٨٩).

الباب الثاني
بـاب الأخـطار

التي تخطر على القلب من شيء يخافه الإنسان أو يرجوه أو يريده أو يكرهه، ولا يدري فساده في ذلك أو صلاحه، فإن عواقب الأمور مبهمة فيشتغل قلبه بذلك، فإنه ربما يقع في فساد أو مهلكة، وتلك الأخطار في الجملة على وجهين:

أحدهما: خطر الشك بأنه يكون أو لا يكون، أو أنك تصل إليه أو لا تصل إليه، وهذا يحتاج إلى الاستثناء، أو يقع في باب النية والأمل، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[١].

وأصل الاستـثناء رد المشيئة إلى الله تعالى، مثل قولك: إن شاء الله، وإن أراد الله، أو إن قدر الله، أو إن كان ذلك في علم الله، أو إن كان ذلك في اللوح المحفوظ، وترك الاستـثناء ذنب من الذنوب، وذلك إن قال: أنا فاعل هذا غداً.

وأما إن قال: أنا فاعل بعد غداً وجميع الأوقات المستقبلية غير غد ففيه قولان، والذي ينبغي للإنسان أن يعتمد في ذلك على الله ويستخيره قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[٢].

وعن جابر قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علاّم الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني، واصرفني عنه، وقدِّر لي الخير حيث كان وارضني به، ويسمي حاجته»[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «من سعادة ابن آدم استخارته الله».

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠.
(٣) قال العراقي في المغني ٢٠٧/١: حديث صلاة الاستخارة ـ رواه ـ البخاري من حديث جابر قال أحمد حديث منكر.

[٢٧٢] **والوجه الثاني**: / خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك وهو الذي يحتاج فيه إلى التفويض.

ثم اختلفت عبارة العلماء في الخطر، فقال بعضهم: الخطر في الفعل هو أن تكون دونه نجاة ويمكن أن يجامعه ذنب، فأما الإيمان وإتباع السنة والاستقامة على ذلك فلا خطر فيها إذ لا تمكن دونه، الإيمان نجاة والاستقامة لا يجامعها ذنب فإذا تصح إرادة الإيمان والاستقامة بالحكم.

وقال آخرون: الخطر في الفعل الأولى هو ما يمكن أن يتعرض فيه ما يكون الاشتغال بالعوارض أولى من الإقدام على ذلك الفعل، وذلك يقع في: المباحات، والسنن، والفرائض.

ألا ترى أن من يضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها فقصد حريق أو غريق يمكن إنقاذه، فالاشتغال بإنقاذ النفس من الحريق والغريق أولى من الإقبال على صلاته فلا تصح إذاً إرادة المباحات والسنن وكثير من الفرائض بالحكم والله أعلم.

فصل

فالواجب على العبد أن يستكفي عارض الأخطار بتفويض الأمر كله إلى الله تعالى قال الله سبحانه حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى ٱللَّهِ﴾[(١)] الآية.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَوَقَاهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ....﴾[(٢)] الآية.

وقال عليه السلام لابن مسعود: «ليقل همك، ما قدر أتاك وما لم يقدر لا يأتيك».

وقوله: «ليقل همك». أمر له بالتفويض. ويُنشد:

ما قد قضى سيكون فاصطبري له ... ولك الأمان من الذي لم يقدر
كي تعلمي أن المقدر كائن ... لا بد منه صبرت أو لم تصبري

فعليك بتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وذلك لأمرين:

[٢٧٣] **أحدهما**: /للطمأنينة في القلب في تلك الحالة فإن الأمور إذا كانت خطرة مبهمة العواقب لا يدري صلاحها من فسادها فمن لم يطمئن قلبه بتفويض الأمر إلى مالكه فإنه يبقى

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٥.

مضطرب البال مختل الحال فإذا فوض الأمر إلى الله تعالى اطمأن قلبه وأمن من الخطر وارتاح، وقد قال بعض السلف: دع التدبير إلى من خلقك تسترح.

ويروى أن الله سبحانه أوحى إلى داود عليه السلام: تريد وأريد ولا يكون إلاَّ ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلاَّ ما أريد. وُينشد:

يريد العبد أن يؤتى مناه ويأبى الله إلاَّ ما أراد

يقول العبد فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفاد

والثاني من الأمرين: حصول الصلاح والخير في الاستقبال؛ وذلك لأن الأمور بالعواقب مبهمة، فكم من شر في صورة خير، وكم من ضر في صورة نفع، وكم من سم في هيئة شهد، وأنت الجاهل بالعواقب والأسرار، فإذا أردت الأمور قطعاً وأخذت فيها باختيارك متحكماً فما أسرع ما تقع في هلاك وأنت لا تشعر.

ولقد حكي أن بعض العباد كان يسأل الله أن يريه إبليس اللعين، فقيل له: سل الله العافية، فأبى إلاَّ ذلك فأظهره الله تعالى، فلما رآه العابد قصده بالضرب، فقال له إبليس: لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك وعاقبتك، فاغتر بقوله وقال في نفسه: إن عمري بعيداً أفعل ما أريد ثم أتوب، فوقع في الفسق فترك العبادة فهلك.

ففي هذا ما ينهيك عن ترك التحكم في إرادتك واللجاج في مطلوبك.

وأما إذا فوضت الأمر إليه تعالى وسألته أن يختار لك ما هو صلاحك لم تلق إلاَّ السداد والخير / إن شاء الله تعالى. [٢٧٤]

ثم إذا استخرت ربك وفوضت إليه أمرك فلا تتهمه فيما اختار لك وإن كان مكروهاً عندك، فَرُبَّ خير في صورة شر، ومحبوب في صورة مكروه، وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1].

وفي قصة الخضر مع موسى عليه السلام في سورة الكهف ما يدلك على ما ذكرناه: من خرق الخضر سفينة المساكين، وقتل الغلام، وتسوية الجدار، وإنكار موسى عليه السلام ذلك عليه بظاهر الأمر، حتى فسّر ذلك الخضر عليه السلام، قال الله تعالى حكاية عن العبد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الصالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِ. . .﴾[١] إلى آخر الآية.

أما ترى كيف أعقبه ذلك من الأسواء والنصرة على الأعداء والله أعلم.

فصل

فإن قيل بيّن لنا موضع التفويض، ومعناه، وحده، وضده قيل له:

أما موضعه: فاعلم أن المراد ثلاثة: مراد يعلم يقيناً أنه فساد وشرك النار والعذاب، وفي الأفعال كالكفر والمعاصي فلا سبيل إلى إرادة ذلك.

الثاني: مراد يعلم قطعاً أنه صلاح كالجنة والإيمان والطاعة فلك إرادتها بالحكم لا موضع للتفويض فيه إذ لا خطر فيه ولا شك لك أنه صلاح وخير.

الثالث: مراد لا يعلم يقيناً أنه صلاح لك أو فساد وذلك نحو: النوافل والمباحات فهذا موضع التفويض فليس لك أن تريدها قطعاً بل باستثناء وشرط الخير والصلاح فإن قيدت إرادتك بالاستثناء فهو تفويض، وإن أردت ذلك بغير استثناء فهو طمع مذموم منهى عنه، فموضع الاستثناء إذا كل مراد فيه الخطر وهو أن لا تستيقن صلاحك فيه.

[٢٧٥ب] **وأما معنى التفويض:** فقد اختلفت فيه / عبارات العلماء فقال بعضهم: معناه ترك اختيار ما فيه الخطر إلى اختيار المدبر العالم بمصلحة الخلق.

وقال آخرون: هو ترك الطمع والطمع هو إرادة الشيء المخاطر بالحكم.

وقيل التفويض هو إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر.

وأما ضد التفويض على هذا المعنى: فهو عندهم الطمع، والطمع عندهم في الجملة يجري على وجهين:

أحدهما: في معنى الرجاء تريد شيئاً لا خطر فيه أو فيه خطر فتريده بالاستثناء وذلك ممدوح قال الله تعالى: ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾[٢]، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾[٣].

والثاني: إرادة الشيء بمخاطرة بالحكم، قال: وهذه الإرادة تقابل بالتفويض والله أعلم.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٤.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥١.

وينشد:

أبــى الله إلاّ مــا أراد وقــدرا	وإن بيـت الإنسـان رأيـاً ودبـرا
يـريـد الفتـى قصـدا بعـزم ونية	فتصـرفـه الأقـدار عنـه ومـا درا
فكـم مـركـب فـي البحـر لبلـدة	فدارت به الأرياح دورا إلى أخرى
وكـم آخـذ نهـج اليميـن بعـزمـه	فقـادتـه إنفـاذ المقـاديـر لليسـرا
ففوض إلى الرحمن قصدك كله	والـق إليـه فـي عـزائمـك العـرا

الباب الثالث

باب المصائب والصبر

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ....﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(١). اعلم أن الله تعالى أخبر المسلمين في هذه الآية أنه سيبتليهم بأنواع البلايا فأمرهم بالصبر لأن الصبر هلاك كل فضيلة وبه ينال كل خير ومكرمة، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾(٢). ويقال: إن الله سبحانه ذكر الصبر في كتابه في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾(٤) فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾(٥)، ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٦).

فمن أمارات حسن التوفيق وعلامة السعادة الصبر في الملمات والرفق في الأمور وقد جمع الله للصابرين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٧).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين. يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالرحمة الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على ظهر البعير.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مصيبة وإن عظمت إلاّ والصبر خير منها».

وسئل عليه السلام عن الإيمان؟ فقال: «الصبر والسماح»[١]. وفسر ذلك بعض العلماء فقال: الصبر لله على طاعته، والسماح لله بفرائضه. وقال عليه السلام: «الصبر كنز من كنوز الجنة»[٢]. وقال عليه السلام: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»[٣].

وقال عليه السلام: «الصبر نصف الإيمان»[٤]. وقال عليه السلام: «أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أُعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرىء منكم بما عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا، فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب / ظفر بكمال آية» ثم قرأ: «﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ...﴾[٥]»[٦] الآية. [٢٧٧]

وقال عليه السلام لابن عباس: «اعمل على الرضى واليقين وإلاّ ففي الصبر على ما تكره خير كثير».

وقال عيسى عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلاّ بالصبر على ما تكرهون، وقال عليه السلام: «لو صبر رجلاً لكان كريماً، والله يحب الصابرين»[٧].

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: بني الإسلام على أربع دعائم؛ اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل.

---

(١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٤/٣٨٥)، وابن أبي شيبة (١١/٣٣)، الربيع بن حبيب في المسند (٣/٦)، ابن حجر في المطالب (٣/٢٢).

(٢) قال العراقي في المغني (٤/٦٠) غريب لم أجده.

(٣) لا أصل له مرفوعاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس، قاله العراقي في المغني (٤/٦١).

(٤) رواه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٦) قال العراقي في المغني (٤/٦٠): لم أجده هكذا بطوله.

(٧) رواه الطبراني في الكبير من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي. قاله العراقي في المغني (٤/٦١).

وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له.

وعن أبي الدرداء قال: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضى بالقدر.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب».

وقال علي بن أبي طالب: الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو.

وقال بعض العلماء: لم أسمع بأعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت، وعن عبد الله بن عباس أنه قال: أفضل العدة الصبر على الشدة.

وقيل في منثور الحكم: من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً. ويُنشد لعبيد الله الأبرص:

اصبر النفس عند كل ملم ... إن في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن بالأمور فقد ... يكشف غماءها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الأ ... مر له فرجه كحل العقال

وقال بعض البلغاء: إن لكل شيء ثمرة وثمرة الصبر الظفر.

وروي أن ابن المقفع قال في كتاب التميمة الصبر صبران فاللئام أصبر أجساماً والكرام أصبر نفوساً، وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل، لأن هذا من صفة / الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللأمور محتملاً ولجأشه عند [٢٧٨] الغضب مرتبطاً وبالله التوفيق.

بيان الأسامي التي تتخذ للصبر: اعلم أن الصبر ضربان:

ضرب بدني: كتحمل المشاق والثبات عليها من أعمال الطاعة وغيرها أو بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض وغيرهما وقد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

والضرب الثاني: الصبر النفسي وهو ضبط النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى وهذا هو الصبر التام المحمود، ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان احتمال مكروه فإن أساميه عند الناس مختلفة كاختلاف المكروه الذي عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق دواعي الهوى في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، وإن كان في

احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضادده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ سمي حلماً ويضادده التذمر، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضادده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء الكلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوماً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضادده الحرص، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضادده الشره، فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

فلذلك لما سئل النبي عليه السلام مرة عن الإيمان فقال: «هو الصبر»[١]. لأن أكثر أعماله وأعزها كما قال: «الحج عرفة»[٢].

[٢٧٩] وقد جمع الله / أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ﴾[٣]. أي في المصيبة. ﴿وَٱلضَّرَّاءِ﴾[٤]. أي الفقرا. ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[٥]. أي في القتال والحرب. ﴿أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟.... ﴾[٦] الآية.

فإذاً هذه أقسام الصبر بجميع متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أن هذه أحوال مختلفة في أذواتها وحقائقها من حيث رداء الأسامي مختلفة، والذي ينظر بنور الله تعالى ينظر المعاني أولاً فيتطلع على حقائقها، لأن الأسامي إنما وضعت دالة على المعاني، والمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع وبالله التوفيق[٧].

فصل

اعلم أن الصبر على ستة أقسام، وهو في كل قسم منها محمود.

فأول أقسامه: وأولاها الصبر على امتثال أوامر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه: لأن به

---

(١) قال العراقي في المغني (٤/ ٦٠): أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ويزيد ضعيف.

(٢) أطراف الحديث عند: أبي داود (المناسك ب ٦٩)، الترمذي (٨٨٩)، النسائي في المجتبى (٥/ ٢٥٦)، ابن ماجه (٣٠١٥)، البيهقي (٥/ ١٥٢)، الحاكم (١/ ٢٦٤)، ابن خزيمة (٢٨٢٢)، الدارقطني (٢/ ٢٤١).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٧) راجع الباب بتمامه في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (٤/ ٦٥، ٦٦).

تخلص الطاعة ويصح الدين وتؤدى الفرائض ويستحق الثواب كما قال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].

ولذلك قال عليه السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»[٢]. وليس لمن قل صبره على طاعة الله حظ من بر ولا نصيب من صلاح، وقد قال الحسن: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه. وقد قال بعض العلماء: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال عمر بن عبد العزيز للقاسم بن محمد: أوصني. فقال: عليك بالصبر في مواطن الصبر. وقال بعض العلماء: من نوى الصبر على طاعة الله صبره الله عليها وقواه، ومن عزم على الصبر عن معاصي الله عصمه الله منها. ثم من العبادة ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببهما جميعاً نحو الحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا﴾[٣]. قيل معناه على ما فرض الله عليكم. ﴿وَصَابِرُوا﴾[٤]. قيل: معناه صابروا عدوكم. ﴿وَرَابِطُوا﴾. فيه تأويلان؛ أحدهما: رابطوا على الجهاد. والثاني: رابطوا على انتظار الصلاة بدليل قوله عليه السلام: «ألاَّ أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»[٥] قالها ثلاثاً. واعلم أن المطيع يحتاج إلى الصبر على طاعة الله في ثلاثة أحوال:

الأولى: قبل الشروع في الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر على شوائب الرياء ودواعي الآفات وذلك من الصبر على الشدائد عند من يعرف حقائق النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد النفس، وقد نبه النبي ﷺ إذ قال: «الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى»[٦].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) قال العراقي في المغني (٤/٦٠): رواه أبو منصور الديلمي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً. ويزيد ضعيف.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٥) أطراف الحديث عند: مسلم (الطهارة: ٤١)، الترمذي في الجامع (٥١)، البيهقي (٣/٦٢)، ابن خزيمة (٥)، أبي نعيم في الحلية (٨/٢٤٨).

(٦) متفق عليه من حديث عمر قاله العراقي في المغني (٤/٦٩).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. . . .﴾[١] الآية. ولهذا المعنى قدم الله الصبر على العمل فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[٢].

الحالة الثانية: حالة العمل كي لا يغفل عن الله تعالى في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾[٣]. أي صبروا على إتمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للرياء والسمعة، والصبر عن النظر إليه بعين الإعجاب وعن كل ما يحيط عمله قال الله / تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾[٤]. [٢٨١]

فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله، والطاعات تنقسم إلى: فرض، ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً وقد جمعهما الله في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾[٥] الآية. فالعدل: قيل هو الفرض، والإحسان: قيل هو النفل، وإيتاء ذي القربى. هي المروءة وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

وكذلك الصبر على المعاصي من أعظم الشدائد وقد جمع الله أنواع المعاصي في قوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[٦].

وقد قال عليه السلام: «المهاجر من هاجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه»[٧].

وقد قال عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر». يعني جهاد العدو «إلى الجهاد الأكبر»[٨]. يعني جهاد النفس.

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.
(٢) سورة هود، الآية: ١١.
(٣) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥٨، ٥٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.
(٥) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٦) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٧) قال العراقي في المغني (٦٩/٤): رواه ابن ماجه بالشطر الأول، والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني كلاهما حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين.
(٨) قال العراقي في المغني (٧/٣): رواه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

وقال الحسن البصري: الصبر صبران صبر عند المصيبة وصبر عند ترك ما نهى الله عنه وهو الأفضل.

ثم إن كانت تلك المعاصي مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة، والكذب، والمراء، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب، وأنواع الكلمات التي يقصد بها الازدراء، والاستحقار، وذكر الموتى والقدح فيهم، وفي علومهم، وسيرهم، وكل ذلك يحتاج في الكف عنه إلى الصبر الشديد، فمن لم يصبر على الطاعة ويكف عنه المعصية لينال جزيل الثواب ويسلم من أليم العذاب كان بعيداً عن الرشاد، حقيقاً بالضلال، ويُنشد لأبي العتاهية:

أراك امـرء تـرجـو مـن الله عفـوه ... وأنـت علـى مـا لا يحـب مقيـم
تـدل علـى التقـوى وأنـت مقصـر ... أيـا مـن يـداوي النـاس وهـو سقيـم

/ وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فإن من خاف الله صبر [٢٨٢] على طاعته، ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره.

القسم الثاني: الصبر على ما انقضت أوقاته من رزية أجهده الحزن عليها: مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض، وعمى العين وفساد الأعضاء.

وبالجملة فسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر على محارم الله فله ستمائة درجة، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة.

وإنما فضلت هذه الرتبة على ما قبلها لأن ذلك شديد على النفس، وقد قال عليه السلام في دعائه: «وأسألك من اليقين ما تهون به عليّ مصائب الدنيا».

فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وعن علي أنه قال: الصبر على المصيبة ثلاثمائة درجة، وعلى الطاعة ستمائة درجة، وعلى المعصية تسعمائة درجة.

وقال بعض السلف: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره.

وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي

مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديوناً»[١].

وقال عليه السلام: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»[٢].

وقال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها إلاَّ فعل الله له ذلك»[٣].

[٢٨٣] وعزى عليه السلام امرأة / أصيبت بابن لها فقال: «إن لله ما أخذ من عباده، وله ما بقي، ولكل أجل مسمى، فاحتسبي واصبري، فإنما الصبر عند أول الصدمة».

وقال عليه السلام: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن جزع فله الجزع».

وقال أيضاً: «إن من إجلال الله عز وجل ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك وأن لا تشكو مصيبتك»[٤].

وروي عنه أنه قال: «ما من مؤمن ولا مؤمنة يذهب الله حبيبتيه فيصبر ويحتسب فيرضى الله له بثواب غير الجنة».

ويروى عنه أنه قال: «قد يدرك الرجل درجة في الجنة لا يدركها بصيام ولا بقيام ولا حج ولا جهاد». قيل: فيم يدركها؟ قال: «ببلية أتت عليه في جسده فصبر واحتسب».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلاَّ كفَّر الله بها من خطاياه»[٥].

وقال: «من يرد الله به خير يصب منه»[٦].

---

(١) طرف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٢٧، ١٤٢).

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر، وابن عباس، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله بالصبر، وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر، وكلها ضعيفة، وللترمذي من حديث ابن مسعود أفضل انتظار الفرج، قاله العراقي في المغني (٤/ ٧١).

(٣) رواه مسلم من حديث أم سلمة. المصدر السابق.

(٤) لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء، قال: من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك. المصدر السابق.

(٥) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٢/ ٣٠٣)، ابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٢٣٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٤).

(٦) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، والعراقي في المغني (٤/ ١٢٨).

وكان بعض إذا قرأ هذ الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[١]. قال: واعجباً أعطى وأثنى ـ أي أعطى الصبر وأثنى عليه ـ وقال النبي عليه السلام: «ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي»[٢]. ويُنشد:

اصبر لكل مصيبة وتجلد	واعلم بأن المرء غير مخلد
واصبر كما صبر الكرام فإنها	نوب تنوب اليوم تكشف في غد
وإذا ذكرت مصيبة تشجى بها	فاذكر مصابك بالنبي محمد

وقال بعض العلماء: إن الله ليبتلي عبده المؤمن بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما عليه من ذنب.

وقيل: حبس الشبلي في المارستان فدخل عليه جماعة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: أحبابك / جاؤوك زائرين. فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون. فقال: لو كنتم أحبابي [٢٨٤] لصبرتم على بلائي. وقال بعض السلف: إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

وعن داود قال لسليمان عليهما السلام: يستدلُّ على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضى فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.

وقال الحسن: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر، والمرض، والموت، وإنه مع ذلك لوثاب.

وقال شقيق: من يرى ثواب الشدة لا يشتهي الخروج منها.

وقال حاتم الأصم: إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة بأربعة أنفس على أربعة أجناس: على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بعيسى، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين.

وقال لقمان لابنه: يا بني الذهب يجرَّب بالنار والعبد الصالح يجرَّب بالبلاء.

وقال عليه السلام: «الجزاء على قدر البلاء»[٣].

---

(١) سورة صٓ، الآية: ٣٠.

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢٣٦).

(٣) لم أقف عليه فيما لدي من مصادر.

وكان يقال: الصبر سلامة والطيش ندامة، ويقال: أوحى الله تعالى إلى عزير إذا نزلت بك مصيبة أو بلية فلا تشتكي إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساوئك وفضائحك.

ويروى عن أنس بن مالك أنه قال: مات ابن لأبي طلحة الأنصاري، فقالت أم سليم لأهلها لا يعلمن أحد أبا طلحة حتى أكون أنا أعلمه، فأمسى صائماً فراح إليها من عند النبي ﷺ فأفطر ولم تره جزعاً، ثم اغتمّ فدخلت مخدعاً لها فتطيبت، ثم دخلت معه اللحاف فأصابها، فلما كان في السحر قالت له: يا أبا طلحة إن رجلاً أعار أهل بيت عارية فاستمتعوا بها، ثم أخذ عاريته فسخطوا عليه.

[٢٨٥] قال: بئس / ما صنعوا صاحب العارية أحق بعاريته. قالت: فاحتسبك ولدك فلاناً. قال: فهلا أعلمتني قبل أن أقع هذا الموقع، فصلى الصبح مع رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: «نمتما عريسين وفي ناحية بيتكما ميت بارك الله لكما في ليلتكما»[١]. قال: فولدت غلاماً فسماه عبد الله، فحمل القرآن وهو ابن سبع سنين، فما كان لأم سليم من أبي طلحة ولد شبيهه وكان يقال ثلاثة من رأس الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا تشكو مصيبتك، ولا تزكي نفسك.

ويروى أن عروة بن الزبير قدم على عبد الملك فسأله دفن أخيه فأذِن له وقدم معه ابنه محمد على الوليد بن عبد الملك، فنفحت محمداً دابة فمات، ووقعت في رجل عروة الأكلة فقطعها من الساق ولم يمسكه أحد وهو شيخ كبير ولم يدع وطره تلك الليلة إلاّ أنه قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾[٢]. وتمثل بهذه الأبيات:

لعمر ما أهويت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلاّ قد أصابت فتى قبلي

وقال: اللهم إن كنت ابتليت فلقد عافيت، وإن كنت أخذت فلقد أبقيت، أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني ج ٤ ص ١١٥ أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين مع اختلاف من حديث أنس.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٢.

قال وقدم على الوليد في تلك الليلة رجل أعمى من عبس فسأله عن عينيه، فقال: بت ليلة في بطن واد ولا أعلم في الأرض عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرقنا سبيل فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد غير بعير وصبي وكان البعير صعباً فاتبعته فما جاوزت الصبي إلاَّ يسيراً حتى سمعت صوته، فرجعت فأصبت / رأس الذئب في بطنه، ثم اتبعت البعير لآخذه فنفحني [٢٨٦] برجله فأصاب وجهي فحطني فأصاب عيني فأصبحت لا أهل لي، ولا مال، ولا ولد، ولا بعير.

فقال الوليد: انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الأرض من هو أعظم منه بلاء.

وكان يقال: العاقل لا يذل بأول نكبة ولا يفرح بأول نعمة فربما أقلع المحبوب عن ما يحبه، وأجلى المكروه عن ما يسره.

وقال بعض السلف: مكاره الدنيا تنقسم قسمين:

فقسم فيه حيلة والاضطراب دواءه، وقسم لا حيلة فيه والإصطبار شفاؤه.

وعن شريح أنه قال: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله تعالى عليها أربع مرات، أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمد الله إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده تبارك اسمه إذ وفقني للاسترجاع، وأحمده تعالى إذ لم يجعلها في ديني.

وعن المدائني أنه قال: رأيت في البادية امرأة لم أر أنضر جلداً ولا أحسن وجهاً منها فقلت: بالله إن فعل هذا بك إلاّ اعتداء السرور.

فقالت: كلا والله إني لبدع أحزان وحلف هموم كان لي زوج وكان لي منه ابنان، فذبح أبوهما شاة فقال أحدهما ابني لأخيه: هلمّ افعل بك كما فعل أبونا بالشاة فذبحه فلما رأى الدم فزع ففر نحو الجبل فأكله الذئب، فخرج أبوه في أثره فتاه فمات عطشاً. قال: فقلت لها كيف رأيتك والصبر؟ فقال: لو دام لي لدمت ولكنه كان جرحاً فاندمل.

وفي رواية محمد بن خالد القرشي يرفعه قال: خرجت حاجاً فبينما أنا أطوف إذا بامرأة قد أضاء ما حولها من حسن وجهها فقال رجل كان إلى جنبي والله ما رأيت مثل هذه قط نضارة وحسناً وما ذاك إلاَّ من قلة الهم والحزن فلما سمعت ذلك قالت: يا هذا الرجل / والله إني [٢٨٧] مكلومة الفؤاد بالهموم والأشجان ما يشاركني فيها أحد.

قال لها الرجل: كيف ذلك؟ قالت: ذبح زوجي شاة ضحى بها ولي ولدان صغيران

يلعبان وعلى ثديي طفل يرضع، فقمت لأصنع لهم منها طعاماً فقال ابني الأكبر للأصغر: ألا أريك كيف صنع أبي بالشاة؟ قال: نعم.

فأضجعه ووضع الشفرة على حلقه فما رفع الشفرة حتى ذبحه، فلما رأى الدم وعلا الصراخ خرج الصبي فاراً نحو الجبل فرمقه الذئب فأكله، فانطلق أبوه في أثره فمات عطشاً.

فقمت ووضعت الطفل في الأرض وخرجت إلى الباب أنظر ما فعل أبوهم فدبَّ الطفل يده إلى البرمة التي على النار فوضع يده فيها فصبها على نفسه وهي تغلي فتناثر لحمه من على عظمه، فبلغ ذلك ابنة لي كانت عند زوجها فضربت بنفسها الأرض فماتت فأفردني الدهر من بينهم. فقال لها الرجل: كيف صبرك على هذه المصائب الجليلة؟ قالت: يا هذا ما من أحد ميز الصبر والجزع إلاّ وجد بينهما منهاجاً، أما الصبر فحسن العلانية محمود العاقبة، وأما الجزع فصاحبه غير معوّض عوضاً.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيكم يحب أن يصح ولا يسقم»؟ قالوا: كلنا يا رسول الله. قال: «أتحبون أن تكونوا مثل الحمير الصيالة ألا تحبون أن تكونوا من أصحاب الكفارات؟ والذي بعثني بالحق إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة ما يبلغها بشيء من عمله فيبتليه الله تعالى بالبلاء فيبلغ تلك الدرجة»[1].

ويقال: ما كرم عبد على الله تعالى إلاّ زاد البلاء عليه شدة.

واعلم أن الصبر على المصائب يعقب الإنسان الراحة، ويكسب الأجر والثواب عنها، فينبغي للإنسان أن / يصبر طائعاً، وإلاَّ احتمل هماً لازماً وصبراً كارهاً آثماً. [٢٨٨]

وقد قال عليه السلام: «ليس المصاب من أصيب بمصيبة ولكن المصاب من حرم أجر المصيبة».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجوراً، وإن جزعت مضى أمر الله وكنت مأزوراً».

وقالت الحكماء: الجزع أتعب من الصبر ففي الجزع التعب والوزر وفي الصبر الراحة والأجر. وينشد:

---

(١) أطراف الحديث عند السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٢٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٥٢٤) والجامع الكبير المخطوط الجزء الثاني (٢/٦٦٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٧: ٢٦٧)، وابن معد في الطبقات (٧: ٢/١٩٨).

فـإذا تصبـك مصيبـة فـاصبـر لهـا عظمـت مصيبـة مبتلـى لا يصبـر

وقال آخر:

وعـودت أجراً من فقيد فلا يكن فقيـدك لا يـأتـي وأجـرك يـذهـب

وعن علي بن أبي طالب أنه قال للأشعث بن قيس: إن تجزع فقد استحقت ذلك منك الرحم وإن تصبر ففي ثواب الله عز وجل، وإنك إن تصبر جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور. فذكر ذلك أبو تمام فقال:

وقـال علـي فـي التعازي لأشعث وخـاف عليه بعـض تلـك المـآثـم

أتصبـر للبلـوى عـزاء وحسبـة فتـؤجـر أو تسلـو سلـو البهـائـم

خلقنـا رجـالاً للتجلـد والعـزا وتلـك الغـوانـي للبكـاء والمـأتـم

وقال شبيب بن شبت للمهدي: إن أحق ما يصبر عليه ما لم يوجد سبيل إلى دفعه. فإن قيل فيماذا درجة الصبر؟ في المصائب وليس الأمر فيه اختيار الإنسان.

فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملبس وغيره فهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضى بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته ويعتقد أن / ذلك كانت وديعة فاسترجعت، ويقال: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب [٢٨٩] المصيبة من غير والله أعلم.

وأما توجع القلب وفيضان الدمع على الميت. فإن ذلك مقتضى البشرية، ولذلك لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فاضت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذه؟ فقال: «إنما بكيت رحمة له إنما يرحم الله من عباده الرحماء ولكن إنما نهيتكم عن صوتين أحمقين فاجرين خدش الخدود وشق الجيوب». والله أعلم.

القسم الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة يرجوها ومسرة يأملها.

فإن الصبر عنها يعقب السلو عنها والأسف عليها بعد الإياس منها يجدد الحزن والكمد من أجلها، وقد قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْ لاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا أَتَاكُمْ﴾[١].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أعطي فشكر ومنع فصبر وظُلم فغفر وظَلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»[١].

وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك فلم تقله، وقال آخرون: إن كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لم يصل إليك. فنظمه الشاعر فقال:

لا تُطل الحزن على فائت ... فَقلّ ما يُجدى عليك الحزن
سيان محزون على فائت ... ومضمرٌ حزناً لما لم يكن

وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: ظفار فرأيت مكتوباً على باب قصر خراب هذه الأبيات:

يا من ألح عليه الهم والفكر ... وغيرت حاله الأيام والغير
أما سمعت بما قد قيل في مثل ... عند الإياس فأين الله والقدر
نم للخطوب إذا أحداثها طرقت ... فاصبر فقد فاز قوم لها صبروا
فكل ضيق له من بعده سعة ... وكل فوت وشيكا بعده الظفر

قال: وتحته مكتوب بخط آخر لو كان كل من صبر أعقب الظفر صبرت ولكنا نجد الصبر في العاجل يغني العمر ويدني من القبر، وما كان أحسن لذي عقل موته وهو طفل.

القسم الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من نكبات الزمان وصولات الأعداء، فلا يتعجل الإنسان إلى نفسه هَمَّ ما لم يأت فإن أكثر الهموم كاذبة، والأغلب من الخوف مدفوع.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنتظار الفرج بالصبر عبادة»[٢].

وقال الله تعالى في أصحاب نبيه عليه السلام: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ....﴾[٣] الآية.

---

(١) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٧٨).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله «بالصبر» وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذي من حديث ابن مسعود «أفضل العبادة انتظار الفرج». المغني الجزء الرابع ص ١١٣ طبعة دار الحديث.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

وقال عليه السلام: «بالصبر يتوقع الفرج».

وعن الحسن البصري أنه قال: لا تحملن على يومك هم غدك فحسبك كل يوم همه وينشد:

الهم فضل والمقدر كائن . فعلى م يشغل قلبه الإنسان

وأنشد الحارثة بن بدر:

إذا الهم أمسى وهو داء فامضه ولست بممضيه وأنت تعاذله
وقل للفؤاد إذا نزا بك نزوة من الهم افرح أكثر الهم باطله

القسم الخامس: الصبر فيما ينتظر الإنسان من رغبة يرجوها، ومسرة ينالها؛ فإنه إن أدهشته التطلع إليها انسدت عليه سبل المطالب، واستفز قلبه توسل المطالع، فكأن ذلك أبعد لرجائه / وأعظم لبلائه. [٢٩١]

وإذا كان مع الرغبة وقوراً وعند الطلب صبوراً انجلت عنه عماية الدهش وحيرة الطلب، فأبصر رشده وعرف قصده والله أعلم، إنه يكشف الحيرة ويوضح حقائق الأمور.

وقال أكثم بن صيفي: من صبر ظفر. وقال النبي عليه السلام: «من يدمن قرع الأبواب يلج». وأنشد لمحمد بن بشير:

إن الأمور إذا انسدت مطالبها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا
لا تيأسن ولو طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

وقال بعض الحكماء: بحسن التأني تسهل المطالب، ويقال: الصبر مفتاح الدرك.

وقال بعض البلغاء: من صبر نال المنا، ومن شكر حصَّل النعماء.

القسم السادس: الصبر على ما نزل بالإنسان من مكروه القضاء، وحلّ به من مكائد الأعداء، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[٣] فأمر بالصبر على ذلك

---

(١) سورة الطور، الآية: ٤٨.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٧.

فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[١].

وقالت الرسل: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا﴾[٢].

وقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ. . . .﴾ إلى قوله: ﴿أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ﴾[٣].

وقال لنبيه: ﴿وَلَقَدْ [كُذِّبَتْ][٤] رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ. . . .﴾[٥] الآية.

ويقال: مكتوب في الإنجيل: قال عيسى صلوات الله على نبينا وعليه: لقد قيل لكم من قبل أن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول: / لا تقاوموا السن بالسن بل من ضرب خدك [٢٩٢] الأيمن فحوّل إليه خدك الأيسر، ومن أخذ ردائك فأعطه إزارك، ومن سخرك للمشي ميلاً فسر معه ميلين، وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى.

ويروى أن رسول الله ﷺ قسم قسمة فقال بعض الأعراب: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فاحمّرت وجنتاه فقال: «رحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر». والله أعلم.

والصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، واعلم أن بالصبر تستدفع مكائد الأعداء وبه تنفتح للإنسان وجوه الآراء، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾[٦].

واعلم أن الصبر معناه الحبس ومنه الحديث نهي عن قتل البهائم صبراً، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾[٧]. أي احبسها، وقال عنترة:

فأصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

عارفة: يعني نفساً عارفة، فكل من لم يصبر نفسه على مفروض الشرع ولم يضبطها عن

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.
(٤) جاءت بالأصل «استهزى برسل» ولعله سهو من الناسخ.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٧) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

مقتضى شهوات الطبع وإظهار الجزع والهلع فقد استكمل الشر بحذافره، واستوجب عقوبة الدارين عند ربه.

واعلم أن الصبر على السراء وتتابع النعماء أشد من الصبر على الضراء وأنواع البلاء، فإن من لم يضبط نفسه عن الاسترسال في شهوات الدنيا والتنعم بملاذها والانهماك فيها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾(١).

وقال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلاَّ صديق.

/ وقال بعضهم: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، ويروى أنه لما فتحت [٢٩٣] أموال الدنيا على الصحابة قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر.

فلذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوجة والولد، فقال تعالى: ﴿لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾(٣).

وقال عليه السلام: «الولد مبخلة مجبنة محزنة»(٤).

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها هو أن لا يركن إليها، وأن يعلم أن ذلك مستودع عنده، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في اللهو واللعب والتنعم بها وأن يراعي حقوق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي يده ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وفي سائر ما أنعم الله تعالى عليه بإقامة الشكر، وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة فمعلوم أن الجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا أحضرته الأطعمة اللذيذة، وقدر عليها، ولهذا عظمت فتنة السراء والله أعلم.

فصل في دواء الصبر على البلايا والأقسام المتقدمة

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ووعد الشفاء فالصبر وإن كان شاقاً على النفس فتحصيله ممكن في المعقول، فنقول: الصبر على المصائب والشدائد يهوّن على النفس

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ١٠٨ طبعة دار الحديث) أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد.

موقعها، بأسباب: منها إشعار النفس بما تعلمه من حلول الفناء وتقضي المسار إذ ليس في الدنيا حال تدوم لأحد، ولا يبقى عليها أحد. كما قال الشاعر:

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن تارة لا الفرح دام ولا السرور

[٢٩٤] / ويروى أنه لما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة مكتوب فيها إذا لم يكن جد ففيما الكد، وإذا لم لكن للأمور دوام ففيم السرور، وإذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة. وأنشد لسعد بن سليم:

إنما الدنيا هبات وعوال مسترده
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شده

قال أنوشروان: إن أحببت أن لا تغنم فلا تفتن، فنظمه الشاعر فقال:

ألم تر أن الدهر من سوء فعله يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
ومن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يبال به فقدا

وقال آخر:

لحكيمها بقراط خير قضية ووصية تنفي الهموم الركدا
قالوا: الهموم تكون من طمع الورى في لبث ما في طبعه أن ينفدا
فإذا اقنيت من الزجاجة قابلاً للكسر فانكسرت فلاتك مكمدا

ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد، وانكشاف الهموم عند اشتدادها عليه كما قال بعض البلغاء: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج.

وروي عن ابن عباس أن سليمان بن داود عليهما السلام لمَّا استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك إلى إبليس اللعين، فقال: ألستم تذهبون فرغاً وترجعون مشاغل؟ قال: ففي هذا لكم راحة، لكم نصف دهركم.

فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ألستم تستريحون بالليل. قالوا: بلى. قال: ففي هذا لكم راحة، لكم نصف دهركم.

[٢٩٥] فبلغ ذلك سليمان، فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: الآن / جاءكم الفرج، فما لبث سليمان أن أصيب ميتاً على عصاه.

فإذا كان هذا في نبي من أنبياء الله تعالى، لا يعمل إلاَّ بأمره فكيف بما جرته الأقدار من

أيد أعاديه وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي إلاّ منقرضة، وعند بلوغ الغاية إلاّ منحسرة، وأنشد لعثمان:

خليلـي لا والله مـا مـن ملمـة تـدوم على حيّ وإن هي حلت
فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها ولا تكثر الشكوى إذا النعل زلت
وكم من كريم قد بلي بنوائب فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلت

ويقال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود عند تناهي شدتي يكون فرجي وعند حلول بلائي يكون رجائي، والله أعلم، فإذا تصور الإنسان انجلاء الشدائد عند اشتدادها، وانقضائها عند تقضي أوقاتها، لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها، ولا تنقضي بجزع ولا تطول بصبر، وإن كل يوم يمر به فهو يذهب بشطر منها حتى تنقضي وهو عنها غافل.

فإذا تصور ما ذكرنا قويت نفسه على الصبر وأنست به، وحكي أن الرشيد حبس رجلاً ثم سأل عنه بعد زمان، فقال للموكل به: قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله والأمر غريب والحكم لله تعالى.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشد حين حضرته الوفاة:

ألـم تـر أن ربـك ليس تحصى أيـاديـه الجـديـدة والقـديمـه
تسـل عـن الهموم فليس شيء يقيـم ومـا همومـك بـالمقيمه
/ لعـل الله ينظـر بعـد هـذا إليـك بنظـرة منـه رحيمـه [٢٩٦]

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا ما هو أعظم من رزيته، ليعلم أنه ممنوح بحسن الدفع، ولذلك قال عليه السلام: «إن لله في أثناء كل محنة منحة». شعر:

يصـاب الفتـى فـي أهلـه بـرزيـة ومـا بعـدهـا منـه أهـم وأعظـم
فـإن يصطبـر فيهـا فـاجـر مـوفـر وإن يـك مجـزاعـاً فـوزر مقـدم

وقيل للشعبي في نائبة: كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين خير منشور وشر مستور.

قال الشاعر:

لا تكـره المكـروه عنـد نـزولـه إن العـواقـب لـم تـزل متبـائنـه
كـم نعمـة لا تستقـل بشكـرهـا لله فـي طـي المكـاره كـامنـه

وعن خباب بن الأرت أنه قال: شكونا إلى النبي ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[١].

ومنها أن يتأسى بذوي المصائب، ويعلم أنهم الأكثرون عدداً، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ألصقوا بذوي الغير تتسع قلوبكم.

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل عليه السلام: دلني على أعبد أهل الأرض، قال: فدله على رجل قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وهو يقول: / اللهم [٢٩٧] متعتني ما شئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا بار يا وصول.

حكاية: وقال بعض العلماء: كان في بعض الأزمنة جبار يعذب الناس على دينهم، فأوتي بامرأة فأمر بقطع يديها ورجليها فقطعتا وما تكلمت، فلما أوتي بالنار لتكوى صرخت بالبكاء، فقيل لها في ذلك فقالت: والله ما جزعت من ناركم، ولا أسفت على الدنيا، ولكن ذكرتني هذه النار نار جهنم فصرخت من أجل ذلك، قال: وكحلت عيناها بمرود محمى بالنار.

وقيل: لما أمر بها لتقطع يداها ورجلاها قالت: الحمد لله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء، لقد كنت آمل في ذات الله ما هو أكثر من هذا، فلمّا قطعت يداها ورجلاها جعل الدم يفور ولا ينقطع فلمّا أحست بالموت قالت: حياة كدورة وموتة طيبة، لئن نلت ما أملت من جزيل الثواب، لقد نلت سروراً عظيماً لا يضر معه كدر الدنيا الفانية إذا صرت إلى الراحة الدائمة ثم اضطربت حتى ماتت.

حكاية أخرى: وعن الحسين البصري أنه قال: تعبّد رجل على رأس جبل وكان اسمه عقيباً، وكان في ذلك الزمان جبار يعذب الناس ليرجعوا عن دينهم، فقال عقيب: لو نزلت إلى هذا الجبار فأمرته بتقوى الله كان أوجب عليّ، فنزل من الجبل فقال: يا هذا اتق الله في عباده.

فقال له الجبار: مثلك يأمرني بتقوى الله لأعذبنك بعذاب لم أعذب به أحد من العالمين،

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٢٠٣ طبعة دار الحديث) أخرجه البخاري.

وأمر به أن يسلخ وهو حي من قدمه إلى رأسه فلمّا بلغ السلخ إلى بطنه أنَّ أنّة شديدة، فأوحى الله تعالى إليه: يا عقيب اصبر أخرجك / دار الحزن إلى دار الفرح، ومن دار الضيق [٢٩٨] إلى دار السعة والسعادة فلما بلغ السلخ إلى وجهه صاح فأوحى الله إليه يا عقيب أبكيت أهل سمواتي وأهل أرضي وأذهلت ملائكتي عن تسبيحي لئن صحت الثالثة لأصبن عليهم العذاب صباً فصبر حتى سلخ وجهه مخافة أن يؤخذ قومه بالعذاب.

حكاية أخرى: وكان على عهد بني إسرائيل جبار يدعو الناس إلى أكل لحم الخنزير، فأوتي بامرأة تسمى سارة لها سبعة أولاد، فدعى بأكبر بنيها ليأكل لحم الخنزير فقال: ما كنت لآكل شيئاً حرمه الله تعالى عليّ أبداً، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وجميع جسده عضواً عضواً حتى مات، فدعى بالذي يليه أيضاً فامتنع عن الأكل فأمر بقدر من نحاس فملىء زيت فأحمى حتى غلا ثم ألقي فيه فتناثر لحمه من على عظامه، ثم دعى بالذي يليه فامتنع فقال: لأنت أهون علي وأحقر من أن آكل ما لا أحله الله لي فقال لأصحابه: أتدرون ما أراد هذا؟ أراد أن يغضبني فأعجل بقتله، فأمر به فسلخ جلده وهو حي، فلم يزل يقتل كل واحد بقتلة غير التي قتل بها صاحبه حتى بقي أصغرهم فالتفت إليه وإلى أمه فقال: انطلقي بابنك واخلي به ومريه أن يأكل لقمة واحدة ويعيش لك، فقالت: نعم، فخلت معه فقالت له: يا بني تعلم أن إخوتك لي عليهم حق واحد ولي عليك حقان وذلك أني أرضعت كل واحد منهم عامين، وأرضعتك أربعة أعوام، وذلك أن أباك توفي وأنا حامل بك فنفست بك فأدركني الإشفاق عليك فسألتك بالله أن تصبر كما صبر إخوتك ولا تأكل ما حرَّم الله عليك، فتلقى إخوتك يوم القيامة وتلحق بهم.

فقال الطفل: يا أماه / الحمد لله الذي أسمعني منك هذا وإنما كنت أخاف أن تريدي [٢٩٩] مني غير هذا، فجاءت بابنها إلى الملك فقالت له: دونك قد عزمت عليه فأبى أن يأكل فألحقه بإخوته ثم قال لأمهم: ويحك كلي لقمة واحدة وأصنع بك ما شئت وأعطيك ما شئت، فامتنعت وقتلها والله أعلم.

حكاية أخرى: وعن الحسن بن علي بن أبي مريم أنه قال: كان رجل بالمصيصة قد مرت الأكلة بنصف بدنه، فلم يبق منه إلاَّ نصف روحه في بعض جسده وهو على سرير مثقوب للبول وغير ذلك فدخلت عليه فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت ملك الدنيا مشتاقاً إلى الله ما لي عليه من حاجة إلاَّ أن يتوفاني على الإسلام.

حكاية أخرى: قال أبو عبد الله وكان لي صديق فابتلاه الله بالجذام حتى ذهبت يداه

ورجلاه وعيناه فأتيت به فجعلته مع المجذومين، وكنت أتعاهده فغفلت عنه أياماً ثم ذكرته فأتيته فقلت: يا هذا إني غفلت عنك.

فقال لي: إن لي من لا يغفل عني. فقلت: إني نسيتك. فقال: إن لي من لا ينساني. ثم قلت: والله ما ذكرتك. فقال: إن لي من يذكرني. ثم قال: إليك عني لا تشغلني عن ذكر الله تعالى. فقلت: ألا أزوجك من امرأة تنقيك وتغسلك من هذه الأقذار. فقال: تزوجني وأنا ملك الدنيا وعروس الآخرة. فقلت: وما بيديك من الدنيا وأنت ذاهب اليدين والرجلين والعينين تأكل كما تأكل البهائم. فقال: رضاءي عن الله عز وجل حين أبان جوارحي وأطلق لساني. قال: فما لبث إلاّ أياماً يسيرة فمات، فأخرجت كفناً كان فيه طول فقطعت ما فضل منه، وكفنته فيه فدفنته فبينما أنا في منامي إذا أنا / برجل قد وقف عليّ لم أر أحسن منه صورة [٣٠٠] فقال لي: بخلت على وليّ الله بكفن طويل دونك كفنك قد رددناه إليك وكفناه بالسندس والاستبرق فاستيقظت مرعوباً به، وإذا الكفن عند رأسي.

حكاية أخرى: وعن عطية بن سليمان أنه قال: صليت الجمعة فجلست إلى يونس بن عبيدة حتى صليت العصر، فقال: هل لكم في مشاهدة جنازة، فمضيت وصليت على الجنازة، فقال: هل لكم في زيارة فلان العابد فقلنا: نعم؛ فأدخلنا على رجل قد وقعت في فمه الأكلة حتى سقطت أضراسه فكان إذا أراد أن يتكلم دعي بعقب فيه ماء وبقطنة فَبَّل لسانه حتى ابتل وكذلك يتكلم فلما أراد أن يتكلم دعى بالإناء وبالقطنة إذ سقطت عيناه في الإناء فأخذهما بيده ثم استقبل القبلة فقال: الحمد لله الذي متعني بهما في صحتي وشبابي حتى فنيت أيامي وحضر أجلي أخذهما ليبدلني خيراً منهما ثم شهق شهقة ففاضت نفسه والله أعلم.

وعن وهب بن منبه أنه مر برجل أعمى مجذوم مقعد عريان وهو يقول: الحمد لله على هذه النعمة فقال له رجل كان مع وهب: وأيُّ شيء عليك من النعمة وأنت أعمى مقعد مجذوم عريان، فقال له: يا هذا ارم ببصرك إلى أهل هذه المدينة ليس فيهم رجل يعرف الله مثلي أفلا أحمده على هذه النعمة.

ويروى أن موسى عليه السلام قام في بني إسرائيل بخطبة أحسن فيها وأعجب بها. فقالت له بنو إسرائيل أفي الناس أعلم منك يا موسى؟ قال: لا، فأوحى الله إليه يا موسى أعلم منك عبد من عبيدي حملته الرسالة وبعثته رسولاً إلى ملك جبار عنيد فقطع يديه ورجليه وأجدع أنفه / فصرفت إليه يديه ورجليه وأنفه كما كان أول مرة، ثم أعدته رسولاً فمضى وهو يقول: [٣٠١]

رضيت يا رب رضيت يا رب ولم يقل كما قلت أول وهلة: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[١].

حكاية أخرى: وروي عن قاضي فلسطين أنه قال: بينما أنا أمشي إذ سمعت قائلاً يقول: اللهم لك الحمد حمداً يوافي شكر ما أنعمت به علي وأشكرك شكراً استتم به دوام إحسانك إليَّ فقلت: لأذهبن فانظر قائل هذا فذهبت فإذا أنا برجل ليست له يدان ولا رجلان ملقى على ظهره، قال: فقلت أيُّ نعمة لله عليك تحمده عليها، وأيُّ عطاياه عليك تشكره عليها. فقال: سبحان الله أما ترى ما صنع بي سلبني يدي ورجلي شغلني عن المعاصي ووهب لي سمعي وبصري أتفكر في السموات والأرض، ومع هذا لو ضربني بنار من السماء لم أزدد له على العطية إلاَّ شكراً وعلى البلاء إلاَّ صبراً ثم قال: إن لي إليك حاجة. قال: فقلت في نفسي إن قضاء حاجتك يقرب إلى الله تعالى ثم قلت: وما هي؟ قال لي: كان لي ولد هاهنا يطعمني إذا جعت ويسقيني إذا عطشت ففقدته منذ ثلاثة أيام فإن رأيت أن تلتمسه. قال: فالتمسته فإذا أنا بسبع قد افترسه فأكل بعضه فجمعت ما بقي من جسده فدفنته، ثم رجعت إلى الشيخ وأنا أفكر ما أعزيه به فذكرت أيوب المبتلى عليه السلام فجلست فقال: ألست صاحبي؟ قلت: بلى. قال: فما فعلت في الحاجة؟ قلت: أيُّما أعظم منزلة عند الله أنت أم أيوب المصطفى عليه السلام؟ قال لي: سبحان الله ألجئت إليَّ السؤال. فقلت: إنما هو مثل مضروب. / قال: بل [٣٠٢] أيوب. قلت: كيف وجد الله عبده إذ أخذ ماله وفرّق جمعه وشتت عياله؟ قال: صابراً محتسباً. قال: قلت اصبر واحتسب ولدك. قال: ما وراءك؟ قلت: إن ابنك افترسه السبع فأكله. فقال: آه آه الحمد لله الذي لم يدع في قلبي حسرة إلاَّ أخرجها. قال: ثم غمض عينيه وطبق شفتيه فإذا هو ميت، قال: فغطيته بشملة كانت عليه، وجلست عنده أتفكر كيف أدفنه فإذا أنا بقوم قد أقبلوا فقلت لهم: أعينوني على هذا الميت حتى ندفنه، فقال لي بعضهم: أكشف عنه لعلنا نعرفه، فكشفت عنه الشملة فانكب عليه أحدهم فجعل يقبله وهو يقول: يا أبي طالما سجدت والناس نيام. فقلت له: هل تعرفه؟ قال: نعم هذا أبو قلابة صاحب ابن عباس ابتلي بهذا البلاء فاعتكف في هذا الموضع صابراً محتسباً منذ خمس عشرة سنة. ثم قال لي: أما إنه كان له ولد فما فعل؟ فأخبرته الخبر، فقال لي: طال ما سمعته وهو يقول: اللهم لا تخلف لي ذرية تعصيك فتدخلها النار فالحمد لله الذي استجاب دعوته. قال: فنمت من ليلتي تلك فرأيته في المنام في روضة خضراء عليه حلل خضر وحلل صفر وهو يتلو الوحي وهو

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤.

يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[1]. فقلت: ألست صاحبي. قال: بلى. قلت: فما فعل الله بك؟ قال: إني قدمت على ربي فغفر لي فإن لله عز وجل درجة لن تنالوها إلاّ بالشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء.

حكاية أخرى: ويروى أن يونس عليه السلام قال: يا جبريل أرني أعبد أهل الأرض، قال: فأوقفه على رجل قطع الجذام يديه ورجليه وهو يقول: / يا إلٰهي متعتني بهما ما شئت [٣٠٣] أنت وسلبتني ما شئت أنت وبقي لي فيك الأمل يا بار يا وصول، قال يونس: يا جبريل أحب أن تريني صواماً قواماً، قال إنه كذلك في صحته وقد أمرت أن أسلب عينيه فأومىء جبريل عليه السلام بعينه إلى عيني المبتلي فسالتا على وجهه فرفع رأسه إلى السماء فقال: متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وبقي لي فيك الأمل يا بار يا وصول. فقال يونس: يا عبد الله هل لك أن تدعو الله ونؤمن على دعائك ويرد الله عز وجل عليك جوارحك وتقوم إلى عبادة ربك. قال: لا حاجة لي في ذلك. قال له: ولم؟ قال: إن كانت محبة ربي في هذا فأنا أكره أن أؤثر محبتي على محبته.

فقال جبريل عليه السلام: يا يونس إنه لا يوصل إلى ثواب الله عز وجل إلاّ بالشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يود أهل العافية لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء»[2].

فإذا تفكر العاقل في هذه الحكايات وأمثالها، وتسلى بأصحابها أورثه ذلك حسن العزاء، فخف شجوه وقلّ هلعه وعلى هذا كانت مراثي الشعراء، حتى قال البحتري:

فلا عجب للأسد أن ظفرت به ... كلاب الأعادي من فصيح وأعجم

فحربة وحشيّ سقت حمزة الردا ... وموت عليّ من حسام ابن ملجم

وفي بعض الحكمة: طوبى لمن غلب بتقواه هواه، وبصبره شهوة نفسه ألاَ وأن الصبر كنز من كنوز الجنة لا يعطيه الله إلاّ لعبد كريم عليه.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٢) أطراف الحديث عند البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٧٥)، والترمذي (٢٤٠٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٢)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٦٦٦١) والسيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢/ ٢١٤). والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٥٧٠).

وما من عبد وهب الله له صبراً على الأذى، وصبراً على البلاء، وصبراً على المصائب إلاَّ وقد أوتي أفضل ما أوتيه أحد بعد الإيمان. قال أبو فراس:

المرء بين مصائب لا تنقضي ... حتى يوارى شخصه في رمسه
فمعجل يلقى الردى في أهله ... ومؤجل يلقى الردى في نفسه

وقال عليه السلام: «أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة». قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «قلب شاكر ولسان ذاكر وبدن صابر وزوجة عفيفة لا تخونه في نفسه وماله»[(١)]. قال الشاعر:

صبرت وكان الصبر خير معول ... وهل جزع يجدي عليّ فأجزع
صبرت على ما لو تحمل بعضه ... جبال شرور أوشكت تتصدع
ورددت دمع العين حتى رددته ... إلى باطني فالعين في القلب تدمع

ومنها أن تعلم أن النعمة زائدة، وأنها لا محالة زائلة، فعلى قدر السرور منها يكون الحزن، وقد قال في منثور الحكم: المفروح به هو المحزون عليه، وقيل: من بلغ غاية ما يحب فليتوقع غاية ما يكره.

وقال بعض الحكماء: من علم أن كل حادثة إلى انقضاء حسن عزاه عند نزول البلاء.

وقيل للحسن البصري: كيف ترى الدنيا؟ فقال: شغلني توقع بلائها عن الفرح برخائها. وأنشد لبعض الشعراء:

حياتك بالهم مقرونة ... فلا تقطع الدهر إلا بهم
حلاوة دنياك ممزوجة ... فلا تأكل الشهد إلا بسم

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره، كما أن حزنه مقرون بسرور غيره، إذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب فتكون سروراً لمن وصلته وحزناً لمن فارقته.

ولذلك قال النبي عليه السلام: «ما قرعت عصى على عصى إلاَّ فرح لها قوم وحزن آخرون». وقال البحتري:

متى أردت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب إلا خمول نبيه

---

(١) أطراف الحديث عند المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٩٨، ٣/٤١). والسيوطي في الدر المنثور (١/١٥٠)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٤١٦)، وفي أمالي الشجري (١/٢٥٦)، والشكر لابن أبي الدنيا (٢٤).

فأوضحه المتنبي فقال:

بـذا قضـت الأيـام مـا بيـن أهلهـا ... مصـائـب قـوم عنـد قـوم فـوائـد

[٣٠٥] / ومنها أن يعلم أن طوارق الإنسان من دلائل فضله، ومحنة من شواهد نبله، ولذلك إحدى علتين: إما لأن الكمال معور والنقص لازم، فإذا توفر الفضل عليه في أمر صار النقص فيما سواه.

وقد قيل: من زاد في عقله نقص من رزقه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما انتقصت جارحة من الإنسان إلاّ كانت ذكاء في عقله». وينشد:

إذا جمعـت بيـن امـرأيـن صناعـة ... فاحببت أن تدري الذي هو أحذق

فـلا تتفقـد منهمـا غيـر مـا جـرت ... بـــه لهمــا الأرزاق حيــن تفــرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع ... وحيث يكون الفضل فالرزق أضيق

وإما لأن الفضل محسود وبالأذى مقصود، فلا يسلم من طعن حاسد وترة معاد. وقد قال الصنوبري:

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى ... كــالنــار مخبــرة بفضــل العنبــر

وقلّ ما تكون محنة فاضل إلاّ من جهة ناقص وبلوى عالم إلاّ على يد جاهل؛ لاستحكام العداوة بينهما: بالمباينة وحدوث الانتقام لأجل التقدم. قال الشاعر:

فـلا غـرو أن يبلـى أديـب بجاهـل ... فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يستفيد من الحكمة بنوائب عصره، فيطلب عدوه ويستقيم حاله بما جرب من حالتي دهره في الشدة والرخاء، ويتعظ أيضاً بما اختبر من أمور زمانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع في استواء ولا يأمل أن تبقى الدنيا على حالة، فإن من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها. وأنشد لبعض الأدباء:

إنــي رأيــت عــواقــب الــدنيــا ... فتــركــت مــا أهــوى لمــا أخشــى

فكــرت فــي الــدنيــا وعــالمهــا ... فــإذا جميــع أمــورهــا تفنــى

[٣٠٦] / وبلــوت أكثــر أهلهــا فــإذا ... كــل امــرء فــي شــأنــه يسعــى

أسنــى منــازلهــا وأرفعهــا ... فــي العــز أقــربهــا مــن المهــوى

تقفــو مســاؤهــا محــاسنهــا ... لا فــرق بيــن النعــي والبشــرى

ولقــد مــررت علــى القبــور فمــا ... ميــزت بيــن العبــد والمــولــى

أتـراك تـذكـر كـم رأيـت مـن الأحيـاء ثـم رأيتهـم مـوتـى

ومنها أن يتفكر في حلاوتها عاقبة الصبر، وما أعد الله للصابرين من الثواب الجزيل.

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: ما أنعم الله على عبد نعمة انتزعها منه وعوضه الصبر منها إلاّ كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مصيبة وإن عظمت إلاّ والصبر خير منها»(٢).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق نادى مناد: أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس قليل فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتستقبلهم الملائكة فتقول لهم: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة هل حوسبتم؟ فيقولون: ليس علينا حساب لأنا أهل الصبر أو ما سمعتم الله تعالى يقول: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب. فتقول لهم الملائكة: على م صبرتم فيقولون: صبرنا على طاعة الله وعن معصية الله فتقول لهم الملائكة: ادخلوها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾(٣) الآية»(٤).

وقال عليه السلام: «أول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء وأول من يعطى الثواب الذين ذهبت أبصارهم وأهل البلاء. وأما أهل الراية فتعقد لهم الراية فيبدأ بمن ذهبت أبصارهم، ثم يعطى الناس على قدر أسقامهم، / فيعطون من الثواب حتى أنهم يودون لو قرضوا في الدنيا بالمقاريض»(٥). [٣٠٧]

فإذا تذكر المصاب هذا الثواب وظفر بأحد هذه الأسباب التي قدمناها تخففت عنه أحزانه، وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع، حسن العزاء.

وقد قال بعض الحكماء: من حاذر لم يهلع، ومن راقب لم يجزع، ومن كان متوقعاً لم يلف متوجعاً. قال الشاعر:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ص ٩٦ طبعة دار الحديث) في معنى هذا الحديث أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٤) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في كنز العمال (٢٩٣)، ولأبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥١).

(٥) أطراف الحديث عند أبي نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٨٨، ١٢٧) ابن أبي شيبة في منصفه (١٤: ١٠٠)، النسائي (٧/ ٨٤) وابن ماجه (٢٦١٥، ٢٦١٧) والبخاري (٨: ١٣٨)، أحمد (١/ ٣٨٨، ٤٤٢) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٦). وفي مسند الشهاب (٢١٢).

هون عليك فكل الأمر ينقطع وخل عنك عنان الهم يندفع
فكل هم له من بعده فرج وكل أمر إذا ما ضاق يتسع
إن البلاء وإن طال الزمان به فالموت يقطعه أو سوف ينقطع

وقال آخر:

ما يكون الأمر سهلاً كله إنما الدهر سهول وحزون
هون الأمر تعش في راحة قلّ ما هونت إلاَّ سَيهون
تطلب الراحة في دار الفنا ضلّ من يطلب شيئاً لا يكون

وعن وهب بن منبه أنه قال: ليس بفقيه كامل الفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وذلك أن البلاء يتبعه الرخاء والرخاء يتبعه البلاء. قال الشاعر:

يقولون أعمى قلت أنَّ وربما أكون وإني من فتى لبصير
إذا أبصر القلب المروءة والتقى فإن عماء العين ليس يضير
فإن العمى أجر وذخر وعصمة وإني إلى هذا البلاء لفقير

فإذا تصور العاقل الرزايا قبل أن ينزلن به هانت عليه عند نزولها، قال الشاعر:

تمثل ذو اللب في لبته مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت نحوه لم ترعه لما كان في نفسه مثلا
رأى الأمر يقضي إلى آخر فصيّر آخره أولا
[٣٠٨] / وذو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان ببعض مصائبه أو غلا
ولو قدم الحزن في نفسه لعلمه الصبر عند البلا

وقال آخر:

تعز فإن الصبر بالحر أجمل وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً لنائبة أو كان يغني التذلل
لكان التعزي عند كل مصيبة ونازلة بالحر أولى وأجمل
وكيف وكل ليس يعد وحمامه وما لامرء عما قضى الله مزحل
فإن تكن الأيام فينا تبدلت ببؤس ونعما والحوادث تفعل
فما لينت فينا قناة صليبة ولا دللتنا للتي ليس تجمل
ولكن أحلناها نفوساً كريمة تحمل ما لا يستطاع فتحمل

ومن لم يشعر نفسه ما ذكرناه من أحوال الدنيا، وتقضي مسارها، ثم مصير أهلها إلى القبور صرعاً بين الجنادل والصخور، قد فارقهم الأحباب حين سكنوا التراب، ألفته الحوادث جازعاً وتضاعف عليه من شدة الأسى ما لا يطيق عليه صبراً ولا له دفعاً.

ومما يعين على شدة الجزع، ويبعث على المصائب أسباب الهلع، تذكره المصائب النازلة، وتصوره المسار المنقضية حتى لا يجد مع التذكار سلوة، ولا يخلط مع التصور تعزية.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستغزر الدموع بالتذكر، وينشد:

ولا يبعــث الأحــزان إلا التــذكــر

ويروى أن الحجاج بن يوسف لما مات ابنه محمد جزع عليه جزعاً شديداً فقال: إذا غسلتموه فأروني ذلك، فأعلموه فلما دخل البيت عليه قال متمثلاً:

الآن لمـا كنـت أجمـل مـن مشـى ... وأفتـرنـا بـك عـن شبـاب القـادح

/ وتكـاملـت فيـك المـروءة كلهـا ... وأعنـت ذلـك بـالفعـال الصـالـح [٣٠٩]

فقيل له: اتق الله أيها الأمير واسترجع. فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[١].

ثم أنشأ أبياتاً تركتها مخافة التطويل.

ومما يبعث علي الجزع أيضاً شدة الأسف والحسرة، فلا يرى للمصيبة عوضاً، ولا لمفقوده بدلاً فيزداد بالأسف ولعاً، وبالحسرة هلعاً ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا [تَأْسَوْا][٢] عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾[٣] الآية. وقال بعض الشعراء:

إذا ابتليـت فثـق بـالله وارض بـه ... إنّ الـذي يكشـف البلـوى هـو الله

اليـأس يقطـع أحيـانـاً بصـاحبـه ... لا تـأسفـن فـإن الصـانـع الله

إذا قضـى الله فـاستسلـم لقـدرتـه ... مـا لامـرىء حيلـة فيمـا قضـى الله

ومما يبعث على الجزع أيضاً كثرة الشكوى وبث الجزع وقيل في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾[٤]: إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٢) ساقطة من المخطوط.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٣.
(٤) سورة المعارج، الآية: ٥.

وقال عليه السلام: «ما صبر من بث»[١]. قال الشاعر:

سأكسب صبراً واحتساباً لأنني ... أرى الصبر سيفاً ليس فيه فلول
عداني أن أشكو إلى الخلق أنني ... عليل ومن أشكو إليه عليل
ويمنعني الشكوى إلى الله أنه ... عليم بما ألقاه قبل أقول

وقال تعالى حكاية عن نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[٢].

وقيل: مكتوب في التوراة من اشتكى بمصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه.

وحكي أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت صوارخ في دار فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم ميت. فقالت: ما أراهم إلاّ من ربهم يستغيثون، ومن قضائه يتبرمون، وعن ثوابه يرغبون. وينشد:

لا تكثر الشكوى إلى الصديق ... وارجع إلى الخالق لا المخلوق
لا يُخْرَجُ الغريقُ بالغريقِ

[٣١٠] وقيل في منثور الحكم: من ضاق / قلبه اتسع لسانه.

ويبعث على الجزع أيضاً: اليأس من جبر مصيبته والنظر إلى من سلمت نعمته فيجتمع عليه مع حزن المصيبة قنوط اليأس، وأنه أفرد بالرزية من بين الناس فلا يتفق معهما صبر ولا يتسع لهما صدر، ولذلك قيل: المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين. وأنشد لامرأة من الأعراب:

أيها الإنسان صبراً ... إن بعد العُسْر يسْراً
كم رأينا اليوم حراً ... لم يكن بالأمس حراً
ملك الصبر فأضحى ... مالكاً خيراً وشراً
اشرب الصبر وإن ... كان من الصّبر أمراً

وأنشد لبعض أهل الأدب:

يراع الفتى للأمر تبدو صدوره ... فيأس وفي عقباه يأتي سروره
ألم تر أن الليل لما تكاملت ... دجاه بداية الصباح ونوره

---

(١) قال الحافظ العراقي في معنى هذا في المغنى (ج ٤ ص ١١٤ طبعة دار الحديث). لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: «من الصبر أن لا تتحدث بمصيبك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك».

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

فلا تصحبن اليأس إن كنت عالماً لبيباً فإن الدهر تنشر أموره

واعلم أنه قد قلّ من صبر على شدة إلاّ كان انكشافها سريعاً، وقد حكي أن بعض الكتاب يقال له: أبو أيوب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته، وقلّ صبره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو طول حبسه، وقلة صبره، ورد عليه جواب رقعته فقال:

صبراً أبا أيوب صبر مفرج إذا عجزت عن الخطوب فمن لها

إن الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها

صبراً فإن الصبر يعقب راحة ولعلها أن تنجلي ولعلها

فأجابه أبو أيوب:

صبرتني ووعظتني وأنا لها وستنجلي بأن لا أقول لعلها

ويحلها من كان صاحب عقدها كرما به إذ كان يملك حلها

/ قال: فلم يلبث في السجن بعد ذلك إلاّ أياماً حتى أطلق مكرماً والله أعلم. [٣١١]

وهذا الذي ذكرناه من الأشياء المتقدمة هو دواء الصبر على سائر أنواع البلايا والله أعلم.

دواء الصبر عن شهوة البطن والفرج، فإنه إذا غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه، أو يملك فرجه ولا يملك عينيه، أو يملك عينيه ولكن لا يملك قلبه ونفسه، إذ لا يزال تحدثه بمقتضيات الشهوة، وتصرفه عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحات.

فالسبيل إلى تضعيف باعث الشهوة ثلاثة أمور:

أحدها: أن يقطع مادة الشهوة وهي الأغذية اللذيذة فلا بد من تغليلها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الإفطار وعلى طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة، وهذا يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح لتضعف فتسقط قوته.

الثاني: قطع أسباب الجماع المهيجة له في الحال؛ فإنه إنما يهيج بالنظر إلى الصور المشتهات ولذلك قال عليه السلام: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس»(١) لأنه يحرك القلب، والقلب يحرك الشهوة؛ وهذا يحصل بالعزلة وتغميض الأجفان والهروب من صوب

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٣٦٥ طبعة دار الحديث). أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث حذيفة. وقال المحقق أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بقوله: إسحاق واه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفوه، وقال الألباني في (الضعيفة / ١٠٦٥) ضعيف جداً.

رمي إبليس؛ فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور المشتهات فإذا اعتزلتها لم يصبك رمي إبليس.

والثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات ما يغني عن المحرمات.

وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع الغذاء يقطع عن سائر الأعمال، ثم [٣١٢] / لا يقمع الشهوة قمعاً شافياً في حق الأكثر، ولذلك قال عليه السلام: «معاشر الشباب من استطاع منكم الباه فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء»[١].

فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج:

الأول: يضاهي قطع علف البهيمة الجموح لتسقط قوته.

والثاني: يضاهي تغييب اللحم عن الكلب، والشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنه بسبب المشاهدة لذلك.

والثالث: يضاهي تسليتها بشيء قليل كما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب والله أعلم، وكذلك علاج الشهوة من الطعام على هذا الحال، وقد تقدم في باب الزهد والقناعة، وشهوة البطن ما يغني عن ذلك.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر، وإنما أشدها كف القلب عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك عن متفرغ له، فإن قمع الشهوة الظاهرة، وآثر العزلة، وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإن الوساوس لا تزال تجاذبه من جانب إلى جانب، وهذا لا علاج له البتة إلاَّ قطع علائق الدنيا عن القلب ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل، والأولاد، والمال، والجاه، والأصدقاء، والاعتزال من جبل إلى جبل إن قدر على ذلك مع يسير من القوت والقناعة ثم لا يكفي كل ذلك ما لم تصر الهموم هماً واحداً وهو الله سبحانه.

ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ما لم يكن له مجال في ملكوت السموات والأرض وسائر معرفة الله تعالى وعجائب صنعه وإن لم يكن له مسير بالباطن إلى الله تعالى فلا [٣١٣] ينجيه إلاَّ العبادة المتصلة المرتبة في كل لحظة من القراءة والذكر والصلاة / مع إحضار القلب معها.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٢ ص ٣٦ طبعة دار الحديث) في نحوه. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

واعلم أن هذا لا يمكن إلاَّ لمن رزقه الله قوة اليقين، ومنحه الصبر ومجاهدة الهوى بالجد المبين، ومع ذلك لا يسلم له إلاَّ أقل الأوقات إذ لا يخلو عن حوادث تشغله عن الفكر والذكر من مرض أو خوف أو أذى إنسان أو تعلق قلب بأسباب المعيشة ولكن بعد قطع العلائق كلها تسلم له أكثر الأوقات إن لم تنزل به ملمة واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر الفكر وهذا أقصى ما يقدر عليه الإنسان بالمجاهدة.

وقال بعض العلماء: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجر الخلق في جنب الحق شديد، والمسير بالنفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله أشد، فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق، وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه، وعلاجهما: الاعتزال وإخمال النفس ولا يصلح ذلك إلاَّ بالزهد الكامل والمجاهدة التامة حتى يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان للشرع وذلك هو الملك الحقيقي.

وقد حكي عن بعض الملوك قال لبعض الزهاد: هل لك من حاجة؟ قال وكيف اطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ قال: وكيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبدي، قال: أنت عبد شهوتك، وغضبك، وفرجك، وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدي.

فإذا هذا هو الملك في الدنيا الذي يسوق صاحبه إلى ملك الآخرة لا الملك الذي لا يخلو من المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبرات مع إنقطاعه بالموت والفناء وبقاء تباعته على الإنسان في العقبى.

فما أعظم اغترار الإنسان / إذ ظن أنه ينال ملك الآخرة بطلبه ملك الدنيا الذي يصير به [٣١٤] الإنسان مملوكاً لشهوته وغضبه وبطنه وفرجه ومثل هذا لا يكون إلاَّ منكوساً في الدنيا معكوساً في الآخرة والله أعلم.

وأما علاج الصبر عن الرئاسة والجاه فيحصل بثلاثة أمور:

أحدها: بالهرب عن مواضعها حتى لا يشاهد أحد أسبابه فيعسر عليه الصبر.

والثاني: أن يكلف نفسه ترك الأعمال التي تقتضي التكبر ويستعملها أعمالاً تفيده التواضع في جميع أحواله من ملبس، أو مطعم، أو مأكل، أو مركب، حتى يرسخ ذلك في نفسه فيكون متواضعاً.

والثالث: أن يراعى التدريج بالإشارة لقوله عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»(١).

فهذا علاج الرئاسة وحب الجاه.

ويروى عن بعض العلماء أنه قيل له: بماذا يقوى الصابر على صبره؟

قال: إذا علم أن في صبره رضى مولاه جل جلاله أما سمعت قول الحكيم:

رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطي ... من الأمر ما فيه رضى صاحب الأمر

فصل

اعلم أن للصبر شروطاً لا بد من مراعاتها: منها أن تعلم كيف تصبر؛ لأن الصبر معناه حبس النفس عن الجزع، ومعنى الجزع اضطراب النفس في الشدة والصبر ترك ذلك.

ومنها أن تعلم لمن تصبر؛ لأنه قيل في قول الله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾(٢). أي اصبروا من الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله.

ومنها أن تعلم ما تريد بصبرك وقد ذكرنا ثواب الصبر، وجملة ذلك أن الصبر النجاة من الشدائد، والنجاح في الأمور، والظفر بالأعداء، والتقدم على / الناس، ونيل الإمامة، وحسن الثناء، والبشارة والصلاة، والرحمة، وتحقيق الهدى، والثواب الذي لا غاية له ولا نهاية، وذكر الآيات المذكور فيها ما ذكرنا من الكرامات يطول الكتاب بها. [٣١]

ومنها حسن النية واحتساب الأجر على ما صبر عليه ولمن يصبر له فإذا أتى الإنسان بهذه الشروط صار من الصابرين الذين يوفى لهم الأجر بغير حساب، وإلاَّ فهو مثل البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك ثم هدى ذلك عنها فهدأت وبالله التوفيق.

وقد روي عن بعض العلماء أنه قال: من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل في نفسه أربعة ألوان من الموت: الأبيض، والأحمر، والأسود، والأخضر: فالموت الأبيض الجوع، والأسود ذم الناس، والأحمر مخالفة الشيطان، والأخضر الوقائع والشدائد بعضها في أثر بعض والله أعلم، وهذا كله لا ينال إلاَّ بتوفيق الله تعالى وحسن عونه.

---

(١) ذكر الحافظ في المغني (ج ٤ ص ١٢٥ طبعة دار الحديث). أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وقال في (ج ١ ص ٥٣١) ولا يصح إسناده قال المحقق: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق..... الحديث» ذكره الألباني في (صحيح الجامع ٢٢٤٦) وقال: حسن.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

ولقد روي أن الله تعالى أوحى إلى أيوب عليه السلام: يا أيوب لا تعجبن من صبرك؛ فإني قد علمت ما تجد كل شعرة من لحمك ودمك، ولولا أني أعطيت كل شعرة من ذلك صبراً ما صبرت وبالله التوفيق.

الباب الرابع
في القضاء والقدر وورود أنواعهما

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٢].

إن ذلك يعني العلم في كتاب الآية. وفي الحديث: «أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: يا رب وما أكتب؟ قال: أكتب علمي في خلقي، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[٣].

وفي الحديث أن الرسول عليه / السلام قال: «قال الله تعالى: أنا الله الذي لا إله إلاَّ أنا [٣١٦] خلقت الخير والشر فقدرته على يدي من يكون فطوبى لمن خلقته للخير وقدرته على يديه وويل لمن خلقته للشر وقدرته على يديه»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال: «لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة القدرية»[٥].

ويروى أنه لما احتضر عبادة بن الصامت قال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت أوصني. قال: أجلسوني، فلما جلس قال: يا بني اتق الله ولن تتقي الله حتى تؤمن بالله ولن تؤمن بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره من الله وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القدر على هذا فمن مات على غيره دخل النار».

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٣) أطراف الحديث عند ابن أبي عاصم في السنة (١/٤٨، ٤٩).

(٤) ذكر الحافظ العراقي نحوه في (ج ٤ ص ٥٢٨ طبعة دار الحديث) وقال: أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف.

(٥) أطراف الحديث عند أبو داود (٤٦٩٢)، وأحمد (٢/٨٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٢٠٧) والمتقي الهندي (٥٥٤، ٥٥٥، ٦٤٧) والسيوطي في الدر المنثور (٦: ١٣٨)، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٦٤٧)، وابن عدي في الكامل للضعفاء (٦: ٢٣١٧). والسيوطي في اللآلىء المصنوعة (١/١٣٣، ١٣٤) وابن كثير في التفسير (٥/٤٥٩).

وعن مالك بن دينار قال: قرأت في اثنتين وسبعين كتاباً من كتب الله عز وجل أن من أضاف إلى نفسه شيئاً من الاستطاعة فقد كفر، ولعله يريد شيئاً من القدر.

وعن محمد بن الحسن قال: اختلف رجلان في القدر فتراضيا بأول رجل يلقيانه، فلقيا رجلاً فقالا له: ما تقول فيما اختلفنا؟ فقال: أقول إن الذي جعل الشهد في النحلة هو الذي جعل السم في الحية.

وعن ابن قتيبة أنه قال: بلغني أن رجلاً من المتكلمين لقي نصرانياً فقال له: ألا تسلم؟ فقال النصراني: إن الله لم يرد. فقال له المتكلم: بل أراد ولكن الشيطان لا يدعك. قال النصراني: إني مع أقوالهما وقال الله تعالى الفعال لما يريد، جل ربنا وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس، فهو رأس الخطيئة، وقد بين ذلك في آي من كتابه وفصلها، / عقلها من عقلها وجهلها من جهلها فقال: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾[(١)]. [٣١٧]

وعن ابن عباس أنه قال: ما يأتي أحد من أهل الأهواء فيخاصمني أبغض إلي من القدرية؛ وذلك أنهم لا يعلمون قدر عظمة الله تعالى؛ لأن الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون، أما يقرؤون هذه الآية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[(٢)] كفاراً ومؤمنين.

ويروى أن بني إسرائيل اختصموا في القدر خمسمائة سنة ثم انتهوا إلى عالم من علمائهم، فقالوا: صف لنا القدر بكلام قليل نفهمه عنك. فقال: حرمان العقل وظفر الجاهل.

ويروى أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب عن القدر. فقال: تسئلني عن شيء تملكه مع الله أو من دون الله، إياك أن تتكلم فأضرب عنقك. فقال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إن قلت تملكه مع الله فقد جعلت نفسك شريكاً مع الله، وإن قلت تملكه من دون الله فقد جعلت نفسك معبوداً من دون الله. فقال: وما المخرج يا أمير المؤمنين؟ قال: أنت المالك لما مَلَّكَكَ الله، والقادر على ما عليه قدرك، ولا حول لك على معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة لك على طاعة الله إلّا بتوفيقه، أما سمعت الناس يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) سورة الصافات، (الآيتان: ١٦٢، ١٦٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

فصل

اعلم يا أخي أن الأمور مفروغ منها خير وشر وشقاوة وسعادة وغنى وفقر وخلق ورزق وأجل وغير ذلك فلا يجري في العالم: من حركة وسكون، ونفع، وضر، وطاعة، ومعصية، وإيمان، وكفر إلاَّ بما جرى به القلم وسبق به القضاء والقدر.

وكذلك لا يطير طائر بجناحيه، ولا يدب حيوان على بطنه، أو رجليه، ولا تسقط ورقة، ولا تطير / بعوضة إلاَّ بقضاء وقدر، وإرادة من الله تعالى ومشيئة، كما لا يجري شيء [٣١٨] من ذلك إلاَّ وقد سبق به علمه قال الله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[١]. يعني من قبل أن نخلقها يعني النفس وقيل: من قبل أن نخلق المصيبة.

وقال لنبيه عليه السلام: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[٢].

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[٣].

فالواجب على الإنسان امتثال ما أمر به واجتناب ما نهي عنه، ولا يتكلف الخوض في القضاء والقدر فإن ذلك من مخزون علم الله الذي استأثر به عن الخلق ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[٤].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها وحدّ لكم حدوداً فلا تتعدوها ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تتكلفوها رحمة من ربكم فاقبلوها».

وقال عليه السلام: «اعملوا فكلكم ميسر لما خلق له»[٥].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥١.

(٣) أطراف الحديث عند الترمذي (٢١٥٦) وأحمد (١٦٩/٢)، والقرطبي في التفسير (٥٢/٩) والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٩٧، ٦١٠). والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٧٤) وفي تاريخ أصفهان لأبي نعيم (٣٢٧/١)، وكشف الخفا للعجلوني (٣٨/٢). والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (١٢١).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ١٣٩ طبعة دار الحديث) من حديث علي وعمران بن حصين =

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١].

فصل في الجمع بين القضاء والقدر وبين الطلب والحذر

فإن قال قائل: كيف العمل فيما سبقت به الأقدار وجفت به الأقلام وفرغ من قسمته؟ وكيف الحذر مما لا بد من كونه؟ قيل له: اعلم أن القدر والطلب لا يتنافيان، والتوكل والكسب لا يتضادان، وذلك أن تعلم أن كل ما قضى الله تعالى كائن لا محالة كما أن ما علم الله أن يكون فهو كائن لا محالة.

[٣١٩] ومن خالف المسلمين في القضاء والقدر فقد / وافقهم في العلم فرب أمر قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فلا يصل إليك إلاَّ بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، ولا فرق بين الأمر المطلوب وبين الطلب في إنهما مقدوران، فمن هاهنا ثبت أنهما لا يتنافيان.

وكذلك التوكل مع الكسب وأخذ الحذر مع الشروع في العمل؛ لأن التوكل والحذر محلهما القلب، والكسب والعمل محلهما الجوارح قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾[٣] الآية.

وحكي أن رجلاً أتى النبي ﷺ على ناقة فقال: يا رسول الله أدعها وأتوكل. فقال عليه السلام: «أعقلها وتوكل»[٤].

وحكي أن إبليس لعنه الله قال لعيسى ابن مريم عليه السلام: ألست تقول أنه لن يصيبك إلا ما قدر الله عليك؟ قال: نعم. قال: فارم نفسك من ذروة الجبل فإنه إن يقدر لك السلامة تسلم. فقال له: يا ملعون إن الله يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه.

فالتوكل والاعتصام بالقدرة يستمدان من الأمر فالتوكل هو الثقة بما ضمنه الله، والقطع بكون ما يحكم به فعلى العبد أن يتحقق أن التقدير من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره،

= قال المحقق هو حديث متفق عليه من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخرجه البخاري في الجنائز (٣/ ١٣٦٢) فتح والتفسير (٨/ ٤٩٤٥، ٤٩٤٩) ومسلم في القدر (٤/ ٧/ ص ـ ٣٠٤).

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧١.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٤٢٩). أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد «قيدها».

وإن اتفق شيء فبتيسيره وليعتمد في ذلك على الله سبحانه مسبب الأسباب، ومسخر الخلق والألباب بشرط ملازمة الطاعة والأمر؛ لأنه لا ينال ما عند الله إلاّ بطاعته.

وقد قال علي من ابتغى أمراً بمعصية الله كان له أبعد لما رجا وأقرب لمجيء ما اتقى، ومن ظن أن الطلب والأسباب يناقضان التوكل فقعد في بيته متوكلاً على ربه كان عن العقل خارجاً وفي تيه الجهل والجاً.

ويقال له: فيجب من هذا إذا جعت وحضر الطعام / أن لا تمد يدك إليه ولا تفتح فمك [٣٢٠] فإن قال: نعم. كان إلى العقل أحوج منه إلى المعرفة، والدليل على أن الطلب مأمور به أمر إباحة قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[١].

وقال بعض العلماء: من قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ الله ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

قال: لو رزقهم من غير كسب ألا ترى أن الله قال لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[٣] الآية. وأنشد في هذا المعنى:

ألم تر أن الله قال لمريم ... فهزي بجذع النخل يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزة ... إليها ولكن كل شيء له سبب

ويقال في التوراة: يا ابن آدم حرك يديك يسبب لك رزقك، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٤]. فلم يقل: تحمل أرزاقها إلى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح.

ويحكى أن بعض الملوك يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب دون أهل زمانه من الملوك ما يحجزه عن الطلب والتدبير فأخرجه إخوته من سلطانه وقهروه على مملكته.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٧.
(٣) سورة مريم، الآية: ٢٥.
(٤) ذكر الحافظ العراقي في المغني (ج٤ ص ٣٧٥ طبعة دار الحديث). بلفظ «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله.... الحديث». وقال أخرجه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر.
وأطراف الحديث عند الهيثمي في موارد الظمآن (٢٥٤٨) وعند ابن الجوزي في زاد المسير (٨: ٢٩٢)، وعند العجلوني في كشف الخفا (٢/٢١٨)، وعند ابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (١٨٣٢).

فقال له بعض الحكماء: إن ترك الطلب يضعف الهمة، ويذل النفس، وصاحبه صائر إلى أخلاق ذوات الأجحرة من الحيوانات: كالضب، وسائر الحشرات تنشأ في أجحرتها وفيها يكون موتها.

ثم جمعوا بين القدر والطلب فقالوا: إنهما كالعدلين على ظهر إن حمل في واحد منهما أرجح مما حمل في الآخر سقط حمله وتعب ظهره، وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره.

وضربوا في ذلك مثلاً عجيباً وقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر ولا قائد للأعمى ولا حامل للمقعد، فكان في القرية رجلا يطعمهما كل يوم / قوتهما احتساباً فلم يزالا [٣٢١] في عافية إلى أن هلك الرجل المحتسب. فلبثا بعده أياماً فاشتد جوعهما وبلغ الضرر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن يحمل الأعمى المقعد فيدوران في القرية يستطعمان أهلها ففعلا فنجح أمرهما، فلو لم يفعلا ذلك لهلكا.

فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه قال: فأخذ ذلك الملك في الطلب فظفر بأعدائه ورجع إلى ملكه وكان يقول بعد ذلك: لا تدعن الطلب اتكالاً على القدر ولا تجهدن نفسك في الطلب معتمداً عليه مستهيناً بالقدر، فإذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير مصدقاً بالقدر نلت ما تحاول، وإن التوت مع ذلك عليك الأمور فذلك من عوق القدر وأنك قد أتيت ذنباً، وتفقد جوارحك وتب إلى الله من كل ذنب واخرج من كل مظلمة فإذا أنت فعلت قابلك الحظ وساعدك القدر إن شاء الله.

فصل

فإن قال قائل: هل يزيد الرزق بالطلب أو ينقص بترك الطلب أم لا؟ قيل له: عند بعضهم لا؛ لأن المكتوب في اللوح المحفوظ مقدر مؤقت لا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته وكتابته.

ويروى عن بعض العلماء من أصحاب حاتم وشقيق: أن الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد ولكن المال يزيد وينقص، وهذا عند أصحاب القول الأول فاسد؛ لأن الدليل في الموضعين واحد وهو الكتابة والقسمة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

ولو كان يزيد بالطلب وينقص بالترك لكان للأسى والفرح موضع إذ هو قصر حتى فاته وشمر حتى حصله، وقد قال عليه السلام: «ولو لم تأتها لأتتك»[١].

فإن قال: الثواب والعقاب أيضاً مكتوبان في اللوح / المحفوظ، ثم يلزمنا طلبه فيزيد [٣٢٢] بالطلب وينقص بالترك.

فاعلم أن طلب الثواب إنما وجب، لأن الله تعالى أمر به أمراً حتماً وأوعد على تركه ولم يضمن الثواب على غير فعل منا.

وزيادة الثواب والعقاب إنما هي بفعل العبد والفرق بينهما في نكته، وهو ما قال بعض العلماء: أن المكتوب في اللوح المحفوظ قسمان: قسم هو مكتوب مطلقاً من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو الأرزاق والآجال ألا ترى كيف ذكرهما الله تعالى مطلقاً فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٢]. وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٣].

وقال النبي عليه السلام: «أربع فُرِغَ منهن: الخَلقُ والخُلُقُ والرزق والأجل».

وقسم مكتوب بشرط معلق بمشروط وهو فعل العبد وذلك هو الثواب والعقاب، ألا ترى كيف ذكرهما الله في كتابه معلقتين بفعل العبد فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[٤]. وهذا بيّن فاعلمه.

فإن قال: نحن نجد الطالبين يجدون الأرزاق والأموال والتاركين يعدمون ويفتقرون.

قيل له: كأنك مع ذلك لا تجد طالباً محروماً فقيراً وفارغاً مرزوقاً غنياً، بلى إن هذا هو الأكثر ليعلم أن ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد قيل لبزرجمهر: تعال نتناظر في القدر. قال: وما أصنع بالمناظرة بالقدر رأيت ظاهراً فاستدللت به على باطن، رأيت أحمق مرزوقاً وعاقلاً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس إلى العباد وأنشدوا:

---

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٩/٤٧٧) وعند أبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ١٦٠). وعند ابن أبي عاصم في السنة (١/١١٧).

(٢) سورة هود، الآية: ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٥.

وكـم قـوي قـوي فـي تقلبـه مهـذب الـرأي عنه الـرزق منحرف
وكـم ضعيـف ضعيـف فـي تقلبـه كـأنـه مـن خليـج البحـر يغتـرف
/ هـذا دليـل علـى أن الإلـه لـه في الخلق سر خفي ليس ينكشف [٣٢٣]

وفي الخبر أن العقل استأذن على البخت فقال: اذهب لا حاجة لي بك. فقال العقل: ولم؟ قال: إنك تحتاج إليّ ولا احتاج إليك.

ويروى أن حكيماً قال لابنه: يا بني رزقك الله جداً يخدمك به ذوو العقول ولا رزقك الله عقلاً تخدم به ذوي الجدود.

وكان يقال: إفراط جد العاقل مضرباً لجَد.

وروي أن رجلاً خُيِّر في أمر فأبى أن يختار فقال: أنا بجدي أوثق مني بعقلي فأقرعوا. وفي الأمثال: أسع بجد لا بكد أسع بجد أو دع جدك لا كدك، الكد أغنى من الجد.

ويقال: إذا أقبل جَد امرء فالأيام تساعده، والأسواء تباعده، وإذا أدبر فالأيام تعاديه، والنحوس تراوحه وتغاديه.

واعلم أن زمام الأمور التوفيق ولم ينزل من السماء إلى الأرض أقل من التوفيق وهو مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] الآية.

وروي أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب: أرأيت إن جنبني الهدى وسلك بي طريق الردى أحسن لي أم أساء؟

قال علي: إن كنت استوجبت عليه شيئاً فقد أساء وإلاّ فهو يفعل ما يشاء.

وسأله رجل عن القدر فأعرض عنه فأبى إلاّ الجواب. فقال علي: أخبرني أخلقك الله كيف شئت أو كيف شاء؟ فأمسك الرجل فقال عليّ للحاضرين: أترونه يقول كما شاء إذاً والله أضرب عنقه؟ فقال الرجل: كما يشاء. قال علي: أيحييك كما يشاء أو كما تشاء؟ قال: كما يشاء. قال علي: أيميتك كيف يشاء أو كما تشاء؟ قال: كما يشاء. قال: فيدخلك حيث يشاء أو حيث تشاء؟ قال: حيث يشاء. قال: فليس لك من الأمر شيء. وينشد لبشار بن برد الأعمى:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

طبعت على ما بي غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطي وأعطي ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
واصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي فما أعقبت إلاَّ التعجبا

واعلم أن الهارب مما هو مقضى عليه كالمتقلب في يد الطالب كما قيل:

وإذا خشيت من الأمور مقدراً وفررت منه نحوه تتوجه

وذكر في كتاب سراج الملوك أن رجلاً أخلى من خدمة السلطان بمدينة إسكندرية فظفر به عرفاءه فبينما هو يقتادونه إذ مر على بئر فترامى الرجل فيها. قال: ولهذه المدينة أسراب يسير الرجل فيها قائماً من أولها إلى آخرها، فما زال الرجل يمشي تحت الأرض حتى وجد بئراً صاعدة فتعلق بها فإذا هو في دار السلطان فقبضه وأدبه ففر بزعمه من السلطان فمشى إليه طائعاً.

ويقال: وقع الطاعون بالكوفة، فمر ابن أبي ليلى على حمار له يطلب النجاة فسمع منشداً يقول:

لن يسبق الله على حمار ولا على ذي ميعة طيار
أو يأتي الحتف على مقدار فيصبح الله أمام السار

فكرّ راجعاً إلى الكوفة فقال: إذا كان الله أمام السار فلا مهرب.

ومن كتاب الباجي أن رجلاً أراد التوجه إلى أرض بها الطاعون فتردد فحدى به غلام أعجمي فقال:

يا أيها المشعر همّا لا تهم إنك إن تكتب لك الحمّا تحم
ولو علوت شاهقاً من العلم كيف تواقيك وقد جف القلم

وروي في الإسرائيليات أن نبياً مَرّ بفخ منصوب وإذا قريب منه طائر فقال الطائر: يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً من هذا؟ / نصب هذا الفخ ليصيدني فيه وأنا أنظر إليه؟ قال: [٣٢٥] فذهب فرجع وإذا بالطائر في الفخ كذا وكذا. فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم تبق أذن ولا عين، وبالله التوفيق.

فصل في الرقى والتمائم والطب والكي

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أمرني النبي ﷺ أن أسترقى من العين.

وعن أم سلمة أنه عليه السلام رأى في بيتها جارية في وجهها سعفة فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة»[١].

وعنه عليه السلام: «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»[٢].

وقال لحاضنتي ابني جعفر: «ما لي أراهما ضارعين»[٣]. فقالت: يا رسول الله تسرع إليهما العين، ولا يمنعنا أن نسترقي لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك. فقال: «استرقوا لهما»[٤].

وعن ثابت أنه قال: اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ؟

قال: بلى. قال: قل: «اللهم رب الناس مذهب البأس أشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت اشف شفاء لا يغادر سقماً»[٥].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «بسم الله تربة أرضنا ورقية بعضنا تشفي سقيمنا بإذن ربنا»[٦].

وروي عنه أنه كان إذا آوى إلى فراشه نفث في كفه بقل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن نفعل به ذلك.

وروي عن ابن عباس أن نفراً من أصحاب النبي عليه السلام مروا بماء فيه لديغ أو سليم.

---

(١) الحديث عند البخاري (٧/ ١٧١). والحاكم في المستدرك (٤/ ٢١٢) والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٦٣). وفي مصنف عبد الرزاق (١٩٧٦٩).

(٢) أطراف الحديث عند مسلم (في السلام ب ١٦ رقم ٤٢) والترمذي ٢٠٥٩، ٢٠٦٢، وابن ماجه (٣٥١٠). وأحمد (٦/ ٤٣٨) والبيهقي في السنن (٩/ ٣٥١، ٤٣٨) والطحاوي في مشكل الآثار (٤/ ٧٥) والطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٢٠). والكحال في الأحكام النبوية في الصناعة الطبية (١/ ١٥٤) والمتقي الهندي في الكنز (١٧٦٦٤، ١٧٦٦٥) وابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٢٦٧، ٢٧١، ٦/ ٢٤٠، ٢٤٦) والسيوطي في الحاوي (١/ ٥٨٠) والخرائطي في مكارم الأخلاق (٨٩)، والذهبي في الطب النبوي (١٣٥) وعند الحميدي في مسنده (٣٣٠)، وأبي حنيفة في جامع المسانيد (١/ ١١٨، ١٦٣، ١٧٣)، (٢/ ٣٠٧). وابن كثير في التفسير (٨/ ٢٢٩، ٢٣١)، وابن عدي في الكامل للضعفاء (٤/ ١٥٧٥) والألباني السلسلة الصحيحة (١٢٥٢).

(٣) أطراف الحديث عند القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٢٧) وفي الموطأ (٩٣٩).

(٤) أطراف الحديث عند أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٣٥٨). وفي ميزان الاعتدال (٤٦٣٧).

(٥) أطراف الحديث عند أبي داود (٣٨٩٠) وأحمد (٣/ ١٥١) وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤/ ٢٥٧) وعند المتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٣٦٧). والسيوطي في جمع الجوامع (٩٦٨٣).

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٤). طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث عائشة.

فقال رجل من أهل الماء: هل فيكم من راق؟ فانطلق رجل منهم فجعل يقرأ بفاتحة الكتاب ويجمع بزاقه فيتفل فيه / فبرء، فأتوا بشاة فقالوا: لا نأخذها حتى نسئل رسول الله. فسألوه [٣٢٦] فضحك وقال: «وما أدراك أنها رقية أصبتم فخذوها واضربوا لي سهماً إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله عز وجل»[١].

وروي أن عائشة رضي الله عنها كانت ترى البثرة الصغيرة في يدها، فتلح عليها بالتعويذ.

فيقال لها: إنها صغيرة. فتقول: إن الله يعظم ما شاء من صغير ويصغر ما شاء من عظيم.

وقال بعض العلماء: استعمل زيد بن أسلم على معدن بني سليم، وكان معدناً لا يزال يصيب الناس من قبل الجن، فشكوا ذلك إلى زيد، فأمرهم بالآذان وأن يرفعوا أصواتهم به ففعلوه فارتفع ذلك عنهم.

وعن ابن عباس أنه قال: مر عيسى عليه السلام ببقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا روح الله ادع الله أن يخلصني. فقال: يا خالق النفس من النفس ويا مخرج النفس من النفس خلصها.

فألقت ما في بطنها، فإذا عسر على المرأة ولدها فليكتب لها هذا.

وعن ابن عباس أنه قال: إذا عسر على المرأة ولدها فليكتب لها: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين. ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشية أو ضحاها﴾[٢].

﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون﴾[٣]: إلى آخر السورة.

وروي أن جبريل عليه السلام رقى النبي عليهما السلام، فجعل جبريل يقول: بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء يؤذيك من حاسد وعين.

ولهذا جواز الاسترقاء بما كان من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ، وأما ما كان بالسريانية والهندية مما لا يعرف معناه فإنه لا يحل اعتقاده عند العلماء والله أعلم.

---

(١) أطراف الحديث عند مسلم في السلام (ب ٢٣/ رقم ٦٥) والبخاري (٧/ ٧٠) وأحمد (٣/ ٤٤) وفي فتح الباري (١٠/ ١٩٨). وفي تفسير القرطبي (١/ ١١٣، ١٠/ ٣١٨).

(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧٥.

[٣٢٧] / وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي عليه السلام كان يأمر بالكلمات من الفزع حين شكى إليه خالد بن الوليد أنه يفزع في منامه. فقال: «بسم الله أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعذابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

فكان عبد الله بن عمرو من أدرك من ولده علمه إياهن، وأمره أن يقولهن إذا أراد أن ينام، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه والله أعلم.

وأما الطب فروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «الذي أنزل الدواء أنزل الداء»(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «[الكماة] من المن وماءها شفاء للعين»(٢). وقيل: أنه يخلط في الأدوية.

وروي أنه سئل سهل بن سعد: بأي شيء دوي جرح رسول الله ﷺ لما كسر على رأس رسول الله ﷺ البيضة وأدمى وجهه وكسرت رباعيته.

وكان علي يختلف بالماء في المجين وجاءت فاطمة تغسل عن وجهه الدم، فلما رأت فاطمة الدم يزيد على الماء كثرة عمدت إلى حصير فأحرقته وألصقته على جرح النبي عليه السلام فرّق الدم.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما ثقل النبي عليه السلام واشتد عليه وجعه، استأذن أزواجه أن يُمَرَّض في بيتي، فأذِنَّ له، فخرج بين رجلين تخط رجلاه في الأرض، فقال النبي عليه السلام بعدما دخل بيتها واشتد وجعه: «اهرقوا عليّ ماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعليّ أعهد إلى الناس»(٣).

---

(١) ذكر الحافظ نحو هذا في المغني (ج ٤ ص ٤٣٥ طبعة دار الحديث) وقال في حديث: «ما من داء إلاَّ له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلاَّ السام». رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله: «إلاَّ السام». وهو عند ابن ماجه مختصراً دون قوله: «عرفه.... إلى آخره». وإسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك «إلا الهرم» وللطبراني في الأوسط والبزار من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف، والبخاري من حديث أبي هريرة «ما أنزل الله داء إلاَّ أنزل له شفاء» ولمسلم من حديث جابر «لكل داء دواء». وفي حديث بلفظ: «تداووا عباد الله.....». رواه الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٦/ ٢٢، ٧٥)، (٧/ ١٦٤) ومسلم في الأشربة (١٥٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٤٥) وابن حجر في فتح الباري (٨/ ١٦٣)، (١٠/ ١٦٣) والمتقي الهندي في الكنز (٣٨٣٠٨) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٧٠، ٤/ ٧٨). وفي شرح السنة للبغوي (١١/ ٣٣٣) وفي الطب النبوي للذهبي (٧٨). وعند ابن عدي في الكامل للضعفاء (٤/ ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٤٥٣، ٢٠٠٠).

(٣) أطراف الحديث عند البخاري (١/ ١٦) والبيهقي في السنن (١/ ٣١) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين =

قالت: فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي عليه السلام، فطفقنا نصب عليه مر تلك القرب حتى جعل يشير إلينا. أن قد فعلتن.

قالت: فخرج / إلى الناس فصلى بهم، ثم خطبهم. [٣٢٨]

قال: ويحتمل أن يكون النبي عليه السلام أمر أن يصب عليه الماء من القرب التي لم تحلل أوكيتها، مع ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه عنه عليه السلام من تفضيل من لا يكتوي ولا يسترقي ليبين جواز ذلك مع أن تركه أفضل.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كويت من ذات الجنب والنبي عليه السلام حيّ، وشهدني أنس بن النضر وزيد بن ثابت وكواني أبو طلحة.

وقد روي أن سعد بن زرارة اكتوي في زمان النبي عليه السلام من الذبحة فمات، وأن عبد الله بن عمر اكتوي من اللقوة ورقي من العقرب، ويحتمل ذلك أن يكون النبي عليه السلام إنما فعل ذلك بوحي أوحي إليه أنه إذا فعل ذلك سيبرأ ويعهد إلى الناس ويبلغهم ما أمر بتبليغه، وسائر الناس إنما يقدم على التداوي رجاء أن يبرأ دون قطع بذلك ولا يقين ولهذا تأثير في الشرع.

وقد أباح الله أكل الميتة للمضطر؛ لأنه متيقن زوال جوعه بها، ومنعت العلماء شرب الخمر للعطش والتداوي؛ لأنه غير متيقن ببرء دائه بها والله أعلم.

وقد روي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشفاء في ثلاثة: لعقة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنا أنهى أمتي عن الكي»[(١)].

وفي حديث آخر: «إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم وشربة عسل ولدغة نار توافق الدواء وما أحب أن أكتوي».

قال وشكى إلى النبي ﷺ رجل فقال: أخي يشتكي بطنه. قال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه

= (٢٨٧/١٠) والبخاري في التاريخ الكبير (٤٠٨/١). وابن سعد في الطبقات (٢٩/٢/٢) والمتقي الهندي في الكنز (٢٨٢٣٤).

(١) أطراف الحديث عند البخاري (١٥٩/٧) وابن ماجه (٣٤٩١) وأحمد (٢٤٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤١/٩). والسيوطي في الدر المنثور (١٢٣/٤) وابن حجر في الفتح (١٣٦/١٠، ١٣٧)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥١٦)، والمتقي الهندي في الكنز (٨١٧١) وابن عبد البر في التمهيد (٢٧٤/٥) وابن كثير في التفسير (٥٠٢/٤) والقرطبي في التفسير (١٣٩/١٠).

فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه فقال: «صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلاً»[١] فسقاه فبرىء. [٣٢٩] /

وعنه عليه السلام أنه قال: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلاّ السام»[٢].

قال ابن شهاب: السام الموت والحبة السوداء الشُّونيز[٣].

وقد روي أن أقواماً قالوا: لا يجوز شرب الدواء إلاَّ لمرض قد وقع بالمريض وإما شربه لدفع إصابة داء فممنوع، وأجاز ذلك آخرون وهو مثل الحجامة لا تفعل غالباً إلاَّ لتوقع داء لم يوجد.

وقد قال عليه السلام: «إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري»[٤].

وقد يصلح الإنسان غرسه بالسقي ويلقح أشجاره وكل ذلك لدفع ما يحذر حدوثه من الفساد.

وعن علي أنه قال: من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله تعالى عنه سبعين نوعاً من البلاء. ومن أكل كل يوم سبع ثمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئاً يكرهه واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستشف النفساء بشيء أفضل من الرطب، والسمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهب البلغم، ومن أراد

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٧/١٥٩، ١٦٦) ومسلم في السلام (٩١) والترمذي (٢٨٢) وأحمد (٣/١٩، ٩٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٣٤٤) والحاكم في المستدرك (٤/٤٠٢) والبغوي في شرح السنة (١٢/١٤٧) والسيوطي في الدر المنثور (٤/١٢٣) وتفسير ابن كثير (٤/٥٠١).

(٢) أطراف الحديث عند: أحمد (٢/٤٢٣، ٦/١٤٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٨٨) والمتقي الهندي في الكنز (٢٨٢٥١) وفي تاريخ بغداد للبغدادي (١١/٤٣٧) والبخاري في التاريخ الكبير (٥/١٨٦). والألباني في الصحيحة (١٠٦٩، ١٨١٩).

(٣) من البزر فارس الأصل وهكذا ينطقونه بضم الشين وهو من شنز بكسر الشين عن أبي حنيفة هذه الحبة السوداء (لسان العرب ٥/٣٦٢).

(٤) أطراف الحديث عند: البخاري (٧/١٦٣)، والبيهقي في السنن (٩/٣٣٩) والسيوطي في مجمع الجوامع (٦٢٩١) والتبريزي في المشكاة (٤٥٢٢).، والساعاتي في بدائع المنن (١٧٧١) والشافعي في مسنده (١٩١) وشرح السنة للبغوي (١٢/١٥٥). وابن حجر في الفتح (١٠/١٤٨، ١٥٠) والذهبي في الطب النبوي (٧٥) والألباني في الصحيحة (٣/٤٣) وابن أبي حاتم في علل الحديث (٢٢٧٣). وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٤٤١).

البقاء، ولا بقاء إلا لله فليباكر الغداء وليقلل غشيان النساء، وليخفف الردى يعني الدِّين.

وروي أن الحجاج قال لبعض الأطباء: صف لي صفة لآخذ بها ولا أعدوها. قال: لا تنكح من النساء إلاَّ فتاة، ولا تأكل من اللحم إلاَّ فتياً، ولا تأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه ولا تشربن دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلاَّ نضيجاً ولا تأكل طعاماً إلاَّ أجدت مضغه وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه، فإذا شربت / فلا تأكل عليه شيئاً ولا تحبسن [٣٣٠] الغائط والبول، فإذا أكلت بالنهار فنم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة وتقول العرب في معناه: تغدّ تمدّ تعشّ تمش، يعني تمدد.

وقال حكيم لسمين: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فما هي؟ قال: أَكْل لباب البر، وصغار المعز، وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان.

قيل لأعرابي: ما أسمنك؟ قال: أكلي الحار وشربي القار والإتكاء على شمالي.

ويقال: أربعة تقوي البدن: أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان.

وأربعة تهين البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحموضة.

ويقال خمس خصال تهد العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البطنة، والمجامعة على الامتلاء وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق، ومجامعة العجوز.

وعن قتيبة قال: ثلاثة يورثن الهزال: شرب الماء على الريق، والنوم على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.

وقال يحيى بن خالد: شيئان يورثان العقل: التين اليابس إذا أكل ودخان اللبان إذا بخر به.

وسبعة أشياء تفسد العقل: الإكثار من أكل البصل، والباقلاء، والجماع، والخمر، وكثرة النظر في المرآة، والاستفراغ في الضحك، ودوام النظر في البحر.

وفي الحديث: «ثلاثة أشياء تورث النسيان أكل التفاح، وسؤر الفار، ونبذ القملة».

وفي رواية أخرى: «والحجامة على النقرة، والبول في الماء الراكد».

وقال ابن قتيبة: إذا خرج الطعام قبل ست ساعات فهو مكروه، وإذا بقي أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو ضرر والله أعلم.

[٣٣١] وهذا الذي قدمناه من الأدوية مباح / استعمالها، وإن ترك المداوات إتكالاً على الله ورضى بقضائه فذلك من أعلى مقامات التوكل.

وقد قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في مرضه ألاَ ندعو لك طبيباً؟ قال: قد دعوته. قيل: فما قال لك. قال: قال لي إني فَعّال لما أريد.

وقيل لأبي الدرداء: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنة. قيل: ألاَ ندعو لك طبيباً؟ قال: هو الذي أضجعني. وقيل لبعض الأطباء وقد أنهكته علة ألا تعالج؟ قال: إذا كان الداء من السماء بَطُل الدواء، وإذا قدر الرب بطل حذر المربوب، ونعم الدواء الأمل، وبئس الدواء الأجل. وينشد:

ما للطبيب يموت بالداء الذي ... قد كان يبرأ مثله فيما مضى
هلك المداوي والمداوى والذي ... جلب الدواء وباعه ومن اشترى

فصل

فيما ورد من النهي عن التصديق بالنجوم والكهانة وفي الحديث أن النبي ﷺ صلى الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على القوم فقال: «هل تدرون ما قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم بالغيب قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن به وكافر بالكوكب وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب»[1].

وذكر أهل العلم في معنى هذا الحديث: إن من جعل الفعل للكواكب أو قضى بنزول المطر عن حلول الكوكب في موضع من المواضع فهو كافر بالله. وأما من وصف ذلك بأن الله ينزل المطر متى ما شاء ويمسكه متى ما شاء ولا فعل فيه ولا تأثير للكوكب ولا لغيره، ولكن الله أجرى العادة بإرساله المطر في أوقات ما، وإمساكه في أوقات ما.

[٣٣٢] / وأن هذا هو الأغلب مما أجرى الله العادة به، وأنه قد تنقض هذه العادة؛ لأنها ليست

---

(١) أطراف الحديث عند الطبراني في الكبير (١٠/٢٨١)، (١٩/١٤٢، ١٤٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/٣٠٢). والمتقي الهندي في الكنز (٣٠٤٨، ١٩٠٣٠، ١٩٠٣٢) والسيوطي في الدر المنثور (١/٢٩٥، ٢٩٦) وفي الإتحافات السنية (٢٨١، ٢٨٢) وعند البيهقي في الأسماء والصفات (١٣٤)، والسهمي في تاريخ جرجان (٢٩٦).

بلازمة وإنما هي غالب الحال وكذا في أوقات الأنواء وبيّن ذلك قوله عليه السلام في حديث آخر: «أن نشأت بحرية ثم تشامت فتلك عين غديقة».

فحكم على السحاب إذا كان على هذه الصفة بالغدق، وكثرة المطر؛ لأن هذا هو غالب عادة تلك الجهة لا أن لكونها بحرية وتشامها بعد ذلك تأثيراً في نزول المطر أو كثرته أو قلته.

وعن عبد الله بن عمر عن النبي عليه السلام أنه قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلاَّ الله لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا يعلم أحد ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر»(١).

وسئل بعض العلماء عن الرجل ينظر في النجوم فيقول: الشمس تكسف غداً، والرجل يقدم وما أشبه ذلك. فقال: أرى أن يزجر عن هذا، فإن لم يزجر أدب والله أعلم. وينشد لمنصور:

من كان يخشى زحلاً ... أو كان يرجو المشتري
فإنني منه وإن ... كان أبى الأدنى بري

وله:

وليس للنجم إلى ... ضر ولا نفع سبيل
وإنما النجم على الأو ... قات والسمت دليل

وأما الكهان فقد روي عن عائشة أن أناساً سألوا النبي عليه السلام عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء» فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون. فقال: «تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقرأها في أذن وليه فيخلطون معها مائة / كذبة»(٢). [٣٣٣]

وقال عليه السلام: «من أتى عرّافاً أو كاهناً وصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»(٣). قال الشاعر:

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٦/ ٩٩، ٩/ ١٤٢). وابن حجر في الفتح (٨/ ٣٧٥)، (١٣/ ٣٦١). والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٦٩). وأحمد (٢/ ٥٢)، وتفسير الطبري (٢١/ ٥٦). والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٢٢).

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٨/ ٥٨). مسلم السلام (ب ٢٥/ ١٢٣) وأحمد (٦/ ٨٧). والطحاوي في مشكل الآثار (٣/ ١١٤). وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٣٤٧). وابن حجر في الفتح (١٠/ ٥٩٥).

(٣) أطراف الحديث عند: البيهقي (٨: ١٣٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٨) والمتقي الهندي في الكنز (١٧٦٧٨).

لا يعـرف المـرء يـومـاً مـا يتممـه إلا كـــواذب مـــا يخبـــره الفـــال
والفـال والـزجـر والكهـان كلهـم مضللـــون ودون الغيـــب أقفـــال

وقد قال تعالى: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١) الآية.

وقد قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٢).

وأحسب أني رأيت عن جابر بن زيد أنه لا يفرق بين الساحر والمنجم في الضلال والله أعلم.

فصل في الفال والطيرة

قال الله سبحانه: ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣). وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ....﴾(٤) الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من الجذام فرارك من الأسد»(٥).

قال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمال لكأنها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال عليه السلام: «فمن أعدى الأول»(٦). فالعدوى: هو ما يظنه الناس من تعدي العلل، والأمراض فأخبر أنه لا يعدي. فقيل: يا رسول الله: إنا نرى النقبة من الجرب في مشفر البعير فيعدي إلى جميعه، قال: «فما أعدى الأول».

---

(١) سورة الجن، (الآيتان: ٢٦، ٢٧).
(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥.
(٣) سورة النمل، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٥) أطراف الحديث عند البخاري (ج ٧/ ١٦٤) أحمد (٢/ ٢٢، ٢٢٢، ٤٣٤) وابن ماجه (٨٦، ٣٥٣٩، ٣٥٤٠) والطبراني في الكبير (١٧/ ٥٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٠٢) والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٦٧) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥٧٧) والألباني في الصحيحة (٧٨٢ و٧٨٣) والمتقي الهندي في الكنز (٤/ ٢٨٦، ٢٨٥٩٩، ٢٨٦٠٠، ٢٨٦٠٣، ٢٨٦١١، ٢٨٦١٢، ٢٨٦٢٢، ٢٨٦٢٣)، وابن حجر في الفتح (١٠/ ٢١٥، ١٥٨) والزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٥٥).
(٦) أطراف الحديث عند: البخاري (٧/ ١٦٦، ١٧٩، ١٨٠) ومسلم في السلام (١٠١) وأبو داود في الطب (ب ٣٤) وابن ماجه (٣٥٤٠) وأحمد (١/ ٢٦٩، ٣٢٨، ٣/ ٤٣٤) والبيهقي (٧/ ٢١٦، ٢١٧) وابن حجر في الفتح (١٠/ ١٦١).

وأما الطيرة: فإن العرب كانت إذا أرادت سفراً نفرت أول طائر تلقاه فإن طار يمنة سارت وتيامنت وإن طار شأمة رجعت وتشامت فنهى النبي عليه السلام عن ذلك فقال: «أقروا الطير على وكناتها»(١).

وقد روي أن النابغة الذبياني تجهز هو، وزبان بن يسار الفزاري / للغزو فسقطت على [٣٣٤ب] النابغة جرادة فقال: جرادة تجرد وذات لونين، فتطير وبقي فمضى زبان ورجع فقال:

تخيــر طيــرة فيهــا زيــاد	لتخبــره ومــا فيهــا خبيــر
أقــام مكــان لقمــان بــن عــاد	أشــار لــه بحكمتــه مشيــر
تعلــم أنـــه لا طيــر إلا	علــى متطيــر وهــو الثبــور
بلـى شـيء يـوافـق بعـض شـيء	أحــايينــا وبــاطلــه كثيــرا
ومــن يتــرح بــه لا بــد يومــاً	يجــيء بــه نعمــى أو بشيــر

وحكي عن عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم: خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شر.

واعلم أنه لا شيء أفسد للرأي، وأضر بالتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء أو يدفع مقدوراً، فقد جهل حكم الله وساق إلى نفسه الحرمان، واتسم بالإدبار بل قضاء الله نافذ قال الشاعر:

طيــرة النــاس لا تــرد قضــاء	فــاعــذر الــدهــر لا تسبــه بلــوم
أي يــــوم تخصـــه بسعــــود	والمنــايــا ينــزلــن فــي كــل يــوم
ليــس يــوم إلا وفيــه سعــود	ونحــوس تجــري لقــوم وقــوم

وقد كانت الفرس فيما بلغنا أكثر الناس طيرة.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظننتم فلا تحققوا وإذا حسدتم فلا تبغوا وإذا تطيرتم فامضوا وعلى الله توكلوا»(٢).

فينبغي لمن مني بالطيرة وبلي بها أن يصرف عن نفسه وساوس النوكا، ودواعي الخيبة والحرمان ولا يجعل للشيطان سلطاناً عليه في نقض عزائمه ومعارضة خالقه / وليعلم أن [٣٣٥]

---

(١) أطراف الحديث عند: الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٠٦).

(٢) أطراف الحديث عند العجلوني في كشف الخفا (١/١١١) وابن عبد البر في التمهيد (٦/١٢٥).

قضاء الله نافذ ورزق العبد له طالب وأن الحركة سببه فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقاً ولا يدفع مقدوراً، وليمض في عزائمه واثقاً بالله تعالى إن أعطى وراضياً به إن منع. وينشد:

وما عاجلات الطير تدني من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
ورب أمور لا تضيرك طيرة وللقلب من مخشاتهن وجيب

فإن قال قائل: إن النبي عليه السلام قال: «لا يردن هائم على مصح»(١). قيل له: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الله تعالى قد أجرى العادة بمرض الصحيح عند مجاورة المريض بنوع من الأمراض له.

والثاني: يحتمل أن يريد به ما يطرأ نفسه على نفس المصح من الإشفاق والمخافة فنهى عن ذلك لأجل الأذى والله أعلم.

وأما الهامة المذكورة في الحديث المتقدم فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده أن القتيل إذا ظل دمه ولم يؤخذ بثأره صاحت هامته من القبر اسقوني. قال الزبرقان بن برد:

يا عمرو ألا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وفي كتاب المسعودي(٢) قال: وزعمت طائفة من العرب أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا مات لم يزل طائفاً به متصوراً في صورة طائر يصرخ على قبره ويسمونه الهامة ويزعمون أنه يكون صغيراً ثم يكبر حتى يصير كالبوم، فأبطل النبي عليه السلام ذلك فقال: «لا هامة ولا صفر»(٣).

[٣٣٦] وهي كالحية تكون في الجوف تصيب الماشية والناس وهي عندهم أعدى / من الجرب. قال الشاعر:

لا يتأر لما في القدر يرقبه ولا يعض على شر سوفه الصفر

---

(١) أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده (١/ ٢٠).
(٢) راجع معجم المؤلفين (ج ٧ ص ٢٧٢، ١٠ ص ١٢٦، ١٥٥، ٢٢٤، ٢٥٩، ١٢/ ١٧) وإن كان الراجح أن المؤلف يريد السعودي ـ علي بن الحسين ـ أبو الحسن ٣٤٥.
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٨، ٤٤٠).

وينبغي للإنسان بل يجب عليه أن يتوكل على الله، ولا يتطير وقد قال عليه السلام: «كفارة الطيرة التوكل على الله».

وليقل الإنسان إذا عارضه في الطيرة ما يكره عنه عليه السلام أنه قال: «من تطير فليقل: اللهم لا طير إلاَّ طيرك ولا يأتي بالخيرات إلاَّ أنت ولا يدفع السيئات إلاَّ أنت ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم»[1].

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله إنا نزلنا دار فكثر فيها عددنا وأموالنا ثم تحولنا إلى أخرى فقلّت فيها أموالنا وعددنا. فقال عليه السلام: «ذروها ذميمة»[2].

وليس هذا منه على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش عنه إلى ما أنس به والله أعلم.

وأما الفال: ففيه تقوية على العزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر، وقد روي أن النبي عليه السلام كان يتفاءل في غزواته وحروبه.

وروي أنه سمع كلمة فأعجبته فقال: «أخذنا فالك من فيك»[3].

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «من يحلب هذه اللقحة»؟. فقال رجل: أنا، فقال: «ما اسمك»؟ فقال: موت، فقال: «اجلس»، ثم قال: «من يحلب هذه»؟ فقام رجل فقال: أنا، فقال: «ما اسمك»؟ قال: يعيش، فقال له: «احلب».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة. قال: ابن من؟ قال: شهاب. قال: مِنْ مَنْ؟ قال: من الحرقة. قال:/ أين مسكنك؟ قال: بحرّة النار. [٣٣٧] قال: بأيِّها؟ قال: بذات لظى. قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا. فكان كما قال عمر رحمه الله.

قال بعض الحكماء: فقد فرّق الحُذّاق من أهل النظر بين الطيرة والفأل.

---

(١) أطراف الحديث عند ابن حجر في الفتح (٤/٣٨، ١٠/٢١٣) وابن سعد في الطبقات (٤/٢/١٣).

(٢) أطراف الحديث عند أبو داود (٣٩٢٤) الطبراني في الكبير (٢٤٧) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥٨٩) والمتقي الهندي في الكنز (٨/٢٨٥٧، ٣٩٢٤) والألباني في الصحيحة (٧٩٠).

(٣) أطراف الحديث عند أبو داود (٢٩١٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٥، ٢٨٦)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/٦٨) والزبيدي في الإتحاف (١٠/٥٥٦) والمتقي الهندي في الكنز (٢٨٥٨٢).

فقال: الطيرة كانت العرب ترجع إلى ما تمضيها، وتجري على ما تقضيها، فمن همّ بهم فرأى ما يتطير منه رجع عنه.

والفأل لا يرد المريد عما يريده، وإنما يقوي منّته، ويسر مهجته.

وينبغي لمن تفاءل أن يتأوّل الفأل بأحسن التأويل ولا يجعل لسوء الظن إلى نفسه سبيلاً، وقد قال النبي عليه السلام: «إن البلاء وكل بالمنطق»[1].

وقد حكي أن يوسف عليه السلام شكى إلى الله سبحانه طول السجن فأوحى الله إليه: يا يوسف أنت حبست نفسك قلت: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾[2]. لو قلت: العافية أحب إليّ لعوفيت. وحكي أن المؤمل بن إميل الشاعر لما قال:

شف المؤمن يوم الحيرة النظر ... ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي، فأتاه آت في منامه فقال: هذا ما طلبت.

وحكي أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوماً في المصحف، فخرج قوله عز وجل: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[3] فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث أياماً إلاّ وقتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من غضبه.

واعتمد يا أخي على الله تعالى وتوكل عليه فإنه لا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه، وينشد:

قالوا: تقيم وقد أحا ... ط بك العدوّ ولا تفر

/ فأجبتهم والشيخ ما ... لم ينتفع بالعلم غر [٣٣٨]

لا نلت خيراً ما بقيـ ... ـت ولا عداني الدهر شر

إن كنت أعلم أن غـ ... ـير الله ينفع أو يضر

غيره:

ما قدر الله لا بد يدركني ... من ذا الذي يدفع المقدور بالحذر

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٣٨٩/٧).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٥.

الله أولـى بنـا منـا لأنفسنـا ... إن نحـن إلا ممـاليـك لمقتـدر

غيره:

أقـام عـن المسيـر وقـد أنيخـت ... مطـايـاه وغـرد حـاديهـا

وقـال أخـاف عـاديـة الليـالـي ... علـى نفسـي وأن ألقـى رداهـا

مشينـا فـي خطـى كتبـت علينـا ... ومـن كتبـت عليـه خطـاً مشـاهـا

وأرزاق لنـا قسمـت علينـا ... فمـن لـم تـأتـه منـا أتـاهـا

ومـن كتبـت منيتـه بـأرض ... فليـس يمـوت فـي أرض سـواهـا

غيره:

ليـس كـل الـذي بـدار مـن الأمـ ... ـر علينـا يـوافـق المقـدور

قـدّر الله مـا لنـا وعلينـا ... قبـل أن يبـرم العـدو الأمـور

فصل في الرضى بقضاء الله والتسليم لأمره

اعلم يا أخي أن كفاية ما يجري به المقادير هو الرضى بقضاء الله فيها، والتسليم لأمره تعالى.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ: أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا وأن محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وشكر نعمائي، وصبر لبلائي كتبته صديّقاً، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي فليتخذ رباً سواي.

ويروى أن عيسى عليه السلام مَرّ برجل أعمى أبرص، مقعد، مضروب الجنبين / يعالج [٣٣٩] وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه. فقال له عيسى عليه السلام: أي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك. فقال: يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته. فقال له: صدقت هات يدك، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد به.

فالواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله عز وجل لأمرين:

أحدهما: ليتفرغ للعبادة؛ لأنه إذا لم يرض بالقضاء يكون مشغول القلب مهموماً أبداً بأنه لم كان كذا وكذا، ولم لا يكون كذا وكذا، وقد قال بعض العلماء: إن حسرة الأمور الماضية وتدبير الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك.

والثاني من الأمرين: خطر ما في السخط من عذاب الله تعالى، وقد روي في الخبر أن نبياً من الأنبياء شكى إلى الله سبحانه ما ناله من المكروه فأوحى الله تعالى إليه: إلى كم تشكوني ولست بأهل ذم ولا شكوى، هكذا كان بدء شأنك في علم الغيب فكم تسخط قضاءي عليك أتريد أن أغير الدنيا لأجلك أو أبدّل اللوح المحفوظ بسببك، فأقضي ما تريد دون ما أريد فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأسلبنك ثوب النبوة، ولأوردنك النار ولا أبالي.

يا أخي انظر إلى هذه السياسة العظيمة، والوعد الهائل مع أنبيائه وأصفيائه فكيف ما غيرهم، ثم استمع ما يقول: لئن تلجلج في صدرك مرة أخرى.

[٣٤٠] هذا في حديث النفس فكيف بمن يصرخ ويستغيث / ويشكو وينادي بالويل والصراخ من ربه على رؤوس الملأ، ويتخذ على ذلك أعواناً وأصحاباً، هذا لمن سخطه مرة فكيف بمن هو في السخط على الله تعالى طول عمره، وهذا لمن شكى إليه فكيف بمن شكى إلى غيره نعوذ بالله من شرور أنفسنا وينشد:

إن شئت أن تنقضي محياك طيبة ... فاعط الرضى بالذي يرضى به الله
فاختر إرادته فيما كرهت وما ... احببت فالخير فيما الله أولاه

وقال بعض الحكماء: العالم بالله تعالى يعمل على بصيرة الإعطاء والمنع عنده سواء.

وقال بعضهم: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء، وقال بعض العلماء: الرضى عن الله، والرحمة للمخلوقين درجة المرسلين. وقال بعضهم:

رضيت بما قسم الله لي ... وفوضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى ... كذلك يحسن فيما بقي

فإن قيل: ما معنى الرضى بالقضاء وحقيقته وحكمه؟ فاعلم أن أهل العلم قالوا: الرضى ترك السخط والسخط ذكر غير ما قضى الله بأنه أولى به وأصلح له فيما لا يستيقن فساده وصلاحه هكذا الشرط فيه.

فإن قيل: أليس الشرور والمعاصي بقضاء الله وقدره فكيف يرضى العبد الشرور ويلزمه ذلك؟

فاعلم أن الرضى إنما يلزم بالقضاء، وقضاء الشر ليس بشر فإنما الشر هو المقضي فلا

يكون رضى بالشر حينئذٍ، وقد قالت المشايخ المقتضيات أربع: نعمة وشدة وخير وشر.

فالنعمة يجب الرضى فيها بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه الشكر من حيث أنه نعمة. والشدة يجب الرضى فيها بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه الصبر من حيث أنه شدة، والخير يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء / والمقضي وعليه ذكر المنة من حيث أنه خير مقضي [٣٤١] ووفقه الله له، والشر يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء والمقضي من حيث أنه مقضي لا من حيث أنه شر والله أعلم.

وجملة الأمر أن أفعال الله تعالى على وجهين نعمة ونقمة، فالواجب على العبد أن يعلم أن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ويرضى بذلك ولا يجور الله تعالى ولا يسخط فعله، فإن فعل فهو هالك وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل.

القنطرة الثالثة عشرة
قنطرة الخوف والرجاء

وتسمى قنطرة البواعث وذلك أن العبد لما قطع قنطرة العوارض، ورجع إلى العبادة، فنظر فإذا النفس كسلى فاترة لا تنشط للخير، ولا تنبعث للعبادة كما يجب وينبغي، وإنما ميلها أبداً إلى غفلة وراحة وبطالة، بل إلى شر وفضول وبلية وجهالة، فاحتاج معها هاهنا إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة، وينشطها له، وإلى زاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه وهما: الخوف من عذاب الله والرجاء في ثوابه عز وجل مع توابعهما من العذر والإشفاق من مكر الله، والمحبة، والشوق إلى لقائه. فينبعث من هذه القنطرة بابان:

أحدهما: باب الخوف.

والثاني: باب الرجاء.

الباب الأول
فـــي الخـــوف

اعلم أن منازل العباد عند الله على قدر مخافتهم منه، وأعلمهم به أبعدهم أماناً من مكره ومخافة / عقابه وقد ذكر الله عز وجل أقواماً ووصفهم بالوجل عند ذكره والإشفاق من عذابه [٣٤٢] فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(١)] الآية. أي رقت لله مخافة من عذابه. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[(٢)].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين إن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة وإذا خافني في الدنيا أمنته في الآخرة».

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٧.

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما جاءني جبريل قط إلاَّ وهو يرتعد فرقاً من الجبار جل جلاله»(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه»(٢).

وعن وهب بن منبه أنه قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً كان يسمع خفقان قلبه من بعيد.

وروي أن النبي عليه السلام قرأ يوماً: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾(٣). فصعق به.

وقال بعض الحكماء: إن لله عباداً أسكتتهم خشية من غير عيّ بهم ولا بكم، وإنهم لهم النبلاء الفصحاء العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تعالى عز وجل تقطعت قلوبهم وكلّت ألسنتهم وطاشت عقولهم فرقاً من الله عز وجل وهيبة له. وأنشد في أصحاب أبي بلال مرداس رحمه الله:

ألا في الله لا في الناس شالت ... بداود وإخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلبا ... تحوم عليهم طير وقوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيسفر عنهم وهم ركوع

/ ويروى والله أعلم لما ظهر على إبليس لعنه الله ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيان [٣٤٣] زماناً طويلاً فأوحى الله تعالى إليهما: ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا ربنا لا نأمن مكرك. فقال الله لهما: فكذلك كونا لا تأمنا مكري.

وعن حاتم الأصم أنه قال: لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة، فلقي آدم فيها ما لقي، فلا تغتر بكثرة العلم؛ فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا

(١) قال الحافظ العراقي في نحوه في المغني (ج ٤ ص ٢٧٩). لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: إن جبرائيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائصه فرقا من عذاب الله الحديث. وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفته.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٣ ص ٣١٧ طبعة دار الحديث). أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع.

(٣) سورة المزمل، (الآيتان: ١٢، ١٣).

تغتر برؤية الصالحين، فلا شخص أكبر من المصطفى عليه السلام، فلم ينتفع بلقائه أقاربه وأعدائه.

وقال معاذ بن جبل رحمه الله: إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم.

وقال بعض العلماء: ليس الخائف الذي يبكي ويعصر عينيه، ولكن الخائف من ترك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقال الحكيم: من خاف الله هرب إليه ومن خاف من شيء هرب منه، ويقال علامة الخوف الحزن الدائم.

وسئل ذو النون: متى يتيسر على العبد سبيل الخوف؟ قال: إذا أنزل نفسه منزلة السقيم، يختفي من كل شيء يخاف منه طول السقم.

وقال بعضهم: ما فارق الخوف قلباً إلاَّ خرب.

وقال حاتم الأصم: لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف.

وقال بعض العلماء: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً منها وباطناً.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله: الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، هو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبل منه ذلك»(١).

[٣٤٤] وروي عن النبي ﷺ: أن جبريل عليه السلام كان عنده فصار مثل / الفرخ فقال له: «مالك»؟ قال: هبط إسرافيل إلى الأرض ولم يهبط قبلها، فظننت أنه أمر بي ثم بكى. فقال: إبليس عبد الله ثمانين ألف سنة ثم صار إلى ما صار إليه، فما زالا يبكيان حتى ناداهما منادٍ من السماء: قُومَا فإن الله آمنكما أن يبتليكما بمعصية فيعذبكما عليها»(٢). والله أعلم.

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٥/١١).

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٧/١٣٢) وأبو داود في الخراج (ب ٢٠). والنسائي في الصيام (ب ٨٣). وابن ماجه (٥٣٥، ٢٦٨٠). وأحمد (٢/٢٠٨، ٦/٤٣٤) والبيهقي في السنن (٤/٢٢٤، ١٠/ ٨٠) وابن سعد في الطبقات (٨/٢٠٣) وأبي حنيفة في جامع المسانيد (١/٢٦٣) والطبراني في المعجم الكبير (٧/٣٧) والهيثمي (٥/٢٥٤، ٩/٢٧٠، ١٠/١٦١) والزبيدي في الإتحاف (٧/١٨٨). والمتقي الهندي في الكنز (١٣٧٤٢، ٣٧٨٠٢) وابن كثير في التفسير (٢/١٣٣).

فصـــل

اعلم أن استقامة العبادة لا تصح لطالبها إلاّ باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما، أما الخوف فيجب التزامه لأمرين:

أحدهما: الزجر عن المعاصي فإن هذه النفس الأمّارة بالسوء ميالة إلى الشر، طماحة إلى الفتنة، لا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم، وتهديد بالغ، وليست هي في طبعها حرة يهمها الوفاء ويمنعها الحياء عن الجفاء، وإنما هي كما قال القائل:

العبـــد يقـــرع بـــالعصـــى والحـــر تكفيـــه المـــلامـــة

والتدبير في أمرها أن تقرعها أبداً بسوط التخويف قولاً وفعلاً نحو ما ذكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعته إلى معصية، فانطلق ونزع ثيابه وجعل يتمرغ في الرمضاء ويقول: ذوقي فإن نار جهنم أشد حراً من هذه يا جيفة بالليل بطالة بالنهار.

والثاني: لئلا تعجب بالطاعة فتهلك، بل يقمعها بالذم والعتب والنقص من الأسواء والأوزار التي فيها ضروب الأخطار، وذلك نحو ما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أخذني الله أنا وأخي عيسى بما عملت هاتان الأصبعان لعذبنا بعذاب لم يعذب به أحد».

وعن الحسن كان يقول: ما يؤمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنباً، فأطبق باب المغفرة دونه وهو يعمل في غير معمل.

وعن ابن السماك فيما يعاتب به نفسه: تقولين قول الزاهدين، وتعملين عمل المنافقين، وفي الجنة تطمعين، هيهات هيهات إنّ للجنة قوماً آخرين ولهم أعمال غير / ما تعملين. [٣٤٥]

فهذه وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها للنفس وتكريرها عليها لئلا تعجب بطاعة الله أو تقع في معصيته.

وعن ابن المبارك أنه قال: الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب دوام المراقبة في السر والعلانية وقد فرض الله على العباد أن يخافوه وقال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] ﴿وَإِيَّايَ فَٱرْهَبُونِ﴾[2] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[3] في أمثالها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

ومن الآيات التي تهيج الخوف نحو قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾[(١)].

وكقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجزَ بِهِ﴾[(٢)].

ونحو قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[(٣)].

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[(٤)].

في أمثالها فينبغي للإنسان أن يتفكر فيما أوردناه من الأخبار والآيات حتى يتمكن الخوف من قلبه، ويتفكر أيضاً في أفعال الله سبحانه ومعاملاته أصنافاً من خلقه:

من ذلك أولاً إبليس اللعين الذي عَبَدَ الله سبحانه في كتب أصحابنا ستة آلاف سنة أو ما شاء الله، وفي كتاب الغزالي ثمانين ألف سنة، فلم يترك لله تعالى موضع قدم إلاّ وسجد لله تعالى فيه سجدة، ثم ترك له أمراً واحداً فطرده عن بابه ولعنه إلى يوم الدين، وأعد له عذاباً أبد الآبدين.

ثم آدم عليه السلام صفيه ونبيه الذي خلقه بيده وأسجد له ملائكته، فأكل أكلة واحدة لم يأذن له فيها، فنودي أن لا يجاورني من عصاني فاهبط إلى الأرض، فلم تقبل توبته فيما روي حتى بكى على ذلك مائتي سنة، ولحقه من الهوان ما لحقه، فبقيت ذريته في تبعات ذلك إلى الأبد.

ثم إن نوحاً شيخ المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين الذي احتمل من أمر الدين ما احتمل لم يقل إلاّ كلمة واحدة على غير وجهها إذ نودي: ﴿فَلاَ تَسْئَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[(٥)] الآية. حتى روي أنه لم يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله أربعين سنة.

[٣٤٦] ثم إبراهيم خليل الرحمن لم تكن منه إلاّ هفوة واحدة، ويقال: ثلاث هفوات / كلها يماحل بها عن الدين: وذلك قوله حين كسر الأصنام وعلق الفأس على الكبير منها، فلما قيل له: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[(٦)]. وقوله مكراً بهم: ﴿إِنِّي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.
(٥) سورة هود، الآية: ٤٦.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

سَقِيمٌ﴾[١]. وقوله للجبار في امرأته: إنها أختي، فكم خاف وتضرع وقال: ﴿وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[٢].

حتى روي أنه كان يبكي من شدة الخوف، فيرسل الله تعالى إليه الأمين جبريل عليه السلام فيقول: يا إبراهيم هل رأيت خليلاً يعذب خليله بالنار؟ فيقول: يا جبريل إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلته.

ثم موسى عليه السلام، لم تكن منه إلاَّ وكزة الكافر بالله قبطي، إلاَّ أنه لم يؤمر بذلك، فكم خاف واستغفر وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[٣].

وفيما أوحي إليه: يا موسى لو أن النفس التي قتلت آمنت في طرفة عين إني خالقها ورزاقها لأذقتك بها أليم العذاب.

ثم في زمانه بلعام بن باعوراء، ذكر الغزالي في كتابه أنه كان بحيث نظر يرى العرش، وزعم أنه هو المراد بقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[٤].

ولم يقل آية واحدة، مال إلى الدنيا وأهلها ميلة واحدة، وترك لولي من أولياء الله حرمة واحدة سلبه الله معرفته، وتركه بمنزلة الكلب المطرود: ﴿إِنْ تَحْمِل عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[٥].

حتى روي في كتاب الغزالي قال: سمعت بعض العلماء يقول: أنه كان في بدء أمره بحيث يكون في مجلسه اثني عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه، ثم صار فيما زعم بحيث كان أول من صنّف كتاباً: أن ليس للعالم صانع، نعوذ بالله من سخطه وخذلانه، وفظيع عذابه وعقابه، الذي لا طاقة لنا به. وذكر في بعض الكتب: أن بلعام فضحته أتانه فقالت: ويلك يا بلعام تنكحني بالليل وتركبني بالنهار. فانظر إلى حب الدنيا / وشومها ماذا يجلب [٣٤٧] للعلماء فتنبه، فإن الأمر خطير، والعمر قصير، وفي الأعمال تقصير، والناقد بصير، فإن ختم بالخير أعمالنا وأقالنا عثراتنا فما ذلك عليه بعسير.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٩.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة القصص، الآية: ١٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

ثم انظر إلى داود خليفة الله في أرضه، أذنب ذنباً واحداً فبكى عليه حتى قيل: أن العشب نبت من دموعه، وعن بعض العلماء أن داود عليه السلام خرّ ساجداً أربعين سنة[١]، فرفع رأسه وما في جبهته نخارة لخم، وعن الأوزاعي قال: كانت عينا داود كالقربتين تنطفان الماء، ولقد كانت الدموع أخذت في وجهه كجرية الماء في الأرض.

وعن مجاهد قال: مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينيه، فنودي يا داود أجائع فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى فأجيب في غير ما طلب، فنحب نحبة فاحترق العشب من حر جوفه، ثم أنزل الله عليه التوبة المغفرة. فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي.

فما كان يبسط كفه لطعام ولا شراب ولا شيء سوى ذلك إلاّ رآها فأبكته.

وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاه ماء فإذا تناول أبصر خطيئته فما يضعه على شفتيه حتى يفيض من دموعه، وزعموا أن توبته لم تقبل إلى أربعين يوماً وقيل إلى أربعين سنة والله أعلم.

ثم انظر إلى يونس عليه السلام غضب غضبة واحدة في غير موضعها، فسجنه الجبار في بطن الحوت تحت قعر البحار أربعين يوماً: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَاتِ أَنْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[٢]. فسمعت الملائكة صوته فقالوا: إلهنا صوت معروف في موضع مجهول.

فقال تعالى: ذلك عبدي يونس. فشفعت فيه الملائكة، ثم مع ذلك غير اسمه ونسبه إلى سجنه فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾[٣] الآية. فقال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾[٤] الآية. ثم ذكر نعمته ومنته عليه فقال: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٥] الآية.

[٣٤٨] فانظروا إلى هذه السياسة أيها / المسكين وكذلك هلمّ جرّا إلى سيد المرسلين أكرم الخلق على الله تعالى بقوله له: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾[٦] الآية.

---

(١) جاء على هامش المخطوط لفظ «ليلة» وفوقها حرف «خ» وإشارة إلى أن موضعها مكان لفظة «سنة».
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٤٢.
(٥) سورة القلم، الآية: ٤٩.
(٦) سورة هود، الآية: ١١٢.

حتى كان عليه السلام يقول: «شيبتني سورة هود وأخواتها»(١). قيل: يعني هذه الآية وأشكالها في القرآن. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾(٢) إلى أن مَنّ الله عليه بالغفران فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾(٣) الآية. وقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٤).

فكان بعد ذلك عليه السلام يصلي الليل حتى تورمت قدماه فيقولون: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(٥). وكان يقول: «لو أخذني الله أنا وأخي عيسى بما فعلت هاتان الأصبعان لعذبنا بالنار».

وفي حديث آخر: «لعذبنا عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين». وكان يصلي الليل ويبكي ويقول: «أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٦).

ثم الصحابة الذين هم خير قرن من هذه الأمة كان يبدو أمنهم شيء من المزاح، فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٧) الآية.

ثم وضع في هذه الأمة مع كونها أمة مرحومة من الحدود والسياسة العظيمة حتى كان

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٢٦٣ طبعة دار الحديث). أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في الشمائل من حديث أبي جحيفة. وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٣) سورة الشرح، الآية: ٢.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٤٥ ـ طبعة دار الحديث) متفق عليه وفي (ج ٤ ص ١٢٧) قال أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث. ونص ما في (ج ٤ ص ١٢٧) «أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ الآية». وبه حكاية عن السيدة عائشة.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ١٣٦). أخرجه مسلم من حديث عائشة «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك... الحديث».

(٧) سورة الحديد، الآية: ١٦.

بعض العلماء يقول: لا يأمن من قطع في خمسة دراهم خير عضو منه أن كونِ عذابه هكذا غداً، نسأل الله البار الرحيم أن لا يعاملنا لا بمحض كرمه إنه أرحم الراحمين.

فصل

وفي كتاب المحاسبي[(١)] قال: معنى الخوف هو مطالعة القلب لسطوات الله تعالى ونقماته، فيولد ذلك في القلب فزعاً من خوف الوعيد وعلامته: الفرار من مواطن العقوبات رجاء السلامة، وشدة الحركة عند ذكر النار وأهوال القيامة، والفرار من الخلق، وشدة البكاء، والنفور من ذكر المعصية والعاصين، وتغير اللون عند الحوادث مثل: الريح العاصف، والرعد القاصف، والظلمة، والزلزلة، والخسوف وأشباه ذلك.

وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا سمع الريح تغير وجهه، ودخل وخرج.

وقد روي عن عطاء السلمي أنه نظر إلى سحابة نشأت في السماء فوضع يده على أم [٣٤٩]رأسه وجعل يبكي ويقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ / عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٢)].

وقد روي أن رجلاً من خثعم قرأ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْداً وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً﴾[(٣)]. فاضطرب مسروق وكان من الخائفين فقال: أعد عليّ، ويحك فإني أراني من المجرمين ولست من المتقين، فأعادها عليه فشهق شهقة لحق منها إلى الآخرة.

قال: ويكون حاله عند سكون هيجان الخوف عنه قاعداً مستوفزاً كأنه ينظر شيئاً يريده أو يراد به كما قال ابن المبارك:

مستوفزين على رجل كأنهم ... ركب يريدون أن يمضوا وينتقلوا
قد صيروا ليلهم إبلاً لخدمته ... فلن يحطوا رحال الإبل أو يصلوا

---

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي البصري (أبو عبد الله) صوفي متكلم، فقيه محدث ولد بالبصرة، وحدث عن يزيد بن هارون وطبقته وروى عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي وغيره وتوفي في بغداد ومن تصانيفه بالتفكر والاعتبار ـ الرعاية في الأخلاق والزهد ـ وكتب كثيرة في الزهد وأصول الديانات والرد على المخالفين من المعتزلة والشيعة معجم المؤلفين (٣/١٧٣).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٨٥، ٨٦.

قال: والحركة التي يظن أنه مأخوذ بها مثل الهدة والوجبة والضجة على غفلة أو كلمة يرجف منها قلبه: مثل ما روي عن زرارة بن أوفى أنه قرأ في محرابه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾(١). فشهق شهقة نقل بها من محرابه ميتاً.

وقد روي عن بعضهم أنه كان يقد تحت قدر له فأصاب وجهه شيء من سواد القدر.

فقالت له ابنته: يا أبتاه وجهك قد اسوّد، فصاح صيحة فخرّ مغشياً عليه، فلما أفاق مسح وجهه بيده وقال: خفت أن يكون الله عز وجل سَوَّد وجهي في الدنيا قبل الآخرة.

ألا ترى أنه لما صادفت الكلمة ما قام في وهمه من المخاوف فاستقرب قلبه في تعجيل نكال الآخرة، قال: وتزايد الخائفين في الخوف يكون على قدر لزوم القلب للأسباب المهيجة للخوف كالتي قدمناها: فمنهم من يهيج به الخوف فيؤلمه وينحله ويشغله على قدر ما وافق من رقة القلب وصفاء الذهن ثم يأخذ الخوف في سائر الجسد على قدر قوة العلم في السطوة والنقمة.

قال: ومثلهم في ذلك كركاب السفينة كلما اشتد عليهم هيجان الأمواج وتلجلجت اشتدت المخاوف وهكذا إذا هاجت أسباب المعرفة من القلوب بسطوات الله تعالى ونقماته وجلاله وعظمته هاج في القلب خوف تلف النفس حتى يكون كالغريق الذي لا يحسن السباحة فقد اشتد مخاوفه لخوف قلبه والله أعلم.

الباب الثاني
في الرجاء

قال الله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾(٢). [٣٥٠]

وقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾(٤).

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[١] الآية. فحدّث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج.

وفي الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن والإنس والبهائم فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وادّخر منها تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة»[٢].

وفي خبر آخر: أنه تعالى قابض تلك الرحمة الواحدة فتمّ بها مائة رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة.

وفي خبر آخر: «أن الله تعالى يقول للمؤمنين يوم القيامة: أما ما بيني وبينكم فقد وهبته لكم، فتواهبوا فيما بينكم، فادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم»[٣].

وقد روي أن النبي عليه السلام دخل من باب بني شيبة فرأى قوماً يضحكون فقال لهم: «لم تضحكون لا أراكم» حتى إذا كان عند الحجر رجع إليهم القهقرى فقال: «جاءني جبريل فقال: يا محمد إن الله تعالى يقول: لا تقنط عبادي من رحمتي: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٤] الآية. وقال عليه السلام: «الله أرحم لعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة لولدها»[٥].

في أمثالها كثير، فمن ذا الذي يعرف غاية رحمة الله أو يحسن وصفها إذ يغفر لعبده كفر مائة سنة أو ما شاء الله بإيمان ساعة واحدة كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[٦]. وقال: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾[٧]. قيل معناه: احطط عنا خطايانا، وقيل: قولوا لا إله إلا الله، وقال عليه السلام: «جب لما قبله».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٢٣٤) طبعة دار الحديث. في نحوه متفق عليه من حديث أبي هريرة. وفي (ج ٥ ص١٨٧) في باب سعة رحمة الله تعالى. قال أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسليمان «غير أنه قال: البهائم والهوام». وقال: «وأخر» ولم يقل: «ادّخر» ولم يقل «لنفسه».

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٥ ص ١٨٨) طبعة دار الحديث رويناه في سباعيات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب: ليس بثقة.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٩.

(٥) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (١٠/ ٥٧١)البيهقي في الأسماء والصفات (٤٩٧)، الطبراني في المعجم الصغير (١/ ٩٨).

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

فسوغ الله تعالى للمشرك إذا أسلم جميع ما في يده من الأموال والأنكحة، وإن اكتسبها حراماً ولم يطالبه بشيء من مظالم العباد من الدماء وغيرها وهذا من سعة رحمته.

انظر إلى سحرة فرعون جاءوا لحربه، وحلفوا بعزة فرعون، فلما آمنوا بصدق من قلوبهم قبلهم الله، وأفرغ عليهم الصبر وجعلهم على رؤوس الشهداء في الجنة أبد الآبدين، هذا لمن / عرفه ساعة بعد الكفر والضلال فكيف بمن أفنى عمره في معرفته وطاعته؟ [٣٥١]

وانظر إلى أصحاب الكهف وما كانوا عليه وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم حتى ألهمهم فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[١] الآية.

كيف قبلهم ثم أعزهم وأكرمهم فقال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[٢]. ثم ألزمهم الحشمة والمهابة حتى قال لأكرم الخلق عليه: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا﴾[٣].

بل كيف أكرم كلبهم تبعهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات، ثم جعله معهم في الدنيا محجوباً، ويدخله الجنة معهم مكرماً فيما بلغنا فهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحدوه أياماً معدودة، فكيف فضله مع عبده المؤمن الذي وحّده وعبده سبعين سنة، أو ما شاء الله ونيته أن لو عاش سبعين سنة لما جحده ولا كفر به.

ثم انظر كيف عاتب يونس بن متّى عليه السلام، في شأن قومه حين انتبه من النوم وقد تيبست الشجرة التي أظلّته فقال فيما بلغنا: تحزن على شجرة من يقطين أنبتتها في ساعة وأيبستها في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون.

وفي الخبر أن الله تعالى لما رفع إبراهيم إلى الملكوت رأى رجلاً على فاحشة فدعى الله تعالى عليه فأهلكه، ثم رأى آخر فأراد أن يدعو عليه فأوحى الله إليه يا إبراهيم دع عنك عبادي فإن عبدي لا يخلو من ثلاث: إما أن يتوب فأتوب عليه، وإما أن أخرج من صلبه ذرية تقدسني، وإما أن يستكمل أجله فيكون خشبة في جهنم ـ أو كلام هذا معناه ـ.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٤.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٨.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٨.

وفي الخبر أيضاً أن الله تعالى عاتب موسى عليه السلام في أمر قارون فقال: استغاث بك قارون فلم تغثه فوعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته.

في مثل هذا من الأخبار، والأحاديث التي تدل على سعة رحمة الله وفضله، فإذا كان الله عز وجل قد أعطى عبده المؤمن من معرفته وأفاض عليه من نعمه الغزيرة، ومنته الكثيرة ما يستغرق الوصف من النعم الظاهرة والباطنة فمرجو من فضله العظيم أن يتم ذلك له في الآخرة فإن من بدأ بالإحسان والنعم قبل الاستحقاق فعليه الإتمام بأن يجعل له من / التسع والتسعين [٣٥٢] رحمة الحظ الأوفر فنسأل الله تعالى أن لا يخيب آمالنا من فضله العظيم، وأن يحقق رجاءنا من إحسانه العميم إنه جواد كريم منان رحيم.

فصل

واعلم أن الأمر كله يرجع إلى أصل واحد وهو خاتمة العمل؛ لأن ملاك الأعمال خاتمتها فهذه هي التي تقصم الظهور، وتذيب الأكباد، وتدمي عيون العباد، وقد قال بعض العلماء: الغموم ثلاثة: غم الطاعة أن لا تقبل، وغم المعاصي أن لا تغفر، وغم المعرفة أن تسلب.

وقال أهل التحقيق: بل الغم كله غم القبول لأن من قبل الله منه حسنة واحدة فقد فاز جملة واحدة؛ لأنه إذا وقع القبول زالت المؤاخذة.

وقد روي عن معاذ رحمه الله أو غيره قال: لو قبل الله مِنِّي حسنة واحدة لا أبالي أو كلام هذا معناه.

وقال آخرون: الغم كله في خوف نزع المعرفة عند الموت، وهذا قريب من الأول، لأن الله تعالى يقول: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين﴾**.

فصل

فعلى العبد أن يكون راغباً راهباً؛ لأنه إذا غلب عليه رهبة العقاب خيف عليه أن يكون من الآيسين من رحمة الله وقد قال تعالى: **﴿لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾**[1].
وإن غلب عليه الرغبة والرجاء لثواب الله خيف عليه أن يكون من الآمنين من مكر الله.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

وقد قال تعالى: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[١].

وقد روي عن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني خف الله خوفاً لا تيأس فيه من رحمته، وأرجه رجاء لا تأمن فيه من عقابه. فقال: يا أبتاه كيف وأنا لي قلب واحد؟ فقال: يا بني إن المؤمن لو شق قلبه وجد فيه نور رجاء ونور خوف، ولو وزنا لم يمل أحدهما بصاحبه.

وهذا كما ورد في الحديث: «لو وزن خوف المؤمن ورجاءه بميزان تريص ما زاد أحدهما على الآخر»[٢]. ومعنى تريص: قيل محكم.

وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[٤]. وينشد لأبي تمام الطائي:

أخاف إلهي ثم أرجو نواله ... ولكن خوفي غالب لرجائيا

/ولولا رجائي واتكالي على الذي ... تفرد لي بالصنع كهلاً وناشيا [٣٥٣]

لما ساغ لي عذب من الماء بارداً ... ولا لذ لي نوم ولا زلت باكيا

على سوء ما قد كان مِنّي جهالة ... ليالي فيها كنت لله غاضبا

وهذا كما قال بعض العلماء: الخوف ما كان الإنسان صحيحاً أفضل فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل.

وقد روي عن حذيفة بن اليمان رحمه الله أنه لما احتضر قال: مرحباً بزائر جاء على فاقة لا فرح من ندم، اللهم إنك أمرتنا أن نعدل بين الخوف والرجاء، فالآن الرجاء فيك أمثل.

وقد روي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء؛ لأنه إذا غلب الرجاء فسد القلب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٢) أطراف الحديث عند الفتن في تذكرة الموضوعات (١١) وعلى القاري في الأسرار المرفوعة وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/٤٠٢)، والسيوطي في الدرر المنثرة في الأحاديث المشتهرة (١٣٣). ابن تيمية في أحاديث القصاص (٢٥).

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رجاء المؤمن أكثر من خوفه وإلاّ كان قلقاً.

قال: وذلك أن الخوف من الغضب والرجاء طمع في الجنة، وقد سبق من قضائه إنّ رحمته سبقت غضبه.

وعن وهب ابن منبه قال: بلغ ابن عباس أن مجلساً كان في المسجد الحرام يجلس فيه ناس من قريش فيختصمون فترتفع أصواتهم فقال ابن عباس: انطلق بنا إليهم، فانطلقنا حتى وقفنا عليهم فقال لي ابن عباس: أخبرهم بالكلام الذي كلم به الفتى أيوب عليه السلام في بلائه. قال: قلت قال الفتى أما كان من عظمة الله، ذكر الموت ما يكل لسانك، ويقطع قلبك ويكسر حجتك. يا أيوب أما علمت أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله تعالى من غيركم وأنهم لهم البلاء الفصحاء الألباء العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم، وكلّت ألسنتهم وطاشت عقولهم وأحلامهم فرقاً من الله وهيبة له. فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له القليل، يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين وأنهم لتراهم أبراراً، ومع المضيعين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء ناحلون ذائبون.

فصل

واعلم أن الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي كما أن الخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء الحقيقي ولذلك قيل: الرجاء كله لأهل الخوف إلاّ الأمن والخوف كله لأهل الرجاء إلاّ الإياس. وينشد:

[٣٥٤] / وذي حرق اخفى مضيض اكتئابه ... فنم عليه دمعه بانسكابه
بكت عينه لما بكت عين قلبه ... ولولا بكاء العين لم يدر ما به
أذاب بخوف الله صحة جسمه ... وأبلى بتقواه رداء شبابه
تراه من الخوف المبرح والأسا ... كميت دعاه ربه لحسابه
تفرد بالمولى ففر بدينه ... إلى جبل يأوي لبعض شعابه
إذا انصرف المحبوب من عند ربه ... تبادرت الأملاك أخذ ركابه
إلى جنة فيها الحرير لباسهم ... ودر ومرجان سروج دوابه
وحور كأمثال البدور نواعم ... يلاعبنه في الخلد خلف قبابه
بنفسي ولي للإله مشهد ... إذا رقد النوام قام ببابه

يهيم فما يدري من الخوف والرجاء يـأبـى يـديـه أخـذه لكتـابـه

واعلم أن العبد إذا كان صحيحاً فالخوف أولى به فإذا ضعف ومرض وأشرف على الآخرة فالرجاء به أمثل كما تقدم عن حذيفة رحمه الله، وذلك لما روي أن الله تعالى يقول: أنا عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي فيصير رجاءه أولى في ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه المتقدم في زمان صحته ولذلك يقال لهم: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾[١].

فصل

فإن قيل أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في حسن الظن بالله تعالى كقوله: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء.

في أمثالها قيل له: إن من حسن الظن بالله تعالى: الحذر من معصيته، والخوف من عقابه، والاجتهاد في طاعته، وذلك ثمرة التصديق بوعد الله تعالى ووعيده وذلك أن الرجاء لا يكون إلا على أصل ثابت صحيح إذا اجتهد العبد في طاعة الله تعالى، وانتهى عن معصيته فيرجو حينئذٍ أن يتقبل الله منه، ويتم له تقصيره ويعظم له الثواب، ويعفو عن الزلل.

فإن أحسن الظن على هذا فهو الرجاء قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾[٢].

وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[٣] الآية.

فمثاله / كمن زرع واجتهد وجمع بذراً ويقول: أرجو أن يحصل لي منه مائة قفير، [٣٥٥] فذلك منه رجاء.

وأما إن طمع ورجا بغير عمل: فذلك منه أمنية لا أصل لها ولا طائل، كمن لا يزرع ولا يعمل فيقول: أرجو أن يحصل لي مائة قفيز فيقال له: من أين لك هذا الرجاء، وإنما ذلك أمنية لا أصل لها، فكذلك إذا غفل عن الطاعة وارتكب المعاصي ولم يبال بسخط الله ورضاه ووعده ووعيده.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رجاء المؤمن أكثر من خوفه وإلاّ كان قلقاً.

قال: وذلك أن الخوف من الغضب والرجاء طمع في الجنة، وقد سبق من قضائه إنّ رحمته سبقت غضبه.

وعن وهب ابن منبه قال: بلغ ابن عباس أن مجلساً كان في المسجد الحرام يجلس فيه ناس من قريش فيختصمون فترتفع أصواتهم فقال ابن عباس: انطلق بنا إليهم، فانطلقنا حتى وقفنا عليهم فقال لي ابن عباس: أخبرهم بالكلام الذي كلم به الفتى أيوب عليه السلام في بلائه. قال: قلت قال الفتى أما كان من عظمة الله، ذكر الموت ما يكل لسانك، ويقطع قلبك ويكسر حجتك. يا أيوب أما علمت أن لله عباداً أسكتتهم خشية الله تعالى من غيركم وأنهم لهم البلاء الفصحاء الألباء العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم، وكلّت ألسنتهم وطاشت عقولهم وأحلامهم فرقاً من الله وهيبة له. فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له القليل، يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين وأنهم لتراهم أبراراً، ومع المضيعين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء ناحلون ذائبون.

فصل

واعلم أن الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي كما أن الخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء الحقيقي ولذلك قيل: الرجاء كله لأهل الخوف إلاّ الأمن والخوف كله لأهل الرجاء إلاّ الإياس. وينشد:

[٣٥٤] / وذي حرق اخفى مضيض اكتئابه ... فنم عليه دمعه بانسكابه
بكت عينه لما بكت عين قلبه ... ولولا بكاء العين لم يدر ما به
أذاب بخوف الله صحة جسمه ... وأبلى بتقواه رداء شبابه
تراه من الخوف المبرح والأسا ... كميت دعاه ربه لحسابه
تفرد بالمولى ففر بدينه ... إلى جبل يأوي لبعض شعابه
إذا انصرف المحبوب من عند ربه ... تبادرت الأملاك أخذ ركابه
إلى جنة فيها الحرير لباسهم ... ودر ومرجان سروج دوابه
وحور كأمثال البدور نواعم ... يلاعبنه في الخلد خلف قبابه
بنفسي ولي للإله مشهد ... إذا رقد النوام قام ببابه

يهيم فما يدري من الخوف والرجاء   يـأبـى يـديـه أخـذه لكتـابـه

واعلم أن العبد إذا كان صحيحاً فالخوف أولى به فإذا ضعف ومرض وأشرف على الآخرة فالرجاء به أمثل كما تقدم عن حذيفة رحمه الله، وذلك لما روي أن الله تعالى يقول: أنا عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي فيصير رجاءه أولى في ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه المتقدم في زمان صحته ولذلك يقال لهم: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾[1].

فصل

فإن قيل أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في حسن الظن بالله تعالى كقوله: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء.

في أمثالها قيل له: إن من حسن الظن بالله تعالى: الحذر من معصيته، والخوف من عقابه، والاجتهاد في طاعته، وذلك ثمرة التصديق بوعد الله تعالى ووعيده وذلك أن الرجاء لا يكون إلا على أصل ثابت صحيح إذا اجتهد العبد في طاعة الله تعالى، وانتهى عن معصيته فيرجو حينئذٍ أن يتقبل الله منه، ويتم له تقصيره ويعظم له الثواب، ويعفو عن الزلل.

فإن أحسن الظن على هذا فهو الرجاء قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ﴾[2].

وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ أَنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[3] الآية.

فمثاله / كمن زرع واجتهد وجمع بذراً ويقول: أرجو أن يحصل لي منه مائة قفير، [٣٥٥] فذلك منه رجاء.

وأما إن طمع ورجا بغير عمل: فذلك منه أمنية لا أصل لها ولا طائل، كمن لا يزرع ولا يعمل فيقول: أرجو أن يحصل لي مائة قفيز فيقال له: من أين لك هذا الرجاء، وإنما ذلك أمنية لا أصل لها، فكذلك إذا غفل عن الطاعة وارتكب المعاصي ولم يبال بسخط الله ورضاه ووعده ووعيده.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

ثم يقول: أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل لها، سماها رجاء وحسن ظن بل ذلك خطأ وضلال.

وقد قال الله تعالى مخبراً عن المنافقين وغرتكم الأماني وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(١).

وقال جابر بن زيد رحمه الله: إياكم والأماني فوالله ما نال بها عبد خيراً قط فيما مضى ولا يناله فيما بقي. وقال: إنْ المؤمن أحسن الظن فأحسن العمل ثم قرأ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾(٢).

والمنافق أساء الظن فأساء العمل ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾(٣) الآية.

ومما يبين هذا الأصل قول النبي ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»(٤). والعاجز من اتبع نفسه هواها ويتمنى على الله الأماني.

وفي ذلك يقول الحسن البصري: إن أقواماً ألهتهم أمانيّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة يقول: إني أحسن الظن بربي وكذب أو أحسن الظن بربه لا حسن العمل ثم تلى قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾(٥) الآية.

وعن جعفر الضبعي قال: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد قلت:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٠.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٣.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٣ ص ٥٨٧) طبعة دار الحديث قال أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.
قال محقق كتاب الأحياء طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (١٢٤/٤) والحاكم (٥٧/١) وقال صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله أبو بكر واه» وقال الحاكم في موضع آخر (٢٥١/٤) صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي مؤيداً صحيح (فتعجب) قال المحقق والحديث مداره على ابن أبي مريم الغساني قال الحافظ في التقريب «ضعيف» وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٣١٠) وقال ضعيف. «دان نفسه» حاسب نفسه في الدنيا.
(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

يرحمك الله إن رحمة الله واسعة. فغضب فقال: هل رأيت ما يدل على القنوط: **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾**[(١)].

قال: فأبكاني قوله، فإذا كل الرسل والأبدال والأولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة والحذر من المعصية.

أتقول: ما كان لهم حسن الظن بالله؟ بلى؛ فإنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظناً بجوده منك، ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد في الطاعة أمنية وغرور، وليس لها حاصل ولا طائل إلاّ أنها تروِّح على القلب ويغتبط بها المتمنى. كما قال القائل:

حرِّك مناك إذا اختممت فإنهن مراوح / إذا تمنيت بت الليل مغتبطاً [٣٥٦]

وقال آخر:

إن المنى رأس أموال المغاليس

فاعتبر بهذه النكتة من اجتهاد أهل الصفوة المجتهدين في الخدمة، وتنبه من رقدتك والله تعالى ولي التوفيق.

فصل

ومن تمكن الخوف يكون الحزن والإشفاق من الذنوب، ولذلك قيل عن الحسن أن النبي عليه السلام قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(٢)].

قال الحسن: فوالله ما أصبح فيها مؤمن إلاّ حزيناً. قال: وكيف لا يحزن المؤمن وقد حدّث عن الله تعالى أنه وارد جهنم ولم يأته أنه صادر عنها، والله ليلقين أمراضاً ومصائب وأموراً تغيظه، وليظلمن فما ينتصر يبتغي بذلك الثواب من الله عز وجل، فما يزال حزيناً فيها حتى يفارقها فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة. وقال: ما عبد الله تعالى بمثل طول الحزن.

وقال مالك بن دينار: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٣ ص ٣١٤) طبعة دار الحديث. باب ما ورد في ذم الدنيا. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

ثم يقول: أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل لها، سماها رجاء وحسن ظن بل ذلك خطأ وضلال.

وقد قال الله تعالى مخبراً عن المنافقين وغرتكم الأماني وقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾[١].

وقال جابر بن زيد رحمه الله: إياكم والأماني فوالله ما نال بها عبد خيراً قط فيما مضى ولا يناله فيما بقي. وقال: إنْ المؤمن أحسن الظن فأحسن العمل ثم قرأ: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٢].

والمنافق أساء الظن فأساء العمل ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾[٣] الآية.

ومما يبين هذا الأصل قول النبي ﷺ: «الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»[٤]. والعاجز من اتبع نفسه هواها ويتمنى على الله الأماني.

وفي ذلك يقول الحسن البصري: إن أقواماً ألهتهم أمانيّ المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة يقول: إني أحسن الظن بربي وكذب أو أحسن الظن بربه لا حسن العمل ثم تلى قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾[٥] الآية.

وعن جعفر الضبعي قال: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد قلت:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٣ ص ٥٨٧) طبعة دار الحديث قال أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.
قال محقق كتاب الأحياء طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (١٢٤/٤) والحاكم (٥٧/١) وقال صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله أبو بكر واه» وقال الحاكم في موضع آخر (٢٥١/٤) صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي مؤيداً صحيح (فتعجب) قال المحقق والحديث مداره على ابن أبي مريم الغساني قال الحافظ في التقريب «ضعيف» وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٣١٠) وقال ضعيف. «دان نفسه» حاسب نفسه في الدنيا.

(٥) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

يرحمك الله إن رحمة الله واسعة. فغضب فقال: هل رأيت ما يدل على القنوط: **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾**[١].

قال: فأبكاني قوله، فإذا كل الرسل والأبدال والأولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة والحذر من المعصية.

أتقول: ما كان لهم حسن الظن بالله؟ بلى؛ فإنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظناً بجوده منك، ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد في الطاعة أمنية وغرور، وليس لها حاصل ولا طائل إلاّ أنها تروِّح على القلب ويغتبط بها المتمنى. كما قال القائل:

حرِّك مناك إذا اختممت فإنهن مراوح / إذا تمنيت بت الليل مغتبطاً [٣٥٦]

وقال آخر:

إن المنى رأس أموال المغاليس

فاعتبر بهذه النكتة من اجتهاد أهل الصفوة المجتهدين في الخدمة، وتنبه من رقدتك والله تعالى ولي التوفيق.

فصل

ومن تمكن الخوف يكون الحزن والإشفاق من الذنوب، ولذلك قيل عن الحسن أن النبي عليه السلام قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٢].

قال الحسن: فوالله ما أصبح فيها مؤمن إلاّ حزيناً. قال: وكيف لا يحزن المؤمن وقد حدّث عن الله تعالى أنه وارد جهنم ولم يأته أنه صادر عنها، والله ليلقين أمراضاً ومصائب وأموراً تغيظه، وليظلمن فما ينتصر يبتغي بذلك الثواب من الله عز وجل، فما يزال حزيناً فيها حتى يفارقها فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة. وقال: ما عبد الله تعالى بمثل طول الحزن.

وقال مالك بن دينار: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٣ ص ٣١٤) طبعة دار الحديث. باب ما ورد في ذم الدنيا. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

ويروى عن حبيب بنت ثابت أنه قال: إن حاجبي يعقوب قد وقعا على عينيه، فقيل له: ما بلغ بك هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله إليه: يا يعقوب تشكوني. فقال: يا رب خطيئة اخطأتها فاغفر لي.

وقال الحسن: وذكر هذه الآية: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً﴾(١).

قال: المؤمنون قوم ذلل ذلت والله الأسماع والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى والله ما بالقوم من مرض وأنهم لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، وقالوا: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾(٢).

والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا به الله، أبكاهم الخوف من النار وأنه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله عليه نعمة إلاّ في مطعم أو مشرب فقد قلّ علمه وحضر عذابه. قال: وسمع سفيان الثوري يقول: واحزناه. فقيل له: قل واقلة حزناه. وينشد:

احـزن علـى أنـك لا تحـزن ولا تسـيء إن كنـت لا تحسـن
اضعـف عـن الشـر كمـا تـدعـي ضعفـاً عـن الخيـر وقـد يمكـن

وقال الحسن: إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن في عمله ما يكفرها سلطت عليه [٣٥٧] / الغموم فتكون كفارة لذنوبه.

وعن ابن مسعود قال: إن المؤمن ليرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى أن ذنوبه كذباب مرّ على أنفـه فقال به هكذا، ومد يده فوق أنفه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من سره أن يسبق الذائب المجتهد فليكف نفسه عن الذنوب فإنكم لن تلقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب. ويقال: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى من عصيت.

وعن عروة بن عامر قال: إن العبد لتعرض عليه ذنوبه ويقول: لذنب منها قد كنت مشفقاً منك فيغفر له.

وعن الحسن أن الرجل ليذنب الذنب فلا يزال به كئيباً حتى يدخل الجنة.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

وقيل لبعض العرب: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت عوداً ركوباً موقراً نعماً وذنوباً.

ويروى أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أنت ميت في ثلاث، أجد ذلك في بعض الكتب. قال: تجد اسمي ونسبي؟ قال: لا ولكني وجدت صفتك وسيرتك. فقال عمر:

أيوعدني كعب ثلاثاً أعدها ... ولا شك أن القول ما قاله كعب
وما بي حذار الموت إني لميت ... ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

ويقال: إنّ للذنوب ضعفاً في القوة وظلمة في القلب، وأنّ للحسنات قوة في البدن ونوراً في القلب.

وكان الأوزاعي إذا رأى رجلاً من الجند قال: استغفر الله من ذنوب سلط بها هؤلاء علينا.

وعن الحسن قال: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وقيل لسفيان الثوري: لو دعوت الله لنا قال: ترك الذنوب هو الدعاء ولبعض بني عامر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الصبا ... وأن أزجر القلب اللجوج عن الهوى
وما عذر من يعصي وقد شاب رأسه ... وأبصر أبواب الضلالة والهدى
وإن كان ليل كان بالليل نائماً ... وأصبح بطّال العشية والضحى
ولو قسم الذنب الذي قد أصبته ... على الناس خاف الناس كلهم الردى

وعن الحسن قال: إنما المؤمن من جمع إحساناً وشفقة وتلى هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ / هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾[1]. وأن المنافق من جمع إساءة وأمنا وتلى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[2]. وينشد: [٣٥٨]

خلقت من التراب فصرت شيئاً ... وعُلِّمت الفصيح من الخطاب
فعدت إلى التراب فظلت فيه ... كأني ما برحت من التراب

قال: ولقي حكيم حكيماً فقال له: إني لا أحبك في الله. فقال: لو علمت مِنّي ما أعلم من نفسي لأبغضتني في الله. فقال له الأول: ولو أعلم من نفسي ما تعلمه أنت من نفسك لكان لي فيما أعلمه من نفسي شغل عن بغضك وقيل آخر شعر قاله ذو الرمة:

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٢٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

يـا رب قـد أسـرفـت نفسـي وقـد علمت علمـاً يقينـاً لقـد أحصيـت آثـاري
يـا مخـرج النفـس مـن جسـم إذا احتضـرت وفـارج الكـرب زحـزحنـي عـن النـار

وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال: إذا عملت الحسنة فأله عنها؛ فإنها عند من لا يضيعها، وإذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينك وأنشدوا:

يـا خـارب القلـب عـامـر الأمـل عشـت وغـرَّتـك صحـة البـدن
لا أنـت قصـرت فـي القبيـح ولا محـوت بعـض القبيـح بـالحسـن

فصـــل

واعلم أن الحزن إذا كثر في القلب واشتد لا بد أن يثمر البكاء من خشية الله وأقرب ما يكون العبد من عفو الله ورحمته إذا كان باكياً من خشيته.

وقد نعت الله أقواماً وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[١] الآية. وقال: ﴿خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[٢]. وكان عليه السلام يبكي ويأمر بالبكاء والتباكي.

وقال: «أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم على وجوههم كأنها جداول ثم تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن السفن أجريت فيها لجرت»[٣].

وكان عليه السلام يصلي ويسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل، وروي أنه قال لابن مسعود: «اقرأ عليّ». فقلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «فإني أحب أن أسمعه من غيري» قال: فقرأت سورة النساء حتى إذا بلغت. ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[٤] رأيت عينيه تذرفان فقال لي: «حسبك»[٥].

[٣٥٩] وعن / عقبة بن عامر الجهيني قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «ليسعك بيتك وابك على خطيئتك وامسك عليك لسانك»[٦].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.
(٣) أخرجه ابن حجر في لسان الميزان (٤/١٠٣٤).
(٤) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول ص ٤٣٣: متفق عليه من حديث ابن مسعود.
(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٢ ص ٣٤٩) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي من حديث عقبة وقال حسن. أطراف الحديث عند أحمد (٤/١٤٨، ١٥٨) الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٢٩٩) الزبيدي في =

وعن داود عليه السلام أنه قال: إلٰهي ما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه؟ قال: جزاءه أن أحرّم وجهه على لفح النار، وأن أؤمنه يوم الفزع الأكبر.

وعن معاذ بن جبل رحمه الله أنه قال: من بكى من خشية الله غفر الله له ذنوبه، فإن لم يبك فليتباكى، أعطاه الله أجر الحزين المصاب، الصلاة والرحمة والهدى.

وعن كعب الأحبار أنه قال: والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجهي أحب إليّ من أن أتصدق ولو بجبل من ذهب.

وقال وهب: فقد زكريا ابنه يحيى عليهما السلام فوجده مضطجعاً بعد ثلاث على قبر وهو يبكي فقال: ما هذا يا بني؟ فقال: أخبرتني أن جبريل أخبرك أن بين الجنة والنار مفازة لا يطفىء حرها إلا الدموع. قال: إبك يا بني.

ودعا بعض الحكماء فقال: إلٰهي ارزقني عينين هطالتين يبكيان من خشيتك، قبل أن تكون الدموع دماً، والأضراس جمراً.

وقال عبد الله بن عمر: لإن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أن أتصدق بألف دينار.

وقيل لبعضهم: إن كثرة البكاء تذهب البصر. قال له: ذلك شهادة فبكى حتى عمي.

وقيل لبعضهم: مم تبكي هذا البكاء الطويل؟ فبكى ثم قال:

بكيت على الذنوب لعظم جرمي ... وحق لكل من يعصي البكاء
فلو كان البكاء يرد عنّي ... لأسعدت الدموع معا دماء

ثم بكى حتى غشي عليه فقام الرجل عنه وتركه. قال: وكان الضحاك يبكي كل عشية ويقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي.

وروي عن عبد الرحمن بن عوف رحمه الله أنه أُتي بطعام وكان صائماً فقال: قتل حمزة وهو خير مِنِّي ولم نجد ما نكفنه به، وقتل مصعب بن عمير وهو خير مِنِّي فكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، لقد خفت أن أكون قد عجلت لي حسناتي في الدنيا، ثم بكى حتى سمع نشيجه وحتى برد الطعام.

وينشد:

= الإتحاف (٦/٣٣٩، ٧/٤٥٠) والعجلوني في كشف الخفا (٢/٤٤٦) الشجري في الأمالي (٢/١٥٦)، الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢١٠).

إلى الزهد في الدنيا جنان الخلد يشتاق
عبيد من خطاياهم إلى الرحمن آباق
/ حدثهم نحو الرغبات والرهبات فاشتاقوا [٣٦٠]
وراقت لهم الدنيا وعاقتهم فما انعاقوا
عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراق
بقاياهم من الخدما ت أشباح وأرماق
توهمهم وقد مالت بسكر النوم أعناق
وقد قام ولم يهجع من ذاق الذي ذاقوا
يضجون إلى الله ودمع العين مهراق
مليك الملك خلصنا وإذا ما كشفت ساق
مليك الملك اعتقنا فاعتاقك أعتاق
مليك الملك هل مما تطوقناه إطلاق
ففي أعناقنا طرا من الآثام أطواق

وفيما روي أن قوماً وقفوا بعابد وهو يبكي، فقالوا: ما الذي أبكاك يرحمك الله؟ قال: روعة يجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هذه الروعة؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله تعالى. ولبعضهم:

يا كثير البكاء أظنك ممن صيّرته الذنوب مثلي ظليلاً
إخوتي كيف لا يطول بكائي وبجهلي عصيت رباً جليلاً
قم فناد إذا الخلائق ناموا يا مقيل العثرات كن لي مقيلاً

وآخر:

لله ساهر ليله ما يهجع وكل الفؤاد من الذنوب مصدع
يبكي بدمع ساكب هفواته والليل في جلبابه متبرقع
ندماً على ما كان من عصيانه ملكاً تذل له الملوك وتخضع
يا رب ما للذنب غيرك غافر وإليك منك يا إلهي المفزع
يا رب عبدك ضارع فاغفر له ما لم يزل يدعوك فيه ويضرع

وقال عيسى ابن مريم عليهما السلام: طوبى لمن خزن لسانه ووسعه بيته وبكى على خطيئته.

وقال بعضهم: كنا نجلس إلى بعض العباد فيبكي ويبكينا ويقول:

كـل ذي غيبـة سيـرجـع يـومـاً غيـر غيـاب زائـرات القبـور

وسئل بعض من بكى عند حضرة الموت فقال:

تذكرت ساعات أضعت مرورها من العمر الماضي فأنّى لي الذكرى

/ فلم ينحصل لي الآن غير دميعة تسيل وما تجدي وقد حقت العسرى [٣٦١]

فصـل

وجملة الأمر أنك إذا ذكرت سعة رحمة الله التي سبقت غضبه ووسعت كل شيء، ثم كنت من هذه الأمة المرحومة الكريمة على الله تعالى، ثم غاية فضله العظيم عليك وعلى غيرك، ثم كثرة أياديه إليك ونعمه الظاهرة والباطنة لديك من غير إحسان سبق منك.

وتذكرت من جانب آخر كمال عظمته، وجلاله وهيبته، وعظيم سلطانه، ثم شدة غضبه الذي لا يقوم له السموات والأرض، ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك مع دقة أمره، وخطر معاملته، وفي إحاطة علمه وبصره بالغيوب، ثم حسن وعده وثوابه الذي لا تبلغ كنهه الأوهام، وشدة وعيده، وأليم عقابه التي لا تحتمل ذكره القلوب تارة تنظر إلى فضله، وتارة تنظر إلى عذابه، وتارة تنظر إلى رحمته، وتارة تنظر إلى نفسك وجفواتها وخياناتها تأدى بك جميع ذلك إلى الخوف والرجاء.

وكنت قد سلكت السبيل الأقصد والمنهاج الأرشد وعدلت عن الجانبين المهلكين: الأمن والإياس فلم تغتر ببرودة الرجاء حتى تهلك مع الآمنين، ولا بحرارة الخوف حتى تهلك مع الآيسين، بل شربت من النهرين واستقيت من العينين فوجدت النفس قد جدّت في الطاعة راجية ثوابها، واجتنبت المعاصي راهبة عقابها، كما قال بعض الماضين: أنه إذا ذكرت الجنة طال شوقه، وإذا ذكرت النار طار نومه.

فصرت حينئذٍ من الأصفياء العابدين الذين وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[١].

والحمد لله رب العالمين، فإذا جاوزت قنطرة الخوف والرجاء فأشرع في العبادة بنفس شديدة غير كسلى، / ولا عاجزة وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام [٣٦٢] المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

القنطرة الرابعة عشر
قنـــطرة العـــبادة

الحمد لله الذي شرف أولياءه بخدمته وعبادته، وكَرَّمهم بالتزام وظائف طاعته، والصلاة والسلام على أكرم بريته محمد بن عبد الله خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد فإن الله سبحانه خلق الدنيا مزرعة للعباد، وجعل لهم الأرض ذلولاً سلسلة القياد لا ليستقروا في مناكبها، بل ليتزودوا منها خير الزاد لينجوا بذلك من سطوته يوم المعاد، ويتحققوا أن الأعمار تسير بهم سير السفن بين الأمواج الملتطمة، وأهلها دود على عود إن سقطوا غرقوا، وإن تمسكوا فرقوا فلا راحة ولا قرار حتى يقطعوا أهوال تلك البحار، وتحط السفينة بأولئك السفار.

فالناس في هذه الدنيا أضياف مرتحلون، وكركب يسار بهم وهم نائمون، فأول منازلهم المهد وآخرها اللحد، والوطن الجنة والنار، وهم بأعمالهم تجار، ربحها التنعم في دار القرار، والحلول في دار البوار، جعلنا الله من الفائزين برحمته، الناجين من سطوته قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[2].

العبادة هي: القيام، والخشوع، والركوع، والسجود، والصيام، والخضوع، والحج، والجهاد، والتسبيح، والتكبير، والتمجيد، والتحميد، والسكينة، والذلة والإقرار لله بالمملكة، والدعاء، والشكر، والمواساة وذكر المنة والرضى عن الله تعالى، والتسليم لأمره، والصبر على بلائه، / والإنابة إليه والإخبات إليه تعالى، والتضرع وغير ذلك من معاني العبادة ووظائف العبودية، وقد ذكرنا في السفر الأول والثاني أكثر من هذه المعاني. [٣٦٣]

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

ولنشرع الآن في هذا السفر في شرح أدب تلاوة القرآن والذكر والدعاء والتضرع للرحمن وترتيب ذلك على أوقات الليل والنهار من الزمان فتشتمل حينئذٍ هذه القنطرة على أربعة أبواب:

الأول: في أدب تلاوة القرآن.

الثاني: في الذكر والإستغفار.

الثالث: في الدعاء والتفكر في المخلوقات.

الرابع: في ترتيب هذه العبادات على الأوقات. والله أعلم وبالله التوفيق.

الباب الأول
في فضل القرآن وآداب تلاوته الظاهرة والباطنة[١]

الحمد لله الذي امتن على عباده برسوله الأمين، وبكتابه المستبين، وأوضح فيه دينه القويم وصراطه المستقيم بما فصّل فيه من الأحكام وفرّق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور، والنجاة من الهلكة والغرور، من آمن به فقد وفق، ومن قال به فقد صدق، ومن حكم به فقد عدل، ومن عمل به فقد فاز وفضل ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]. ومن أسباب حفظه أن جعله في القلوب محفوظاً، وفي المصاحف مكتوباً، وبالألسن مقرؤاً، وبالآذان مسموعاً، ومن التغيير والتبديل مصوناً مضبوطاً فمن واظب على دراسته وتلاه حق تلاوته مع القيام بآدابه الظاهرة والباطنة كان كمن أدرجت النبوة بين كتفيه إلاَّ أنه لا يوحى إليه فلا بد / من بيان فضله وتفصيل آدابه [٣٦٤] وينحصر ذلك في أربعة فصول:

الأول: في فضل القرآن وأهله.

الثاني: في آداب تلاوته في الظاهر.

الثالث: في الأعمال الباطنة.

الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

---

(١) هذا الباب مأخوذ من كتاب الإحياء بتصرف قليل المجلد الأول ص ٤٢٢ طبعة دار الحديث كتاب آداب تلاوة القرآن.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

الفصل الأول: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

وهذا الفصل ينقسم إلى قسمين:

الأول: في فضل القرآن وأهله.

والثاني: في ذم المقصّرين في تلاوته.

القسم الأول: في فضل القرآن وأهله

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[١] الآية. وعن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ القرآن ثم ظن أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظّم الله عز وجل»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «ما من شفيع أعظم منزلة عند الله عز وجل يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك»[٣]. وقال: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»[٤].

وقال: «إن الله تعالى قرأ سورة طّه قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلمّا سمعت الملائكة بالقراءة قالت: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا»[٥].

وقال عليه السلام: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»[٦].

وقال عليه السلام: «يقول الله عز وجل من شغلته قراءة القرآن عن دعائي ومسئلتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين»[٧].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً وللطبراني من حديث ابن مسعود: «القرآن شافع مشفع» ولمسلم من حديث أبي أمامة: «اقرؤوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه» قال المحقق: حديث «القرآن شافع مشفع» ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٦٤) وقال: رواه الطبراني وفيه الربيع بن بدر وهو متروك.

(٤) قال الحافظ العراقي (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنس وإسنادهما ضعيف.

(٥) قال الحافظ في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث اخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «من شغله القرآن عن ذكري أم مسئلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وقال: حسن غريب ورواه ابن=

وقال عليه السلام: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»[١].

وقال عليه السلام: «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس»[٢]. وذكر فيهم رجلاً قرأ القرآن وأمَّ به قوماً وهم به راضون.

وقال عليه السلام: «إن القلوب تصدى كما يتصدى الحديد»[٣] قيل: فما جلاءها؟ قال: «تلاوة القرآن وذكر الموت»[٤].

وعن أبي أمامة الباهلي قال: اقرؤوا القرآن ولا تغرنكم هذه / المصاحف المعلقة، [٣٦٥] فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن.

وعن ابن مسعود قال: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين، فاقرؤوا القرآن فإنكم تؤجرون بكل حرف منه عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم (آلم) حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف.

وقال: لا يسئل أحدكم عن نفسه إلاَّ القرآن، فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله، وإن كان يبغضه فهو يبغضهما.

وعن عمرو بن العاص قال: كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم، ومن قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلاَّ أنه لا يوحى إليه.

وعن أبي هريرة قال: إن البيت الي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله، وكثر خيره وحضرته

= شاهين بلفظ المصنف قال: محقق الإحياء: أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) وقال: حسن غريب قال الألباني في الضعيفة (١٣٣٥) ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس بإسناد حسن.

(٢) قال الحافظ في المغني (ج ١ ص ٢٣٢) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي (١٩٨٦) وقال حسن غريب والطبراني في الصغير (٢٣٠) وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٧٨) وقال: ضعيف.

(٣) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في كنز العمال (٣٩٢٤) والذهبي في ميزان الاعتدال (١٩١٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٣٤٧/٢) وابن عدي في الكامل للضعفاء (٢٥٨/١).

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٤) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

الملائكة وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لا يقرأ فيه يضيق بأهله، ويقل خيره، وتخرج عنه الملائكة وتحضره الشياطين.

وقال بعض السلف: ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء ومن دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه.

وقال: حامل القرآن حامل راية لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن.

ويقال: إذا قرأ الرجل القرآن قبّل الملك بين عينيه، وعن عمرو بن ميمون قال: من قرأ في المصحف حين يصبح مائة آية رفع الله له مثل أعمال أهل الدنيا.

ويروى أن النبي ﷺ قرأ على خالد بن عقبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[(١)] الآية.

قال: أعد، فأعاد فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر[(٢)].

[٣٦٦] وقال الحسن: والله ما دون القرآن من غِنى / ولا بعده من فاقة.

وقال بعض السلف: من قرأ خاتمة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء.

وقال عليّ: ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم: السواك والصيام وقراءة القرآن.

وقيل لبعض النساك: هل هاهنا أحد تستأنس به؟ فوضع المصحف في حجره وقال: هذا، والله أعلم.

القسم الثاني: في ذم تلاوة الغافلين

عن أنس بن مالك قال: رُبّ تالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه، وعن بعضهم: الغريب هو القرآن في جوف الفاجر، والرجل الصالح في قوم سوء والمصحف في بيت لا يقرأ فيه.

وقال أبو سليمان الدراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٥ طبعة دار الحديث) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلاّ أنه قال: «الوليد بن المغيرة» بدل «خالد بن عطية» وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه.

منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله بعد القرآن. وقال عليه السلام: «أكثر منافقي هذه الأمة قراءها»[١].

وقال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها خبيث ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»[٢].

وقال بعض السلف: ندمت على استظهاري القرآن؛ لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسئلون عما تسئل عنه الأنبياء يوم القيامة.

وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وبيكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختالون. وقال عليه السلام: «اقرأ القرآن ما نهاك وإذا لم ينهك فلست تقرأه»[٣].

وقال / بعض السلف: إن العبد ليفتتح السورة فتصلي عليه: حتى يفرغ منها، وإن العبد [٣٦٧] ليفتتح السورة فتلعنه حتى يفرغ منها. قيل: فكيف ذلك؟ قال: إذا أحلّ حلالها وحرّم حرامها صلّت عليه وإلاّ لعنته.

وقال بعضهم: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾[٤] وهو ظالم لنفسه ويقول: ألا لعنة الله على الكاذبين، وهو منهم.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٥) طبعة دار الحديث أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيها ابن لهيعة.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٦/ ٢٣٥، ٧/ ٩٩، ٩/ ١٩٨). ومسلم في صلاة المسافرين (٣٤٣)، أبو داود في الأدب (ب ١٩) والنسائي (٨/ ١٢٥) وابن ماجه ٢١٤ والترمذي (٢٨٦٥) وأحمد (٤/ ٣٩٧، ٤٠٤) الدارمي في السنن (٢/ ٤٤٢) وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٢٠٩٣) وشرح السنة للبغوي (٤/ ٤٣) والمنذري في الترغيب (٢/ ٣٤٦) وابن حجر في الفتح (٩/ ٥٥٥). والمتقي الهندي (٧٣٤، ٢٣٣٧، ٢٣٣٨) والشجري في الأمالي (١ : ٨٣). وتفسير القرطبي (١/ ٦) وأبي نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٦٠) والعقيلي في الضعفاء (١/ ١٥٩)، والفرياني في صفة النفاق (٧٢). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٣).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٥) طبعة دار الحديث أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف.

(٤) سورة هود، الآية: ١٨.

وعن الحسن قال: قُرَّاء القرآن ثلاثة قوم قرؤوه فاتخذوه بضاعة ونقلوه من مصر إلى مصر لينالوا به ما في أيدي الناس، وقوم قرؤوه فثقفوه تثقيف الفتى القدح وألقوا حدوده في زواياه، واستطالوا به على أهل بلادهم فهم فيه أشد تيهاً من الأمراء إذا طلعوا على أعوادهم يلقى الرجل أخاه فيقول: والله ما أسقط من القرآن شيئاً والله ما ألحن في القرآن حرفاً، فهم الذين أفسدوا في الأرض فقد كثرت هذه الطبقة من حملة القرآن فلا أكثرهم الله.

وقوم قرؤوه فأسهر نومهم، وأسال دموعهم على خدودهم، وكدوا في محاريبهم فبهم ينزل الله الغيث، فبهم ينفي العدو فهذه الطبقة من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر.

وعنه أيضاً قال: إنكم اتخذتم القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحله وأن من كان قبلكم رواة رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار.

وقال ابن مسعود: أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته فلا يسقط منه حرفاً / وقد أسقط العمل به. [٣٦٨]

وفي حديث ابن عمرو حديث جندب: لقد عشنا دهراً واحداً يؤتي الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد عليه السلام فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره، ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه ينثره نثر الدقل.

وقد روي في التوراة: يا عبدي أما تستحي مِنّي يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله، فتقرأه وتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء. وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم وصل لك فيه من القول، وكم كررت عليك لتتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه، أفكنت عليك أهون من بعض إخوانك، يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل إليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه إن كف، وها أنا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عليك من بعض إخوانك. والله نسأله العصمة والتوفيق.

الفصل الثاني في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة[(١)]

الأول: في حال القارىء وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب إما قائماً وجالساً مستقبل القبلة، مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكىء ولا متكبر، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي / أستاذه. [٣٦٩]

وأفضل أحواله: أن يقرأ في الصلاة في المسجد قائماً، وإن كان غير متوضء أو في الفراش مضطجعاً فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[(٢)] فأثنى على الكل ولكن قدّم القيام على سائر الأحوال.

وعن علي قال: من قرأ القرآن في الصلاة قائماً فله بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه جالساً في الصلاة فله بكل حرف خمسون، ومن قرأه في غير صلاة وهو متوضىء فله خمس وعشرون، وغير متوضىء فعشر حسنات، وفي الليل أفضل لفراغ القلب.

قال أبو ذر: كثرة السجود بالنهار، وطول القيام بالليل.

الأدب الثاني: مقدار القراءة، وللقُرّاء عادات مختلفة: منهم من له ختمة في اليوم والليلة، وبعضهم مرّتين، وبعضهم ثلاثاً، وبعضهم في الشهر مرة، وأولى التقديرات قول النبي ﷺ وقد قال: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفهمه»[(٣)].

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سمعت رجلاً يهد القرآن هذّاً ما قرأ هذا ولا سكت.

وأمر عليه السلام ابن عمر أن يختمه في سبع، وكذا كان عثمان وأُبَيّ بن كعب وابن مسعود وزيد يختمونه في كل جمعة، وقد كره جماعة الختم في اليوم والليلة؛ لأنه غاية الاقتصار كما أنها في الشهر غاية الاستكثار والأحسن ختمه في سبع أو ختمتان بالليل ختمة وبالنهار ختمة.

---

(١) هذا الفصل نقله مؤلف القناطر من الإحياء للإمام الغزالي الجزء الأول طبعة دار الحديث ص ٤٢٧ تحقيق سيد إبراهيم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني الجزء الأول ص ٤٢٧ باب آداب التلاوة طبعة دار الحديث، أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذي. غير أنه قال: «لم يفقهه» ولم يقل «لم يفهمه».

[٣٧٠] وينبغي أن تكون في أول نهار الاثنين، وأول ليلة الجمعة؛ فإن الملائكة تصلي عليه / إن كان نهاراً حتى يمسي، وإن كان ليلاً فحتى يصبح، والتفصيل في مقدار القراءة إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فختمتان في سبع وإن كان سالكاً طريق الفكر أو مشغولاً بنشر العلم فختمة، وإن كان نافذ الفكر في القرآن فمرة في الشهر لحاجته إلى كثرة التأمل.

الثالث: في وجه القسمة إما من ختم مرة في الأسبوع فإنه يقسم القرآن على سبعة.

وروي أن عثمان كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطّه إلى طَسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وابن مسعود يقسمه أيضاً سبعة ولكن على غير هذا الترتيب، وقيل أحزاب القرآن سبعة: فالأول ثلاث سور، والثاني خمس، والثالث سبع، والرابع تسع، والخامس إحدى عشرة، والسادس ثلاث عشرة، والسابع المفصل.

قال: فهكذا أحزبته الصحابة ويقرؤونه كذلك، وفيه خبر عن النبي ﷺ هذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأحزاب وما سوى هذا فهو محدث.

الرابع: في الكتابة ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فإنها تزيين وتبيين وضبط عن اللحن.

وروي أن الحسن وابن سيرين ينكران الأخماس والأعشار، والشعبي وإبراهيم يكرهان النقط بالحمرة، والظن بهم أنهم كرهوا ذلك خوفاً من أن تنجر الزيادة، وحرصاً على حراسة [٣٧١] القرآن، فإذا لم يؤد ذلك إلى محذور / فلا بأس، وقد استقر أمر الأمة على ذلك.

وقيل: أن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القُرَّاء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أحزابه.

الخامس: هو الترتيل وهو المستحب قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1].

وقد نعتت أم سلمة زوج النبي عليه السلام قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً.

وقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أتدبرهما أحَبُّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كله

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٤.

هنرمة. وقال أيضاً: لأن أقرأ: (إذا زلزلت)، و(القارعة). أتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهديراً.

واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبير بل أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الاستعجال.

السادس: البكاء قال عليه السلام: «اتلوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا»(١). يعني فلتتكلفوا البكاء.

وعن ابن عباس قال: إذا قرأتم سجدة (سبحان) فلا تتعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمنه ينشأ البكاء. قال عليه السلام: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا»(٢).

ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد، والوعيد، والوثائق، والعهود، ثم يتأمل تقصيره في الأوامر، وارتكاب الزواجر فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره البكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن فذلك أعظم المصائب.

السابع: أن يراعي حق الآيات فإذا مر بآية سجدة سجد وكذا إذا سمعها من غيره، وسجد التالي فليسجد.

وهذا إذا كان على طهارة، ثم يدعو في سجوده بما / يليق بالآية التي قرأها مثل قوله: [٣٧٢] ﴿خَرُّواْ سُجَّداً وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(٣). فيقول: اللهم اجعلنا من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك وعلى أوليائك. وإذا قرأ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾(٤). فليقل: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك وكذا سائرها.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني الجزء الأول ص ٤٢٩ دار الحديث ـ باب ظاهر آداب التلاوة ـ أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد.
وقال محقق الإحياء طبعة دار الحديث إسناده ضعيف أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧) وفيه إسماعيل بن رافع: قال الحافظ في التقريب ضعيف الحفظ.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول ص ٤٣٠ طبعة دار الحديث أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٥.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

ويشترط فيها شروط الصلاة: من ستر العورة والطهارة واستقبال القبلة، وإن لم يكن على طهارة فإذا تطهر سجد، ورخّص آخرون أن يسجدوا ولو على غير طهارة من الثوب والبدن.

والثامن: أن يقول عند ابتداء القراءة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وليقرأ سورة ﴿**الحمد لله**﴾[1] ، ﴿**وقل أعوذ برب الناس**﴾[2] وليقل عند فراغه من كل سورة: صدق الله تعالى وبلّغ رسوله عليه السلام اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، الحمد لله رب العالمين، استغفر الله الحي القيوم.

وفي أثناء قراءته إذا مَرّ بآية تسبيح سَبَّح وكبّر، وبآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مَرّ بمرجو سأل، وبمخوّف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه وبقلبه فيقول: سبحان الله نعوذ بالله، اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا.

وعن حذيفة قال: صليت خلف النبي ﷺ فابتدأ بسورة البقرة فكان لا يمر بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلاَّ سبّح، ثم إذا فرغ قال: ما كان يقوله عليه السلام عند ختم القرآن وهو: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت / وارزقني تلاوته آناء الليل والنهار واجعله لي حجة يا رب العالمين». [٣٧٣]

التاسع: في الجهر بالقراءة، يجهر به إلى حد يسمع نفسه فإن لم يفعل لم تصح صلاته إذا القراءة عبارة عن تقطع الصوت بالحروف، ولا بد من صوت وأقله ما يسمع نفسه.

وأما الجهر بأن يسمع غيره فمحبوب من وجه، ومكروه من وجه.

فالوجه المحبوب قوله عليه السلام: «إذا قام أحدكم من الليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته»[3].

وقد سمع جماعة يجهرون بالليل فصوَّب ذلك. ومر عليه السلام بثلاث من أصحابه مختلفي الأحوال مَرّ على أبي بكر وهو يخافت القراءة فسأله عن ذلك فقال: إن الذي أناجيه هو

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ١.

(٢) سورة الفلق، الآية: ١.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول طبعة دار الحديث ص ٤٣٢: رواه بنحوه بزيادة فيه. أبو بكر البزار ونصر المقدسي في المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع.

يسمعني، فمرّ على عمر وهو يجهر فسأله فقال: أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان.

ومَرّ على بلال وهو يقرأ آية من هذه السورة وآية من هذه فسأله فقال: اخلط الطيب بالطيب فقال: «كلهم قد أحسن وأصاب»[١].

وفي بعض كتب أصحابنا أنه: أمر أبا بكر أن يجهر قليلاً وأمر عمر أن يخفض قليلاً، وأمر بلال إذا دخل السورة يتمها.

وأما الوجه المكروه فقوله عليه السلام: «فضل قراءة السر على العلانية كفضل صدقة السر على العلانية»[٢].

وقوله: «خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي»[٣].

وفي الخبر العام: يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفاً. وفي الخبر: لا يجهر بعضكم على بعض بين المغرب والعشاء»[٤].

ووجه الجمع بين هذه الأحاديث / أن: الإسرار أبعد من الرياء والتصنع، فهو أفضل في [٣٧٤] حق من يخاف ذلك وإلاّ فإن لم يشوّش بالجهر على غيره فالجهر أفضل؛ لأن العمل فيه أكثر وفائدته تتعدى إلى غيره، ولأنه يوقظ قلب القارىء، ويجمع همه إلى الفكر ويطرد النوم برفع الصوت، ويزيد في نشاطه، ويقلل من كسله، ويوقظ نائماً للصلاة، ويكون ذلك بسببه، ويشوّق إلى الخدمة بطالاً غافلاً، فمهما أحضره شيء من هذه النيات تضاعف أجره، وبكثرة النيات تركوا أعمال الأبرار.

---

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤/ ٤٩٤) والمتقي الهندي في الكنز (١٦٩٧٥)، وأبو داود في التطوع (٢٦٧) والسيوطي في الدر المنثور (٣/ ١١).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول طبعة دار الحديث ص ٤٣١: وفي لفظ آخر: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عقبة بن عامر باللفظ الثاني. قال المحقق للإحياء طبعة دار الحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٠٥).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني ص ٤٣١ المجلد الأول طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٨٨٦).

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني طبعة دار الحديث ج ١ ص ٤٣١ رواه أبو داود من حديث البياض دون قوله: «بين المغرب والعشاء». والبيهقي في الشعب من حديث علي «قبل العشاء وبعدها» وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف.

وإن كان في العمل الواحد عشر نيات، كان فيه عشرة أجور، ولهذا كان قراءة المصحف أفضل إذ يزيد عمل البصر وتأمل المصحف وحمله، وقد قيل الختمة من المصحف بسبع لأن النظر في المصحف عبادة.

العاشر: تحسين القراءة من غير تمديد مفرط يغير النظم. وروي أن النبي عليه السلام كان ينتظر عائشة فأبطأت فقال: «ما حبسك»؟

فقالت: كنت استمع قراءة رجل ما سمعت أحسن منه صوتاً، فقام حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال: «ذلك سالم مولى حذيفة رضي الله عنه الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله»[1].

واستمع أيضاً ذات ليلة إلى ابن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهم فقال: «من أراد أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»[2].

واستمع أيضاً إلى قراءة أبي موسى الأشعري وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»[3].

وفي الخبر أن عمر رضي الله عنه قال لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا فقرأ عليه حتى كاد وقت الصلاة يتوسط فقيل له: يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة. فقال: أولسنا في الصلاة إشارة إلى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[4].

[٣٧٥] وقال عليه السلام: «من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل / كانت له نوراً يوم القيامة» وفي خبر آخر «كتب له عشر حسنات»[5].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول ص ٤٣٣ طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجاله إسناده ثقات.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود «أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله ﷺ قال: من أحب أن يقرأ» الحديث قال الترمذي حسن صحيح.

(٣) حديث «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود». متفق عليه من حديث أبي موسى. قاله الحافظ العراقي في المغني في المجلد الأول ص ٤٣٣ طبعة دار الحديث.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول طبعة دار الحديث ص ٤٣٤: أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة» وفيه ضعف وانقطاع.

ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب كان شريكاً في الأجر إلاَّ إن كان قصده الرياء والتصنع والله أعلم.

الفصل الثالث: في إعمال الباطن في التلاوة[١]

وهي عشرة: فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصص، ثم التأثر، ثم الترقي، ثم التبري.

الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه ولطف الله سبحانه في إيصاله إلى أفهام خلقه مع عظمته وعلو درجته.

قال الغزالي: وقد عبَّر بعض العارفين عنه، وزعم أن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح، أعظم من جبل قاف، وأن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه لما طاقوا حتى يأتي إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيقله بإذن الله ورحمته لا بقوته ولكن الله قواه عليه.

قال الغزالي: ولولا تثبيت الله موسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادىء تجليه حيث صار دكاً.

قال: ولا يمكن أن يفهم عظمة الكلام إلاَّ بمثله. قال: ولقد تأنق بعض الحكماء في التعبير على وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان مع قصور رتبته، وضرب له مثلاً قال: وذلك أنه دعى بعض الملوك إلى شريعة الأنبياء.

فقال: كيف يطيق الناس حمل كلام الله؟ قال الحكيم: إن الناس لمَّا أرادوا أن يفهموا بعض الدواب أو الطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، ورأوها يقصر تمييزها عن فهم كلامهم على أنوار قلوبهم مع حسنه ونظمه، وضعوا لها أصواتاً لائقة بها من النقر والتصفير والأصوات القريبة من أصواتها / لكي يطيقوا حملها، فكذلك الناس لما عجزوا [٣٧٦] عن فهم كنه كلام الله تعالى فصاروا بالأصوات المرتجعة بينهم يسمعون الحكمة المخبرة في كلامه تعالى، فكأن الصوت للحكمة جسداً ومسكناً والحكمة للصوت نفساً وروحاً، والله أعلم.

الثاني: التعظيم للمتكلم وذلك إذا خطر بباله العرش والكرسي، والسموات والأرض

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي الإحياء المجلد الأول ص ٤٣٤ طبعة دار الحديث.

وما بينهما من المخلوقات، وعلم أنه الخالق لجميعها، والقادر عليها وأنهم مترددون بين رحمته وسطوته، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذه غاية العظمة فالتفكر في مثل هذا يحقق تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس، قيل في التفسير: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(١). أي بجد واجتهاد، فالجد أن يكون متجرداً له منصرف الهم إليه.

وقيل لبعضهم: تحدث نفسك بشيء إذا قرأت القرآن؟ قال: أو شيء أحب إلي من القرآن أحدث به نفسي.

ويقال: إن في القرآن ميادين، وبساتين، ومقاصير، وعرائس، ودبابيج، ورياض، وخانات؛ فالميمات ميادين القرآن، والراءات بساتينه، والحامدات مقاصيره، والمسبحات عرائسه، والحاميمات ديابيجه، والمفصل رياضه، والخانات ما دون ذلك.

فإذا دخل القارىء في الميادين وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديباج، وتنزه في الرياض، وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه، ففي القرآن ما يستأنس به إن كان التالي لذلك أهلاً فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزهات ومتفرجات والله أعلم.

الرابع: التدبر وهو من وراء حضور القلب؛ فإنه قد يحضر ولا يتدبر بل يقتصر على السماع، والمقصود من القراءة التدبر، قال الله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(٢). / في أمثالها. [٣٧٧]

وقال عليّ: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها، وإنما سن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن والله أعلم، وإذا لم يتمكن من التدبر إلاّ بترديد فليردد، إلاّ أن يكون خلف إمام.

وقد روي أن النبي عليه السلام: «قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة»(٣)، وإنما رددها ليتدبر في معانيها.

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٢.

(٢) سورة صٓ، الآية: ٢٩.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول ص ٤٣٧ طبعة دار الحديث: رواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

وعن أبي ذر قال: «قام بنا رسول الله ﷺ ليلة بهذه الآية يرددها: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾[(١)]»[(٢)].

وقام تميم الداري بهذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّئَاتِ﴾[(٣)] إلى آخر الآية، وقام سعيد بن جبير يردد هذه الآية: ﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[(٤)].

وقال بعضهم: إني لأفتح السورة فيوافقني بعض ما أشهد فيها من الفراغ منها حتى يطلع الصبح، وقال بعضهم: كل آية لا أتفهمها، ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثواباً.

وعن سليمان الداراني قال: إني لا أتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمساً ولولا إني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.

الخامس: التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل، وذكر أحوال أنبيائه، وذكر أحوال المكذبين لهم، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفاته تعالى فكقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[(٥)] وقوله: ﴿ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾[(٦)] الآية.

فيتأمل معاني هذه الأشياء لينكشف له أسرارها ولهذا أشار علي بقوله: ما أسرّ إلي رسول الله ﷺ شيئاً كتمه على الناس إلاّ أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه.

قال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليؤثر القرآن، واستقصاء شرح ما يتدبر فيه لا نهاية له: ﴿قُلْ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾[(٧)] الآية.

وقد روي عن علي قال: / لو شئت أوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب. [٣٧٨]

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٣٧) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٤) سورة يس، الآية: ٥٩ .

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

والغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهم ليفتح بابه وأما الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم لما في القرآن، ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(١). والطوابع الموانع التي سنذكرها فيما بعد إن شاء الله.

وقيل: لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن أن كل ما يريد، ويتعرف فيه النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، وإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن بأسباب، وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. ولذلك قال النبي عليه السلام: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت»(٢). ومعاني القرآن من جملة الملكوت لأن كل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلاّ بنور البصيرة فهو من الملكوت.

وحجب الفهم أربعة: أولها: أن يكون القلب منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقرّاء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فيكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف.

والثاني: علم مذهب سمعه تقليداً ولمثل هذا قالت المتصوّفة: إن العلم حجاب وأرادوا به العقاب التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد.

وأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف بنور البصيرة فلا يكون حجاباً؛ لأنه منتهى الطلب وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً كمن يعتقد في الاستواء على العرش الحلول والتمكن، وكذلك سائر ما لا يجوز اعتقاده في الله تعالى.

[٣٧٩] وقد يكون حقاً مانعاً أيضاً عن / الفهم والكشف؛ لأن الحق له مراتب ظاهراً وباطناً، فجمود الطبع على العلم الظاهر يمنعه الوصول العلم الباطن والله أعلم.

الثالث: أن يكون مصراً على الذنب أو متصفاً بكبراً وبهوى مطاع، فيكون ذلك ظلمة

(١) سورة محمد، الآية: ١٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني ج ٣ ص ١٤ باب بيان خاصية قلب الإنسان طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه. قال محقق الإحياء أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٥٣) بنحوه وفيه علي بن زيد «ضعيف» وذكره الحافظ في غير موضع.

على القلب كالخبث على المرآة، وبه حجب الأكثرون فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإزالة الشهوات مثل تصقيل المرآة.

ولذلك قال عليه السلام: «إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزعت منهم هيبة الإسلام»[١].

وقد شرط الله تعالى في الفهم الإنابة، والتبصرة، والتذكر فقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[٢]. وقال: ﴿وَما يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ﴾[٣] وقال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤].

والذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب.

والرابع: أن يكون قرأ تفسيره ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلاَّ ما تناوله النقل عن مجاهد وابن عباس، وأن ما سوى ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسَّر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة، وسيأتي بيان التفسير بالرأي في الفصل الرابع إن شاء الله.

السابع: التخصيص، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور.

وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين علم أن ذلك ليعتبر به، فما من قصة في القرآن إلاَّ مفيدة في حق النبي عليه السلام وأمته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٥].

فليقدر العبد أن الله سبحانه يثبت به فؤاده بما يقص عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الأذى وغير ذلك، وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما نزل للنبي / خاصة بل هو شفاء ورحمة [٣٨٠] للمؤمنين.

---

(١) ذكره الحافظ العراقي بزيادة في آخره: «وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي» وقال: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلاً من حديث الفضل بن عياض قال: ذكره عن نبي ﷺ.

(٢) سورة ق، الآية: ٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

ولذلك أمر الله تعالى كافة الناس بذكر نعمة الكتاب فقال: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾[١] الآية.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[٢] ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾: في أمثالها: قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٣].

وقال محمد بن كعب القرضي من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله فليقدر القارىء أنه المقصود بجميع ما في القرآن.

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا بعهوده نتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، ونتفقدها في الطاعات بالسنن المتبعات.

وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إنَّ القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض.

قال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرآن إلاّ قام بزيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾[٤].

الثامن: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فتكون له بكل فهم حالة يتصف بها قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره فمهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فيتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقييده المغفرة بالشرط كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٥].

فيتضاءل من خيفته كأنه كاد يموت. وعند التوسع ووعد المغفرة، يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر أسماء الله تعالى يتطأطأ خضوعاً لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل عليه من الصاحبة والولد يتكسر باطنه حياء من قبح مقالتهم، وعند ذكر الجنة ينبعث شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٢) سورة محمد، الآية: ٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٥) سورة طه، الآية: ٨٢.

ولهذا قال عليه السلام لابن مسعود لمّا قرأ عليه فبكى: «/ حسبك»[(١)]. لأن تلك الحالة [٣٨١] استغرقت قلبه بالكلية.

ولقد كان من الخائفين من خرّ مغشيّاً عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات من سماع الآية، فبمثل هذه الأحوال يخرج عن أن يكون حاكياً في كلامه، وإذا قال: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾[(٢)] فإذ لم يكن خائفاً كان حاكياً.

وإذا قال: ﴿ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾[(٣)]. ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً. وإذا قال: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا﴾[(٤)].

فليكن حاله الصبر والعزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة، وإلاَّ كان حظه حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾[(٥)].

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[(٦)]. وقوله: ﴿وهم في غفلة معرضون﴾[(٧)]. ﴿ومَن لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾[(٨)]. في أمثالها.

وكان داخلاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾[(٩)]. يعني التلاوة المجردة.

وفي قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾[(١٠)] الآية. وفي قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[(١١)]. لأن القرآن هو

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٦/ ٤٤١) ومسلم في العيدين (١٩) البيهقي في السنن (١٠/ ٢٣١) وابن حجر في الفتح (٢/ ٤٤٠، ٤٤٥) والزبيدي في الإتحاف (٥/ ٣٥٥، ٦/ ٤٩٣، ٥٥١) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٨٤٧٣) والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ١٦٣) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٨٣).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥.
(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٦٠.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.
(٥) سورة هود، الآية: ١٨.
(٦) سورة الصف، الآية: ٣.
(٧) سورة الأنبياء، الآية: ١.
(٨) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٩) سورة البقرة، الآية: ٧٨.
(١٠) سورة النجم، الآية: ٢٩.
(١١) سورة يوسف، الآية: ١٠٥.

المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر فيها كان معرضاً عنها.

ويقال: إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن، فإذا قرأ القرآن ناداه الله: مالك وكلامي وأنت معرض عني، دع عنك كلامي إن لم تتب.

ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة كان أبعد من الاستهزاء، واستحقاق المقت.

[٣٨٢] ولذلك قال بعض السلف: إني لأَهُمّ بقراءة القرآن / فإذا تذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسبيح والاستغفار فالمعرض عن العمل به داخل في قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾[(١)] الآية.

ولذلك قال عليه السلام: «اقرؤا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرأونه» وفي بعضها: «فإذا اختلفتم فلستم تقرأونه» وفي بعضها: «فإذا اختلفتم فقوموا عنه»[(٢)].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِيمَاناً﴾[(٣)].

وقال عليه السلام: «إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ علمت أنه يخشى الله عز وجل، فالقرآن يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلاّ فالمؤنة في تحريك اللسان بحروف خفيفة»[(٤)].

وقال الغزالي: ولقد مات عليه السلام عن عشرين ألفاً من الصحابة، ولم يحفظ القرآن منهم إلاّ ستة اختلف منهم في اثنين، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة وآل عمران من علمائهم ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله: ﴿فَمَن

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٤٤) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي في اللفظ الثاني دون قوله: «ولانت جلودكم».

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٤٤) أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف.
أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤/ ٥٢١).

﴿يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ﴾: فقال: يكفيني هذا فانصرف. وقال عليه السلام: «انصرف الرجل وهو فقيه»[(١)].

وإنما العزيز أن يمن الله عز وجل عليه بتلك الحالة على قلب عقيب فهم الآية، فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى فالتالي باللسان المعرض عن العمل جدير أن يكون هو المراد بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكَا﴾[(٢)] الآية. إلى قوله: ﴿فَنَسِيتَهَا﴾: أي تركتها ولم تنظر إليها ﴿وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى﴾. فالمقصر في الأمر ناس له.

وتلاوة القرآن يشترك فيها اللسان، والعقل، والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان مترجم والعقل موقظ والقلب متعظ.

التاسع: الترقي أعني أن يترقى العبد حتى كأنه يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاثة:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرأه / على الله تعالى، واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه [٣٨٣] ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه، ويخاطبه بألطافه، ويناجيه بأنعامه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث أنه منعم عليه، بل يكون مقصور الفهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره وهذه درجة المقربين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين وما خرج من هذا فهو درجة الغافلين.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ص ٤٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر وقال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله....» الحديث وفيه «فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلح الرويجل أفلح الرويجل» ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال: حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

وقال عثمان وحذيفة لو ظهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن قالوا: ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام.

قال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين، وتمتعت به عشرين.

وبمشاهدة الكلام دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾[١].

فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره، وذلك الشرك الخفي بل التوجه الخالص أن لا يرى في كل شيء إلاّ الله تعالى.

العاشر: التبري، وأعني أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإذا تلى آية الوعد والمدح للصالحين، فلا يشهد لنفسه عند ذلك، بل يشهد للموقنين والصديقين ويتشوق أن يلحقه الله بهم.

وإذا تلى آيات المقت، وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هنالك، وقدّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

ولذلك كان ابن عمر[٢] يقول: اللهم إني استغفرك لظلمي وكفري.

قيل: هذا الظلم، فما بال الكفر؟ فتلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٣].

[٣٨٤] وقيل لبعضهم: بماذا تدعو؟ قال: / بماذا أدعو، استغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة.

فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في قراءته، كانت رؤيته سبب قربه، فمن أشهد البعد في القرب، لطف له في الخوف حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراءه، ومن أشهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه.

ومهما كان مشاهداً لنفسه بعين الرضى صار محجوباً بنفسه، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلاّ الله تعالى في قراءته، انكشف له الملكوت.

---

(١) سورة الذاريات، (الآيتان: ٥١، ٥٢).

(٢) ذكر محقق الإحياء طبعة دار الحديث أن هذا الكلام الذي أورده المؤلف خالياً من السند فنسبته إلى ابن عمر لا نستطيع قولها.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

ولذلك قال بعضهم: لما صليت العتمة، والوتر وكنت في الدعاء منه رفعت لي روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة، فما زلت انظر إليها حتى أصبحت.

وهذه غاية المكاشفات لا تكون إلاَّ بعد التبري من النفس، وعدم الالتفات إلى هواها، ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف، فحيث يتلو آية الرجاء يغلب على حاله الاستبشار، فتنكشف له صورة الجنة، فكأنه يراها عياناً، وإن غلب عليه الخوف كوشف بصورة النار كأنه يرى أنواع عذابها، وذلك أن المسموع مختلف إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام رحيم حنان متعطف لا يهمل.

الفصل الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل[١]

فإن قيل: لقد عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن، وما ينكشف لأرباب القلوب الزاكية من معانيها فكيف يجوز ذلك؟ وقد قال عليه السلام: «من فسَّرَ القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف في تأويل كلمات القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر.

فإن صَحَّ ما قاله / أهل التفسير، فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره؟ وإن لم يصح [٣٨٥] فما معنى قول النبي عليه السلام: «من فسَّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار».

فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلاَّ ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مصيب في الإخبار عن حد نفسه، ولكنه مخطىء في رد كافة الخلق إلى درجته، بل الأخبار والآثار تدل على أن معاني القرآن متسعة لأرباب الفهم.

قال علي: إلاّ أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في القرآن.

وقال عليه السلام: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً»[٣].

---

(١) هذا الفصل منقول من كتاب الإمام الغزالي الإحياء (ج ١ ص ٤٤٧) طبعة دار الحديث.

(٢) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤/ ٥٢٦) الفتن في تذكرة الموضوعات (٨٤). والشوكاني في الفوائد المجموعة (٣١٧)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٧٤) وهو عند الزبيدي في الإتحاف (١/ ٢٥٧، ٤/ ٥٢٦).

(٣) أطراف الحديث في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٦٥، ٤/ ٥٢٧).

وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً، وفي الخبر: لن يتفقه أحدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوه كثيرة.

وترديد النبي عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة لا يكون إلاّ لتدبره باطن معانيه وإلاّ فترجمة تفسيره ظاهرة، وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليؤثر القرآن.

وقال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم، وقال آخرون: القرآن يحتوي على سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ لكل كلمة علم، ثم تتضاعف كذلك أربعاً لكل واحد ظاهر وباطن وحد ومطلع.

وقول عليّ: لو شئت أوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار.

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، وقد قال النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبه»[1].

فكل ما اختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن رموز إليه ودلالات يختص أهل الفهم بدركه.

وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[2]. قال: يعني الفهم في القرآن فكل هذا يدل على أن في فهم القرآن مجالاً متسعاً وأن المنقول من ظاهر التفسير / ليس منتهى الإدراك. [٣٨٦]

وأما نهيه عليه السلام عن تفسير القرآن بالرأي[3]، وقول أبي بكر رحمه الله: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن أنا فسرت القرآن برأييّ. إلى غير ذلك مما ورد في الآثار والأخبار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي؛ فإنه لا يخلو أن يكون به الاقتصار على النقل المسموع دون الاستنباط والتفهم، أو المراد به أمر آخر فمحال قطعاً أن يراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلاّ بما سمع لوجوه:

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٤١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى الموصلي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ «أعربوا» وسنده ضعيف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٣) قال الحافظ العراقي حديث النهي عن تفسير القرآن بالرأي غريب. قاله في المغني (ج ١ ص ٤٤٩) طبعة دار الحديث.

أحدها: يشترط أن يكون مسموعاً من النبي مسند إليه، وذلك لا يوجد إلاَّ في بعض القرآن، وأما تفسير ابن عباس، وابن مسعود من قِبَل أنفسهم، فينبغي أن لا يقبل منهم، ويقال هو تفسير بالرأي؛ لأنهم لم يسمعوه من النبي عليه السلام وكذلك غيرهم من الصحابة والمفسرين.

الثاني: أن الفقهاء من الصحابة وغيرهم من المفسرين قد قالوا في تفسير الآيات بأقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينهما، فمحال أن تكون كلها من رسول الله ﷺ فلو صح في واحد لبطل الباقي، فصح أن كل مفسر قال بما ظهر له.

الثالث: أنه عليه السلام دعى لابن عباس فقال: «اللهم فَقِّهُ في الدين وعَلِّمه التأويل»[1].

فلو كان تفسيره مسموعاً كالتنزيل فما معنى تخصيصه بذلك.

الرابع: أنه تعالى قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[2]. فأثبت الاستنباط للعلماء وهو وراء السماع فثبت بما ذكرنا تناقض هذه الشبهة التي أودد وبطل اشتراط السماع في التفسير وجاز لكل عالم أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وعقله.

وأما النهي فإنه يدل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وميل من هواه فيتأول القرآن على وفق مراده لتصح له بدعة، وهذا تارة يكون مع / العلم أنه ليس المراد بالآية ذلك الرأي، ولكن يلبس على خصمه. [٣٨٧]

وتارة يكون مع الجهل إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى هواه ورأيه.

وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن كالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول: قال الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[3].

ويشير إلى قلبه، وأنه المراد بفرعون وهذا يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (١/٤٨). ومسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد (١/٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٥)، والعجلوني في كشف الخفا (١/٢٢٠) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦١٣٩) والسيوطي في جمع الجوامع (١٠٠٣٩). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٤/٤٣٥) والزبيدي في الإتحاف (١/٢٥٨، ٤/٥٣٢، ٧/٢٥٩، ٩/٦٤٧) والقرطبي في التفسير (١/٣٣، ٤/١٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٧٦)، والطبراني في المعجم الصغير (١/١٩٧) وعند ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/١١٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/١٩٢) وابن حجر في الفتح (١/١٧٠).

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٢٤.

ترغيباً للمستمع، وتستعمله الباطنية يتأولوا القرآن على وفق مرادهم، وهم يعلمون قطعاً أنه غير مراد به، فهذا التفسير ممنوع وهو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى التفسير بظاهر العربية من غير سماع ولا نقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من الألفاظ: المبهمة، والمبدلة، والاختصار، والحذف، والإضمار، والتقديم، والتأخير، فمن لم يحكم هذه المعاني وبادر إلى استنباط ذلك بظاهر العربية كثر غلطه، ودخل في جملة من يفسر القرآن بالرأي ولا بد من سماع التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم.

والغرائب التي لا تفهم إلاَّ بالسماع فنون كثيرة، قال الغزالي[١]: ونحن نرمز إلى جملة منها ليستدل بها على أمثالها ولا مطمع في ذلك إلاَّ بإحكام ظاهر التفسير أولاً، وهذا كمن يَدَّعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم، وهو لا يحسن لغة الترك فلا مطمع إلى الباطن إلاَّ بفهم الظاهر أولاً؛ فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم ولا بد فيها من استماع فنون كثيرة: منها الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾[٢] معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها.

[٣٨٨] وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا / فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[٣]. معناه: حب العجل فحذف.

وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[٤]. أي ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى.

وقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾[٥]. أي أهل القرية وأهل العير.

وقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٦]. أي خفي علمها على أهل السمٰوات والأرض، والشيء إذا خفي ثقل.

---

(١) ترددت هذه العبارة «قال الغزالي» وبما أنها توحي بأنها تدل على أنها تسبق استشهاداً من أقوال الغزالي على أقوال المؤلف فإن هذا الإيحاء في غير موضعه لأن الكلام من أول الفصل للإمام الغزالي وليس ما يلي العبارة فقط وإن كان المؤلف اعتاد ذلك ولقد أشرنا في بداية الفصل أنه من كتاب الإمام الغزالي.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[١]. أي تجعلون شكر رزقكم التكذيب.

وقوله: ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾[٢]. أي على ألسنة رسلك.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾[٣] يعني القرآن.

وقوله: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[٤]. يعني الشمس ولم يسبق لها ذكرها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ما نعبدهم﴾[٥]. أي يقولون ما نعبدهم.

وقوله: ﴿فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾[٦] الآية. معناه لا يفقهون ما يقولون.

﴿مَا أَصَابَكَ﴾ الآية. ولولا هذا لكان مناقضاً لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾[٧]. ولفهم منه مذهب القدرية.

ومنها المنقول المنقلب كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾. أي [طور] سيناء.

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾. أي على إلياس، وقيل: إدريس؛ لأن في حرف ابن مسعود: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ﴾. ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام كقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾[٨]. معناه

وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ [شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ] إِلَّا الظَّنَّ﴾[٩] ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾[١٠]. معناه: لمن آمن من الذين استضعفوا.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.
(٣) سورة القدر، الآية: ١.
(٤) سورة صَ، الآية: ٣٢.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٦) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٧) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٨) سورة يونس، الآية: ٦٦.
(٩) سورة يونس، الآية: ٦٦.
(١٠) سورة الأعراف، الآية: ٧٥.

ومنها المقدم والمؤخر كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾(١). معناه: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً.

[٣٨٩] وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ / عَنْهَا﴾(٢). معناه: يسئلونك عنها كأنك حفي.

وقوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾(٣). فهذا الكلام غير متصل، وإنما هو عائد إلى قوله: ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾(٤). كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ. فصارت الأنفال لك إذ أنت راض بخروجك، وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره.

ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معاني من كلمة أو حرف: أما الكلمة فالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال تعالى: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾(٥). يعني نفقه مما رزق. وقوله: ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾(٦). أي الأمر بالعدل.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾(٧). يعني من علم صفات الربوبية وهي العلوم التي لا يحل السؤال عنها، حتى يبتدىء بها العارف. وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾(٨). أي من غير خالق فربما يتوهم به أنه يدل على أن لا يخلق شيئاً إلاّ من شيء.

وأما القرين فكقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾(٩). أراد به الملك الموكل به.

وقوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾(١٠). أراد به الشيطان.

وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه: منها الجماعة أمة من الناس يسقون، ومنها اتباع الأنبياء نحن أمة محمد، ومنها رجل جامع للخير يقتدى به: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. ومنها

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ١.
(٥) سورة النحل، الآية: ٧٥.
(٦) سورة النحل، الآية: ٧٦.
(٧) سورة الكهف، الآية: ٧٠.
(٨) سورة الطور، الآية: ٣٥.
(٩) سورة قٓ، الآية: ٢٣.
(١٠) سورة قٓ، الآية: ٢٧.

الدين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾[١]. ومنها الحين: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾. ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٢]. والأمة القامة أيضاً، والأمة الإثم، والأمة رجل منفرد بالدين، ومنه يبعث زيد بن عمرو أمة وحده.

والروح أيضاً ورد في القرآن على وجوه يطول ذكرها، وقد يقع الإبهام في الحرف: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾[٣]. فالباء الأولى كناية عن حوافر الخيل الموريات، والثانية كناية عن الإغارة وهي من: المغيرات صبحا / ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾: جمع المشركين فأغاروا [٣٩٠] بجمعهم.

وقوله: ﴿فَأَنزلنا به﴾: يعني بالسحاب. ﴿فأنبتنا به﴾ يعني بالماء. ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر، والقرآن كله غير خال من هذا الجنس؛ لأنه نزل بلغة العرب فكان مشتملاً على كلامهم من إيجاز، وتطويل، وإضمار، وحذف، وإبدال، وتقديم، وتأخير، ليكون معجماً لهم ومعجزاً في حقهم.

فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية فبادر إلى التفسير من غير نقل ولا إحكام لهذه المعاني، فهو داخل في زمرة من فسر القرآن برأيه مثل أن يفهم من تفسير الأمة معنى واحداً مشهوراً فإذا سمع لفظها في موضع آخر مال رأيه إلى الذي سمع أولاً من مشهور معناها فإذا حصل له السماع وعلم هذه الأمور فإنه يفهم ظاهر التفسير دون فهم حقائق المعاني.

ومثال ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾[٤]. فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامض فإنه إثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه، ومن الوجه الذي لم يرم رمى الله تعالى.

وكذلك قوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[٥]. فإذا كانوا هم القاتلون كيف يكون سبحانه هو المعذب، وإذا كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال؟ فحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٥.
(٣) سورة العاديات، الآيتان: ٤، ٥.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٧.
(٥) سورة التوبة، الآية: ١٤.

وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة، ويفهم وجه ارتباطها بقدرة الله تعالى حتى ينكشف بعد إيضاح علوم كثيرة غامضة صدق قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[(١)].

فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه والله أعلم وأحكم وبه العون والتوفيق.

الباب الثاني
في أصناف الأدعية والأذكار الاستغفار[(٢)]

الحمد لله الذي وسعت رحمته وشملت رأفته فدعا إلى طاعته الداني والقاصي، وعم إحسانه المطيع والعاصي، فرغبهم في الدعاء والسؤال وأفاض عليهم أنواع النعم والنوال فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾. والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأصحابه وخير أصفيائه وسلم كثيراً.

أما بعد فليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله بقلب منيب إليه، وخالص الأدعية بإحضار قلب متضرع إليه، والاستغفار من كل سوء سلف منه لديه، ونحن نشرح ذلك في ثلاثة فصول:

الأول: في الدعاء.

والثاني: في الذكر.

والثالث: في الاستغفار والصلاة على النبي عليه السلام.

الفصل الأول في الدعاء وأنواعه وآدابه

وهذا الفصل يتوزع منه خمسة أقسام:

الأول: في فضيلة الدعاء قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾[(٣)] الآية.

وقال: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[(٤)] الآية.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) هذا الباب مأخوذ من كتاب الإحياء للإمام الغزالي ج ١ ص ٤٥٦ طبعة دار الحديث.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾[١] الآية. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة»[٣].

وقال: «الدعاء هو العبادة»[٤] ثم قرأ: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾.

وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[٥]. وقال: «إن العبد لا يخطيه من الدعاء إحدى ثلاث: إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له»[٦].

وعن أبي ذر قال: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح.

وقال عليه السلام: «اسئلوا الله من فضله، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[٧]. وينشد:

وإني لأدعو الله والأمر ضيق ... عليّ فما ينفك أن يتفرجا
/ ورُبَّ فتى سدت عليه وجوهه ... أصاب لها في دعوة الله مخرجا [٣٩٢]

القسم الثاني: في أدعية منتخبة من القرآن. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٨]. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٩].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٣) أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلاً من حديث ابن لهيعة. قاله الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد.
(٦) قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث: أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أنس وفيه روح، أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف، ولأحمد والبخاري في الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد «إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها».
(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٧١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ وضعفه ابن معين وغيره.
(٨) سورة البقرة، (الآيتان: ١٢٧، ١٢٨).
(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[2].

﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[3].

﴿رَبَّنَا إِننا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[4].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[5].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[6].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[7].

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[8].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾[9].

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[10].

[٣٩٣] ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ / أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾[11].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٣.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.
(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣.
(١٠) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.
(١١) سورة النساء، الآية: ٧٥.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٣].

﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدَانَا إِلَيْكَ﴾[٤].

﴿فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[٥].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٦].

﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِيَ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾[٧].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[٨].

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[٩].

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[١٠].

﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[١١].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٢) سورة يونس، الآيتان: ٨٥، ٨٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠١.
(٦) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.
(٨) سورة الكهف، الآية: ١٠.
(٩) سورة الفرقان، الآية: ٦٥.
(١٠) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.
(١١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

﴿رَب اشرح لي صدري ويسر لي أمري﴾[١].

﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي منْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[٢].

﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾[٣].

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِيَ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾[٤].

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾[٥] ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٦].

[٣٩٤] ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي / مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٧].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمَان وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٨].

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٩].

﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٠].

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[١١].

---

(١) سورة طه، الآية: ٢٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٩.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٨٣، ٨٤، ٨٥.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٦) سورة النمل، الآية: ١٩.
(٧) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.
(٨) سورة الحشر، الآية: ١٠.
(٩) سورة الممتحنة، الآية: ٤.
(١٠) سورة التحريم، الآية: ٨.
(١١) سورة نوح، الآية: ٢٨.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

القسم الثالث: في أدعية مستحسنة

اللهم صلِّ على محمد، وعلى من صلح من آل محمد وبارك على محمد، وعلى من صلح من آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم اجعلنا ممن صدقه بتوفيقك واتبعه بإرشادك وتسديدك، وأمتنا على ملته بنعمتك، وأحشرنا في زمرته برحمتك.

اللهم بنورك اهتدينا، وبفضلك استغنينا، وفي كنفك أصبحنا وأمسينا، أنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، نعوذ بالله من الفشل والكسل ومن عذاب القبر ومن فتنة الغنى والفقر.

اللَّهم نبهنا لذكرك في أوقات الغفلة، واستعملنا بطاعتك في أيام المهلة، وانهج لنا إلى محبتك طريقاً سهلة.

اللَّهم اجعلنا ممن آمن بك فهديته، وتوكل عليك فكفيته، وسألك فأعطيته، وتضرع إليك فرحمته.

اللَّهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

اللَّهم إنا نسألك أن ترزقنا علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وقلباً خاشعاً ولساناً صادقاً وعملاً زاكياً وإيماناً / خالصاً وأن تهب لي إنابة المخلصين، وخشوع المخبتين، وأعمال الصالحين، ويقين [٣٩٥] الصديقين، وسعادة المتقين ودرجة الفائزين يا أفضل من قصد، وأكرم من سئل، وأحلم من عصى، نسألك أن تهب لي جزيل عطائك والسعادة بلقائك والفوز بجوارك والمزيد من آلائك وأن تجعل لنا نوراً في حياتنا، ونوراً في مماتنا، ونوراً في قبورنا، ونوراً في محشرنا، ونوراً نتوسل به إليك، ونوراً نفوز به لديك، فإنّا ببابك سائلون، ولنوالك متعرضون، ولأفضالك راجون.

اللَّهم اهدنا إلى الحق، واجعلنا من أهله، اللَّهم اجعل شغل قلوبنا بذكر عظمتك، وأفرغ

أبداننا في شكر نعمتك، وانطق ألسنتنا بوصف منتك، وقنا نوائب الزمان، وصولة السلطان، ووساوس الشيطان، واكفنا مؤنة الاكتساب وارزقنا بغير حساب.

اللّهم اختم بالخير آجالنا، وحقق بالرجاء أعمالنا، وسهل في بلوغ رضاك سبلنا، وحسِّن في جميع الأحوال أعمالنا.

اللّهم إنّا نعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء، اللّهم اقسم لنا من الدنيا ما تعصمنا به من فتنتها وما تغنينا به عن أهلها، واجعل في قلوبنا من السلو عنها، والمقت لها، والزهد فيها، والبصر بعيوبها مثل ما جعلت في قلوب من فارقها زهداً فيهاً من أوليائك المخصلين، وأصفيائك المعصومين.

اللّهم إليك نشكو قساوة قلوبنا، وجمود أعيننا، وطول آمالنا، واقتراب آجالنا، وكثرة ذنوبنا، فنعم المشكو إليه أنت فارحم ضعفنا، وارحم تضرعنا، واعطنا لمسكنتنا، واغفر لنا ما قدمنا، وأخرنا، وأسررنا، وأعلنا، وما أنت أعلم به منا، ولا تحرمنا لقلة شكرنا.

[٣٩٦] / اللّهم لا بد لنا من لقاءك، فاجعل عند ذلك عذرنا مقبولاً، وخطأنا محمولاً، وذنبنا مغفوراً، وحظنا موفوراً، وسعينا مشكوراً.

اللّهم إن لنا إليك حاجة، وبنا إليك فاقة، فما كان منا من تقصير فأجبره بسعة عفوك وتجاوز عنه بفضل رحمتك، واقبل منا ما كان صالحاً وأصلح منا ما كان فاسداً.

اللّهم أصبح ذلنا مستجيراً بقوتك، وخوفنا مستجيراً بأمنك، وظلمنا مستجيراً بعفوك، وجهلنا مستجيراً بحلمك، اللّهم اجعل خوفنا كله منك، ورجاءنا كله فيك.

اللّهم إنا نسألك النصرة والعصمة والرحمة والنعمة، ونعوذ بك من المحنة والفتنة، اللّهم أعذنا من وجوب سخطك، وحلول نقمتك، وزوال نعمتك، اللّهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنباً إلاّ غفرته، ولا غمّاً إلاّ فرّجته ولا كرباً إلاّ كشفته، ولا ديناً إلاّ قضيته، ولا عدواً إلاّ كفيته، ولا عيباً إلاّ أصلحته، ولا مريضاً إلاّ أشفيته، ولا غائباً إلاّ أدنيته، ولا خلة إلا سددتها، ولا حاجة من حوائج الدنيا، والآخرة لك فيها رضى ولنا فيها منفعة إلاّ قضيتها في يسر منك وعافية.

اللّهم اجعل في الموت خير غائب ننتظره، والقبر خير بيت نعمره، واجعل ما بعده خيراً لنا منه.

اللَّهم نور قلوبنا، واغفر ذنوبنا، وآنس وحشتنا وآمن روعتنا، وابعثنا آمنين من عقابك موقنين بثوابك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

اللَّهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت، ووسع لنا فيما رزقت، وبارك لنا فيما أعطيت، وحببْ إلينا طاعتك وارزقنا العون على عبادتك، والحفظ / بكفايتك والعزة بولايتك. [٣٩٧]

واغفر لنا ولمن صلح من آبائنا وأزواجنا وذرياتنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، وامنن علينا وعليهم بالهداية والغفران والرضى والرضوان.

اللَّهم اجعلنا هداة مهتدين، واجعلنا أهل بيت صالحين، وأئمة متقين، واغفر لنا ولعامة المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، والصلاة والتسليم على محمد خاتم النبيين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ولمحمد بن حازم الباهلي:

أيا من لا يخيب عليه راج ... ولم يبرمه إلحاح المناج

ويا ثقتي على سرفي وظلمي ... وإيثار التمادي في اللجاج

آخر:

أقلني عثرتي وتلاف أمري ... وهب لي منك عفواً واقض حاجي

فمالي غير إقراري وعلمي ... بعدلك حجة يوم احتجاجي

آخر:

يا رب إني راغب أدعو وأرجو نفلك ... أنت حفي لمن تحب دعوة راج أملك

فاعطني من سعتك يا من تعالى جلك ... سبحانك اللَّهم ما أجل عندي مثلك

القسم الرابع: في أدعية منسوبة إلى الأنبياء والصالحين مما يستحب أن يدعو بها الإنسان صباحاً ومساءً، ويعقب كل صلاة:

فمنها دعاء النبي ﷺ بعد ركعتي الفجر، قال ابن عباس: بعثني العباس إلى النبي ﷺ فأتيته وهو في بيت خالتي ميمونة فقام يصلي في الليل، فلما صلى الركعتين قبل صلاة الفجر قال: «اللَّهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي، وتلم بها / شعثي [٣٩٨] وترد بها العين عني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتبلغني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء اللَّهم اعطني إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعد كفر

ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللَّهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصرة على الأعداء مرافقة الأنبياء.

اللَّهم إني أنزل بك حاجتي وإن ضعف رأيي وقصر عملي وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور.

اللَّهم ما قصر عنه رأيي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحداً من عبادك أو خيراً أنت معطيه أحداً من خلقك فإني راغب إليك فيه وأسألكه يا رب العالمين.

اللَّهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حرباً لأعدائك سلماً لأوليائك نحب بحبك الناس ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك.

اللَّهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود الركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان الذي تعطف بالعز وقال به سبحان الذي لبس المجد وتكرم به سبحان الذي / لا ينبغي التسبيح إلاَّ له سبحان ذي الفضل والنعيم سبحان ذي العزة والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء علمه»[1]. [٣٩٩]

«اللَّهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظمي ونوراً في مخي ونوراً في عصبي ونوراً يسعى بين يدي ونوراً من أمامي ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً من فوقي ونوراً من تحتي»[2].

---

(١) أطراف الحديث عند الترمذي (٣٤١٩) وابن حجر في الفتح (١١/١١٨) والزبيدي في الإتحاف (٥/٦٣) والقاضي عياض في الشفاء (١/١٧٦) والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٩٨٧)، (٤٩٨٨)، وابن حبان في المجروحين (١/٢٣٠) وفي مناهل الصفا (١٢) وعند الذهبي ميزان الاعتدال (٢٦٣٣) وعند ابن حزيمة في صحيحه (١١١٩) وابن عساكر في تهذيب التاريخ (٥/٢٠٧)، والكامل لابن عدي في الضعفاء (٦/٩٥٧).

(٢) أطراف الحديث عند البيهقي في السنن (٣/٢٩) والمتقي الهندي في الكنز (٣٦٠٨) والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٦). والزبيدي في الإتحاف (٥/٦٥، ٧/٩٥٨).

«اللّهم زدني نوراً واعطني نوراً واجعل لي نوراً»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول: «اللّهم أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم والمأثم، اللّهم إني أعوذ بك من النار ومن فتنة النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال اللّهم اغسل خطايانا بماء الثلج والبرد ونق قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب».

وعن أنس أنه عليه السلام كان يقول: «اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال»[(٢)].

وعنه عليه السلام قال لعائشة: «عليك بالجوامع الكوامل قولي: اللّهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك به عبدك ورسولك محمد ﷺ وأستعيذك مما استعاذك به عبدك ورسولك محمد / ﷺ وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته [٤٠٠] رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين»[(٣)].

وعن عيسى عليه السلام كان يعلم أصحابه يقول: لو كان على أحدكم جبل ذهب ديناً ثم دعى بذلك قضاه الله عنه: اللّهم فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها أنت فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٨٦) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر في أوله بعث العباس لابنه عبد الله ولا نومه في بيت ميمونة وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٤/ ٢٣، ٧/ ٩٩، ٨/ ٩٧، ٩٨) والنسائي (٨/ ٢٥٧، ٢٨٠) والترمذي (٣٤٨٤)، (٣٥٠٣) وأبو داود (١٥٤١، ١٥٤٦) وأحمد (٣/ ١٥٩، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠) والبيهقي (٦/ ٣٠٤، ٩/ ١٢٥) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٣٣) والشجري في الأمالي (١/ ٢٢٧) والبخاري في الأدب المفرد (٨٠١) وابن حجر في الفتح (٩/ ٥٥٤، ١١/ ١٧٣، ١٧٨) والتبريزي في المشكاة (٢٤٥٨)، والمتقي الهندي في الكنز (٣٦٩٣، ٣٧٦٣، ٣٨٢١) وتفسير القرطبي (٣/ ٤١٦) والزبيدي (٥/ ١٠٠) في الإتحاف والمنذري في الترغيب (٢/ ٦١٤) والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٥٥، ١١/ ٢٤) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٥٨٠، ٩٦٨٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٢٨) وعند ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ١٩٢) وفي سنن سعيد بن منصور (٢٦٧٦).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٨٧) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها.

وروي أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض طاف بالبيت سبعاً وصلى حذاء الملتزم ثم قال: اللَّهم إنك تعلم سري وعلانيتي فاقبل معذرتي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي وأسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلاَّ ما كتبت لي وارضني بقضائك.

وفي رواية بما قسمت لي فأوحى الله إليه أني قد غفرت لك ولم يأت أحد من ذريتك، ويدعونني بمثل الذي دعوتني به إلاَّ غفرت له، وكشفت غمومه، وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه وآتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدها.

دعاء الخليل عليه السلام كان يقول إذا أصبح: اللَّهم إن هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وارزقني فيه حسنة تتقبلها مِنِّي وزكها وضاعفها لي، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم، قال: فمن دعى بهذا الدعاء فقد أدى شكر يومه.

دعاء عيسى عليه السلام كان يقول: اللَّهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت / مرتهناً بعملي فلا فقير أفقر مِنِّي. [٤٠١]

اللَّهم لا تشمت بي عدوي ولا تسوء بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط علي من لا يرحمني.

دعاء الخضر عليه السلام يقال أنَّ الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلاَّ عن هذه الكلمات: ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلاَّ الله، فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق.

وروي عن ابن عمر أنه دعا فقال: اللَّهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به رحمتك ومن اليقين ما تهون علينا به مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا منتهى علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»[1].

---

(١) أطراف الحديث عند الترمذي (٣٥٠٢) والحاكم في المستدرك (١/٥٢٨، ٢/١٤٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٤٩٢) والعجلوني في كشف الخفا (١/٢٢١) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٨٥١)=

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللَّهم أعنا على الدنيا بالقناعة وعلى الدين بالطاعة.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: أغننا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك.

وعن عمّار أنه دعا فقال: اللَّهم بعلمك الغيب، وبقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خير لي وتوفني إذا علمت الوفاة خير لي.

اللَّهم إني أسألك كلمة الإخلاص في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنا، وخشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك الرضا بالقدر، وأسألك نعيماً لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ولذة العيش / بعد الموت شوقاً إلى لقائك وأعوذ بك من ضرّاء ومن فتنة مضلة. [٤٠٢]

اللَّهم زيّنا بزينة القرآن، وألبسنا لباس التقوى واجعلنا هداة مهتدين، ولا تجعلنا ضالين ولا مضلين.

وعن أم معبد أنها دعت فقالت: اللَّهم طَهِّر لساني من الكذب، وقلبي من النفاق، وعملي من الرياء، وبصري من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولبعض الشعراء يقال أنها لابن الخطيب، وقد استعطف فلما طال به السجن يئس فقال:

يا من يرى ما في الضمير فيسمع ... ويرى فلا يخفى عليه موضع
لا تسلمني حيث أسلمني الورى ... فإليك بالشكوى يفر الموجع
يا رب إنك قلت ادعوني أجب ... فأجب فإني راغب متضرع
يا رب قد جهد البلاء وشقني ... وتضايقت حالي وأنت المفزع
يا رب كيف تضيق عني رحمة ... هي من ذنوب الخلق طراً أو سمع

ولبعضهم:

يا من يرى مد البعوض جناحها ... في ظلم الليل البهيم الأليل
ويرى منابت شعرها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النُحَّلُ
ويرى دبيب النمل في دق الصفا ... كل بتقدير العزيز الأفضل
فامنن عليّ بتوبة تمحو بها ... ما كان مِنِّي في الزمان الأول

= والبغوي في شرح السنة (٥/ ١٧٤) والمتقي الهندي في الكنز (٣٦١٥، ٣٧٦٤) والشجري في الأمالي (١/ ٢٣٨) والزبيدي في الإتحاف (٥/ ٧٨، ٦/ ١٨٦) وابن السني في اليوم والليلة (٤٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٢٧) وابن حجر في الكشاف (٩٣). وابن المبارك في الزهد (١٤٤).

آخر:

أدعـوك ربـي لأمـر أنـت تعلمـه ... كفـى بعلمـك فيمـا فيـه ابتهـل
فـارحـم إنـابـة عبـد ليس مفزعـه ... إلاّ إليـك إذا ضـاقـت بـه الحيـل
واصرف هـواي عن الـدنيـا ولـذتهـا ... فـإنني طـال مـا قـد غـرّني الأمـل

وعن أبي الدرداء أنه قال: من قال كل يوم سبع مرات: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ الذي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1]. / [٤٠٣] كفاه الله ما يهمه من أمر آخرته.

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من قال هذه الكلمات ليلاً أو نهاراً لم يضره شيء: اللّهم أنت ربي لا إلٰه إلاَّ أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليّ العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما اللّهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم».

القسم الخامس: في أدعية مستحسنة عند أوقات مخصوصة وأفعال مخصوصة محذوفة الأسانيد:

منها عند إسباغ الوضوء[2] يقول: «أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللّهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، يقال: من قالها فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيّها شاء».

ومنها إذا خرج إلى المسجد فليقل: «اللّهم اجعل لي في قلبي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل خلفي نوراً، وأمامي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، واجعل فوقي نوراً، وتحتي نوراً، وأعطني نوراً»[3]. اللّهم إني أسألك بحق السائلين وبحق ممشاي هذا إليك فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت إتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذني

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

(٢) أطراف الحديث عند مسلم في الصلاة (١٣١) والطبراني (١/١٨١) وابن أبي شيبة في المصنف (١/٤) وأحمد (١/١٩، ٣٥، ٣/٢٦٥) والزبيدي في الإتحاف (٥/١٠) وابن حجر في الفتح (٢/٣١٥) والمتقي الهندي في الكنز (١٣٩، ٣٧٢٤، ٣٨٩٨) وابن الجوزي في العلل (٢/٣٥١).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٩٩) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث ابن عباس.

من النار، وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت»(١).

ومنها عند الآذان قال عليه السلام: «قولوا»، قالوا: فماذا نقول؟ قال: «قولوا اللَّهم نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة».

وقال لأم سلمة: «قولي عند أذان المغرب: اللَّهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعاتك وحضور صلواتك اغفر لي»(٢).

وكان ﷺ إذا سمع الآذان قال: «اللَّهم رب هذه الدعوة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة / الإخلاص أحيني عليها وتوفني عليها واجعلني من صالح أهلها [٤٠٤] عملاً»(٣).

وقال ﷺ: «من قال حين سمع النداء اللَّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»(٤).

وقيل: «من قال إذا سمع المؤذن أشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً غفر له ذنبه»(٥).

ومنها إذا خرجت من المنزل فقل: بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل عليّ.

وعن أنس بن مالك قال: إذا خرج الرجل من منزله، فقال: «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، قيل له: حسبك هديت ووقيت وكفيت».

ومنها إذا أراد دخول المسجد فليقل: «اللَّهم صلّ على محمد وسلم واغفر لي ذنوبي

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن قاله الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٩٩) طبعة دار الحديث.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٤) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وأبو داود وقال غريب والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله: «وحضور صلواتك» فإنها عند الخرائطي في مكارم الأخلاق والحسن بن علي المعمري في اليوم والليلة. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث أخرجه الحاكم (١/١٩٩) وصححه ووافقه الذهبي والترمذي (٣٥٨٩) وقال: حسن غريب.

(٣) أورد ابن السني في عمل اليوم والليلة (٩٦).

(٤) أطراف الحديث عند البخاري (١/١٥٩، ٦/١٠٨) أحمد (٣/٣٠٢) (٣٥٤) وابن أبي حاتم في علل الحديث (٢٠١١) والمتقي الهندي في الكنز (٢٠٩٨٣، ٢١٠١٦، ٢١٠١٩، ٢١٠٢٠، ١١٠٢٢).

(٥) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٤٢) والدولابي في الكنى والأسماء (١/٤٦).

وافتح لي أبواب رحمتك»[1]. ويقدم رجله اليمنى، فإذا فرغ من الصلاة فليقل: «اللَّهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام فحينا ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام»[2] ويدعو بما شاء الله.

ومنها إذا قام من المجلس فليقل: «سبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلاَّ أنت استغفرك وأتوب إليك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت»[3]. يقال: هذا الدعاء كفارة للغو المجلس.

ومنها إذا دخل السوق فليقل: «لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»[4]. «بسم الله اللَّهم إني أسألك خير هذا السوق وأعوذ بك من الكفر والفسوق، اللَّهم إني أعوذ بك / من شرها ومن شر ما فيها، اللَّهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة»[5]، فإن كان عليه دين فليقل: «اللَّهم اغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك»[6]. [٤٠٥]

ومنها إذا لبس ثوباً جديداً فليقل: «اللَّهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك خيره

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٠ طبعة دار الحديث): أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله ﷺ قال الترمذي: حسن وليس إسناده بمتصل ولمسلم من حديث أبي حميد وأبي أسيد «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وزاد أبو داود في أوله فليسلم على النبي ﷺ.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠١) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث ثوبان.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٩٦) أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي وفي (ج ١ ص ٥٠١) أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن قال المحقق في اليوم والليلة (٤٢٨ : ٤٣٠). وهو صحيح.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠١) طبعة دار الحديث: من حديث عمرو قال غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: بل هو ضعيف ذكره الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٩٦) قلنا غير أنه ورد به زيادة في آخره لم ترد هنا «وهو حي لا يموت وهو على كل شيء قدير».

(٥) قال الحافظ العراقي في (ج ١ ص ٥٠١ طبعة دار الحديث). أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال أقربها لشرائط هذا الكتاب حديث بريدة. قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حفص بن سليمان الأسدي مختلف فيه.

(٦) قال الحافظ العراقي (ج ١ ص ٥٠٢) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب.

وخيره ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»[١].

ومنها إذا رأى شيئاً من طيرة يكرهه فليقل: «اللّهم لا يأتي بالحسنات إلاّ أنت ولا يذهب السيئات إلاّ أنت ولا حول ولا قوة إلاّ بالله»[٢].

ومنها إذا رأى الهلال فليقل بعد التكبير ثلاثاً: «اللّهم أهِلَّه علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربُّك الله جعلك الله هلال رشد وخير آمنت بخالقك، اللّهم اجعله هلالاً مباركاً، اللّهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر»[٣].

ومنها إذا رأى الريح هاجت من ليل أو نهار يقول: «اللّهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت إليه وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت إليه»[٤].

ومنها إذا مات ميت فليقل: «إنا لله وإنا إليه راجعون وإنّا إلى ربنا لمنقلبون اللّهم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلف على عقبه في الغابرين، اللّهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده».

ومنها إذا تصدق فليقل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العليمُ﴾[٥].

---

(١) قال الحافظ العراقي (ج ١ ص ٥٠٢) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه ابن السني بلفظ المصنف، قال محقق الإحياء - سيد إبراهيم - أخرجه النسائي ٣٠٦ عمل اليوم والليلة وأبو داود (٤٠٢٠) والحاكم (٤/١٩٢) وصححه ووافقه الذهبي وأحمد (٣/٣٠) وغيره وهو صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلاً ورجاله ثقات وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبة بن عامر فجعله مسنداً. قاله الحافظ العراقي (ج ١ ص ٥٠٢).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٢٢) طبعة دار الحديث: أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر إلاّ أنه أطلق التكبير ولم يقل «ثلاثاً» ورواه الترمذي وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكره التكبير، وللبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلاً. «كان النبي ﷺ إذا رأى الهلال كبر ثلاثاً». وذكره الألباني في الصحيحة (١٨١٦).

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٢) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة (٩٣٣) وأحمد (٥/١٢٣) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٩) والترمذي (٣/٢٤٢) وقال: حسن صحيح.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

ومنها إذا خسر فليقل: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾[١].

ومنها إذا أمر فليقل: ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾[٢]. ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّر لِي أَمْرِي﴾[٣].

ومنها إذا نظر إلى السماء فليقل: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٤] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا / سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾[٥]. [٤٠٦]

ومنها إذا سمع الرعد فليقل: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»[٦].

ومنها إذا رأى صاعقة فليقل: «اللَّهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك»[٧].

ومنها إذا مطرت السماء فليقل: «اللَّهم سيباً هنيئاً، وصيباً نافعاً، اللَّهم اجعله صيب رحمتك ولا تجعله سبب عذابك»[٨].

ومنها إذا غضب فليقل: «اللَّهم اغفر لي ذنبي، واذهب غيظ قلبي، وأجرني من الشيطان الرجيم»[٩].

ومنها إذا خاف قوماً فليقل: «اللَّهم اردد كيدهم في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم»[١٠].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠.

(٣) سورة طه، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦١.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٣) طبعة دار الحديث: أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفاً ولم أجده مرفوعاً.

(٧) قال الحافظ في المغني (ج ١ ص ٥٠٣). أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن عمر وابن السني بإسناد جيد. وقال محقق الإحياء: ضعيف وفي الإسناد علتان وذكر الألباني في الضعيفة (١٠٤٢).

(٨) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٠٣) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه «سيبا» بالسين في أوله. والنسائي في اليوم والليلة «اللهم اجعله صيبا هنيئاً». وإسنادهما صحيح.

(٩) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٠٣) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف.

(١٠) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٠٣) طبعة دار الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة =

ومنها إذا غزى فليقل: «اللَّهم أنت عضدي ونصري وبك أقاتل»[١].

ومنها إذا طنت أذنه فليقل: «اللَّهم صل على محمد ذكر الله من ذكرني»[٢].

ومنها إذا رأى إجابة الدعاء فليقل: «الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات، وإذا أبطأت فليقل: الحمد لله على كل حال».

ومنها إذا أصابه همٌّ فليقل: «اللَّهم إني عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك نافذ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو أنزلته في كتابه، أو أعطيته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء عماي، وذهاب حزني وهمّي»[٣].

قال النبي ﷺ: «ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلاَّ أذهب الله هَمَّهُ وأبدل الله مكانه فرجاً».

ومنها إذا وجد وجعاً في جسده أو جسد غيره فليرقه برقية النبي ﷺ، كان إذا اشتكى الإنسان قرحاً أو جرحاً وضع سبابته على الأرض ثم رفعها وقال: «بسم الله تربة أرضنا برقية بعضنا تشفي به سقيمنا بإذن الله»[٤].

ومنها إذا وجد وجعاً في جسده فليضع يده / على موضع الوجع وليقل: «بسم الله [٤٠٧] ثلاثاً، وليقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

ومنها إذا أصابه كرب فليقل[٥]: «لا إلٰه إلاَّ الله العلي الحليم، لا إلٰه إلاَّ الله رب العرش

= من حديث أبي موسى بسند ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٠٣). طبعة دار الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أنس قال الترمذي: حسن غريب.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٤) طبعة دار الحديث أخرجه الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليلة من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٤) طبعة دار الحديث أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم ان سلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٤) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٤) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص.

العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض رب العرش الكريم»[١].

ومنها إذا أراد النوم: «فليتوضأ أولاً ثم يتوسد يمينه مستقبلاً القبلة، ثم يُكبِّر أربعاً وثلاثين ويسبح ثلاثاً وثلاثين ويحمد الله ثلاثاً وثلاثين»[٢]. ثم يقول: «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، اللَّهم لا أستطيع ثناء عليك ولو حرصت أنت كما أثنيت على نفسك»[٣]. «اللَّهم باسمك أحيى وأموت»[٤]، «اللَّهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء فالق الحب والنوى، ومُنَزِّل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عَنِّي الدّين وأغنني من الفقر»[٥]. «اللَّهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها لك محياها ومماتها، اللَّهم إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها اللَّهم إني أسألك العافية [في الدنيا والآخرة]»[٦] «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فاغفر لي ذنبي»[٧]، «اللَّهم قني عذابك يوم تبعث عبادك»[٨]، «اللَّهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة منك، ولا منجأ ولا ملجأ منك إلاَّ إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت»[٩] ـ ويكون هذا آخر دعائه ـ.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٤) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث ابن عباس.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث علي.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٥) أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث علي وفيه انقطاع. قال محقق الإحياء: جاء بسند متصل صحيح يعضد الأول ويقويه وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٠) من حديث عائشة.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٥) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٥) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٥) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٥) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمر بسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها» وقال البخاري: «فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

(٨) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٥) أخرجه الترمذي من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه.

(٩) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٠٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث البراء.

وإن كان يفزع من نومه فليقل ما قال ﷺ لخالد / بن الوليد حين شكى إليه أنه يفزع في [٤٠٨] نومه فقال له: «إذا أخذت مضجعك فقل: بسم الله أعوذ بكلمات الله من غضبه وعذابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»(١).

وكان ابن عمر يأمر من أدرك من أولاده أن يقولها وإن لم يدرك كتبها وعلقها عليه.

ومنها إذا قام للتهجد في الليل فليقل: «اللَّهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيُّوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق»(٢).

اللَّهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وفيك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلٰهي لا إلٰه إلاَّ أنت.

ومنها إذا استيقظ عند الصباح فليقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه البعث والنشور»(٣)، «أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة لله والسلطان لله والعزة لله والقدرة لله»(٤) «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»(٥). «اللَّهم إني أسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير، ونعوذ بك

---

(١) أطراف الحديث عند البيهقي في الأسماء والصفات (١٨٥)، وأحمد (٢/ ١٨١) والمنذري في الترغيب (٢/ ٤٥٦) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ١٤).

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٨/ ٨٦) ومسلم في صلاة المسافرين (١٩٩) وابن ماجه (١٣٥٥) والترمذي (٣٤١٨) وأحمد (١/ ٢٩٨)، (٣٠٨) والبيهقي (٣/، ٤، ٥) في السنن والزبيدي في الإتحاف (٥/ ١٦٥).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: (١/ ٥٠٦) طبعة دار الحديث أخرجه البخاري من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٦) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد والحول والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين» وله في الدعاء من ابن أبي أوفى «أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيها لله» وإسنادهما ضعيف ولمسلم من حديث ابن مسعود «أصبحنا وأصبح الملك لله».

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٦) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبد الرحمن بن أبزى بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبزى عن أُبي بن كعب مرفوعاً.

أن نجترح فيه سوءاً أو تجره إلى مسلم فإنك قلت: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى. . .﴾[1]»[2] الآية.

«اللَّهم فالق الإصباح أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه» «بسم الله ما شاء الله لا قوة إلاَّ بالله، ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله خير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلاَّ الله»[3]، «رضيت / بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير». [٤٠٩]

وإذا أمسى قال: «أمسينا بالله إلى آخر الدعاء، ويقول: أعوذ بكلمات الله التامات العامات وأسمائه من شر ما ذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها. . . الآية».

ومنها إذا ضل شيء فليقل: «اللَّهم رب الضالة وهادي الضالة، تهدي من الضلالة أردد عليّ ضالتي بقدرتك وسلطانك، فإنها بيدك ومن عطاءك وفضلك».

ومنها إذا اشترى خادماً أو دابة فليأخذ بناصيتها وليقل: «اللَّهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه»[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٦/١) طبعة دار الحديث: لم أجد أوله والترمذي من حديث أبي بكر في حديث له «وأعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن نقترف على أنفسنا سوءاً أو نجره إلى مسلم» رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد جيد.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٦/١) طبعة دار الحديث: هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل مسكناً والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه». قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ: هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم فالق الإصباح جاعل الليل مسكناً والشمس والقمر حسباناً اقض عن الدين واغنني من الفقر ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده». وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري «اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهداه وبركته وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده» وسنده جيد. وللدارقطني في الأفراد من حديث البراء والحديث عند مسلم في المساء «خير هذه الليلة»، وللعسف بن علي المعمري في اليوم والليلة من حديث ابن مسعود. ثم قال مسلم: «وإذا أصبح قال ذلك أيضاً».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد.

ومنها إذا هنَّأ بالنكاح مسلماً فليقل: «بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما بخير»(١).

ومنها إذا قضيت الدّين فقل للمقضي له: «بارك الله لك في أهلك ومالك»(٢).

ومنها إذا رأى مبتلاً فليقل: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به وفضّلني عليه وعلى كثير من خلقه تفضيلاً».

ومنها إذا مرض فليقل: «اللّهم إني أسألك تعجيل عافيتك، وصبراً على بلائك، وخروجاً من الدنيا إلى رحمتك».

ومنها إذا فرغ من الأكل فليقل: «الحمد لله الذي يطعم، ولا يطعم مَنَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ولا مكافىء ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العراء، وهدانا من الضلالة، وبصرنا من العمى وفَضَّلنَا على كثير من خلقه تفضيلاً».

ومنها إذا خاف من سلطان ودخل عليه فليقل: «اللّهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك الذي لا يرام ولا أهلك وأنت / رجائي فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قلَّ [٤١٠] عندي شكري فلم تحرمني، وكم ابتليتني بها قلَّ عندها صبري فلم تخذلني، اللّهم إني أعوذ بك من شره، واجعل كيده في نحره»(٣).

وقال ابن مسعود: إذا خفت ظلم سلطان فقل: «اللّهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، كن لي جاراً من فلان وأشياعه وأتباعه من الجن والإنس أن يفرط عليّ أحدهم، أو يطغى عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك».

وكان النبي ﷺ إذا خاف قوماً قال: «اللّهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم»(٤). والأدعية في هذه الأحوال كثيرة وفميا ذكرنا كفاية وبالله التوفيق.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٠٧) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٠٨): أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال: «استقرض مني النبي ﷺ أربعين ألفاً فجاءه مال فدفعه إلي» قال فذكره وإسناده حسن.

(٣) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في الكنز (٣٤٤١) وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٥/ ٣١٢).

(٤) أطراف الحديث عند أبو داود (١٥٣٧) وأحمد (٤/ ٤١٥) والمتقي الهندي في الكنز (١٨٠٠٢) والزبيدي في الإتحاف (٥/ ١٠٥) وفي الأذكار للنووي (١١٤، ٢٠٢).

القسم السادس: في آداب الدعاء

وهي بالجملة عشرة :

الأول: أن يترصد له أوقاتاً معلومة شريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، وليلة الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من الليل، وعند نزول المطر، وحضرة الآذان، وحضرة الصف في سبيل الله، فإن هذا كله قد وردت فيه آثار ـ تركتها مخافة الإكثار ـ.

الثاني: أن يغتنم الدعاء عند الأحوال الشريفة مثل خلف الصلاة، وبين الآذان والإقامة، وفي السجود عند إفطار الصائم، ونزول الغيث وغير ذلك كما تقدم ـ تركت الآثار في ذلك مخافة التطويل ـ.

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة رافعاً يديه بحيث يرى بياض إبطيه، وذلك مروى عن النبي ﷺ، وقال سليمان عليه السلام: إن ربكم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً.

[٤١١] وقال أبو الدرداء: ارفعوا / هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال.

ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه عند آخر الدعاء روى ذلك عمر عن النبي ﷺ، وقال ابن عباس: كان إذا دعا عليه السلام ضمَّ كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه ولا يرفع بصره إلى السماء، قال عليه السلام: «لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم»(١).

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر.

وعن أبي موسى قال: قدمنا مع النبي ﷺ فلما دنونا من المدينة رفع الناس أصواتهم بالتكبير فقال: «أيها الناس إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً وإن الذي تدعون بينكم وبين أعناق رقابكم قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾(٢)»(٣).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٣) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عند الدعاء في الصلاة.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٧٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه مع اختلاف اللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود.

ووصف زكريا فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[(١)].

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء؛ فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال تضرع والتكلف لا يناسبه، قال عليه السلام: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»[(٢)]. وقيل في قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾[(٣)]. قيل معناه: التكلف للأسجاع.

وقال عليه السلام: «إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول: اللّهم إني أسلك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل»[(٤)] والأولى أن لا يتجاوز الدعوات المأثورة المتقدمة.

وقال بعض السلف: ادع الله بلسان الذلة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

السادس: التضرع والخشوع مع إحضار القلب، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخفْيَةً﴾. وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾[(٥)].

وقال عليه السلام: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه»[(٦)].

وفي الحديث: «إن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء هب لي / من عينيك الدموع ومن [٤١٢] نفسك الخضوع ومن قلبك الخشوع ثم ادعني فإني قريب مجيب» وفي الخبر أوحى الله إلى بعضهم: ادعني وفرائصك ترتعد ولا بد من إحضار القلب.

وفي الحديث: «إن الله لا يستجيب من قلب ساهٍ ولا لاهٍ»[(٧)]. وينبغي أن يجزم بالدعاء

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٧٤) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٧٤) طبعة دار الحديث: غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس «وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون إلاَّ ذلك» وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة «عليك بالكوامل وفيه وأسألك الجنة... إلى آخره».

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٥٥.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٧٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس «إذا أحب الله عبداً صب عليه البلاء صباً.... الحديث» وفيه «دعه فإني أحب أن أسمع صوته» وللطبراني من حديث أبي أمامة وسندهما ضعيف.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٧٥) طبعة دار الحديث: في معنى هذا الحديث: أخرجه الترمذي =

ويؤمن بالإجابة، وفي الحديث: «لا يقل أحدكم اللّهم اغفر لي إن شئت ليعزم على المسألة فإن الله لا مكره له فإذا دعا أحدكم فليعزم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء»(١). وليلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً، ولا ينبغي أن يستبطىء الإجابة لقوله عليه السلام: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً»(٢).

وقال بعضهم: إني دعوت الله منذ عشرين سنة حاجة فما أجابني، وأنا أرجو الإجابة. قيل: وما وهي؟ قال: أن يوفقني لترك ما لا يعنيني.

وقال ﷺ: «إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف فيه الإجابة فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل: الحمد لله على كل حال»(٣).

وقيل في قوله تعالى مخبراً عن موسى وهارون قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾(٤).

قيل: دعا موسى فأمّن هارون عليه فوقعت بعد أربعين سنة من يوم الدعاء.

وقيل: أن نوحاً عليه السلام دعا على قومه فوقعت بعد مائة سنة قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾(٥). وأنشدوا:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء

سهام الليل قاتلة ولكن ... إلى أمد وللأمد انقضاء

وينبغي له أن يستفتح الدعاء بذكر الله والصلاة على رسوله، والتوبة من ذنوبه ولا يبدأ بالسؤال، ويقال أنه عليه السلام / يستفتح الدعاء ويقول: «سبحان ربي الأعلى الوهاب»(٦). [٤١٣]
وقال: «إذا سألتم الله حاجة فابدأوا بالصلاة عليّ فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي

= من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة قلت ـ أي الحافظ ـ لكنه ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٥) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٥): متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٦) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصراً بإسناد ضعيف.

(٤) سورة يونس، الآية: ٨٩.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٣.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٦): أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت ـ أي الحافظ ـ: فيه عمر بن راشد اليماني ضعفه الجمهور.

أحدهما ويرد الأخرى»[١] وليخلص الدعاء لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من مسمع.

السابع: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله تعالى بقلب متضرع وهو السبب القريب في الحاجة.

وعن كعب قال: خرج موسى بن عمران يستسقي بالناس ثلاثاً فلم يسقوا، فأوحى الله إليه أن فيكم نمّاماً فلا أستجيب لك ولا لمن معك، قال: يا رب من هو حتى نخرجه؟ قال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمّاماً. قال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى الله بأجمعكم من النميمة. فتابوا فسقوا[٢].

وعن سفيان قال: بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة والأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال ويتضرعون، فأوحى الله إلى أنبيائهم، لو مشيتم إلي بأقدامكم حتى تحفى ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكل ألسنتكم بالدعاء فإني لا أجيب لكم داعياً ولا أرحم لكم باكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا.

وقال مالك بن دينار: قحط بنو إسرائيل فخرجوا مراراً، فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفّاً قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مِنّي إلاَّ بعداً.

ويروى أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي فَمَرَّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللَّهم إنَّا خلق من خلقك ولا غنا بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا. فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

/ وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربك. فقال: أنتم تستبطؤون المطر وأنا استبطىء الحجر. [٤١٤]

ويروى أن عيسى عليه السلام خرج بالناس يستسقي فلما أسحروا قال لهم: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا إلاَّ رجلاً واحداً، فقال له عيسى: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما أعلم من شيء غير أني ذات يوم أصلي فمرَّت امرأة فنظرت إليها بعيني هذه، فلما جاوزت أدخلت إصبعي في عيني فانتزعتها فأتبعت المرأة بها.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٦) طبعة دار الحديث: لم أجده مرفوعاً وإنما هو موقوف على أبي الدرداء.

(٢) هذا لا سند له ولا يصح إلاَّ بسند صحيح وإنما هي من قبيل الإسرائيليات.

قال له عيسى: ادع، فدعا فتجللت السماء سحاباً ثم صب فسقوا.

وقال يحيى الغساني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام، فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا يستسقون فقال أحدهم: اللَّهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمَّن ظلمنا إننا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا.

وقال الثاني: اللَّهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا فاعتقنا.

وقال الثالث: اللَّهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذ وقفوا بأبوابنا، اللَّهم إنّا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا، فسقوا.

ويروى أن عمر استسقى بالعباس فلما فرغ عمر رحمه الله من دعائه، قال العباس: اللَّهم إنه لا ينزل البلاء إلاَّ بذنب، ولم يكشف إلاَّ بتوبة، ولقد توجه بي القوم لمكاني من نبيك عليه السلام، فهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فأنت الراعي فلا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير ورقّ الكبير وارتفعت الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللَّهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا؛ فإنه ﴿لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[1]. قال: فما أتم كلامه حتى أرخت السماء / كالجبال، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت: [٤١٥]

سأل الخليفة إذ تتابع جدبه فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذاك دون الناس
أحى المليك به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد اليأس

وعن الشعبي قال: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت؟

قال: سألت الله بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. . . .﴾[2] الآية. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[3].

الثامن: أن يكون مطعم الداعي ومشربه حلالاً؛ فإن ذلك عليه المدار وهو شرط في إجابة الدعاء.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.
(٢) سورة نوح، الآية: ١١.
(٣) سورة هود، الآية: ٩٠.

قال سعد: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مجاب الدعاء قال: «إذا أردت ذلك فطيب طعمتك».

ويقال: الرحمة مخزونة في مخازن الله تعالى ومفاتيحها الدعاء، وأسنان المفاتيح لقمة الحلال.

ويقال: إن أهل آخر الزمان يعيشون بالحرام المجهول فلا يقبل دعاءهم ولكن لا يؤاخذون به.

وقيل: لا يقبل به دعاء الدنيا خاصة دون الآخرة.

التاسع: أن يأتمر الداعي بأوامر الله وينتهي عن مناهيه، فإن المتقي كريم على الله والعاصي والفاجر ممقوت عند الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ ٱلْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾[1]. إلاَّ أن يكون الداعي مظلوماً فإن دعاءه مقبول على من ظلمه.

وفي الحديث: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها ترفع، فوق السحاب يقول الله: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»[2]. ولكن لا ينبغي للعاصي / أن يترك الدعاء لما يعلم من نفسه [٤١٦] ولكن يتوب ثم يدعو.

وقال سفيان: لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله تعالى قد أجاب شر الخلق إبليس قال: ﴿انظرني إلى يوم يبعثون﴾[3].

ولا ينبغي أن يسأل الدعاء من غيره ويتمادى على الإصرار. قال رجل لعدي بن قيس: ادع الله لي.

قال: يا ابن أخي سألت من قد عجز عن نفسه، ولكن أطع الله يغفر لك دون دعاءي.

العاشر: أن لا يتجاوز العد في الدعاء فإن ذلك يقع موقع التحكم على الله تعالى.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري في التاريخ الكبير (١/١٨٦) وابن أبي حاتم الرازي (٦٣٤) والعجلوني في كشف الخفا (١/٢٩) والألباني في الصحيحة (٧٦٧، ٨٧٠، ٨٧١، ٢/٥٥٤) والسيوطي في الدر المنثور (١/٣٥٢). والترمذي (١٩٧٠ و٢٦٤٦ و٣٦٦٨) والطبراني والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٥٢) والمنذري في الترغيب (٣/١٨٨) والحاكم في المستدرك (١/٩٢).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤.

وذلك أن يقول: اللَّهم أحيني ولا تمتني، أو أحي من مات من أهلي قبل يوم القيامة، واجعل درجتي مثل درجة الأنبياء عليهم السلام، وهب لي ملكاً مثل ملك سليمان عليه السلام.

وكذلك لا يدعو دعاء يوقع موقع السخط على الله تعالى: مثل أن يقول: اللَّهم أهلكني وافقرني وما أشبه إلاَّ أن يقيد ذلك فيقول: أمتني إن كان الموت خيراً لي أو أفقرني إن كان الفقر خير لي والله أعلم.

فإن قيل: ما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ قيل له: إن القضاء رد البلاء بالدعاء؛ فإن الدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك البلاء والدعاء يتعانجان، وليس من شروط الاعتراف بقضاء الله أن لا تحمل السلاح وقد قال تعالى: ﴿خذوا حذركم﴾[١] مع أنه قال: ﴿قل لن يصيبنا إلاَّ ما كتب الله لنا﴾.

وقد روي أن إبليس اللعين قال لعيسى عليه السلام: يا روح الله ألست تزعم أنه لن يصيبك إلاَّ ما قدّر الله لك. قال: بلى. قال: فارم نفسك إذاً من ذروة الجبل فإن / قدّر لك السلامة فتسلم. قال: يا عدو الله إن الله يختبر عبده وليس للعبد أن يختبر ربه. [٤١٧]

ثم في الدعاء أيضاً من الفائدة: أنه ذكر الله ويستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادة، وقد قال عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة»[٢].

والغالب على الخلق أن لا تنصرف قلوبهم إلى الله إلاَّ عند نزول الحاجة بهم أو حلول قارعة، والإنسان إذا مسه شر فذو دعاء عريض، فالحاجة تحوج إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله تعالى بالتضرع والاستكانة ولذلك صار البلاء موكلاً بالأنبياء والأولياء؛ لأنه يرد القلب بالتضرع. وأما الغنى فبسبب البطر والطغيان في غالب الأحوال، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣]. وبالله التوفيق.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧١.

(٢) أطراف الحديث عند الترمذي (٣٣٧١) والزبيدي في الإتحاف (٢/ ٨٤، ٥/ ٢٩) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٢٢٣١) وابن حجر (١١/ ٩٤) والمتقي الهندي في الكنز (٣١١٤) والمنذري في الترغيب (٢/ ٤٨٢) والعجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٨٥).

(٣) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

الفصل الثاني: في فضيلة الذكر[١]

ويتفرع منه أربعة أقسام:

الأول: في فضيلته على الجملة ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٢].

وعن ثابت البناني قال: إني أعلم متى يذكرني ربي. ففزعوا منه، فقالوا: متى تعلم ذلك؟

قال: إذا ذكرته ذكرني. وقال: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٣]. وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾[٤].

قال ابن عباس: بالليل والنهار في البر والبحر والحضر والسفر والغنى والفقر والصحة والمرض والسر والعلانية. وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ....﴾[٥] الآية. وقال في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٦]. وقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[٧]. قال ابن عباس له وجهان:

أحدهما: ذكر الله لكم أعظم من ذكركم إياه.

والآخر: أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه في سائر الآيات.

وعن النبي ﷺ أنه قال: ذكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم»[٨] «وذكر الله في الغافلين كالمقاتل / بين الفارين». [٤١٨]

وقال: «يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي»[٩].

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإحياء للإمام الغزالي.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٨) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٥٧) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ضعيف، وقال: «في وسط الشجر» الحديث.
(٩) قال الحافظ في المغني (١/٤٥٧) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة والحاكم من حديث أبي الدرداء وقال صحيح الإسناد.

وقال أيضاً: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «إلاَّ أن تضرب بسيفك حتى ينقطع»(١). قالها ثلاثاً، وقال ﷺ: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى»(٢).

وسئل عن أفضل الأعمال؟ فقال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى(٣) [أصبح وأمسي ولسانك رطب بذكر الله] تصبح وتمسي وليس عليك خطيئة»(٤).

وقال عليه السلام: «لذكر الله بالغدو والعشي أعظم من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطائك المال سحاً»(٥).

وقال: «يقول الله تعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملأه وإذا تقرب مِنِّي شبراً تقربت منه ذراعاً وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا مشى إليَّ هرولت إليه»(٦). يعني بالهرولة سرعة الإجابة.

وقال: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلاَّ ظله: ومن جملتهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه بالدموع من خشية الله تعالى»(٧).

وعن أبي الدرداء عنه عليه السلام قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني في حديث معاذ بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذي بلفظ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قاله الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٥٧) طبعة دار الحديث.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٨/١): أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس «من أصبح وأمسى ولسانه رطب بذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة» وفيه من لا يعرف.

(٥) قال الحافظ في المغني (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله عز وجل»[١].

وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[٢].

وقال بعض السلف: بلغنا أن الله عز وجل قال: يا ابن آدم اذكرني / بعد الصبح ساعة [٤١٩] وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما.

وقال بعض العلماء: إن الله تعالى يقول: أيُّما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

وقال الحسن: الذكر ذكران، ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله تعالى ما أحسنه، وأعظم وأفضل من ذلك ذكر الله عز وجل عند ما حرم الله.

ويروى أن: كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلاَّ ذاكر الله عز وجل، وعن أبي موسى عنه ﷺ قال: «مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت».

وعن أبي هريرة عنه عليه السلام قال: «إن لله ملائكة يطوفون بالطرق يلتمسون أهل الذكر فإن وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلمَّوا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك، فيقول: ما يسألونني قالوا: يسألونك الجنة. قال: يقول وهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول: وكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً رطلباً وأعظم فيها رغبة. قال: وكذلك النار على هذا الحال. قال: فيقول أشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك فيهم: فلان ليس منهم وإنما جاء لحاجة. قال: هم قوم لا يشقى جليسهم»[٣].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٥٨) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصحح إسناده من حديث أبي الدرداء.

(٢) قال الحافظ في المغني (١/٤٥٨) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري في التاريخ والبزار في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا وذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: إسناده حسن بشواهد عند الترمذي (٢٩٢٦) والدارمي (٢/٤٤١) وأبو نعيم في الحلية (٥/١٠٦) من حديثين والبيهقي في الشعب وإن كان لا يخلو من ضعف والله أعلم.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٦٠) رواه الترمذي من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من =

القسم الثاني: في فضيلة مجلس الذكر

قال ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلاَّ حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»(١).

[٤٢٠] وقال / أيضاً: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلاَّ وجهه إلاَّ ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم وبدلت لكم سيئاتكم حسنات»(٢).

وقال: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا عليَّ فيه إلاَّ كان عليهم حسرةً يوم القيامة»(٣).

وعن داود عليه السلام قال: إلٰهي إذا رأيتني أجاوز مجلس الذاكرين إلى مجلس الغافلين، فاكسر رجلي دونهم، فإنها نعمة تقع بها عليّ.

وقال النبي ﷺ: «المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السوء»(٤).

وعن أبي هريرة: أن أهل السماء ليتراؤون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم، ويقال: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى، اعتزل الشيطان الدنيا، فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول: دعهم فإذا افترقوا أخذت بأعناقهم.

وعن أبي هريرة أنه دخل السوق فقال: أراكم هاهنا وميراث محمد ﷺ تقسم في المسجد، فذهب ناس إلى المسجد فقالوا: ما رأينا ميراثاً تقسم، قال: ماذا رأيتم؟ قالوا: قوما

= حديث أبي هريرة وحده وأطراف الحديث عند البخاري (٨/٦٠٧) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٥) والنسائي (٣/٤٣) والترمذي (٣٦٠٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٠١) وابن حجر في الفتح (٢/٢٨٦، ١١/٢٠٨) والزبيدي في الإتحاف (٩/١٢٥) والسيوطي في الدر المنثور (١/١٥٠).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٥٩) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٥٩) طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٥٩) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٥٩) طبعة دار الحديث: ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرجه ولده وكذلك لم أجد إسناده.

يذكرون الله ويقرؤون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ(١).

القسم الثالث: في فضيلة التهليل

قال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له»(٢).

وقال: «من قال لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة / وكانت له حرزاً من الشيطان يومه حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاَّ أحد عمل [٤٢١] أكثر من ذلك»(٣).

وعن ابن مسعود أنه قال: إن الله عز وجل قَسَّم بينكم أخلاقكم كما قسَّم بينكم أرزاقكم، إن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلاَّ لمن يحب، ومن يبخل بالمال أن ينفقه، وهاب العدو أن يجاهده فليكثر من قول: لا إلٰه إلاَّ الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر، وقال النبي ﷺ: «أكثروا من قول لا إله إلاَّ الله قبل أن يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي الكلمة الطيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى»(٤).

وقال لأبي هريرة: «إن كل حسنة تعمل توزن يوم القيامة إلاَّ شهادة أن لا إلٰه إلاَّ الله فإنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن كان لا إلٰه إلاَّ الله أرجح من ذلك»(٥).

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: من قال في سوق من الأسواق: لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٩/١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة وانقطاع.

(٢) أورد ابن عبد البر في التمهيد (٣٨/٦) في طريق طلحة بن عبيد الله بن كريز وقال ذكر مالك في الصلاة وفي الحج (ص ٢٩١، ٩٥٥).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٦٠/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي (٤٦١/١) المغني. أخرجه ابن عدي والطبراني في الدعاء وأبو يعلى وحديث الطبراني «أكثروا من قول لا إلٰه إلاَّ الله قبل أن يحال بينكم وبينها» وفيه ابن وردان.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٦١/١) طبعة دار الحديث: وصية أبي هريرة موضوعة وآخر الحديث رواه المستغفري في الدعوات «ولو جعلت لا إلٰه إلاَّ الله» وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعاً «لو أن السموات السبع والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إلٰه إلاَّ الله» رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه.

شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، كتبت له ألف ألف حسنة، ومحيت عنه ألف ألف سيئة، وبني له بيت في الجنة.

ويروى أن العبد إذا قال: لا إله إلاَّ الله، أتت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلاَّ محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها.

القسم الرابع: في التسبيح

عن أبي هريرة عنه عليه السلام قال: «من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة في كل يوم حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(١).

[٤٢٢] وقال ﷺ / : «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده»(٢).

قال بعضهم: سمعته عليه السلام يقول إذا قام من الليل: «سبحان الله رب العالمين الهوى من الليل» يعني بالهوى ساعة ثم يقول: «سبحان الله وبحمده الهوى».

وعن ابن عباس أنه عليه السلام مر بجويرية بنت الحارث وهي في مصلاها تسبح وتذكر الله، ثم مر بها بعدما ارتفع النهار فقال: «لو تكلمت بأربع كلمات أعدتهن ثلاث مرات هي أفضل مما قلت: سبحان الله عدد خلقه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته والحمد لله كذلك».

وعن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات إنها قول العبد: الله أكبر وسبحان الله ولله الحمد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، ولحاتم بن زياد:

سبحان من ستر القبيح ... ولم يزل براً بعبده
لا تعجبن من أحمق ... نال الغنى من غير كده
ولعاقل لا يستتب ... فكلهم يسعى بجده

ولصرمة بن أنس:

سبحان الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدنيا ... ليس ما قال ربنا بضلال

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٦٣) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٦٥). متفق عليه من حديث أبي هريرة.

آخر:

سبحان من لا يخيب من قصده | من قصد الله صادقاً وجده
قد شمل الخلق فضل نعمته | كل إلى فضله يمد يده

ولزيد بن عمر أو لورقة بن نوفل:

سبحان ذي العرش سبحاناً يدوم له | رب البرية فرد واحد صمد
سبحانه ثم سبحاناً يعود له | وقبلنا سبح الجودى والجمد

وعن أبي هريرة قال: من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وكبَّر / مثل ذلك وحمد الله [٤٢٣] مثل ذلك وختم المائة بلا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر.

الفصل الثالث في الاستغفار والصلاة على النبي المختار(١)

قال الله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾(٢)، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٣)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ....﴾(٤) إلى آخر الآية.

وعن ابن مسعود قال: في كتاب الله آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما فاستغفر الله إلاَّ غفر له، قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً....﴾(٥) إلى آخره، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾(٦).

وكان عليه السلام يكثر أن يقول: «سبحانك اللَّهم وبحمدك اللَّهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

وروي أنه قال لهم في طريق الحديبية وقد أفض من وعر إلى سهل: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه». ففعلوا فقال: «إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل. فلم يقولوها». وقال:

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي الإحياء (ج ١/٤٨١). طبعة دار الحديث تحقيق الأستاذ سيد إبراهيم.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ١١٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.
(٦) سورة النصر، الآية: ٣.

«من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»[١].

وقال عليه السلام: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»[٢]. وقال: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في كل يوم مائة مرة»[٣].

وعن علي قال: عجبت ممن يهلك والنجاة معه. قالوا: وما هي؟ قال: الاستغفار.

وعن وهب قال: لقي إبليس اللعين يحيى بن زكريا عليهما السلام فقال: أخبرني عن طبائع ابن آدم عندكم. قال: صنف منهم مثلك معصوم لا نقدمه على شيء، وصنف ثان هم في أيدينا كالكرة في أيدي الصبيان قد كفونا أنفسهم وصنف ثالث هم أشد علينا ندرك من أحدهم حاجتنا ثم يفسدها بالاستغفار فلا نحن نيئس منه ولا نحن ندرك ما نريد.

[٤٢٤] / وعن النبي ﷺ قال: «من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاَّ هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أو عدد الرمل أو عدد أوراق الشجر أو عدد أيام الدنيا»[٤].

وفي حديث آخر: «غفرت له ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف»[٥].

وعن حذيفة قال: كنت ذرب اللسان فقلت: يا رسول الله خفت أن يدخلني لساني النار، قال: «أين أنت من الاستغفار في اليوم مائة مرة»[٦].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٨٢) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٨٢). أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة إلا أنه قال «أكثر من سبعين مرة». وهو في الدعاء عند الطبراني كما ذكره المصنف.

(٣) قال الحافظ العراقي: أخرجه مسلم من حديث الأغر غير أنه قال: «حتى أني لأستغفر».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٨٢) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافي. قلت ـ أي الحافظ ـ: الوصافي وإن كان ضعيفاً فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة ورواه البخاري في التاريخ دون قوله: «حين يأوي إلى فراشه» وقوله: «ثلاث مرات».

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٨٢) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي من حديث زيد مولى النبي ﷺ. وقال: غريب. قلت ـ أي الحافظ ـ: رجاله موثوقون ورواه ابن مسعود والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٨٣): أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين.

وقال لعائشة: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار»[١].

وكان ﷺ يقول في استغفاره: «اللَّهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مِنِّي، اللَّهم اغفر لي جدي وهزلي وخطيئتي وعمدي وكل ذلك عندي، اللَّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مِنِّي أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير»[٢].

وقال ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللَّهم أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك بنعمتك عندي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت وأعوذ بك من شر ما صنعت، من قالها نهاراً موقناً فمات قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها ليلاً قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[٣].

وعن علي قال: إذا حدثني أحد من أصحاب النبي ﷺ حلفته، وإذا حلفته صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً ثم يحسن الطهور ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلاَّ غفر له ثم قرأ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة.... / ﴾[٤] الآية. [٤٢٥]

وعن أبي هريرة قال: «إن المؤمن إذا أذنب كمانت نكته سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تغلق قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم﴾[٥]»[٦].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه دون قوله: «فإن التوبة.... الخ». وزاد «أو توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه». وللطبراني في الدعاء «فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له».

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم.

(٣) قال الحافظ العراقي في نحوه في المغني (١/ ٤٨٤) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس دون قوله: «وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي» ودون قوله: «ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت» ودون قوله: «جميعاً».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٣) طبعة دار الحديث: أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي.

(٥) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٣) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وصححه النسائي في اليوم =

وعنه [أن الله سبحانه] ليرفع لعبده الدرجة في الجنة فيقول: يا رب أنّى لي هذه، فيقول: بالاستغفار»[١]. ولذلك قال ﷺ: «اللّهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفروا»[٢]. وقال: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»[٣].

وقال قتادة: القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فالذنب دائكم والاستغفار دوائكم، وقال الربيع بن خيثم: ليقولن أحدكم استغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً وكذبة إن لم يفعل، ولكن ليقل اللّهم اغفر لي وتب عليّ.

وقال بعض الحكماء: من قدم الاستغفار على الذنب، كان مستهزءاً على الله وهو لا يعلم.

وقال: وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللّهم إن استغفاري مع إصراري للوم، وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفّى، وإذا توعد عفى، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين.

وقال أبو عبد الله الورّاق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوباً لمحيت عنك إذا دعوت بهذا الدعاء مخلصاً ـ إن شاء الله تعالى ـ وهو: اللّهم أستغفرك من كل ذنب، تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيت به في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ وخلاء، وسر وعلانية يا حليم ويقال أنه استغفار الخضر عليه السلام. ولأبي العتاهية:

أستغفر الله من جرمي ومن جنفي ... إنـي وإن كنـت مستـور لخطّـاء

= والليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٨٣) طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد بإسناد حسن. غير أنه قال في آخره: «باستغفار وذلك لك».

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٤) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه وفيه علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٤) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر وقال: غريب وليس إسناده قوي.

/ لم تبك نفسك أيام الحياة لما تخشى وأنت على الأموات بكّاء [٤٢٦]

وكان عامر بن عبد القيس يغدو فيقعد على قارعة الطريق الأعظم، والناس متصرفون في حوائجهم، فإذا رآهم ذاهبين يميناً وشمالاً قال: يا رب غدا الفارون في حوائجهم وغدوت إليك أسألك المغفرة، ولبعضهم:

إن تقف عن عبد مسيء ففي فضلك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما أستحق من خطاء فجد بما تستحق من حسن

فصل في فضل الصلاة على النبي ﷺ وشرف وكرم وعظم وأحسن[١]

وروي أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الله وملائكته يصلون على النبي...﴾[٢] الآية».

وروي أن النبي ﷺ جاء ذات يوم والبشرى يرى على وجهه فقال: «جاءني جبريل عليه السلام فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلاّ صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك إلاّ سلمت عليه عشراً»[٣].

وقال ﷺ: «من صلى عليّ صلت عليه الملائكة ما صلى عليَّ فليقلل أو ليكثر»[٤].

وقال: «إن أولى الناس بي أكثرهم عليَّ صلاة»[٥].

وقال: «فحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليّ»[٦].

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإحياء للإمام الغزالي (١/٤٧٨) طبعة دار الحديث.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٩) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة بإسناد جيد.
(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٩) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن.
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٩) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حسن غريب وابن حبان.
(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٩) طبعة دار الحديث: أخرجه قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن علي هكذا والنسائي وابن حبان من حديث أخيه الحسين «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي» ورواه الترمذي من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال: حسن صحيح.

وقال: «أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة»[١]. وقال: «من صلى عليّ من أمتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات»[٢].

وقال: «من صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»[٣].

وقال: «إن في الأرض ملائكة سائحين يبلغوني عن أمتي السلام وقال: «ليس أحد يسلم علي إلاّ رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»[٤].

وبلغنا عن كعب بن جعرة أنه لما أنزلت: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي. . . .﴾ الآية. قلنا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللّهم صل على نبيك محمد وعلى من صلح من آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد»[٥].

ومن غيره: «وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد».

وقال بعض العلماء: الصلاة على النبي فريضة وهذا يؤيده قول الملائكة: من ذكرت عنده يا محمد ولم يصل عليك أبعده الله / ؛ لأن الفرض ما يتعلق بتركه العقاب. [٤٢٧]

وقال بعضهم: إنها فريضة عن كل صلاة، وقال أصحابنا: فيما وجدت إنما فرض ذلك مرة واحدة مع الذكر، وبعد ذلك ما صلى كان تطوعاً.

وعن ابن مسعود قال: إذا صليتم على النبي فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنها فريضة

(١) قال الحافظ العراقي (٤٧٩/١) في المغني طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث أوس بن أوس وذكر ابن أبي حاتم في العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر..

(٢) أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه «مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات». وله في السير ولابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله: «مخلصاً من قلبه» ودون ذكر: محو السيئات. ولم يذكر أيضاً ابن حبان «رفع الدرجات».

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٠) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في الثواب والمستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٠) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند جيد.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٤٨٠) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي حميد الساعدي.

أمركم الله بها، وقيل: لم تؤمر أمة أن تصلي على نبيها إلاَّ هذه الأمة فضلاً من الله ونعمة.

وعن النبي ﷺ قال: «إذا صليتم عليّ فصلوا على الأنبياء فإنهم أرسلوا كما أرسلت»[١]. والله أعلم.

فصل في التفكر والاعتبار

اعلم أن التفكر مرآة القلب، وبالتفكر الخالص يتوصل إلى استقامة القلوب، وباستقامة القلوب يتوصل إلى الصدق في الأعمال، وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه من مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ. . . .﴾[٢] الآية.

وقال النبي ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإن بهذا المغرب أرضاً نورها بياضها مسيرة الشمس فيها أربعون يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين»، قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال: «ما يدرون أخلق الشيطان أم لا»، قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: «وما يدرون أن خلق آدم»[٣].

وقد ذم الله تعالى أقواماً ووبخهم لتركهم التفكر والنظر فقال: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض. . . .﴾ الآية. يعني: ملك السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء أي وإلى ما خلق الله من شيء يعني مما يرونه فيتفكروا فيعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يحيي الموتى، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيبادروا بالتوبة قبل الموت.

ويروى أن أبا ريحانة صاحب النبي ﷺ أقبل من بعض غزواته فتوضأ ثم قام في مسجده، فقرأ سورة ثم أخرى، ثم كذلك حتى أذّن المؤذن، فأتته امرأته فقالت له: غبت في غزوتك ثم قدمت فلم يكن لي منك حظ ولا نصيب.

---

(١) أطراف الحديث عند أحمد في المسند (٢/ ٢٦٥) وابن كثير في التفسير (٤/ ١١٦) وابن حجر في الفتح (١١/ ١٦٩). والشجري في الأمالي (١/ ١٢٥) والعجلوني في كشف الخفا (١/ ٩٦).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٤) طبعة دار الحديث: رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام. قال محقق الإحياء: ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٧٥) وقال: رواه الطبراني وإسناده جيد وذكره الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٥٦). بلفظ «عبّاً» بدلاً من «غبّاً» وقال: صحيح.

فقال: والله ما خطرت على بالي ولو ذكرتك لكان لك عليّ حق. قالت: فما الذي [٤٢٨] اشغلك؟ قال: لم يزل قلبي يهوى / فيما وصف الله في الجنة من أزواجها ونعيمها حتى أذن المؤذن.

وقال الحسن: إن من أفضل العمل الورع والتفكر، ومن لم تكن حياته في التفكر في خطيئته فليحتسب حياته، وقال: تفكر ساعة غير من قيام ليلة.

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: هل على الأرض اليوم مثلك؟ قال: نعم، من كان نطقه ذكراً وصمته تفكراً ونظره عبرة فإنه مثلي.

وقال لقمان الحكيم: طول الوحدة أجمع للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الآخرة، وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ....﴾[1] الآية. قيل: معناه أمنع قلوبهم عن التفكر فيها.

ويقال: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، ويروى أن الله تبارك وتعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همته وهواه لي، جعلت صمته فكراً وكلامه حمداً.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله تعالى أفضل العبادات، وقال ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليل بلا قلب.

وقال بعض الحكماء: الفضائل أربعة، أحدها الحكمة وقوامها الفكرة، والثانية العفة وقوامها في الشهوة، والثالثة القوة وقوامها في الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس، والله أعلم.

فصــل

اعلم أن مجاري الفكر غير منحصرة، وثمراتها غير متناهية، ونحن نضبط مجاريه بالإضافة إلى أمهات الأعمال الدينية، والأعمال المكتسبة بها في أربعة فصول، والخامس في المخلوقات:

الأول: في المعاصي والسيئات.

الثاني: في الطاعات.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

الثالث: في الصفات المهلكات.

الرابع: في المنجيات.

الفصل الأول: في المعاصي والسيئات

فينبغي للعبد أن يتفكر في صبيحة كل يوم ويفتش جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثم بدنه مجملاً هل هو في الحال ملابس لمعصية فيتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو معترض لها في نهاره فيحترز منها بالتباعد عنها، فينظر في اللسان فيقول إنه متعرض: للغيبة، والكذب، وتزكية النفس، والاستهزاء، والنميمة، والمزاح، والممارات، والمداهنة، والخوض فيما لا يعني، / والتغني، والنياحة، والبهتان، وغير ذلك من معاصي اللسان فيقدر [٤٢٩] أولاً في نفسه أنها مكـروهة عند الله منهي عنها ثم يتفكر في وعيد القرآن والسنة الوارد فيها الدال على شدة العذاب لمن يتعاطاها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر.

ثم لا يتفكر كيف يحذر منها ويعلم أنه لا يتم ذلك إلاّ بالعزلة والإنفراد ولا يجالس إلاّ صالحاً ديناً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه ثم يتفكر في سمعه إنه يصغي به إلى الغيبة والكذب واللهو والبدعة، وإنه يسمعه من زيد مثلاً أو غيره من السفهاء والجهال فيحترز بالاعتزال عنهم أو بالنهي لهم عن ذلك مهما سمعه منهم.

ويتفكر في عينه أنه متعرض للنظر إلى ما لا يحل من محاسن امرأة أو عورة إنسان فيحترز بالاغضاء للعين والتباعد عن مواضع ذلك، ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله فيه إما بكثرة الأكل والشرب من الحلال فتقوى عليه بذلك الشهوة، أو يأكل من الحرام فيبطل عمله، أو من الشبهة فيطول عليه التوبيخ في المعاد ولا يصفو له قلب للعبادة.

ويتفكر في طرق الحلال ومداخله ثم يتفكر في وجوه الاكتساب منه والاحتراز عن الحرام، وأن الله لا يقبل صلاة في جوفه أو في ثوبه أو ماله درهم حرام، وإنَّ أكل الحلال أساس العبادات كلها، فهكذا يتفكر في أعضائه فمهما حصلت له بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ أعضاءه كلها.

الفصل الثاني: في الطاعات

فلينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها، أو كيف يحرسها عن التقصير والنقصان، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى أعضائه عضواً عضواً فيتفكر في

[٤٣٠] الأفعال / التي تتعلق بما يحبه الله فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السماوات والأرض عبرة، ويتفكر في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام فيقول: أنا قادر أن أستعمل العين في مطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر أن أنظر إلى فلان بعين التعظيم وإدخال السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الاحتقار حتى يكون ذلك زجراً له عن معصية الله تعالى فلم لا أفعله.

وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع حكمة أو علم أو قراءة أو ذكر أو كلام ملهوف فيقول: كفرت بنعمة الله في تعطيله وتضيعيه.

وكذلك يتفكر في اللسان فيقول: إني قادر أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم، والوعظ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والسؤال عما يعنيني، وبالتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال على الفقراء وإدخال السرور عليهم ولو بكلمة طيبة فإنها صدقة.

ويقول: إني قادر على أن أتصدق بفضول مالي فإني مستغن عنه ولعل تباعة أو مظلمة كانت في ذمتي فأتداركها قبل أن يزول عني وأزول عنه بالموت، ومهما احتجت فإن الله يرزقني من حيث لا أحتسب أو احتجت إليه الآن فإني إلى ثواب الإيثار به لغيري، وقضاء تباعتي أحوج فيفتش عن أعضائه، وجملة بدنه وأمواله وأولاده، وإنه قادر أن يطيع الله تعالى بجميع ذلك فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، وفيما يرغبه إلى المبادرة إليها، ويتفكر في إخلاص النية فيها، ويطلب لها مكان الاستحقاق، حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات من القلب والجوارح كلها.

الفصل الثالث: في الصفات المهلكات

التي محلها القلب من الشهوة، والغضب، والبخل، والتكبر، والعجب، والرياء، [٤٣١] والحسد، وسوء الظن، والغفلة، والغرور، وسخط المقدور، والإصرار، والأمن، / والإياس وغير ذلك فليتفقد من قلبه هذه الصفات فإن وجدها فيه أو بعضها فليبادر إلى علاج قلبه منها والتوبة عنها فإن كان منزهاً عنها فليتفكر في كيفية امتحانه فإن النفس تدّعي البراءة من المذموم، وتسخو بالوعد من المحمود، فإذا امتحنت ظهر منها غير ذلك، فإذا دعت مثلاً التواضع والبراءة من الكبر.

فينبغي أن يجرِّب نفسه بحمل حزمة حطب أمام الناس إن كان منظوراً إليه عند الناس وكذلك الأولون يفعلون، فإذا ادعت الحلم جرب نفسه بالتعريض لشتم سفيه إياه، ثم يجربها

في كظم الغيظ عنه، وكذلك في سائر الصفات فإذا دلَّت العلامات على وجود هذه الصفات فيه بادر إلى علاجها والتوبة بها.

وإذا أحس من نفسه العجب بعمله أو بحاله فيتفكر ويقول: إنما عملي بيدي وجوارحي وقوتي فإن ذلك ليس مِنِّي ولا إلي إنما هو من خلق الله وفضله عليّ فهو الذي خلقني وخلق قدرتي وإرادتي وحرك أعضائي بقدرته فكيف أعجب بنفسي أو عملي ولا قوام لنفسي إلاَّ بخالقي.

وإذا أحس من نفسه شهوة الطعام والجماع، تفكر في أن هذه صفات البهائم، ولو كان ذلك صفة كمال لكان للمقربين فمهما كان الشره عليه أغلب كان من البهائم أشبه ومن الملائكة أبعد، وكذلك يقدر في نفسه الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج منه، وكذلك سائر الصفات ولا بد له من العلم بها وعلاجها.

الفصل الرابع: في المنجيات

وهي التوبة، والندم، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله تعالى وتعظيمه، والرضى بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له، وغير ذلك.

فليتفكر العبد كل يوم هل هو متصف بهذه الصفات المقربة إلى الله تعالى أم لا؟ / فإن [٤٣٢] اتصف بها فليحمد الله وليحرص على الزيادة منها والثبات عليها وإن لم يتصف بها فليتبادر إلى اكتسابها.

فإن أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر في الوعيد الوارد فيها وليحقق لنفسه أنه متعرض لمقت الله حتى ينبعث له حال الندم، وإن أراد أن يكتسب حال الشكر فلينظر في إحسان الله، وأياديه ونعمه إليه، وفي إرساله جميل الستر عليه مع تضييعه شكر نعمه والتعرض لسخطه فإن ذلك يبعثه على الشكر حتى يتصف به.

فإن أراد محبة الله والشوق إليه فليتفكر في جلال الله، وعظمته وكبريائه، وذلك بالنظر في أفعاله وعجائب حكمته، ثم ينظر في الموت وسكرته، والقبر ووحشته، ثم أهوال المحشر، ثم الحساب ومناقشته، ثم خطر الأمر عنده، وليتفكر في الجنة ونعيمها، والنار وأنواع عذابها، وليكن فكر العالم في خفايا صفات قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها.

أما أمثالنا الغرقى في الذنوب والجهل والخطايا، فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوّي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رآنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار، فإن من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه.

وقد علمنا أن الهروب من النار ترك الشبهات، والحرام، والمعاصي فنحن منهمكون فيها وإن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات فنحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلاَّ أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها فيقال: لو كان هذا مذموماً، لكان العلماء أولى باجتنابه منا فليتنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسئل الله تعالى أن يصحلنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا، المنعم علينا والله أعلم.

الفصل الخامس: في التفكر في المخلوقات

إعلم أن التفكر في الخلق بحر لا يدرك غوره جملة ولا تفصيلاً ولكن نشير إلى بعض جملته؛ لأن كل ما في الوجود نوعان: الله سبحانه وفعله، والتفكر في ذات الله وصفاته محظوراً لقوله ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق»[١].

ويقال أن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء: لا تخبروا عبادي بصفاتي فينكرون أو قال: فيتكبرون الشك مِنّي، ولكن أخبروهم عني بما يفهمون.

وإنما على الإنسان الإيمان بالله تعالى على ما هو عليه من حقيقة وجوده وحقائق صفاته، أما المخلوقات فمنها ما لا يعرف أصلها فلا يمكن التفكر فيها إلاَّ من حيث أنها مخلوقة مصنوعة محتاجة عاجزة وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا. . . .﴾ إلى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال: ﴿ما لا تعلمون﴾[٢].

ومنها ما يعرف أصلها ولا يشاهد بالبصر منا، وذلك كالملائكة والجن والشياطين

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر. قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ: فيه الوازع بن نافع متروك.

(٢) سورة يٰس، الآية: ٣٦.

والعرش والكرسي وغيرها ومجال الفكر فيها غامض على الراسخين من العلماء فكيف غيرهم؟

ومنها ما يعرف أصلها ويدرك بالبصر: وذلك كالسماوات وملكوتها كالشمس والقمر والنجوم وغيرها وكالأرض وما فيها وعليها من الجبال والشجر والدوّاب والبحار وغيرها، وكالجوّ وما فيه من الغيوم والثلوج والأمطار والرعود والصواعق والأرياح والشهب وغيرها فهذه الأجناس لا تنحصر أنواعها، ولا يدرك العقل أقسامها وصفاتها وهيئاتها ومعانيها الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجاري الفكر فلا تتحرك ذرة في السماوات والأرض من جماد ونبات وحيوان وفلك وكواكب إلاّ ومحركه الله تعالى، وفي حركاتها وتقلبها علم / غامض لا يعلمه [٤٣٤] إلاّ الله تعالى، وحكم لا يحيط بها إلاّ خالقها، وكل ذلك دلائل على وحدانيته وجلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه، وأشار القرآن إلى الحث على التفكر فيها كما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ. . . .﴾ إلى قوله: ﴿لآياتٍ لأولي الألْبَابِ﴾(١). في أمثالها من القرآن والاشتغال بشرح معنى من معاني هذه الآيات يستدعي إلى تصنيف مجلدات ينقضي العمر دونها، ولكن من رزقه الله عقلاً رادعاً يردعه عن هجوم الشهوات، وعلماً نافعاً يعتصم به عن ورود الشبهات، فلا بد أن يرزقه النظر في ملكوت الأرض والسماوات وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) ثم قال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٣). فنسئل الله العصمة والعون والتوفيق.

وروي عن بعض العلماء أنه قال: إن لله أقواماً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر له، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت العظمة وخزائن القدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها من لطيف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً، وهم في الظاهر منادل مبذلون لمن أرادهم تواضعاً فهذه طريقة من الفكر لا يبلغ إليها بالتكلف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. ولأبي العتاهية:

إن للـدهـر فـاعلمـن أثـاراً ... فـإلـى كـم أن لا تـرى الأقـدار

مـن رأى عبـرة ففكـر فيهـا ... لـم يـزده فكـره إلاّ اعتبـارا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

لــو عقلنـــا إذ النهـــار يســـوق الليـــل والليـــل إذ يســـوق النهـــارا
لـــرأينـــاهمـــا بمـــرء حثيـــث يطـــويـــان الأعمـــار الآثـــارا

[٤٣٥] / وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «التفكر نصف العبادة والجوع العبادة»(١).

وعن عون بن عبد الله قال: قلت لأبي الدرداء أي عبادة أبي الدرداء كان أفضل؟ قال: التفكر والاعتبار.

ويروى أن أم أبي ذر سئلت عن عبادة أبي ذر قالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر فهذا الذي نبهنا عليه فيه كفاية لمن رزقه الله التفكر وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في ترتيب العبادة على الأوراد والأوقات(٢)

اعلم أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات، وعمارتها بأوراد العبادة على سبيل الدوام، ولذلك قال ﷺ: «أحب العباد إلى الله تعالى الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة بذكر الله تعالى»(٣) فلا تظنن المراد بسير الشمس والقمر على حساب معلوم وما خلق الله الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمر الدنيا، بل ليتعرف بها مقادير الأوقات ليشتغل فيها بالطاعات والتجارة لدار الآخرة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكوراً**﴾(٤). أي يخلف أحدهما الآخر فيتدارك ما فات في الآخر وبيّن أن ذلك للذكر والشكر وبالله التوفيق.

فأما ترتيب الأوراد في العبادة ففي النهار سبعة أوراد، فمن بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وورد من طلوعها إلى زوالها وردان، ومن الزوال إلى العصر وردان ومن العصر إلى المغرب وردان، وفي الليل أربعة أوراد، ومن المغرب إلى وقت النوم وردان ومن النصف الآخر إلى الفجر وردان.

فأما الورد الأول من النهار فهو وقت شريف؛ لقوله تعالى: ﴿**والصبح إذا تنفّس**﴾.

---

(١) أورده الزبيدي في الإتحاف (٣٨٧/٧): وقال رواه أبو نعيم في الحلية من طريق سالم بن أبي الجعد قال قيل لأم الدرداء ما كان أفضل عمل أبي الدرداء فقالت: التفكر.

(٢) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي «الإحياء» (٥١٢/١) طبعة دار الحديث.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١١/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ: «خيار عباد الله».

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٢.

وأقسم به لفضيلته، أما ترتيبه فإذا انتبه المريد للعبادة من نومه فينبغي أن يبدأ بذكر الله فيقول: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه / النشور، إلى آخر الدعاء الذي ذكرناه، قبل [٤٣٦] هذا.

وينوي بلبس ثوبه ستر عورته، ثم يقضي حاجة الإنسان ممتثلاً لآدابها، ومجتنباً للمناهي الواردة فيها، ثم يستاك إن قدر على ذلك، وليتوضأ ممتثلاً للسنن والآداب فيه، ثم يركع ركعتي الفجر في بيته اقتداءً بالنبي ﷺ، ثم يخرج إلى المسجد داعياً في طريقه بالدعاء المتقدم قبل هذا ويمشي وعليه السكينة والوقار، ويدخل المسجد مقدماً رجله اليمنى داعياً كما تقدم ثم يقف في الصف الأول إن وجد متسعاً، ولا يزاحم ولا يتخطى رقاب الناس ثم يصلي ركعتي تحية المسجد إن صلى ركعتي الفجر في بيته وإلاّ فليصلهما، ثم يدعو منتظراً للجماعة.

ولا ينبغي أن يدع الصلاة في الجماعة عامة، وفي الصبح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل، والمستحب التغليس[1] في الفجر اقتداءً بالنبي ﷺ، وفي حديث أنس عنه ﷺ قال في صلاة الصبح: «من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحيت عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها فإذا انصرف بعدما صلى عند طلوع الشمس كتبت له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة وإن جلس حتى يركع الضحى كتبت له بكل ركعة ألف ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة»[2] وكان عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر.

وقد روي أن أبا هريرة قال لرجل دخل المسجد قبل الفجر: أبشر فإنا كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله»[3].

ثم لا ينبغي أن يشتغل الإنسان بعد ركعتي الفجر بالتسبيح والدعاء والاستغفار إلى أن تقام الصلاة فيقول: أستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الحيَّ / القيُّوم، وأسأله التوبة سبعين مرة [٤٣٧] وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر مائة مرة، ثم يصلي الفريضة مراعياً آدابها ظاهراً وباطناً في الصلاة والقدوة، فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس يذكر الله تعالى.

---

(١) حديث التغليس متفق عليه من حديث عائشة قاله الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٣) طبعة دار الحديث.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٤): لم أجد له بهذا السياق أصلاً وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٤) طبعة دار الحديث: لم أقف له على أصل.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن أقعد في مجلس أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب»(١).

وقد قيل أنه كذلك يفعل، وروي في فضل ذلك ما لا يحصى، وقال فيما يرويه عن الله تعالى: «يا ابن آدم اذكرني بعد الفجر ساعة ومن بعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما»(٢).

وينبغي أن لا يتكلم ويشتغل بالدعاء وذكر الله وقراءة القرآن، وينبغي أن يكرر هذه الكلمات العشر، فقد ورد في تكريرها فضائل يطول ذكرها:

فالأولى: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير»(٣).

الثانية: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم»(٤).

الثالث: «سُبُّوح قدُّوس رب الملائكة والروح»(٥).

والرابعة: «سبحان الله العظيم وبحمده»(٦).

الخامسة: «أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلاّ هو وأسأله التوبة»(٧).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٤): أخرجه أبو داود من حديث أنس.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٥): أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلاً.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) طبعة دار الحديث: تقدم من حديث أبي أيوب تكرارها عشراً دون قوله: «يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير» فإنها في اليوم والليلة للنسائي من حديث أبي ذر دون قوله: «وهو حي لا يموت» وهي كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء. وتقدم تكرارها مائة ومائتين وللطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري «استكثروا من الباقات الصالحات» فذكرها.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) طبعة دار الحديث: لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة «أنه كان يقولها في ركوعه وسجوده» وقد تقدم ولأبي الشيخ في الثواب من حديث البراء «اكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح».

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) قال الحافظ في المغني (١/٥١٦) أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث معاذ فيه ضعف وهكذا رواه الترمذي من حديث أبي سعيد في قولها ثلاثاً. والبخاري من حديث أبي هريرة ولمسلم من حديث الأعرابي.

السادسة: «اللَّهم لا مانع لما أعطيت ولا معط لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»(١).

السابعة: «لا إلٰه إلاَّ الله الملك الحق المبين»(٢).

الثامنة: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»(٣).

التاسعة: «اللَّهم صل على محمد وعلى من صلح من آل محمد عبدك ورسولك النبي الأمي»(٤).

العاشرة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ربِّ إني أعوذ / بك من همزات [٤٣٨] الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون»(٥).

فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة منها عشر مرات حصل له مائة وهو أفضل من أن يكرر ذكراً واحداً مائة؛ لأن لكل واحدة من هذه الكلمات فضلاً على حياله، وللقلب بكل واحدة نوع استراحة.

---

(١) قال الحافظ لم أجد تكرارها في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) طبعة دار الحديث: أخرجه المستغفري في الدعوات والخطيب في الرواة عن مالك من حديث علي وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبي نعيم في الحلية وفيه سليم الخواص ضعيف. وقال فيه: أظنه عن علي.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) طبعة دار الحديث: أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان. قال الترمذي حسن صحيح غريب.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٦) طبعة دار الحديث: ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي في فضائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى «من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات» فذكره وهو منكر: قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ: ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعبير لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بلفظ: «من صلى علي حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة» وفيه انقطاع.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٧) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار «الحديث» ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة وقال: حسن غريب ولابن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله: «من قالها حين يمسي عشر مرات أجير من الشيطان إلى الصبح... الحديث» ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة «ألا أعلمك كلمات تقولها ثلاث مرات قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» والحديث عند أبي داود والترمذي وحسنه الحاكم وصححه فيما يقال عند الفراغ دون تكرارها ثلاثاً من حديث عبد الله بن عمرو.

وأما الدعاء: فيدعو بما قدر عليه من الأدعية المأثورة المتقدمة، وأما القراءة فيستحب له أن يقرأ جملة من الآيات منها: سورة الحمد، ﴿وقل اللّهم مالك الملك....﴾ الآيتين وقوله: ﴿لقد جاءكم رسول....﴾ الآية، وقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق....﴾ إلى آخرها، و﴿قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً....﴾[١] الخ، وخمس آيات من أول الحديد، وثلاثاً من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد والمعوذتين، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي كل واحدة من هذه السور يقرأها سبعاً وإن أضاف إليها غيرها من القرآن فحسن[٢].

وبالجملة فالقرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان يتدبر كما تقدم فضل ذلك، وقد اقتصر أصحابنا في ذلك على قراءة القرآن وقد قال عليه السلام: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»[٣].

وينبغي له التفكر أيضاً كما تقدم فيما ينفعه من المعاملة بينه وبين ربه، وأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره، وليحضر في قلبه النيات الصالحات في أعماله وليتفكر في نعم الله تعالى ليكثر شكره عليها.

وينبغي له أن يتخذ للشيطان مجناً وهو الصوم ليضيق به مجاري الشيطان الصارف له عن سبيل الرشاد، وليس بعد طلوع الفجر إلاَّ ركعتي الفجر / وفرض الصبح إلى الطلوع، وكان [٤٣٩] عليه السلام وأصحابه يشتغلون فيه بالأذكار فهو الأولى.

والورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار، أعني بالضحوة انتصاف ما بين الطلوع إلى الزوال، وذلك مقدار ثلاث ساعات أو ما شاء الله فله فيه وضيفتان:

أحدهما: صلاة الضحى والأولى فيها أن يصلي ركعتين إذا ارتفعت الشمس مقدار رمح، وهو المراد بالإشراق في قوله: ﴿يسبحن بالعشي والإشراق﴾ لأن الصبح تقع وقت الكراهية إذ قال عليه السلام: «إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها فيصلى أربعاً أو ستاً أو ثمانياً إذا رمضت الفصال وضحيت الأقدام بحر الشمس»[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

(٢) أورده الحافظ العراقي في المغني (١/٥١٧، ٥١٨) أن الوارد في كل هذه الآيات ضعيف.

(٣) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤/٤٦٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (٢٣٥٦، ٢٣٥٨، ٢٢٦٤، ٢٢٦٥).

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٣٢٤ طبعة دار الحديث). أخرجه النسائي من حديث عبد الله =

كما روي أنه عليه السلام خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته: «أَلاَ أَنَّ صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال»[1].

والوضيفة الثانية: في هذا الوقت ينبغي له أن يشتغل بنوع من الخيرات، إما تشييع جنازة، أو عيادة مريض، أو إعانة على بر وتقوى أو حضور مجلس علم أو ما يجري مجراه من قضاء حاجة مسلم، أو إشتغال بكسب معاش إن كان تاجراً فبصدق وأمانة، وإن كان صانعاً فبنصح وإتقان وكذا ما أشبه هذا من وجوه المكاسب.

ولا ينبغي أن ينسى ذكر الله في جميع أشغاله فمهما حصلت له الكفاية فليرجع إلى بيت ربه وليتزود لآخرته، وقد قيل: لا يوجد المؤمن إلاَّ في ثلاثة مواطن: مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها، وقلَّ ما يجد الإنسان ما لا بد له منه؛ لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه فيجمعون ما لا يأكلون ويزعمون أنه لا بد لهم منه والله يعدهم مغفرة منه وفضلاً فيعرضون عنه.

الورد الثالث: / من ضحوة النهار إلى الزوال. فينبغي له أن يشتغل فيه بما تقدم من [٤٤٠] وجوه الخير مع لا بد منه من كسب المعاش، ثم لا ينبغي له أن يغفل عن القيلولة، فهي سنة يستعين بها على قيام الليل كما يستعين بالسحور على صوم النهار، فإن كان لا يقوم الليل ولكن لو لم ينم لم يشتغل بخير فالنوم أحب إليه من مخالطة أهله للغفلة إذ في النوم الصمت والسلامة.

وقد قيل: يأتي على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم، فإن لم ينم واشتغل بأعمال الخير فذلك أفضل أعمال النهار وفضل ذلك الوقت كفضل إحياء الليل؛ لأنه وقت غفلة الناس، ثم إذا نام فينبغي أن ينتبه قبل وقت الزوال ليستعد بالوضوء للصلاة والله أعلم.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الغابر، فإذا استعد فلينصت لفراغ المؤذن وجوابه، وليصل أربع ركعات قيل: يفصل بينهما بالسلام، وقيل: لا يفصل إذ صلاها النبي عليه السلام وقال: «أحب أن يرفع لي فيها عمل ثم يصلي الظهر ثم يصلي ركعتين ثم أربعاً».

= الصنابحي وهو مرسل ومالك هو الذي يقول عبد الله الصنابحي ووهم فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النبي ﷺ.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٢٢) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله: «فنادى بأعلى صوته» وهو عند مسلم دون ذكر الإشراف.

ثم كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها ثم يجمع بين التسبيح والذكر والدعاء كما تقدم.

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر يستحب فيه العكوف في المسجد مشغولاً بالذكر، أو بالصلاة، أو بفنون الخير من التعلم والتعليم، أو الوعظ، فإن كان بيته أسلم لدينه فالبيت أفضل في حقه ويكره النوم فيه لمن نام قبل الزوال، إذ تكره نومتان في النهار، ولكن لما كان النوم غذاء الروح كان لا بد من استيفاء حقه بالليل أو بالنهار وليراع الاعتدال لأن إقلاله ربما يفضي إلى اضطراب البدن إلا أن يتعود السهر تدريجاً فقد تمرن النفس عليه من غير اضطراب.

الورد السادس: دخول صلاة العصر وهو العشِّي الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1].

[٤٤١] وليس في هذا الورد إلاَّ أربع ركعات بين الأذانين ثم يصلي العصر / ويشتغل بالأقسام المذكورة في الورد الأول.

الورد السابع: إذا اصفرت الشمس وترى صفرة في ضوءها فيستحب فيه التسبيح والاستغفار كما تقدم لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ﴾[2].

فجميع ما ذكرنا طريق إلى الله تعالى، وفي الخبر: «الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة»[3].

وقال بعض العلماء: الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقاً بعدد الأنبياء، فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك للطريق فالناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصراط، فأقربهم إلى الله أعرفهم به وأعبدهم له، «وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»[4]. كما ورد في الحديث، وقد قال عليه السلام: «من عوّده الله عبادة فتركها ملالة مقته الله»[5].

---

(١) سورة العصر، (الآيتان: ١، ٢).

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٤١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن شاهين والألكائي في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده «الإيمان ثلاثمائة وثلاث وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة» وقال الطبراني والبيهقي «ثلاثمائة وثلاثون» وفي إسناده جهالة.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٤١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٤١) طبعة دار الحديث: موقوف على عائشة.

وسئلت عائشة عن عمله عليه السلام فقالت: «كان عمله ديمة»(١)، ويحب أن يقرأ عند الغروب: ﴿والشمس﴾، ﴿والليل﴾، والمعوذتين، ولتغرب الشمس وهو في الاستغفار، وإذا سمع المؤذن قال: اللَّهم هذا إقبال ليلك. . . الدعاء كما تقدم، وقد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يحاسب نفسه ولا يغفل والله أعلم.

بيان أوراد الليل: وهي خمسة:

الأول: إذا غربت الشمس فإنه يصلي المغرب وركعتين بعدها يقرأ فيهما بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ويصليهما عقيب المغرب من غير أن يتكلم بينهما، ثم يصلي أربعاً يطيلها ثم يصلي إلى غيوبة الشفق ما تيسر له.

وعن عائشة عنه عليه السلام قال: «أفضل الصلوات عند الله تعالى صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعده ركعتين / بنى الله له قصرين في الجنة ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له [٤٤٢] ذنب عشرين»، أو قال: «أربعين سنة»(٢).

وفي حديث آخر: «من صلى بعد المغرب ست ركعات عدلت له عبادة سنة، وكأنه صلى ليلة القدر»(٣).

وعنه عليه السلام قال: «من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلاَّ بصلاة أو بقرآن كان حقاً على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منها مائة عام ويغرس له بينهما غروساً لو ضافه أهل الدنيا لوسعهم»، وقال: «من صلى بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوَّابين».

وقال الأسود: ما أتيت ابن مسعود في هذا الوقت إلاَّ ورأيته يصلي، ويقال فيه نزل: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٤١) طبعة دار الحديث: رواه مسلم «كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبته».

(٢) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في كنز العمال (١٩٤٣١) والهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٠٩) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٠٠).

(٣) أطراف الحديث عند ابن ماجه (١٣٧٤) والزبيدي في الإتحاف (٥/ ١٨٢) والمتقي الهندي (١٩٤٣٠) والألباني في السلسلة الضعيفة (٤٤٨).

الورد الثاني: دخول وقت العشاء إلى وقت نومة الناس وهو استحكام الظلام، ينبغي أن يراعى فيه ثلاثة أمور:

الأول: أن يصلي سوى فرض العشاء عشر ركعات، أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين، وستاً بعد الفرض ركعتين ثم أربعاً يستحب أن يقرأ فيهن آخر البقرة، وآية الكرسي، وأول الحديد وغيرها.

الثاني: أن يصلي ثلاث عشرة ركعة إحداهن الوتر، فإنه أكثر ما روي أن النبي عليه السلام صلى به من الليل والأكياس يأخذون أوقاتهم أول الليل والأقوياء من آخره والحزم التقدم، فإنه ربما لا يستيقظ، أو يثقل عليه القيام إلاَّ إذا كان له ذلك عادة، فآخر الليل أفضل ثم يقرأ في هذه الركعات ما كان يكثر قراءته عليه السلام مثل: يٓس، والسجدة، ولقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك والواقعة، والزمر.

ويروى أنه كان يقرأ المسبحات كل ليلة ويقال: فيها آية أفضل من ألف آية، وفي خبر آخر أنه: كان يقرأ في ركعات الوتر: سبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون / [٤٤٣] فإذا فرغ قال: «سبحان الملك القدُّوس»، ثلاثاً.

الثالث: الوتر، فليوتر إن لم يكن عادته القيام وإلاَّ فآخر الليل أفضل، إذ قال عليه السلام: «صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة».

الورد الثالث: النوم، ولا بأس أن يعد من الأوراد إذا حسنت فيه النية، لأنه قيل: إذا نام العبد على طهارة ذاكراً الله عز وجل، فإنه يكتب مصلياً حتى يستيقظ، ويدخل في شعاره ملك، فإذا تحرك وذكر الله استغفر له الملك ودعا له.

وقال معاذ لأبي موسى الأشعري: كيف تصنع في قيام الليل؟ قال: أقوم الليل أجمع وأتفوق القرآن فيه تفوقاً. قال معاذ: لكني أنام ثم أقوم فأحتسب في نومتي ما أحتسب في قومتي، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «معاذ أفقه منك».

وآداب النوم عشرة: الأول: الطهارة والسواك، قال عليه السلام: «إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق»[١].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٢٩/١): أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي الدرداء =

وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعاً، وطهارة الباطن هو المؤثر في كشف حجب الغيب.

الثاني: أن يعد طهوره وسواكه عند رأسه، وينوي القيام للعبادة عند التيقظ، فكلما انتبه استاك كذلك عادة السلف، ويقال أن النبي عليه السلام يستاك مراراً عند نومه، وإن لم تمكنه الطهارة فليمسح أعضاءه بالماء، قيل: يستحب ذلك وإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكر فذلك يستحب وقال عليه السلام: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى»[1].

الثالث: أن لا يبيت إلاَّ ووصيته عنده مكتوبة، فإنه لا يأمن من القبض في النوم، ويقال: إن من مات من غير وصية / لم يؤذن له في الكلام في البرزخ إلى يوم القيامة، فتتزاور الأموات [٤٤٤] ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات من غير وصية.

الرابع: أن ينام تائباً سليم القلب لجميع المسلمين وعن النبي عليه السلام قال: «من آوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر الله له ما جرم»[2].

الخامس: أن لا يتنعم بتمهيد الفراش وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً، ويقولون: منها خلقنا وإليها نعود، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم، ومن لم تسمح نفسه فليقتصد.

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلفه إلاَّ إذا قصد به الاستعانة على القيام آخر الليل، فقد كان الأصفياء نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا: (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون).

السابع: أن ينام مستقبل القبلة وذلك على وجهين إما مستلقياً على قفاه وإما على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، كاستقبال اللحد.

= والبيهقي في الشعب موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص وروى الطبراني في الأوسط من حديث عليه. وهو ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٣٠) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/ ٥٣١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الدنيا من حديث أنس «من أصبح لم يهم بظلم أحد غفر له ما أجترم» وسنده ضعيف.

الثامن: الدعاء كما تقدم قبل هذا[١].

ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل: آية الكرسي وآخر البقرة، و﴿وإلهكم إله واحد....﴾ الآية، ويقال: أن من قرأه عند النوم يحفظ عليه القرآن فلا ينساه ويقرأ: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض....﴾ الآية، و﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن....﴾ إلى آخر بني إسرائيل.

يقال أنه يدخل في شعاره ملك موكل يحفظه ويستغفر له ويقرأ المعوذتين في يديه ويمسح بهما وجهه وجسده، روي ذلك من فعل النبي عليه السلام وليقرأ عشراً من أول الكهف، وعشراً من آخرها، وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل. وكان علي يقول: ما أرى أن رجلاً مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من سورة البقرة وليقل خمساً وعشرين مرة سبحان الله والحمد / لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ليكون مجموع هذه الكلمات مائة مرة. [٤٤٥]

التاسع: أن يتذكر عند النوم نوع وفات والتيقظ نوع بعث، قال الله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾، فكما أن المستيقظ يشاهد أحوالاً لا تناسب أحواله في النوم، كذلك المبعوث يرى ما لا يخطر بباله، ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة.

وقال لقمان: يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تنم كما أنك تنام، فكذلك تموت، وإن كنت تشك في البعث فلا تنتبه كما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك، فيحق على العبد أن يفتش عن قلبه على ماذا ينام أما الغالب على قلبه حب الله ولقاءه، أو حب الدنيا، وليتحقق أنه يتوفاه على ما هو الغالب عليه ويحشره على ما يتوفاه فإن المرء مع من أحب وما أحب.

العاشر: الدعاء عند تلقباته، بما كان عليه السلام يقوله، وذلك: «لا إله إلاّ الله الواحد القهّار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار»[٢].

وليجتهد أن يكون آخر ما يرد على قلبه عند النوم ذكر الله فهو أول ما يرد على قلبه عند

---

(١) الدعاء المأثور عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي.... الحديث» إلى آخر الدعوات المأثورة التي سبق ذكرها.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٣٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة.

التيقظ فهو علامة الحب، ولا يلازم القلب في هاتين الحالتين إلاَّ ما هو الغالب عليه فليجرب نفسه، فإنها علامة تكشف عن باطن القلب فإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الدعاء المتقدم.

الورد الرابع: يدخل بمضي النصف الأول من الليل إلى أن يبقى سدسه، وبه أقسم الله تعالى: ﴿والليل إذا سجى﴾، وفي هذا الوقت لا تبقى عين إلاَّ وهي نائمة إلاَّ الحي القيُّوم، وسئل النبي عليه السلام: «أيُّ الليل أسمع فقال: «جوفه»(١)».

وقال داود / عليه السلام: إلٰهي أحب أن أتعبد إليك فأيُّ وقت أفضل؟ فأوحى الله إليه: [٤٤٦] يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره؛ فإنه من قام أوله نام آخره، ومن قام آخره لم يقم أوله، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إليَّ حوائجك، وسئل النبي عليه السلام: أيُّ الليل أفضل؟ قال: «نصف الليل الغابر»(٢). يعني الباقي، وقال: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل الأخير خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتها عليهم»(٣).

وعنه عليه السلام قال: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خير إلاَّ أعطاه إياه».

وقال: «يا أبا هريرة أتريد أن تكون نعمة الله عليك حياً ومقبوراً أو مبعوثاً فقم من الليل فصل وأنت تريد رضى ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا»(٤).

وقال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى الله وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهاة عن الإثم»(٥).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٣٣) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث عمرو بن عنبسة. قال محقق الإحياء: الترمذي أخرجه من حديث أبي أمامة وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٢).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٣٣) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن حبان وأحمد من حديث أبي ذر دون قوله الغابر وهي في بعض طرق الحديث عمرو بن عنبسة.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه آدم بن إياس ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلاً ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمرو لا يصح.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٤٥) طبعة دار الحديث: باطل لا أصل له.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث بلال وقال: =

وقال: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء»(١).

وقال: «من استيقظ فأيقظ امرأته وصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»(٢).

وقال يوسف بن مهران: بلغني أن تحت العرش ملكاً على صورة ديك براثينه من اللؤلؤ وصيصته من زبرجد أخضر، فإذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحه فزقا فقال: ليقم القائمون، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحه وزقا فقال: ليقم المصلون، فإذا أصبح ضرب بجناحه وزقا فقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم. ويروى أن الله تعالى قال: إن عبدي الذي هو عبدي حقاً هو الذي لا ينتظر لقيامه / صياح الديك. [٤٤٧]

فصـــل

اعلم أن قيام الليل عسيراً إلاَّ على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً، أما الظاهرة فأربعة:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشراب فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام.

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال التي تعيي بها الجوارح؛ فإن ذلك مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار؛ فإنها سبب لتقليل النوم بالليل.

الرابع: أن لا يكتسب الأوزار بالنهار؛ فإن ذلك يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة، فالذنوب كلها تقسي القلب، وتمنع من قيام الليل ولا سيما أكل الحرام، ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن الرجل ليأكل أكلة، أو يفعل فعلة يحرم بها قيام سنة.

= غريب ولا يصح، وروواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذي: إنه أصح.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة: قال محقق الإحياء: قال الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٤) وصحيح المشكاة (١٢٣٠).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح. قال محقق الإحياء: أخرجه أبو داود والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٣٠).

وأما الميسرات الباطنة فأربعة: **الأول**: سلامة القلب من الحقد وفضول الدنيا، فالمستغرق بهموم الدنيا لا يتسنى له القيام، و إن قام فلا يتفكر إلا في مهماته، وفي مثل ذلك قيل وأنت إذا استيقظت أيضاً فنائم.

الثاني: خوف غالب في القلب مع قصر الأمل كما قال بعضهم: إذا ذكرت النار اشتد خوفي، وإذا ذكرت الجنة طال شوقي، فما أقدر أن أنام، ولذي النون:

منع القرآن بوعده ووعيده   مقل العيون بليلها أن تهجعا
وهموا من الملك الجليل كلامه   فرقابهم ذاك لكيما يخضعا

وقال طاوس: إن ذكر جهنم طيّر نوم العابدين.

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم بذلك رجاءه، وشوقه لثوابه فيهيجه الشوق فطلب المزيد رغبة في درجات الجنة وخوفاً من النيران.

الرابع: حب الله تعالى وهو أشرف البواعث له وذلك / من قوة الإيمان فإنه في قيامه لا [٤٤٨] يتكلم بحرف إلاّ وهو مناج به ربه، وإذا أحب الله عز وجل أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بمناجاته، ولا ينبغي أن يستبعد هذا إذ يشهد له العقل والنقل:

أما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه كيف يتلذذ بالخدمة له، والخلوة به حتى لا يأتيه النوم والرجاء في حق الله سبحانه أصدق، وما وعده تعالى أنفع وأبقى، وأما النقل فأكثر من أن يحصى.

وقال بعض العلماء: إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: إن لي عباداً يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقتهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك.

قال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا إليّ وجوههم، وناجوني بكلامهم، وتملقوا إليّ بإنعامي عليهم، فهم بين صارخ وباك، وبين متأوهٍ وشاك، يعني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي أول ما أعطيهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السماوات السبع والأرض في موازنهم لاستقللتها لهم، والثالثة:

أقبل بوجهي عليهم، أفَتَرى من أقبلت بوجهي عليه، أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

[٤٤٩] وشكى بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة تجلب النوم. / فقال أستاذه: إن الله عز وجل نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطىء القلوب النائمة، فتعرّض لتلك النفحات. فقال: يا أستاذي تركني لا أنام بالليل ولا بالنهار. ومطلوب القائمين تلك الساعة، وهي مبهمة في جوف الليل كليلة القدر في رمضان، وساعة يوم الجمعة، وبالله التوفيق.

وهذا هو الورد الخامس: وفيه يستحب السحور، وذلك عند خوف طلوع الفجر، الوظيفة في هذين الوقتين الصلاة فإذا طلع الفجر انقطعت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم فيصلي ركعتي الفجر وهو المراد بقوله: ﴿فسبِّحه وإدبار النجوم﴾، ثم ليقرأ: ﴿شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو. . . .﴾ إلى آخرها فيقول: وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه، وشهدت له به ملائكته، وأولوا العلم من خلقه، واستودع الله هذه الشهادة وأسأله حفظها عليَّ حتى يتوفاني عليها حتى ألقاك عليها غير مبدّل تبديلا.

فهذا ترتيب الأوراد للعبادة وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك أربعة أمور: صوماً، وصدقة وإن قلَّت، وعيادة مريض وشهادة جنازة، وفي الخبر: «من جمعها كل يوم غفر له» وفي رواية أخرى: «دخل الجنة». وفي الخبر: «يصبح ابن آدم وعلى كل سُلاَّمى من جسده صدقة»، ـ يعني مفاصل جسده، وهي ثلاث مائة وستون مفصلاً ـ فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك على الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإماطتك الأذى صدقة»، حتى ذكر التسبيح والتهليل ثم قال: «وركعتا الضحى تأتي على ذلك كله»[١].

والله نسأله الفوز والتوفيق والعصمة من الخطأ والذلل وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٣٧) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

/ القنطرة الخامسة عشرة [٤٥٠]

قنطرة القوادح في الطاعات

وهما الرياء والعجب وما ينشأ عنهما من مفسدات العبادة ومحبطات الطاعات، وهذه القنطرة تحتوي على بابين، وخمسة فصول.

الباب الأول
في الرياء

احذر يا أخي على عملك مما يفسده عليك؛ فإن الرياء يحبط العمل كما يحبطه الشرك، والمرائي ممقوت عند الله، وقد شهدت بذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ. . . .﴾، إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[٢].

فحكي عن مجاهد أنه قال: هم أهل الرياء، وقال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[٣]، قيل: أنهم عملوا أعمالاً لا يرونها في الدنيا حسنات بدت لهم يوم القيامة سيئات.

وكان بعض العلماء إذا قرأ هذه الآية قال: ويل لأهل الرياء، وقال الله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه. . . .﴾ الآية.

يقال: أنها نزلت فيمن طلب الأجر والثناء بعمله، ويقال: نزلت في رجل كان إذا صلى وصام أو تصدق فذكر بخير ارتاح لذلك وزاد في عمله لمقالة الناس.

وأما الأخبار فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي الشرك

---

(١) سورة الماعون، الآيات: ٤، ٥، ٦.
(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

الأصغر»، قيل: وما هو؟ قال: «الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»، وسأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ قال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس»(١).

وفي الحديث عنه عليه السلام أن الله تعالى يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشركة فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته له كله فإني لا أقبل إلاَّ ما كان خالصاً لي»(٢).

وقيل: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة إذا التمس ثواب عمله: ألم نوسع لك في المجالس؟ ألم تكن المرؤوس في الدنيا؟ ألم يرخص بيعك وشراؤك؟ ألم تكرم؟. . . . وما أشبه هذا.

[٤٥١] وعن النبي / عليه السلام: «أن الجنة تكلمت فقالت: أنا حرام على كل بخيل ومرائي».

وعن أبي هريرة عنه ﷺ قال: «إن أول ما يدعى يوم القيامة للحساب رجل قد جمع القرآن ورجل قاتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسلي فيقول: بلى يا رب فيقول: ما عملت فيما علمت فيقول: يا رب قمت به أناء الليل وأطراف النهار فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد فيقول: بلى يا رب فيقول: ما عملت فيما أتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان سخي فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول: ما فعلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبت فيقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك»(٣).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٤٥٥) طبعة دار الحديث: في نحوه أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمد بن لبيد عن رافع بن خديج.

(٢) أطراف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٢٦٣)، (١٠/ ٦٣، ٥١) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢١٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٦٩) والربيع بن حبيب في مسنده (١/ ١٧).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٤٥٥) طبعة دار الحديث: رواه مسلم.

قال: ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي أبي هريرة فقال: «يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله تسعر بهم نار جهنم».

فأخبر عليه السلام أنهم لم يتوبوا وأن ريائهم هو الذي أحبط أعمالهم، وعن ابن عمر قال: قال عليه السلام: «من رآئى رآئى الله به ومن سمّع سمّع الله به»(١).

وقال عليه السلام: «استعيذوا بالله من جب الحزن» قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: «واد في جهنم أعد للقراء المرائين»(٢).

وقال عيسى عليه السلام: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليخف شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق.

وقال عليه السلام: «لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرة من رياء»(٣).

/ وقال عمر لمعاذ بن جبل ورآه يبكي ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا [٤٥٢] القبر ـ يعني النبي عليه السلام ـ يقول: «إن أدنى الرياء شرك»(٤).

وقال عليه السلام: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهرة الخفية». وهذا إيماء إلى خفايا الرياء، وقال عليه السلام: «إن المرائي ينادي عليه بأربعة أسماء: يا فاجر يا غادر يا خاسر ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له»(٥).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٥/٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ «من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره» وفي الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: لم أجده هكذا.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني هكذا والحاكم بلفظ «اليسير من الرياء شرك» قال محقق الإحياء ضعيف جداً وذكره الألباني في ضعيف الجامع (١٣٧٩).

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صاحبي لم يسم وزاد: يا كافر يا خاسر ولم يقل يا مرائي» وإسناده ضعيف.

وعن شداد بن أوس قال: رأيت النبي عليه السلام يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: «إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم ليراؤون بأعمالهم»(١).

وقال عليه السلام: «لمّا خلق الله الأرض فمادت بأهلها فأوتدها بالجبال فقالت الملائكة ما خلق ربنا خلقاً أشد من الجبال فخلق الله الحديد فقطع الجبال ثم خلق النار فأذابت الحديد ثم أمر الله الماء فأطفأ النار فأمر الريح فركدت الماء فاختلفت الملائكة فقالت: نسأل الله فقالت يارب ما أشد من خلقت من خلقك؟ فقال الله لم أخلق شيئاً أشد من ابن آدم حين تتصدق يمينه فيخفيها عن شماله فهذا أشد خلقاً خلقته»(٢).

وروي أن رجلاً قال لمعاذ رحمه الله حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال؛ فبكى معاذ حتى ظن الرجل أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال: سمعت رسول الله قال: «يا معاذ»، قلت له: لبيك يا رسول الله بأبي أنت وأمي قال: «إني لأحدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة يا معاذ إن الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض ثم خلق السماوات والأرض فجعل لكل سماء من السبع ملكاً بواباً عليها قد جللها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حيث أصبح إلى أن أمسى له نور كنور الشمس حتى إذا طلعت به إلى سماء الدنيا ذكرته فكثرته فيقول / الملك [٤٥٣] للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي ألاَّ أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري»، قال: «ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم»، قال: «فتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج له نور من صدقه وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الثالثة فيقول لهم الملك الموكّل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إني ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم»، قال: «فتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدري له دوي من

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٤٥٧) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه والحاكم بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٤٥٧): أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال: غريب. قال المحقق: ذكر ابن حجر في الفتح حديثاً عند الإمام أحمد برواية أنس نحواً من ذلك وقال: إسناده حسن (٢/ ١٧٢)الفتح.

تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا بها إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك: بها قفوا واضربوا بهذا العمل ظهره وبطنه أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله»، قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنه العروسة المزفوفة إلى زوجها، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس ومن يتعلم ويعمل بمثل عمله فكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيتجاوزون إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضرّ أضرّ به بل كان يشمت به آناء ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع / عمله [٤٥٤] يجاوزني إلى غيري»، قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع له دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس ومعه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه اقفلوا على قلبه إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصوتاً في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى فتشيعه ملائكة السموات حتى يقفوا بين يدي الله تعالى ويشهدوا له بالعمل الصالح المخلص لله»، قال: «فيقول الله لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السماوات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع ومن فيهن»، قال معاذ: قلت: يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف النجاة مما ذكرت؟ قال: «اقتد بي وإن كان في عملك تقصير يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في الناس وعن إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا تزك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلاً وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا والآخرة ولا تمزق عرض المسلمين فتمزقك كلاب النار يوم

[٤٥٥] القيامة / في النار قال الله: ﴿والناشطات نشطا﴾[١] أتدري ما هن يا معاذ»؟ قلت: ما هي بأبي أنت وأمي؟ قال: «كلاب النار تنشط اللحم والعظم» قلت: بأبي وأمي يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: «يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه»[٢].

قال: فما رأيت أكثر تلاوة القرآن من معاذ حذراً مما في هذا الحديث، والله تعالى أعلم.

وأما الآثار فروي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب.

قال: ورأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك.

وقال علي للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذُمَّ.

وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله ومحمدة الناس.

قال: لا شيء لك، فسأله ثلاثاً كل ذلك يقول: لا شيء لك ثم قال في الثالثة إن الله يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشركة.

وسأل رجل ابن المسيب فقال: أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له: أتحب أن تمقت؟ قال: لا قال: فإذا عملت لله عملاً فاخلصه.

وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقال: هذا لله والمرحم فإن الله لا شريك له والآثار في هذا كثيرة تركتها حباً للاختصار.

الفصل الأول في بيان حقيقة الرياء[٣]

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وأصله طلب المنزلة في

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٤٥٩) طبعة دار الحديث: عزاه المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناد عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٣) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ طبعة دار الحديث (٣/ ٤٦٠).

قلوب الناس بأراتهم خصال الخير، فالمرائي هو العابد والمرائَى هم الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم.

والمرائى به: هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها وينحصر ذلك / في خمسة أقسام [٤٥٦] هي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهي البدن، والزي، والقول، والعمل، والإتباع والأشياء الخارجة، وكل أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلاَّ أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال غير الطاعة أهون من الرياء بالطاعة، فيرائي أهل الدين والدنيا بأبدانهم، وأموالهم، وأعمالهم، وزيهم في أبدانهم، ولباسهم.

فأما رياء أهل الدين: ببدنهم فيرائي العبد بالنحول، واصفرار اللون ليوهم الناس أنه شديد الاجتهاد، وبالخوف والحزن وضعف الصوت، وغور العيون، وذبول الشفاه إعلاماً للناس أنه صائم، فالنحول دليل على قلة الغذاء وكثرة الأحزان، والاصفرار دليل على قيام الليل، وليس هذا رياء على الحقيقة، وإنما هذا تسميع بلسان الحال لا بلسان المقال.

وأما رياء أهل الدنيا بالأبدان: فسمنها وحسنها وصفاء ألوانها، وأما رياء أهل الدّين بالزي: فبشعث الرؤوس، وحلق الشوارب، واستيطال الشعر، وفرقه إظهاراً لكونه متابعاً للرسول في زيّه، وكذلك غلظ الثياب، وآثار السجود، وتشمير القمص، وقصر الأكمام، وخصف النعال وحذوها على زي أهل الدين، ومن هؤلاء من يؤثر حمد أهل الدين والدنيا ليحمده الفريقان، فينفق عندهم ليصل إلى أغراضه منهم فيلبس الثياب الحسان لينفق عند أهل الدنيا، ويقصر أكمامها ويشمر ذيولها لينفق عند أهل الدين، وكذلك يلبس النعال الخشان محذوة على نعال أهل الدين، ويبالغ في جودة الثياب ليتقرب من السلاطين زعم أنه إنما يتقرب إليهم لقضاء حوائج المسلمين، ومنهم من يتصنع بالطاعة لينفق عند المسلمين والمخالفين، ومن هؤلاء لو أعطي من الأموال الخطيرة ما أعطي لما خرج عن زيّه الذي عرف به لئلا يقال: خرج من الاقتداء بنبيه عليه السلام.

وأما الرياء بالأقوال: فيرائي أهل الدين بالنطق بالحكم وإقامة الحجج عند أهل المنازل، / وبالحفظ للحديث، وأقوال المختلفين وذكراً لله بالألسن، والأمر بالمعروف والنهي عن [٤٥٧] المنكر، وتضعيف الصوت عند رد الجواب وتحسينه ورفعه عند القراءة، والتأوه عندها ليدل بذلك على المخافة ويرائي أهل الدنيا بالنطق بالطاعة، وغيرها من الفصاحة عند المحاورة وحسن الصوت وإنشاد الشعر والنحو والغريب واللغة، وكان السلف إذا اجتمعوا يكرهون أن يذكر الرجل أحسن ما عنده.

وأما الرياء بالأعمال فيرائي أهل الدين بطول الصلاة وتحسين ركوعها وسجودها وبالصوم والغزو والحج وطول الصمت وبذل الأموال وإطعام الطعام والإخبات في المشي، إذا ألقى الناس بإرخاء الجفون وتنكيس الرؤوس، والتثبت عند السؤال، ومنهم من يمشي سريعاً فإذا اطّلع عليه أهل الدين مشى مشية أهل الدين، فإذا جاوزهم عاد إلى ما كان عليه ويرائي أهل الدنيا بصحبة أهل الدين من العلماء والعبَّاد ليقال: فلان العالم أو العابد، ويصحبه ويتردد إليه إما لينفق عند الملوك أو ليولى القضاء أو ليستشهد أو يستودع أو يوصى إليه فيخون الأمانة والله أعلم.

الفصل الثاني: في مراتب نفي الرياء

من مختصر الرعاية، قال للشيطان في الرياء ثلاثة أحوال: إحداهن: أن يخطر الرياء، والثانية: أن يزينه للعبد، والثالثة: أن يدعوه إليه ويحثه عليه بعد أن يحببه إليه فأسعد الناس من يدفع الخطرة عن قلبه، ويليه الذي يدفعها بعد تحسينه له، ويليه الذي لا يتعاطاه بعد حث الشيطان عليه ودعائه إليه، وهذا جار في جميع المعاصي، قال: ويندفع دعاء الشيطان إلى الرياء وإلى جميع أنواع المعاصي بشيئين: أحدهما كراهيته المعصية والرياء، والثاني: الامتناع مما كرهه، وإنما تحصل الكراهية بتذكره ما في تلك المعصية من سخط الله وبما ذكرناه من مضار الدارين، [٤٥٨] / فإن الله تعالى جبل الإنسان على محبة ما ينفعه وكراهية ما يضره، وخلق النفس ميّالة إلى ما ينفعها غافلة عما يضرها، والشيطان عون لها على ذلك، وخلق العقل ليدفع أعظم الضررين بأدناهما، ويقدم أعلى النفعين على أدناهما.

فالشرع هو المعرّف للضرر، والنفع والعقل كالبصر لا يرى النفع والضرر إلاَّ في نور الشرع كما أن البصر لا يرى الحسن والقبيح إلاَّ في نور، وإذا زيَّن الشيطان المعصية وحببها إلى النفس امتلأ القلب بحبها، فنسي العبد ما كان عزم عليه من الطاعة، والإخلاص فيغفل عما في الفعل من مضرته في دينه ودنياه، وإنما ينقطع ذلك باستجلاب التذكر لما في الذنب من المفاسد التي تزيد على ما في الشهوة من المصالح فإذا علم ما في طاعة الشهوة من الضرر العظيم كرهتها النفس حينئذٍ؛ لأنها مجبولة على دفع أعظم الضررين بالتزام أخفهما، ولا شك أن ضرر الذنوب في الدنيا والآخرة أعظم من ضرر فوات شهوة فانية، فإذا اطلعت النفس على ذلك صارت مع العقل فغلب جند الرحمن جند الشيطان إذ لا يتصور في العادة أن يتذكر العبد ما في الطاعة والإخلاص من مصالح الدنيا والآخرة وما في الرياء والمعصية من مفاسد الدنيا والآخرة، وما في الرياء والمعصية من مفاسد الدنيا والآخرة، ثم يقدم على الرياء

والعصيان مع علمه بما فيهما من فوات المصالح وحصول المفاسد والذي يضعف دواعي الرياء يذكر الإنسان الآيات والأخبار المتقدمة وما يحرمه الله مع توفيقه وإصلاح قلبه، ومقته تعالى له على ذلك إذا اطلع على قلبه وهو معتقد للرياء ويحبط عمله ويحرم ثواب الآخرة ويعاقبه إذا تحبب إلى العباد بما يبغضه عند الله، ويزين لهم بما يشينه عنده ويتقرب إليهم بما يبعده مع أنهم لا يملكون له نفعاً ولاضراً ولا مواتاً ولا حياة ولا نشوراً بما يبعده مع أنهم لا يملكون له نفعاً، ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً مع أن رضاهم غاية لا تدرك فقد يرضى بعضهم ما يسخط الآخرين / مع أنه يجهل ما يصلح له من المنزلة في قلوبهم [٤٥٩] وما يناله من منافعهم، ولا يأمن أن يطلعهم الله تعالى على رياءه فيمتقونه ويحرمونه ويضرونه ولا ينفعونه، فيخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، فإذا تحقق ما ذكرناه وواظب عليه اضمحل دينه ورياءه شيئاً فشيئاً ويندرج إليه الإخلاص شيئاً فشيئاً إلى أن يصير من المخلصين.

فائدة: فإذا أخطر الشيطان قلبه الرياء في شيء من الطاعات كالصلاة مثلاً فلا يلتفت إليه ولا يشغل به فتنقص صلاته، ولكن يزيد في تحسينها بإحضار الخشوع وإتمام الركوع والسجود إرغاماً للشيطان وكذلك الطاعات.

فائدة أخرى: اعلم أن الشيطان يدعو أولاً إلى ترك الطاعة؛ فإن أطاعه الإنسان وتركها فهو مراده، وإن لم يطعه دعاه إلى الرياء بها، فإن أطاعه أبطلها عليه، وإن لم يطعه أوهمه أن ترك العمل خيفة الرياء إخلاص.

فاعلم أنه كاذب في إيهامه إذ ليس ترك العمل من أجل الناس خوفاً لمرائاتهم إخلاصاً، إنما الإخلاص إيقاع الطاعة خالصة لله تعالى دون الناس، فلا يترك الإنسان الطاعة لأجل ما ذكرنا عن الشيطان، فإن عارضه في أثناء الطاعة وقال له: إنك مراء فلا يتركها لكن يزيد فيها ويحسنها ولا يشتغل به، وبالله العون والتوفيق.

الفصل الثالث: في الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ....﴾[1] الآية، وقال: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

وقال النبي عليه السلام: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم» منها «إخلاص العمل لله تعالى»[١].

وقال: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم»[٢].

وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي»[٣].

[٤٦٠] وقال لمعاذ: «من أخلص العمل لله أربعين / يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٤].

ويقال: كتب بعضهم إلى أخ له: اخلص النية في أعمالك يكفك القليل منها[٥].

وقال بعض العلماء: في إخلاص ساعة نجاة الأبد، ولكن الإخلاص عزيز، فالعلم بذر والعمل زرع وماءه الإخلاص، ويقال مراد الله تعالى من عمل الخلق الإخلاص، وقال الحسن: إن لله عباداً عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال بعض العلماء: الأمر كله يرجع إلى أصلين؛ فعل من الله لك، وفعل منك له فارض بما فعل واخلص فيما تفعل فإذا فعلت بهذين فزت في الدارين.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/٥٧٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير. قال المحقق: أخرجه الترمذي (٢٦٥٨) من حديث ابن مسعود بلفظ في أوله «نصر الله امرءاً سمع مقالتي... وفي آخره ثلاث لا يغل عليهن....» الحديث قال الألباني: صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/٥٧٦) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وهو عند البخاري بلفظ: هل تنصرون وترزقون إلاّ بضعفائكم».

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/٥٧٦) طبعة دار الحديث: رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص فقال، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد. ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/٥٧٦) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات وعن أبي موسى.

(٥) أورد الحافظ العراقي في معنى ذلك حديثاً في المغني (٤/٥٧٦) طبعة دار الحديث: أن النبي قال لمعاذ: «أخلص العمل يجزك منه القليل» وقال أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع.

مسألة: واختلفت أقوال العلماء في معنى الإخلاص، فقيل: معناه أن يكون سكون العبد وحركته لله خالصة، وقال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده، ولا ملك فيكتبه، وقيل: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات.

وقال المحاسبي: هو إخراج الخلق عن معاملة الرب، وقيل: دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها، وقيل: سئل النبي عليه السلام عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت». أي لا تعبد هواك ولا تعبد إلاَّ ربك وأن تستقيم في عبادته كما أمرت، فهذا هو الإخلاص حقاً.

وقال بعض العلماء: أجمع الفقهاء على ثلاث خصال أنها إذا صحَّت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلاَّ ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم والله أعلم.

مسألة: والإخلاص معناه: أن يريد الله تعالى بطاعته ولا يريد بها سواه، وله أقسام: أحدها: أن يريد الخلاص من العقاب، والثاني: أن يريد الفوز بالثواب، والثالث: أن يريدهما جميعاً، والرابع: أن يفعل ذلك حياء من الله تعالى، والخامس: أن يفعل ذلك حباً لله تعالى من غير ملاحظة ثواب ولا عقاب، والسادس: أن يفعل ذلك إجلالاً لله / تعالى وتعظيماً، وأما [٤٦١] الرياء فهو أن يريد الناس بطاعة الله سبحانه وهو ضربان:

أحدهما: أن لا يريد بتلك الطاعة إلاَّ الناس.

والثاني: أن يريد الناس ورب الناس، وهذا أخف الريائَيْن؛ لأنه أقبل على الله من وجه وعلى الناس من وجه، وأما الأول فقد أعرض عن الله تعالى بالكلية، وكلاهما محبط للعمل لقوله: من عمل عمل أشرك فيه غيري تركته لشريكي ولا يتصور شرك الرياء ممن عبد الله تعالى تعظيماً وإجلالاً؛ لأن تعظيمه يمنعه من أن يعصيه بشرك الرياء، وكذلك الحياء أيضاً يمنعه، وكذلك الحب مانع من عصيان المحبوب فيما يتقرب به إليه والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع: فيما يورثه الرياء من الخصال المذمومة

منها حب الرياسة والمباهاة بالعلم والعمل، والتفاخر بالدين والدنيا، ومحبة العلو والتكاثر بالمال وغيره من الدنيا، وبالعلم والعمل والتحاسد عليهما من غير منافسة بل خوفاً أن ينال من يحاسده مثل منزلته والحمد بما لم ينله ولم يفعله، ورد الخلق عن غيره من العلماء إليه

لئلا يقال: هو أعلم منه، وحب الغلبة في المناظرة وترك تعلم ما لا يستغنى عنه وحب التعظيم والإجلال له وتسخير العباد والاحتقار لهم، وأن لا يرد عليه شيء من أقواله وأفعاله وأن لا يساوى في العلم بأمثاله، وأن يصر على الخطأ كي لا تنكسر رئاسته وإن وعظ عنف وإن وعظ أنف والمبادرة بالجواب خير يسأل هو أو غيره، يريد بذلك أن يعلو عليه وأمثال هذا مما يطول بها ويشرحها الكتاب.

الفصل الخامس: في إظهار العمل للاقتداء

وله حالان: أحدهما: أن يكون ممن لا يقتدى به فلا يظهر شيئاً من أعماله التي هي تطوع؛ لأنه لا يأمن على الرياء ولا يثق بالاقتداء، وأما الفرائض فيجب إظهارها لئلا يساء به الظن أو يبرأ منه.

[٤٦٢] وأما إن كان / ممن يقتدى به: فإن كان ذلك العمل من أعمال العلانية كالجهاد والحج وغيرهما وأَمِنَ من الرياء فله أجران أجر العمل وأجر النسبة إلى الاقتداء؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وقد ورد في الخبر: «أن عمل العلانية يضاعف سبعين ضعفاً إذا كان إظهاره على نية الاقتداء كما أن إسراره خوفاً من الرياء يضاعف سبعين ضعفاً»(١).

وأما إن عمل الطاعة فأخبر بها الناس، فإن ذلك ليعظم عند الناس فهذا مسمع، وفي الخبر: «من سمع سمع الله به وإن أخبر بها ليقتدى به فإن كان ممن يقتدى به فلا بأس»(٢).

وقد حكي فعل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين الذين يقتدى بهم بأقوالهم وأفعالهم، وإن كان لا يقتدى به فلا يتحدث بشيء من ذلك مخافة التسميع والتصنع للناس وبالله التوفيق.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٤٩٢) طبعة دار الحديث في نحوه: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه وقال: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين قلت: الشطر الأول هذا ليس بهذا الحديث الموجود معنا ـ وقال: وله من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء». وقال: تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة: «يفضل ـ أو يضاعف ـ الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً» قال: تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

(٢) الشعر الأول من الخبر ورد فيه نص سبق الكلام عليه.

الباب الثاني
في العجب وأسبابه

اعلم أن العجب قادح في العمل مهلك لصاحبه وهو آفة المتعبدين من الأولين والآخرين، وآفته أعظم من آفات الذنوب لأن الذنوب، ربما انتبه العبد فتاب منها، والمعجب لا يكاد يتوب أعاذنا الله تعالى منه، وقد قال النبي عليه السلام: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»(١).

وقال عليه السلام: «النادم ينتظر التوبة والمعجب ينتظر المقت»، وقال: «لو لم تكونوا مذنبين لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب»(٢).

وقال عليه السلام: «لو أن عبداً قدم على الله بأعمال أهل السماوات وأهل الأرض من أنواع البر والتقوى لم يزن ذلك عند الله مثقال ذرة الإعجاب وأذى المسلمين والقنوط من الرحمة»(٣).

وعن ابن مسعود رحمه الله قال: الهلاك في اثنين القنوط والعجب وصدق رحمة الله؛ لأنه إذا أعجب زكى نفسه ولم يتهمها وقد قال تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾، قيل: لا تبرؤها.

/ وعن مطرف بن عبد الله قال: لإن أبيت قائماً فأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت [٤٦٣] قائماً فأصبح معجباً، وعن عيسى عليه السلام قال: كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد أفسده العجب، فدلّ ما ذكرنا على أن العجب مفسد للطاعات، وهو من أكبر الآفات على المتعبدين؛ لأن من أعجب بعمله لم ير لنفسه ذنباً فيتوب منه فيفضي به ذلك إلى العزة والتكبر على العباد حتى يصير المعجب كأن له المنة على الله تعالى؛ لاستعظامه أعماله، وكذلك يمن على العباد بما يسديه إليهم من معروفه وإحسانه في زعمه فما أجدره بأن يحبط الله سبحانه عمله بإعجابه ويكله إلى نفسه وبالله التوفيق.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩١) وفيه محمد بن عون الخرساني وهو ضعيف جداً. قاله محقق الإحياء طبعة دار الحديث.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٥٧٢): أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبي الصهباء قال البخاري منكر الحديث: وقال أحمد: حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد ضعيف جداً.

(٣) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٩٤١). وعزاه إلى الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي الدرداء وفيه عمرو بن بكر السكس وهو (واهٍ).

فصل: في أسباب العجب

اعلم يا أخي وفقك الله أن سبب العجب استعظام، واستكثار لما فيك من خير وعمل بزعمك فأما العلم فمعرفة الكتب والسنة وإجماع الأمة، ويقع الإعجاب أيضاً بالرأي للصواب: وهو القياس الصحيح ويقع أيضاً بالرأي للخطأ: وهو من وجوه، أحدها: زيغة عن الحق، والثاني: فرحة بالباطل والثالث: أنه تعجَّب بما لا يجوز إعجابه والعجب فرحة بالنفس بإضافة العمل إليها، وحمدها عليه مع نسيان أن الله تعالى هو المنعم به عليه، والتفاضل بالتوفيق له وأما إذا فرح بذلك لكونه منة من الله عليه، واستعظامه لما يرجو عليه من ثواب الله عز وجل، ولم يضف ذلك إلى نفسه ولم يحمدها عليه فليس بمعجب.

قال بعض العلماء: وكذلك إذا علمت أن كل نعمة من الله تعالى ثم استعظمت شيئاً من أعمالك ناسياً غافلاً عن كونه من الله تعالى، ومن نفسك غير حامد لنفسك عليه فلست بمعجب، ولو أحضرت كونه نعمة من الله تعالى كان ذلك بأفضل.

[٤٦٤] قال: لأن الفرح بنسبة النعمة إلى الله تعالى مأموراً به في كتاب الله تعالى / قال عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[1].

وإنما الشر والإعجاب في نسبة تلك النعمة إلى النفس، ونسيان كونها من الله تعالى، فما أجدر من فعل ذلك أن يكله الله تعالى إلى نفسه كما فعل تعالى بأصحاب نبيه عليه السلام يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فنسبوا النصر إلى الكثرة ونسوا نسبته فخذلوا وانهزموا مع أنهم خير خلق الله تعالى، وقد يؤدي العجب إلى الإدلال على الله تعالى، وهو أن يرى العبد أنه له عند الله قدراً عظيماً قد استحقه واستحق الثواب عليه من الأمن من عقاب الله تعالى، وليس رجاء المغفرة مع الخوف من الله تعالى إدلالاً وللإدلال علامات: منها أن يناجي ربه بإدلاله عليه بعمله، ومنها أن يستنكر أن ينزل به بلاء، ومنها أن يستنكر أن ينصره عليه غيره أو تردّ دعوته مع كونه عاملاً بالعمل الذي استعظمه حتى حمله على العجب والإدلال فما أجهل المدل على الله تعالى بعلمه أو بعمله كيف يدل على ربه؛ لأن إنعامه عليه وإحسانه إليه والشكر لربه على نعمه أولى به من الإدلال عليه والشكر على النعم من جملة النعم.

ولذلك قيل: ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه، والله تعالى يقول:

---

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[١].

وقال سيد الأولين والآخرين: «ما منكم من أحد ينجيه عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته»[٢].

فائدة: لا يقع العجب إلاّ لصفة كمال أو ما يعتقد أنه صفة كمال، فمن أخطأ في اعتقاده أو في مسألة فرع من الفروع، فإنما أعجب من جهة ظن أنه على الصواب، فأعجب بصوابه، إذ لا يصح الإعجاب إلاّ بما يعلم أو يظن أنه من باب السرور، وما فرح أهل البدع بخطاياهم إلاّ لاعتقادهم أنهم مصيبون / وقد ذمّ الله فرحهم في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[٣]. [٤٦٥]

فصل: فيما ينفي الإعجاب بالعلم والعمل والرأي والصواب

ينفى ذلك باستحضارك أن الذي وفقك للعمل إنما هو الله عز وجل، وإن النفس لا صنع لها في ذلك، وإن من الخطأ أن تنسب الخير إلى من تعرفه إلا بالشر وتقطعه عن من له الأمر كله، وإن النعم كلها من الله فإذا لاحظت ذلك، وداومت عليه ارتفع عنك العجب، فإن عدت إلى الإعجاب ونسيت رب الأرباب فعاودها بالدواء الذي قلت لك.

فصل: فيما ينفى به الإعجاب بالرأي الخطأ

فاعلم أن الخطأ ليس بنعمة حتى يقع به الإعجاب، وإنما هو بلية يتوهم أنها نعمة من الله تعالى فيعجب بها، وطريق نفي العجب به أن يعلم أنه من جملة بني آدم، وأن بني آدم أخطؤوا في كثير من الفروع والأصول وأعجبوا بخطاياهم ظناً منهم أنه صواب وهو بشر مثلهم يجوز عليه ما جاز عليهم مآخذ الحق الحق والصواب موجود في الكتاب والسنة، فمن ذلك ما هو محكم ظاهر لا يقع فيه خطأ ومنه ما هو متشابه قابل للخطأ والصواب فيجب عليه أن يتوقف فيه، وأن لا يجزم برأي حتى يقف على دليل شرعي يعتمد على مثله فإن لم يقف على دليل يرشده إلى مراد الله ورسوله من ذلك المتشابه فليسأل العلماء فإن أوقفوه على المعتمد عليه قبله منهم، وإلاّ أمن بالمتشابه حتى يقف على دليل شرعي موجب لتأويل المتشابه؛ لأن على العامة الإيمان بالمتشابه، ورد معناه إلى العلماء، وقد يقع الإعجاب بالأعمال بناء على عزمه وجزمه،

---

(١) سورة النور، الآية: ٢١.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٥٧٨) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

وما جرّبه من نفسه ناسياً منة ربه ومضيفاً له إلى نفسه الأمّارة بالسوء.

فصل: فيما يقع به الإعجاب من الأسباب الدنيوية

فمن ذلك إعجاب المرء بحسن صورته ناسياً النعمة لله عليه في ذلك حتى ربما حمله حسن / صورته على الفجور وينفي ذلك بنظره في بدء خلقه، وأنه خلقه من نطفة قذرة، وفيما [٤٦٦] يتقلب فيه من الأقذار وبما يصير إليه من سيلان صديده، ونتنه، وتغير صورته، وقبح رائحته، وينظر في تضييعه واجب شكر ربه، وأنه متعرض لسخطه، ودخول النار المغيرة لحسن صورته.

ومن ذلك الإعجاب بالقوة والاتكال عليها دون خالقها كما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[١].

ونفي العجب بذلك أن يعلم أنها نعمة من الله ابتلاه الله بها هل يطيعه فيها أو يعصيه؟ وأنه تعالى قادر أن يسلبها منه فيصبح أضعف خلق الله.

ومن ذلك العجب بالعقل والذهن والفطنة باستحسان ذلك والاتكال عليه أن يدري به من أمور دينه ودنياه ما لا يصل إليه غيره ناسياً لإنعام الله تعالى به عليه، والتوكل عليه في ذلك كله، وقد يحمله ذلك على الجدال بالباطل، واستصغار علم العلماء وعملهم من البر والخير مع تضييعه هو العمل بذلك اجتزاء منه بفهمه وفطنته، وينفي ذلك بأن يعلم أن ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه ليؤكد بها الحجة عليه أكد من غيره، وأنه لا يأمن أن يسلبه ذلك كما فعل بغيره، وكيف ينفعه فهمه إذا كان غيره أطوع لله منه ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء....﴾ الآية.

ومن ذلك العجب بالحسب وهو أن يتعظم بنسبه إلى من عظم الله قدره في الدين بالعلم والرسالة والنبوة ناسياً لإنعام الله عليه، وتحقيراً لعباد الله سبحانه وأن له الحق عليهم وقد يعتقد أحدهم أنه ينجو بغير عمل مع فجوره ونفي العجب، بذلك بأن يعده من نعم الله عليه وأن الأحساب لا تجلب شيئاً من الثواب، ولا تدفع شيئاً من العذاب، وإن أكرم الناس عند الله تعالى أتقاهم له، وأن النبي عليه السلام قال لابنته فاطمة وعمته صفية: «لا أغني عنكما من الله شيئاً»[٢].

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٥٨١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة وأخرجه =

وأن يعلم أن أسلافه الذين يفتخر بهم إنما / شرفوا بطاعة الله سبحانه واجتناب معصيته [٤٦٧] ولا يغتر بما روي عن رسول الله ﷺ من الشفاعة لبني عبد المطلب فإنه لا يشفع في أحد من ذوي الأحساب، وغيرهم إلاَّ من ارتضى منهم فهو وغيره ممن لا حسب له سواء، وقد يبلغ الحمق بأحدهم بأن يعجب بالانتماء إلى الملوك المشركين من غير العرب استعظاماً لقدره ونسياناً لما صاروا إليه من العذاب، ونفي العجب بذلك أن يعلم أن سطوتهم وبال عليهم من الله تعالى.

ومنهم من يعجب بكثرة عدد أولاده، ومماليكه، وعشائره، وأصحابه ويتكل عليهم دون ربه، وقد يحمله ذلك على أن يسطو على من عانده اعتماداً عليهم، ونفي العجب من ذلك أن يعلم أن النصر من الله، وأن النصرة لا تغني شيئاً كما لم تغن كثرة أصحاب النبي عليه السلام يوم حنين شيئاً مع أنهم خير عصابة على وجه الأرض، وأن كثرة عدده ومدده لا تغني عنه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾(١).

ومنهم من يعجب بكثرة الأموال فيفتخر بها على الفقراء، وينفي عجبه بذلك أن يعلم أن الأموال فتنة ومحنة ابتلى الله بها العبد و﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾(٢).

وأن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، وأن غنى قارون كان سبباً لهلاكه، وأن الله عافى الفقراء من التعرض لهذه الفتنة وخلصهم من هذه المحنة وبالله التوفيق.

فصل: في الكبر

قال الله تعالى: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾(٣).

عن ابن عباس قال: عظمة لم يبلغوها، وقال ابن جريج علواً في الأرض وتعظيماً، وقال تعالى: ﴿إني عذت بربي وربكم من كل متكبر﴾(٤)، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(٥).

= مسلم من حديث عائشة وأخرجه مسلم بزيادة «إلاَّ أن لكما رحما سأبلها ببلالها». من حديث أبي هريرة.

(١) سورة عبس، (الآيتان: ٣٤، ٣٥).

(٢) سورة العلق، (الآيتان: ٦، ٧).

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٢٧.

(٥) سورة غافر، الآية: ٣٥.

[٤٦٨] وعن كعب قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة / أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان حتى يسلكوا في نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار»[١].

وعن النبي عليه السلام قال: «يقول الله عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحد منهما ألقيته في ناري»[٢].

وعن كعب الأحبار قال: ما من عبد إلاَّ وفي رأسه حكمة بيد ملك فإن تواضع رفعه الله وقال: انتعش نعشك الله، وإن تكبر وضعه الله وقال: اتضّع وضعك الله.

وعن عيسى عليه السلام قال: إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر ألا ترون أنه من شمخ رأسه إلى السقف شجَّه، ومن تطأطأ أظله، والآيات والأخبار والآثار في ذم الكبر كثيرة تركتها حباً للاختصار.

فصل

والكبر معناه أن يتعاظم الإنسان على غيره أنفة واحتقاراً، وأخلاق الكبر كلها تسمَّى كبراً، وقد تكون من الحقد والحسد والرياء والعجب؛ لأن أوله في القلب استعظام القدر، فإذا استعظم العبد قدره تعظم، فإذا تعظم أنف وتعزز وافتخر واستطال ومرح واختال، فالتكبر: التعظم وله أسباب من جملتها العجب وهو أكثرها، ولذلك يطلق الكبر على العجب؛ لأنه مسبب عنه.

ويقال: الفرق بين الكبر والعجب أما في الدين فقد يعجب بعمله فيحمد نفسه وينسى منة ربه، بذلك ولا يتكبر على أحد، وربما أخرجه العجب إلى أن يرى أنه خير من غيره فيحقره ويأنف منه، فيكون حينئذٍ متكبراً معجباً، وأما بأمر الدنيا فقد يعجب بجماله وماله وقوته، ولا يتكبر وقليلاً ما ينفرد العجب بالدنيا دون أن يخرج صاحبه إلى الكبر والمرح والخيلاء، ألا ترى إلى قول النبي عليه السلام: «بينما رجل يتبختر في بردين له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض

---

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/٣٤٣) والبغوي في شرح السنة (١٣/١٦٨) والترمذي (٢٤٩٢) وأحمد (٢/١٧٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٣٨٨) والسيوطي (٥/٣٣٣).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/٥٢٠) طبعة دار الحديث في نحوه: أخرجه الحاكم في المستدرك دون ذكر «العظمة» وقال صحيح على شرط مسلم. وقال في موضع آخر: أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود: «قذفته في النار» وقال مسلم: «عذبته» وقال «رداؤه» بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضاً. قلت قال: «ألقيته في جهنم» ولم يقل في «ناري» كما ذكر المصنف هنا.

فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[١] فوصفه عليه السلام بالعجب / في تبختره [٤٦٩] وخيلائه.

وللكبر أقسام: منها الكبر عن بعض طاعة الله، ومنها الكبر عن مبايعة رسول الله ﷺ، ومنها الكبر عن عباد الله وهو أن يرى أنه خير منهم فيحقرهم فلا يقبل الحق منهم، وأصله كما قدمنا التعظيم على الناس، ورد الحق مع العلم به ويحقق ذلك قول النبي عليه السلام حين قال ثابت بن شماس أو غيره: يا رسول الله إني امرؤ قد حبب إليَّ الجمال أفمن الكبر هو؟ قال: «لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس»[٢].

وفي حديث آخر: «من سبقه الحق وغمص الناس»[٣] يعني خفرهم.

فائدة: قال بعض العلماء: قلّ أن يخلوا عالم أو عابد أو عارف عن نوع من الكبر، ولكن قد تخلو قواه عن آثار الكبر فإن تكبر بقلبه لم يحمله ذلك على رد الحق، وعلى شيء من أفعال الجوارح، المذمومة وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه أنه ترك إمامة قومه، لأن نفسه حدثته أنه أفضل منهم فيما قال، واستأذن عمر رضي الله عنه إمام قوم أن يدعو بدعوات بعد الصلاة فمنعه خوفاً عليه من الكبر وقال: أخاف أن ينتفخ حتى يبلغ الثريا.

فصـــل

قال الغزالي في كتابه أو غيره: فإن قيل فهل سوى العجب والرياء من قادح في العمل قيل له: أجل إن فيه لقوادح سواهما لكن خصصناهما بالذكر؛ لأنهما الأصل الذي يدور عليهما معظم الباب.

وقد قال بعض المشايخ: إن حق العبد أن يتحفظ في العمل من عشرة أشياء: النفاق، والرياء، والتخليط، والمَنّ، والأذى، والندامة، والعجب، والحسرة، والتهاون، وخوف ملامة الناس ثم ذكر ضد كل خصلة منها وأضرارها بالعمل، فضد النفاق إخلاص، وضد التخليط التفريد وضد المَنّ تسليم العمل لله، وضد الأذى تحصين العمل، وضد الندامة تثبيت

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٥٢٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٥٣٤) طبعة دار الحديث: أخرجه من حديث أثناء حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال: «بطر الحق وغمط الناس» ورواه الترمذي فقال: «من بطر الحق وغمص الناس» وقال: حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف يعني ـ «من سفه الحق وغمص الناس» ـ ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ريحانة هكذا.

(٣) انظر الحديث السابق له.

[٤٧٠] النفس، وضد العجب ذكر المنة، وضد الحسرة اغتنام الخير، / وضد التهاون تعظيم التوفيق، وضد خوف الملامة الخشية.

واعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده، والمن والأذى يحبطان الصدقة في الوقت، وعند بعضهم يبطلان أضعافها، وأما الندامة فإنها تحبط العمل في قول بعضهم جميعاً، والعجب يذهب أضعاف العمل، والحسرة وخوف الملامة والتهاون تخفف الأعمال فتذهب رزانته.

فصــل

اعلم أن هذه القوادح المتقدمة: من الرياء، والعجب، وأسبابهما، قد اجتمعت فيهن ثلاثة أمور: الغبن الشديد، والخطر العظيم، الأول أن الأمر دقيق جداً، فإن مجاري الرياء والعجب في الأعمال دقيقة خفية على الناقد البصير في أمر الدين فكيف الغافل النؤم؟

ويحكى أن عطاء السلمي نسج ثوباً فحسنه جداً فعرضه على البزاز فاسترخصه وقال: إن فيه عيوباً كيت وكيت، فأخذه عطاء وأخذ يبكي بكاء شديد، فندم الرجل على ذلك فاعتذر إليه، وجعل يبذل له في ثمنه ما يريد، فقال عطاء: ليس ذلك مما تظن إنما أنا عامل في هذه الصناعة وقد اجتهدت في تحسين هذا الثوب حتى لا يوجد فيه عيب، فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوباً كنت غافلاً عنها، فكيف بأعمالنا هذه إذا عرضت على الله غداكم يبدو فيها من العيوب والنقصان الذي نحن اليوم عنه غافلون.

وعن بعض الصالحين قال: كنت ليلة في وقت السحر في غرفة لي شارعة، أقرأ سورة طه، فلما إن ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصاً نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدي، فإذا فيها سورة طه وإذا تحت كل كلمة عشرة حسنات مثبتة إلاَّ كلمة واحدة فإني رأيت مكانها محواً ولم أر تحتها شيئاً، فقلت: والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثواباً، ولا أراها أثبتت.

[٤٧١] فقال الشخص: صدقت قرأتها / وكتبناها إلاَّ أنا سمعنا منادياً من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها، فمحوناها فبكيت في منامي وقلت: لما فعلتم ذلك؟ قالوا: مر رجل فرفعت بها صوتك لأجله فذهب ثوابها.

وأما الغبن الشديد فإن الرياء والعجب آفة تقع في لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين سنة.

وحكي أن رجلاً أضاف سفيان الثوري وأصحابه فقال لأصحابه هاتوا الطبق الذي أتيت به في الحجة الأولى بل الذي أتيت به في الحجة الثانية، فنظر إليه سفيان وقال: مسكين قد أفسد عليه بهذا حجتيه.

ووجه آخر من الغبن: إن أقل طاعة سلمت من هذا الرياء والعجب يكون لها من الله تعالى ما لا قيمة لها ولا نهاية، وعن علي قال: لا يقل عمل البتَّة وكيف يقل عمل مقبول.

وسئل النخعي عن من عمل كذا وكذا ما ثوابه؟ قال: إذا قبل لا يحصى ثوابه، ولمثل هذا المعنى وقع نظر أولي الأبصار من العباد في مثل هذه الدقائق فاهتموا بمعرفتها ثم رعايتها ثم التحفظ عنها، ولم تغنهم كثرة الأعمال في الظاهر وقالوا في هذا الشأن في الصفوة لا في الكثرة وقالوا: جوهرة واحدة خير من ألف خرزة. وأما الذين قل عملهم في هذا الباب وقلَّ نظرهم جهلوا المعاني وأغفلوا ما في القلوب من العيوب واشتغلوا بإتعاب النفوس في الركوع والسجود وغير ذلك ولم ينظروا ما فيها من المخ والصفوة، وما يغني عدد الجوز ولا لب فيها وما يغني رفع السقوف ولم تحكم مبانيها، وما يعقل هذه الحقائق إلاَّ العالمون بالله المكاشفون والله تعالى نسأله الهداية.

وأما الخطر العظيم فإن عظمه من وجوه أحدها: ملك لا نهاية لعظمته وله عليك نعم لا تعد ولا تحصى، وبدن معيوب بعيوب جمة خفية ومؤف بآفات كثيرة، وأمر مخوف، فإن وقع ذلك مع تسارع النفس إليه فيحتاج أن يستخرج عملاً صافياً / من بدن معيوب ونفس أمارة [٤٧٢] بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين في جلاله وكثرة أياديه ومننه، ويقع موقع الرضى والقبول فيه فيفوتك الربح العظيم الذي لا تتسمح النفس بفوته بل ربما تصيبك فيه مصيبة لا طاقة لك بها وهذا والله شأن عظيم، وخطب جسيم.

أما جلال الله وعظمته فإن الملائكة يتعبدون له بأنواع العبادة الليل والنهار إلى نفحة الصور، فينادون بأجمعهم: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

وأما النعم: فكما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[١].

وعلى ما روي أنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين: ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم فقابلوا الحسنات بالنعم فلا يؤتى بحسنة إلاَّ أوتي بنعمة حتى تعم الحسنات وتبقى

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

الذنوب والسيئات، والأمر المخوف أن العبد يعمل سبعين سنة غافلاً عن عيوبه فربما لا يكون واحد منها مقبولاً، وربما يتعبد أعواماً فيفسد بساعة واحدة، وأعظم خطراً من هذا كله ربما ينظر الله إلى العبد يراءي بعمله وخدمته العباد دونه فيطرده طرداً لا مرد له والعياذ بالله تعالى.

ولما كان الأمر في الدقة والصعوبة إلى هذا الحد من الخطر نظر أولوا الأبصار فخافوا على أنفسهم حتى قال بعضهم: ما ظهر من أعمالي لا أعده شيئاً، وقال آخر: اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك.

وروي عن بعضهم أنه كان يقول: إني أعلم ما عملت من الطاعات غير مقبولة عند الله تعالى فقيل له في ذلك فأجاب: إني أعلم ما يحتاج إليه الفعل حتى يكون مقبولاً، وأعلم أني لست أقوم بذلك فعلمت أنها غير مقبولة، قيل له: فلم تفعلها؟ قال: إن يصلحني الله تعالى يوماً فتكون النفس متعودة لفعل الخير، فلا أحتاج أن أعودها ذلك من الرأس، فهذه أحوال أهل المجاهدات. وينشد:

فانظر لنفسك صحبة مع غيرهم وقع الإياس وخابت الأمال

[٤٧٣] / هيهات تدرك بالتواني سادة كدُّوا النفوس وساعد الاقبال

فاعتصم يا أخي بمولاك ذي العظمة والكمال، والزم الباب بالتضرع والابتهال والبكاء آناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين إن وجدتهم من عباد الله الخاشعين، فإنه لا ناج من هذا الأمر إلاّ برحمته، ولا سلامة من هذا البحر إلاّ بعنايته فتنبه من رقدة الغافلين وجاهد نفسك في هذه القنطرة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين، فنسأل الله تعالى أن يتغمدنا برحمته إنه أرحم الراحمين، فإنه لا حول ولا قوة إلاّ بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

القنطرة السادسة عشرة
قنطرة الحمد والشكر

فعليك وفقك الله لطاعته بلزوم الحمد والشكر لله على أياديه ونعمته؛ فإن الشكر زيادة في النعم، وأمان من الغير، ودوام لأيادي الله وإحسانه إليك.

وقد أمر الله تعالى به عباده فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[2]، وقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ [حَلَالًا طَيِّبًا] وَاشْكُرُوا [نِعْمَتَ] اللَّهِ﴾[3]. في أمثالها من الآيات، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين إبليس في أكثر الخلق فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[5]، وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[6]، وهو خلق من أخلاق الربوبية، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[7]، وجملة مفتاح كلام أهل الجنة فقال عنهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[8]، وقال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[9]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾[10]، وعن النبي عليه السلام قال: «المؤمن الذي يغلب الحلال / شكره والحرام صبره». [٤٧٤]

وقال عليه السلام: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن لم تكونا فيه لم

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٧) سورة التغابن، الآية: ١٧.
(٨) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٩) سورة يونس، الآية: ١٠.
(١٠) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

يكتبه شاكراً ولا صابراً من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على فضله به عليه»[١].

وروي عنه أنه قال: «لا تنظروا إلى من فوقكم، وانظروا إلى من دونكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[٢]، وروي عنه أنه قال: «يحاسب ابن آدم يوم القيامة بكل نعمة أنعمها الله عليه ويسأل عن شكرها غير أربع: خبز يأكله، وماء قراح يشربه، وثوب يواري به عورته، وبيت يسكن فيه من الحر والبرد؛ فما أعطى فضلاً عن هذا حوسب به، وسئل عن شكره».

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[٣]، قال: أما الظاهرة: فالإسلام، وما حسن من خلقك، وأفضل عليك في الرزق، وأما الباطنة: فما ستر عليك من الذنوب والعيوب، قال: وسمع رجلٌ رجلاً يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام؛ فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وقال سفيان: لما جاء البشير يعقوب بيوسف عليه السلام قال: على أيّ دين تركته، قال: على الإسلام، قال: الحمد لله الآن تمت النعمة.

وروي عن كعب قال: ما أنعم الله على عبد في الدنيا نعمة فشكرها إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد نعمة فلم يشكرها إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له بها طبقاً في النار.

وقال النبي عليه السلام: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[٤]، وعن وهب بن منبه

---

(١) أطراف الحديث عند الترمذي (٢٥١٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٢٠٦)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٥٤). وشرح السنة للبغوي (١٤/ ٢٩٣) وابن حجر في المطالب العالية (٢٥٨٩) والمتقي الهندي في الكنز (٦٤٩٣). والألباني في الضعيفة (٦٣٣). وابن المبارك في الزهد (٥٠). وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٤).

(٢) أطراف الحديث أحمد (٢/ ٢٥٤) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٦٠). وأبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥٧) والألباني في الضعيفة (٦٣٣).

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/ ١٢٧) طبعة دار الحديث: علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف. قال محقق الإحياء: أخرجه الترمذي (٢٤٨٦) وأحمد (٢/ ٢٨٣، ٢٨٩) وابن ماجه (١٧٦٤)، وابن حبان (١/ ٣١٥) في الإحسان، والحاكم (١/ ٤٢٢) وصححه ووافقه الذهبي وقال الألباني في الصحيحة (٦٥٥) صحيح.

قال داود: يا رب ابن آدم ليس منه شعرة لا تحتها ولا فوقها منك نعمة؛ فمن أين يكافئها بما أعطيته؟ فأوحى الله إليه: يا داود إني أعطي الكثير، وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني.

وعن النبي / ﷺ قال: «ينادي يوم القيامة ليقم الحامدون فيقومون زمرة فينصب لهم لواء [٤٧٥] فيدخلون الجنة، قيل: ومن الحامدون؟ قال: الذين يشكرون الله على كل حال»، وفي لفظ آخر: «على السراء والضراء»[١]. وقال: «الحمد رداء الرحمن»[٢].

ويقال أن الله تعالى أوحى إلى أيوب عليه السلام: أني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل، وأوحى الله إليه في صفة الصابرين دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم.

ويروى أنه لما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: فأي المال نتخذ؟ قال النبي ﷺ: «ليتخذن أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً»[٣].

فأمر به بدلاً من المال، وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان، وقال عمر بن عبد العزيز: تذاكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر، وكان مطرف بن عبد الله يقول: إلهي منك تكون النعمة، وعليك تمامها، وأنت تعين على شكرها وعليك ثوابها، وقال بعضهم: الشكر قيد النعمة، ومفتاح المزيد، وثمن الجنة. وقيل: موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف إن وجده لم يرم، وإن عدمه لم يقم. وقال بعضهم: اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت، وإن شكر زيادة من المنعم وأمان من الفقر.

ويروى أن داود عليه السلام بينما هو في محرابه إذ مرت به دودة فتفكر في خلقها؛ فقال: ما يعبأ الله عز وجل بخلق هذه! فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما أتاني الله عز وجل لأذكر الله وأشكر له منك.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/١٢٧) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون.... الحديث». وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/١٢٨): لم أجد له أصلاً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «الكبر رداؤه.... الحديث».

(٣) هذا الحديث تقدم غير مرة وهو في النكاح.

يكتبه شاكراً ولا صابراً من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على فضله به عليه»[(١)].

وروي عنه أنه قال: «لا تنظروا إلى من فوقكم، وانظروا إلى من دونكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[(٢)]، وروي عنه أنه قال: «يحاسب ابن آدم يوم القيامة بكل نعمة أنعمها الله عليه ويسأل عن شكرها غير أربع: خبز يأكله، وماء قراح يشربه، وثوب يواري به عورته، وبيت يسكن فيه من الحر والبرد؛ فما أعطى فضلاً عن هذا حوسب به، وسئل عن شكره».

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[(٣)]، قال: أما الظاهرة: فالإسلام، وما حسن من خلقك، وأفضل عليك في الرزق، وأما الباطنة: فما ستر عليك من الذنوب والعيوب، قال: وسمع رجلٌ رجلاً يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام؛ فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وقال سفيان: لما جاء البشير يعقوب بيوسف عليه السلام قال: على أيّ دين تركته، قال: على الإسلام، قال: الحمد لله الآن تمت النعمة.

وروي عن كعب قال: ما أنعم الله على عبد في الدنيا نعمة فشكرها إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد نعمة فلم يشكرها إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له بها طبقاً في النار.

وقال النبي عليه السلام: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[(٤)]، وعن وهب بن منبه

---

(١) أطراف الحديث عند الترمذي (٢٥١٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٢٠٦)، السيوطي في الدر المنثور (١/ ١٥٤). وشرح السنة للبغوي (١٤/ ٢٩٣) وابن حجر في المطالب العالية (٢٥٨٩) والمتقي الهندي في الكنز (٦٤٩٣). والألباني في الضعيفة (٦٣٣). وابن المبارك في الزهد (٥٠). وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٤).

(٢) أطراف الحديث أحمد (٢/ ٢٥٤) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦/ ٣٦٠). وأبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٥٧) والألباني في الضعيفة (٦٣٣).

(٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/ ١٢٧) طبعة دار الحديث: علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف. قال محقق الإحياء: أخرجه الترمذي (٢٤٨٦) وأحمد (٢/ ٢٨٣، ٢٨٩) وابن ماجه (١٧٦٤)، وابن حبان (١/ ٣١٥) في الإحسان، والحاكم (١/ ٤٢٢) وصححه ووافقه الذهبي وقال الألباني في الصحيحة (٦٥٥) صحيح.

قال داود: يا رب ابن آدم ليس منه شعرة لا تحتها ولا فوقها منك نعمة؛ فمن أين يكافئها بما أعطيته؟ فأوحى الله إليه: يا داود إني أعطي الكثير، وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني.

وعن النبي / ﷺ قال: «ينادي يوم القيامة ليقم الحامدون فيقومون زمرة فينصب لهم لواء [٤٧٥] فيدخلون الجنة، قيل: ومن الحامدون؟ قال: الذين يشكرون الله على كل حال»، وفي لفظ آخر: «على السراء والضراء»[١]. وقال: «الحمد رداء الرحمن»[٢].

ويقال أن الله تعالى أوحى إلى أيوب عليه السلام: أني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل، وأوحى الله إليه في صفة الصابرين دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم.

ويروى أنه لما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: فأي المال نتخذ؟ قال النبي ﷺ: «ليتخذن أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً»[٣].

فأمر به بدلاً من المال، وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان، وقال عمر بن عبد العزيز: تذاكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر، وكان مطرف بن عبد الله يقول: إلهي منك تكون النعمة، وعليك تمامها، وأنت تعين على شكرها وعليك ثوابها، وقال بعضهم: الشكر قيد النعمة، ومفتاح المزيد، وثمن الجنة. وقيل: موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف إن وجده لم يرم، وإن عدمه لم يقم. وقال بعضهم: اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت، وإن شكر زيادة من المنعم وأمان من الفقر.

ويروى أن داود عليه السلام بينما هو في محرابه إذ مرت به دودة فتفكر في خلقها؛ فقال: ما يعبأ الله عز وجل بخلق هذه! فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما أتاني الله عز وجل لأذكر الله وأشكر له منك.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٢٧/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون.... الحديث». وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٢٨/٤): لم أجد له أصلاً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «الكبر رداؤه.... الحديث».

(٣) هذا الحديث تقدم غير مرة وهو في النكاح.

ويروى عن الحسن بن علي أنه التزم الركن فقال: إلهي نعمتني فلم تجدني شاكراً، وابتليتني فلم تجدني صابراً؛ فلا أنت سلبت النعمة بتركي الشكر، ولا أنت أدمت الشدة بتركي الصبر، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم، ولا من الجافي إلا الجفا.

[٤٧٦] وعن علي قال: لا تكن ممن يعجز عن شكر ما أولي / ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي، ويأمر الناس بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض المسيئين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ولا يدعها في طول حياته.

وقال حاتم الأصم: يصبح الناس كل يوم على ثلاث فرق: فرقة طردوا من باب الخالق، وفرقة طردوا من خدمته ولم يطردوا عن بابه، وفرقة اكرموا بخدمته؛ فالواجب على الشاكرين أن يقولوا الحمد لله الذي لم يجعلنا من المطرودين من بابه وهم الكفار، ولا من المطرودين من خدمته وهم الفساق، وجعلنا من المكرمين بخدمته وهم أهل المساجد.

وقال سفيان: قال لي جعفر بن محمد إذا جاءك ما تحب فأكثر الحمد، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، قال سفيان: فانتفعت بهذه الموعظة.

فصل

فإن قيل فما حقيقة الحمد والشكر، وما معناهما، وحكمهما. فاعلم أنه ذكر الغزالي في كتابه فقال: إن العلماء فرقوا بينهما عند التحصيل فإن الحمد من أشكال التسبيح والتهليل فيكون من المساعي الظاهرة، والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعي الباطنة؛ ولإن الشكر يقابل الكفران، والحمد يقابل اللوم ـ وصدق ـ.

قال الله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[1] وقال القائل في الحمد وضده:

واعلـــم بـــأن الضيـــفَ بـــر   حـــل ســـوف يحمَـــدُ أو يَلـــوم

قال: ولأن الحمد أعم والشكر أخص فثبت أنهما معنيان متميزان، قال: ثم إن الحمد الثناء على أحد بالفعل الحسن، قال: وأما الشكر فتكلموا في معناه، فعن ابن عباس قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق في السر والعلانية. وقال بعضهم في تفسير

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

قول الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً﴾[1]، قال: الصلاة شكر، وكل عمل يعمل لله فهو شكر، والصوم شكر، وأفضل الشكر الحمد، وقال بعضهم: الشكر الاحتراس عن اختيار / معاصي الله تحترس على قلبك ولسانك وأركانك حتى لا تعصي الله بشيء من هذه الثلاثة [٤٧٧] بوجه من هذه الوجوه، قال: وذلك بتذكر إحسانه، وحسن حال الشاكر في شكره، وقبح حال الكافر في كفرانه، قال: إن أقل ما يستوجبه المنعم بنعمته ألا يتوصل بها إلى معصيته، وما أقبح حال من جعل نعمة المنعم سلاحاً على عصيانه، فعلى العبد إذاً من فرض الشكر في حقيقته أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه على حسب تذكر النعمة، فإذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الأصل فيه، قال: ثم يقابل ذلك بجد في الطاعة، وجهد في القيام بالخدمة، إذ هو من حقوق النعم، ولا بد من الاحتراس عن المعصية ـ وبالله التوفيق ـ.

فصـــل

اعلم أن الشكر لله على النعمة من الله تعالى لا يقدر عليه الآدمي إذا تحقق ذلك؛ لأن الشكر على النعم إنما يكون بتوفيق الله تعالى، فالتوفيق نعمة أخرى يستحق به الله تعالى عليه الشكر، فيتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية له، كما قال الحسن: يا ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجد ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها، وأنشدوا:

إذا كـان شكـري نعمـة الله نعمـة ... علـيّ لـه فـي مثلهـا يجـب الشكـر
فكيــف بلــوغ الشكــر إلا بمنــة ... وإن طـالـت الأيـام واتصـل العمـر
إذا مـس بـالسـراء عـم سـرورهـا ... وإن مـسّ بـالضـراء أعقبهـا الأجـر
فمــا منهمــا إلا لــه فيــه نعمــة ... تضيـق بهـا الأوهـام والبـر والبحـر

وفي مثل هذا قال داود: يا رب فكيف أشكرك وأنت الذي تنعم علي؟ ثم رزقتني على النعمة الشكر النعمة منك، والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ فأوحى الله إليه الآن عرفتني حق معرفتي وشكرتني.

وفي مثل هذا روي / عن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف استطاع آدم أن يؤدي [٤٧٨] شكر ما صنعت إليه؟ خلقته بيدك، ونفخت فيه من روحك، واسجدت له ملائكتك، واسكنته

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

جئتك، فقال: يا موسى علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت، وأنشد لأبي العتاهية:

أحمـد الله وهـو ألهمنـي الحمـد ... علـى الحمـد والمـزيـد لـديـه
كـم زمـان بكيـت فيـه فلمـا ... صـرت فـي غيـره بكيـت عليـه

ولمحمد بن حازم:

الله أحمـــد شـــاكـــراً ... فبـــلاؤه حســـن جميـــل
أصبحـــت مســـروراً معـــاً ... فـــأَبيـــن أنعمـــه أجـــول
خِلـــواً مـــن الأحـــزان خـــفّ ... الظهـــريـــة نعنـــي القليـــل
حـــداً فـــلا مَـــنّ لمخـــ ... لـــوقٍ علـــي ولا سبيـــل

وينشد للبيد:

إن تقـــوى ربّنـــا خيـــرُ نفـــل ... وبـــإذن الله ريثـــي وعجـــل
أحمـــد اللَّـــه فـــلا نـــدَّ لـــه ... بيـــديـــه الخيـــر مـــا شـــاء فعـــل
مَـــن هـــداه سبـــل الخيـــر اهتـــدى ... نـــاعـــم البـــال وَمَـــن شـــاء أضـــل

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: الحمد لله الذي من نطق سمع نطقه، ومن صمت علم ما نفسه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه مصيره، أنا الفقير الذي أُغنيت، والجائع الذي أُشبعت، والعاري الذي كسوت، والراجل الذي حملت، والخائف الذي أمنت، الحمد لله رب العالمين، اللَّهم إنك خلقتني كيف شئت، فارحمني كيف شئت، ووفقني لطاعتك حتى تكون ثقتي كلها بك، وخوفي كله منك، وسرعتي كلها إليك، اللَّهم حبب إليّ الخير كحبي له يوم أرى ثوابه، وأبغض إليّ الشر كبغضي له يوم أرى عقابه، فإن القوم الذين رحمتهم كانت رحمتك لهم قبل طاعتهم لك، وقد قلت رحمتي وسعت كل شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين.

[٤٧٩] ويروى أن دانيال عليه السلام لما جاءه أرميا عليه السلام / وهو في سجن بخت نصر، قال دانيال: من أرسلك إليّ، قال: الله تعالى، قال دانيال: أو قد ذكرني؟ قال: نعم، قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا عند سوء الظن بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاءنا حين ينقطع الرجاء.

قال: وقال آخرون وهو الأولى أن شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها؛ لأنها نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرض للعبد لمنافع عظيمة، ومثوبات جزيلة تتلاشى في جنبها مشقة هذه الشدائد وأي نعمة تكون أكبر من هذه، ومثال ذلك كمن يسقيك دواءً مراً كريهاً أو يفصدك أو يحجمك لعلة عظيمة فيؤدي ذلك إلى صحة النفس، وسلامة البدن، / وصفوة العيش، فيكون [٤٨٠] إيلامه إياك بمرارة الدواء وجراحة الفصد والحجامة نعمة بالغة بالحقيقة ومنة ظاهرة، وإن كان في صورته مكروهاً ينفر منه الطبع، وتستوحش منه النفس، وأنت تحمد الذي تولى منك ذلك بل تحسن إليه ما أمكنك، فكذلك حكم هذه الشدائد.

ألا ترى أن النبي ﷺ كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره على المسار حيث قال: «الحمد لله على ما أساء وستر»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1]، وقال: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2] وما سماه الله خيراً كثيراً فهو أكثر مما يبلغه وهمك والله أعلم.

فصل

اعلم أن الشكر يستفيد به الشاكر خصلتين:

أحدهما: دوام النعمة؛ لأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالشكر قيد النعمة به تدوم، وبتركه تزول، قال النبي عليه السلام: إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر، وقال عز وجل: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ. . . .﴾[3] الآية، وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾[4].

والخصلة الثانية: حصول الزيادة، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[5]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾[6]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا. . . .﴾[7] الآية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ١١٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٦) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

والسيد الحكيم إذا رأى العبد قد قام بحق نعمة أنعم عليه أخرى ويراه أهلاً لها، وإلا قطع ذلك عنه.

ثم النعم قسمان: دنيوية، ودينية.

فالدنيوية ضربان: نعمة نفع، ونعمة دفع.

فنعمة النفع هي ما أعطاك الله من المصالح والمنافع، وهي نوعان: الخلقة السوية في سلامتها، وعافيتها، والملاذ الشهية من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها.

ونعمة الدفع أن صرف عنك المفاسد والمضار، وهي ضربان: أحدهما في النفس بأن سلمك من زمانتها، وسائر آفاتها.

والثاني دفع ما يلحقك من ضرر أنواع العلائق، ويقصدك بسوء من إنس أو جن، وسباع، وهوام، ونحوها.

[٤٨١] وأما النعم الدينية فضربان: نعمة التوفيق للإسلام والسنة والطاعة / والثاني نعمة العصمة من الشرك والكفر والبدعة والضلال وسائر المعاصي. وتفصيل ذلك لا يحصيه إلا السيد العليم الذي أنعم عليك بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾[١].

وإن دوام هذه النعم كلها والزيادة عليها من كل باب منها ما لا يبلغه وهمك، فكلها متعلق بشيء واحد وهو الشكر والحمد لله، فالخصلة التي تكون لها هذه القيمة، ويكون لها كل هذه الفائدة لحقيق أن يتمسك بها فإنها جوهر ثمين، وكيمياء عزيز ـ والله ولي التوفيق بفضله ـ.

فصل

فإن قيل فما موضع الشكر؟ فاعلم أن موضعه هو النعم الدينية والدنيوية على أقدارها، وأما الشدائد والمصائب في الدنيا في نفس أو أهل أو مال، فتكلمت العلماء في ذلك هل يلزم العبد الشكر عليها؟ قال بعضهم: لا يلزم العبد عليها من حيث هي، وإنما يجب فيها الصبر، وأما الشكر فإنما هو على النعمة لا غير.

قالوا: ولا شدة إلا وفي جنبها نعم الله تعالى فيلزم الشكر على تلك النعم المقرونة بها دون نفس الشدة، وتلك النعم هو ما قاله ابن عمر: ما ابتليت ببلية إلا كان لله تعالى عليّ فيها

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

أربع نعم إذ لم تكن في ديني، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ لم أحرم الرضى، وإذ رجوت الثواب عليها.

وقيل أيضاً: من تلك النعم أن تلك الشدة زائلة غير دائمة، وأنها من الله تعالى وإن كانت بسبب مخلوق، فإنها لك عليه لا له عليك، فإذاً يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة.

فصل

فإن قلت فالشاكر أفضل أم الصابر؟ فاعلم أنه قيل أن الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1]، فجعلهم أخص الخواص وقال في نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾[2]، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾[3]؛ ولأنه في منزلة الإنعام والعافية، ولذلك قيل: لأن أنعم فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر.

وقيل: بل الصابر أفضل؛ لأنه أعظم مشقة فيكون أعظم ثواباً، وأرفع منزلة، وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[4]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ﴾[6].

قال الغزالي: الشاكر بالحقيقة لا يكون إلا صابراً، والصابر بالحقيقة لا يكون إلا شاكراً؛ لأن الشاكر في دار المحنة لا يخلو من محنة يصبر عليها لا محالة ولا يجزع، والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا في الشدائد أنها نعم على الحقيقة على ما تقدم، فإنه شكر على الحقيقة إذا صبر لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيماً لله تعالى، وهذا هو الشكر بعينه، إذ هو تعظيم يمنع من العصيان؛ ولأن الشاكر يمنع نفسه عن الكفران فيصبر على المعصية، وحمل على نفسه الشكر والطاعة، فصار بصبره على الطاعة صابراً على الحقيقة.

والصابر عظم الله حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه، وحمله على الصبر فقد / شكر الله تعالى فصار شاكراً بالحقيقة؛ ولأن حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس لها [٤٨٢] شدة يصبر عليها الشاكرون، وتوفيق الصبر والعصمة نعمة يشكر عليها الصابرون، فأحدها لا

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٢١.
(٤) سورة صٓ، الآية: ٤٤.
(٥) سورة الزمر، الآية: ١٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

ينفك عن الآخر؛ ولأن البصيرة الباعثة عليهما واحدة وهي بصيرة الاستقامة في قول بعض علمائنا، ـ وبالله التوفيق ـ.

فصـــل

فعليك يا أخي ببذل المجهود في قطع هذه القنطرة اليسيرة المؤنة، الكبيرة القدر، العظيمة النافع، وتأمل أصلين:

أحدهما: أن النعمة إنما تعطى لمن يعرف قدرها، وذلك هو الشاكر لها، دليل ذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار، والرد عليهم حين قالوا للمؤمنين على طريق الإنكار والاستهزاء: ما بال هؤلاء الفقراء من العبيد والأحرار أعطوا نعمة الإسلام بزعمهم دوننا، وذلك قوله: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾، فأجابهم الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

ظنوا أنما يعطى النعمة العظيمة أكثرهم مالاً، وأعظمهم حسباً ونسباً، فأجابهم الله تعالى بما تقدم، وتقدير الكلام أن السيد الكريم إنما يعطي نعمته لمن عرف قدرها، وهو الذي أقبل بنفسه وقلبه على مراعاتها، ولا يعبأ بالمشقة في تحصيلها.

وكان في علمنا السابق أن هؤلاء الضعفاء هم القائمون بشكرها، فكانوا أولى بهذه النعمة منكم، فلا اعتبار بغناكم ولا جاهكم، فأنتم تظنون النعمة إنما هي الدنيا وحطامها، وعلو الأحساب والأنساب لا الدين والحق معرفته، وإنما تعظمون ما ذكرنا من الأموال والأنساب.

أولا ترون أنكم لا تكادون تقبلون هذا الدين إلا بمنة على من أتاكم به، وذلك لاستحقاركم إياه، وأن هؤلاء الضعفاء قبوله، وبذلوا مهجهم فيه، ولا يبالون بما فاتهم من الدنيا، ولا / بمن عاداهم لمعرفتهم بقدر هذه النعمة نعمة الدين، ورسوخ تعظيمها في قلوبهم [٤٨٣] فاستغرقوا العمر في أداء شكرها؛ فلذلك استحقوا نعمة الدين في سابق علمنا، وخصصناهم بها دونكم فهذه هذه.

قال الغزالي: وكذلك كل من خص بعلم أو عبادة، فإنك تجده أعرف الناس بقدر ذلك، وأشدهم تعظيماً له، وأجدهم في تحصيله، وأقومهم بشكره، والمحروم ذلك إنما حرمه لقلة تعظيمه لحقه بعد القضاء السابق.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

قال: فلو كان تعظيم العلم والعبادة في قلوب السوقة والعامة مثل ما في قلوب العلماء والمتعبدين لما آثروا سوقهم عليهما.

ألا ترى أن فقيهاً إذا ظفر بتعليم مسألة كانت عليه ملتبسة، كيف يرتاح قلبه ويعظم سروره بها حتى ربما لو وجد ألف ألف دينار لما كان يعدل ذلك؟ ثم ربما تبين مثل هذه المسألة لسوقي أو متعلم كسلان يرى أنه مثل ذلك الفقيه في الرغبة في العلم، فلا يستمع إليها حق الاستماع، وربما طال عليه الكلام فيها فيملها، وإن تبين له ذلك فلا يعدله بكبير أمر.

قال: وكذلك المنيب إلى الله تعالى، كم يتضرع إليه؟ عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة، فإذا ظفر بها عد ذلك أكبر منّة ونعمة، فكم يسر بذلك ويفرح ويشكر الله تعالى عليه؟

ثم ترى الذي يزعم أنه راغب في العبادة لا تسمح نفسه بترك نوم ليلة أو ترك كلمة لا تعنيه في تحصيل مثل تلك العبادة، وإن اتفق له في النادر حصول عبادة في صفوة، فلا يعدها كبيرة في نفسه، ولا يعظم شكره لله عليها، إنما يعظم سروره، ويكثر في الظاهر حمده إذا حصل درهماً أو كسرة أو طابت له مرقة أو صحة بدن، فيقول: الحمد لله / فأنى يساوي هؤلاء [٤٨٤] العاجزون بأولئك المجدين الفائزين.

وكذلك قسم الأمر أحكم الحاكمين، وهو أعلم بالعالمين فهذا تفصيل قول الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّاكِرِينَ﴾. فتهمه وارع حقه، وابذل المجهود في حق تعظيم هذه النعمة؛ ليمن الله عليك في دوامها، كما من عليك بإعطائها أولاً ـ وبالله التوفيق ـ.

الأصل الثاني: أن النعمة إنما يسلبها الكفور الذي لا يعرف قدرها ولا يؤدي شكرها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا. . . .﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾[١] إلى آخر الآية.

تقدير الكلام أنما أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظيمة في باب الدين، بما مكناه من الرتبة الكبيرة، ليكون رفيع القدر عندنا، ولكنه جهل قدر نعمتنا، فمال إلى الدنيا الحقيرة، فآثر شهوة نفسه الردية، ولم يعلم أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة في أدنى نعمة من نعم الدين، فكان في ذلك بمنزلة الكلب الذي لا يعرف الشرف والإكرام من الإهانة والاحتقار، إنما الكرامة عنده في كسرة يأكلها، أو عظم يرمى له يتعرقه سواء عنده، تقعده معك على السرير أو

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

تقيمه على التراب والقذر بين يديك، فهذا العبد السوء إذا جهل قدر كرامتنا، فآثر عليها لذة خسيسة، ودنيا حقيرة نظرنا إليه بالعدل والسياسة، فسلبناه كرامتنا، ونزعنا من قلبه معرفتنا، فانسلخ غاوياً من جميع فضلنا، فصار كلباً طريداً ـ فنعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه إنه بنا رؤوف رحيم ـ.

ثم اقنع بمثال ملك يكرم عبداً له فيخلع عليه خاصة ثيابه، وجعله فوق جميع حجابه، فأمره بملازمة بابه، ثم أمر أن تبنى له القصور، وتوضع له الأسرة، وتنصب له الموائد، وتزين له الجواري، وتقام له الغلمان في بلدة أخرى حتى إذا رجع من الخدمة أُجلس هنالك ملكاً مخدوماً مكرماً، وما بين خدمته وذلك الملك إلا ساعة من نهار أو أقل فإن انصرف هذا العبد [٤٨٥] / عن باب الملك يتبع سائساً للدواب ليأكل رغيفاً، أو كلباً يمضغ عظماً، واشتغل به عن خدمة الملك بنظره إليه واقباً له عليه، ولا يلتفت إلى ما أعد له من الخلع والكرامة، فيسعى إلى ذلك السائس ليأكل رغيفاً معه، أو يزاحم الكلب على عظمه، أليس الملك إذا نظر إليه ـ على مثل هذه الحالة ـ يقول: إن هذا السفيه لم يعرف حق كرامتنا وقربنا مع ما أعددنا له من الذخائر؟ ما هذا إلا ساقط عظيم الجهل، قليل التمييز أسلبوه الخلع، واطردوه عن بابنا، فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا، والعابد إذا اتبع الهوى بعدما أكرمه الله بعبادته ومعرفة آياته وشريعته، ثم لم يعرف قدر ذلك، وآثر عليه أحقر الأشياء عند الله، وكذلك من خصه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته، وزينه بأنوار خدمته، ويديم النظر إليه بالرحمة في أكثر أوقاته، ويباهي به ملائكته، وأنزله منزلة الأعزة، حتى صار بحيث لو دعاه لأجابه، ولو شفع في العالم لشفعه فيهم، وأرضاه، ولو خطر بباله شيء لأعطاه قبل أن يسأله، فمن كانت هذه حاله، ثم لم يعرف قدر هذه النعم فعدل عنها إلى شهوة نفس ردية أو لعقه من دنياه دنية مع ما أعد الله له في الآخرة من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، فما أسوأه من عبد؟، وما أفحش صنعه؟ ـ فنسأل الله تعالى أن يصحلنا بسعة رحمته إنه أرحم الراحمين ـ.

فصـــل

فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف قدر النعمة، فإذا أنعم الله عليك بنعمة الدين، فالتفتَّ إلى الدنيا فذلك منك تهاون بما أولاك الله من نعم الدين، أما تسمع قوله لسيد المرسلين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ. . . .﴾[1] الآية.

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٨٧، ٨٨.

تقديره أن كل من أوتي القرآن العظيم حق له أن لا ينظر إلى الدنيا فضلاً عن أن يرغب فيها، فيلزم الشكر على ما أعطي؛ فإنه الكرامة التي حرص عليها النبي عليه السلام أن يمن الله بها على عمه فلم يفعل، وحرص عليها الخليل عليه السلام أن يمن بها على أبيه فلم يفعل، وأما / حطام الدنيا فإنه يصبه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق وفاسق، ويصرفه عن كل [٤٨٦] نبي وصفي وصديق وعالم وعابد، الذين هم أعز خلق الله عليه، حتى أنهم لا يكادون يصيبون كسرة ولا خرقة يمن عليهم بأن لا يلحظهم بقدرها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً. . . .﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

فانظر الفرق بين الأمرين وقل: الحمد لله الذي منّ عليّ بمنن أوليائه وأصفيائه، وصرف عني فتنة أعدائه، ولتخص بالحمد والشكر الأوفر النعمة العظمى التي هي نعمة الإسلام خصوصاً، وسائر النعم عموماً.

فإن كنت لا تعرف قدرها، فاعلم يقيناً أنك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر الإسلام إلى الأبد لما كنت تقوم بذلك، أما تسمع قوله لنبيه عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾(٢)، وقال لقوم: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾(٣). وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، فقال: «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وإياك أن تفغل الشكر، وتغتر بما أنت عليه من الإسلام والمعرفة والتوفيق، فإن ذلك موضع الأمن منك والغفلة، فإن الأمور بالعواقب»، ويقال: ما من أحد أمن على دينه إلا سلب، ويقال: لا تغتر بصفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات. وينشد:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

والله نسأله التوفيق والعون والهداية والطول إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣، ٣٤، ٣٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

القنطرة السابعة عشر

[٤٨٧] / قنطرة الاجتهاد مخافة سوء الخاتمة وذكر الموت والقبر وما بعد ذلك من أمور القيامة

اعلم أن هذه القنطرة تحتوي على جملتين كل واحدة منها تشتمل على فصول.

الجملة الأولى: في الاجتهاد والمراقبة.

والجملة الثانية: في ذكر الموت وما بعده من أهوال يوم القيامة.

الجملة الأولى: في الاجتهاد والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢]، وقال: ﴿ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ....﴾[٣] الآية، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً﴾[٤]، وقال: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[٥]، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[٧]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ....﴾ إلى قوله: ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[٨]، وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[٩].

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.
(٦) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣.
(٧) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٨) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٩) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

فعرف أولوا الألباب والأبصار أن الله لهم بالمرصاد، وأنهم سيحاسبون على القليل والكثير والنقير والفتيل والقطمير من الحركات والسكون واللحظات، وتحققوا أنهم لا ينجيهم إلا لزوم الاجتهاد، والمجاهدات، وصدق المراقبات، ومطالبة النفس في الأنفاس، والخطرات، ومحاسبتها عند هواجس الفكرات عما صدر منها من السكنات والحركات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في يوم القيامة حسابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وقادته إلى الخزي سيئاته، فلما انكشفت لهم هذه الحالة علموا أنهم لا ينجيهم إلا طاعة الله لا محالة.

وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا. . . .﴾[1] الآية، فربطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة لها ثانياً، ثم بالمحاسبة لها ثالثاً، ثم بالمعاقبة رابعاً ثم بالمجاهدة خامساً، ثم بالمعاتبة / سادساً، فكانت لهم في [٤٨٨] المرابطة ست مقامات فلنشرحها في ستة فصول.

الفصل الأول في المشارطة

وهذا تشبيه بمشارطة الشريك لصاحبه في التجارة، يشارطه أولاً، ثم يراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، ويعاتبه رابعاً، ويقاسمه الربح خامساً.

فتجارة الآخرة يشترك فيها العقل والنفس، فمطلب العقل تزكية النفس إذ به فلاحها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. . . .﴾[2] الآية، فيحتاج العقل أن يشارط النفس أولاً، ويرتب عليها وظائف العبادات، ويشترط عليها شروطاً، ويرشدها إلى طريق فلاحها، ثم لا يغفل عن مراقبتها؛ لأنها أمارة بالسوء في جميع أخلاقها، ثم بعد فراغها يحاسبها، ويطالبها بالوفاء لما اشترط عليها.

وهذه التجارة ربحها النجاة من العذاب الأليم، ودخول الجنة في النعيم المقيم، فحتم على كل ذي حزم ولب آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن النفس في جميع حركاتها وسكناتها، ويضيق عليها في لحظاتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزاً في الجنة لا ثمن له فيها، فإذا صلى الصبح فينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس، بأن يقول: يا نفسي مالي بضاعة إلا العمر، فمهما ضيعته

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٩.

ضاع رأس المال، وهذا اليوم جديد قد أمهلني الله فيه، ولو توفاني لتمنيت أن يرجعني إلى الدنيا؛ لعلي أعمل صالحاً.

وهب أنك توفيت، ثم ارجعت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم والليلة، فإن كل ساعة منها جوهرة لا قيمة لها، فقد ورد أنه ينشر للعبد في كل يوم وليلة أربعة وعشرون خزانة مصفوفة، يفتح له منها خزانة مملوءة نوراً من حسناته التي عملها فيها، فيناله من الفرح والسرور ما لو فرغ على أهل النار لأدهشهم عن ألم النار، ثم يفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة فيفوح نتنها، ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله فيها فيناله من الفزع ما لو قسم / على أهل الجنة [٤٨٩] لنغص عليهم نعيمها، ثم تفتح له خزانة فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه، وهي الساعة التي نام أو أغفل أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها تحسر العاجز على الربح الكثير، والملك الكبير حتى فاته، وناهيك به خسارة وغبناً، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدي في تعمير خزائن أوقاتك بكنوزك التي هي أسباب ملكك.

وهب أن الله قد عفا عنك، أليس قد فاتك ثواب المحسنين؟ فهذه وظيفة نفسه في أوقاتها، ثم يستأنف أخرى في أعضائه السبعة العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل؛ لأنها رعية خادمة للنفس، وبها تتم أعمال هذه التجارة.

أما العين: فتحفظها عن النظر إلى عورة بالغ، أو محاسن امرأة محرمّة، أو نظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل يحفظها عن كل فضول مستغنى عنها، إذ يسأل العبد عن فضول النظر كما يسئل عن فضول الكلام، ثم يستعملها في النظر إلى عجائب الملكوت، وفي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله عليه السلام، وكتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة، وهكذا في كل عضو ولا سيما اللسان والفرج والبطن.

وأما اللسان: فخفيف المؤنة في النطق عظيم الجناية، وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ فليحفظه عن محرمات الكلام من الكذب والغيبة والنميمة، وتزكية النفس ومذمة الخلق وغيرها من المحرمات فيه، والفضول التي لا تعنيه، ويشغله بالذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد العباد إلى الصلاح، والأمر والنهي، والإصلاح بين الناس، وغير ذلك من أنواع الخيرات، ويشترط على نفسه ألا يحرك اللسان طول النهار إلا بالخيرات وما يعنيه من المباحات، إذ المؤمن نطقه ذكر، وصحته فكر، ونظره عبرة.

وأما الفرج: فيستعين على حفظه بغض البصر، وإسبال الثوب عليه وكسر شهوته بالصوم والتباعد عن مظنات التهم.

وأما/ البطن: فيشترط عليه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، وترك الشبهات [٤٩٠] والحرام، فإن خالف شيئاً من ذلك عاقبه بالمنع عن شهوات البطن، وهكذا سائر الأعضاء.

واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء ثم يستأنف عليها وصيتها وشروطها كل يوم وليلة.

فإن النفس بطبعها متمردة، وعن الطاعة نافرة، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، وذكرها فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وهذه مشارطة النفس في أول أمرها.

الفصل الثاني في المراقبة(١)

فإن الإنسان إذا أوصى نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، فلا تبغي له إلا مراقبتها عند الخوض في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكائنة في جميع الأحوال، فإنها إن تركت مهملة غطت متمردة، فلنذكر أولاً لمعاً من فضيلة المراقبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾(٢)، وسئل النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٣).

وقال بعض العلماء: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة ثم المراقبة، وسياسة عمله بالعلم، وقال بعضهم: إذا جلست إلى الناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب على باطنك.

وحكي أن تلميذاً لبعض المشايخ فكان يكرمه، ويقدمه على شيوخ أصحابه، فقيل له في ذلك فدعا بمدة طيور، فناول كل واحد منهما طيراً، فقال: ليذبح كل واحد منكم طيره في موضع لا يراه أحد، فدفع إلى التلميذ الشاب كذلك، فرجع كل واحد منهم بطيره مذبوحاً إلا التلميذ، رجع والطير في يده، فقال: مالك لم تذبح وقد ذبح أصحابك، فقال: لم أجد

---

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي ـ إحياء علوم الدين ـ المجلد الرابع (٦٠٧) طبعة دار الحديث.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٣٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٦٠٧/٤) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر.

موضعاً لا يراني فيه أحد، إذ الله في كل مكان، فاستحسنوا مراقبته وقالوا: حق لك أن تكرم [٤٩١] وينشد / :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفى عليه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب   وأن غداً للناظرين قريب

وقال سفيان: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة.

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب، وانصراف الهم إليه، وذلك إذا غلب على القلب علم يقين لا شك فيه، كالعلم بالموت وأمور الآخرة، ومعرفة عظم الرب تعالى وجلاله، والمراقبون بهذه المعرفة هم الصديقون من المقربين وأصحاب اليمين، فمراقبة الصديقين بالتعظيم والإجلال لله تعالى، وذلك إذا استولى على القلب حب الله تعالى وعظمته، فابصر حينئذٍ الدنيا خيالاً، والآخرة مثالاً، فصار همه واحداً، فكفاه الله سائر الهموم، وصاحب هذه الحالة ربما يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من حضر معه، ولا يسمع ما يقال له، وهذا لا يستبعد؛ لأنه قد يعرض بخدام الملوك المعظمة في الدنيا، فلا يعرف الخادم ما يجري في مجلس الملك لشدة استغراق قلبه في خوف الملك هبة وإجلالاً، بل قد يعرض للرجل مهم حقير فيتفكر فيه، وهو يمشي فربما يخطىء الموضع الذي قصده.

وقد روي أن يحيى بن زكريا عليهما السلام مر بامرأة فدفعها، فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا، فقال: ما ظننتها إلا جداراً، فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم، فلم يبق فيها متسع لغير ذلك.

وأما مراقبة أهل الورع من أصحاب اليمين: فهي مراقبة قوم غلب عليهم الحياء من الله تعالى، فلا يتقدمون ولا يتأخرون إلا بعد التثبت ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به يوم القيامة، فإنهم يرون أن الله تعالى مطلع عليهم، ويعرف الفرق بين مراقبة أهل التعظيم والإجلال لله تعالى / وبين مراقبة أهل الحياء منه بالمشاهدة؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك [٤٩٢] صبي، فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك، وتراعي أحوالك، لا عن إجلال للصبي وتعظيمه بل حياء منه، ويدخل عليك بعض الملوك والأكابر فتترك ما أنت فيه حياء منه وتعظيماً له.

وهكذا تختلف مراتب العبادة، فمن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراعي جميع حركاته

ولحظاته، بل جميع خطراته، فينظر قبل العمل إلى ما تحرك به عقله وخاطره، أهو لله خالصة أو للنفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف ويتثبت حتى يتبين له الحق، فإن كان لله سبحانه أمضاه وإن كان لغير الله فيستحي ويكف، وهذا التوقف في بدء الأمر واجب محتوم، فإن في الخير تنشر للإنسان في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين الأول: لم، والثاني: كيف، والثالث: لمن، ومعناه لم فعلت هذا كان لك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه لشهوتك وهواك، فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يفعل ذلك لمولاه.

سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإن لله عليك في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلاَّ بعلم فيقال له: كيف فعلت بعلم محقق أم بعلل وظن؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال: لمن فعلت؟ ألوجه الله تعالى خالصاً وفاء بقولك: لا إله إلاَّ الله فيكون أجرك على الله أم لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك وقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك، وبطل عملك، وخاب سعيك، وإن عملته لغيري فقد استوجبت عقابي ومقتي إذ كنت عبد إلى تأكل رزقي، وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1]. ويحك أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[2]. فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات / والتوبيخات طالب نفسه قبل أن يطالب، وأعد للسؤال [٤٩٣] جواباً، وللجواب صواباً، فلا يبدىء ولا يعيد ولا يحرك جفناً ولا أنملة إلاَّ بعد التثبيت والتأمل وقد قال النبي عليه السلام لمعاذ: «إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتّ الطين وعن لمسه ثوب أخيه»[3].

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يخلص من هذا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال، وأعوان النفس ومكائد الشيطان وإلاَّ فلا يسلم.

بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/١٠٣) وقال رواه أبو نعيم في الحلية في حديث طويل أوّله «يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أستر يعلم أن عليه رقباء على سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه....» وفيه «يا معاذ إن المؤمن ليسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه يا معاذ إني أحب لك ما أحب لنفسي الحديث».

ولا تحسب أن الجاهل فيما يقدر على تعلمه يعذر بجهله، هيهات طلب العلم فريضة على كل محتمل ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم؛ لأنه يعرف ما ذكرناه من آفات الأعمال فيتقيها، والجاهل لا يعرفها فكيف يحترز منها؟ بل لا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل، والغفلة فهو رأس كل شقاوة.

فالواجب على العبد أن يستضيء بنور الدين في كل خطرة، ونازلة نزلت به، فإن لم يعرفها فليسئل علماء الدين المقبلين على الآخرة، وليفر من علماء السوء المقبلين على الدنيا فراره من الأسد بل أشد، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا محجوبة عن الله تعالى؛ فإن مستقر أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على الدنيا، والتكالب فيها، وقد قال عليه السلام: «من قارف ذنباً فارق عقلاً لا يعود إليه أبداً وحب الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

وقد قال عليه السلام: «إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات»[2].

والعقل الكامل عند هجوم الشهوات، أو معرفة آفات الأعمال، قد اندرست من قديم الزمان، فكيف هذه الأعصار، فإن الناس قد هجروا هذا العلم قديماً واشتغلوا بفقه طلب المعاش وعلم فصول الخصومات، والمسائل الطبوليات، وأمّا / اليوم فقد هجروا جميعاً [٤٩٤] فأصبحوا في ظلمة لا يعمهون في أعمال الدنيا والدين والحمد لله رب العالمين.

النظر الثاني: للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك أن تفقد حسن النية له، وكيفية أدائه على أكمل ما أمكنه، وهذا لازم له في جميع أحواله؛ فإنه لا يخلو فيها من حركة وسكون، فإذا راقب الله في جميع ذلك قدر على عبادته فيه بالنية وحسن الفعل، وذلك أنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة فيراقبها بالإخلاص ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات، وإما في معصية فيراقبها بالتوبة والندم والاشتغال بالفكر والحياء منها، وإما في مباح فيراقبه بمراعاة الأدب وشكر المنعم على نعمته فيها، وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب على العبد فيها كيف ما انقضت، وساعة مستقبلة لا يدري أيدركها أم لا، والساعة التي هو فيها فيجاهد نفسه، وليراقب ربه قبل انقضائها فإن عاش إلى الساعة المستقبلة لم يتحسر على التي جاهد فيها، وليستوف حق الثانية كما استوفى حق الأولى، ولا يطول عمره

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/ ٦١٤) طبعة دار الحديث: لم أجده.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/ ٦١٤) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمرالعدني ضعفه الجمهور.

خمسين سنة فتطول عليه المجاهدة والمراقبة بل يكون ابن وقته، ولعله في آخر أنفاسه فيدركه الموت على حالة مرضية، ولتكن جميع أحواله مقصورة على ما روي من حكم داود النبي عليه السلام.

وعلى العاقل أن تكون أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب، فإن في هذه الساعة عوناً له على الساعات.

ولا ينبغي أن يغفل فيها أيضاً عن أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير أعمال الجوارح فإن الناس فيه على أربعة أقسام: قسم ينظرون فيه بعين البصيرة فيتفكرون في عجائب صنعه وهم ذووا الألباب، وقسم ينظرون فيه بعين المقت / والكراهة فيتناولون مضطرين يودون أن لو كانوا فيه بالشهوة [٤٩٥] مقهورين وهم الزاهدون، وقسم يرونه صنعة للصانع، ويترقون منه إلى صفات الخالق فينفتح لهم بسببه زيادة في محبته وهم العلماء بالله المحبون له، وقسم رابع ينظرون إليه بعين الحرص والرغبة فيتأسفون على ما فاتهم منه، ويفرحون بما حضر من جملته، ويذمون منه مالاً يوافق طبائعهم ويعيبون الطبخ وطابخه، ولا يعلمون أن الفاعل للطبخ والطبَّاخ هو الله تعالى المسخر للجميع وبقدرته وعلمته وأن من عاب الصنعة فقد عاب الصانع، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام، وشرح ذلك يطول.

الفصل الثالث في محاسبة النفس بعد العمل

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1].

وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل وكان عمر يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟

وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها الله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، ثم فسّر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجأه الشيء فيعجبه فيقول: إنك لتعجبني، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات حيل بينك وبيني وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع على نفسه يقول: ما أردت بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

وحقيقة المحاسبة: إنما هو إذا شارط نفسه أول النهار على سبيل التوصية فليطالبها آخر النهار على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل تجار الدنيا في آخر كل سنة أو شهر فكيف لا [٤٩٦] يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به / السعادة أو الشقاء أبد الآباد ما هذه المساهلة إلاَّ عن الغفلة والخذلان فنعوذ بالله منها.

ومعنى المحاسبة للشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فما كان من فضل استوفاه وما كان من نقصان طالبه بضمانه في المستقبل فكذا العبد رأس ماله من دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي ومؤنته هذه التجارة ومعاملة النفس الأمارة بالسوء، فليحاسبها على الفرائض، فإن أدتها على وجهها شكر الله على ذلك ورغبها في مثله، وإن أهملت شيئاً طالبها بالقضاء، وإن أدتها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكبت معصية عاقبها وعاتبها ويستوفي منها ما يكفرها به وينبغي أن يفتش عن أعماله طول نهاره، بل عن خواطره وأفكاره وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لِمَ سكت أو لِمَ تكلم فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، فليكتبه على صحيفة قلبه، وليطالبها بالغرامة والضمان، ولا يمكن شيء من ذلك إلاَّ بعد تحقيق الحساب.

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً في جميع أعضائه الظاهرة والباطنة كما نقل عن بعض السلف أنه حاسب نفسه يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمس مائة يوم فصرخ فقال: يا ويلتي: بأحد وعشرين ألف ذنب وخمس مائة ذنب، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خرَّ مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى.

فهكذا ينبغي لك أن تحاسب على معاصي القلب والجوارح كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره، لامتلأت في مدة قريبة، ولكنه يتساهل في المعاصي، والملكان يحفظان عليه أحصاه الله ونسوه، وينشد:

[٤٩٧] / لم ينسه الملكان حين نسيته … بل أثبتاه وأنت لاه تلعب

الفصل الرابع في معاقبة النفس على تقصيرها

وذلك مهما حاسب نفسه فلم يسلم عن مفارقة معصية، أو ارتكاب تقصير في حق الله تعالى فينبغي ألاَّ يعملها، لأنه إن فعل عسر عليه بعد ذلك فطامها عن المعاصي فتهلك مع الهالكين، ولكن ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل مثلاً لقمة بشهوة نفس، فليعاقب البطن بالجوع وإذا

نظر إلى محرّم، فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك كل عضو من أعضائه، فينبغي أن يعاقبه بمنع شهوته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة.

وقد روي أن رجلاً من العباد طلب امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذها فوضع يده في النار حتى تيبست، وحكي أنه كان في بني إسرائيل رجل متعبد في صومعته وأنه أشرف ذات يوم فافتتن بامرأة فأخرج رجله لينزل إليها فتداركه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي لا يكون ذلك والله أبداً، فتركها متعلقة من الصومعة حتى تقطعت بالرياح والشمس والأمطار فشكر الله ذلك له، وأنزل الله ذكره في بعض الكتب، ذكر هذه الحكاية الغزالي في كتابه ولعل هذا جائز في شريعة بني إسرائيل، ألا ترى أنه قيل: إذا عمل أحدهم ذنباً أصبح مكتوباً على بابه المخرج منه كذا وكذا أما قطع بعض أطرافه وغير ذلك والله أعلم، وقد قال لأصحاب العجل: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ. . . .﴾ الآية.

وقد روي أن أبا مرداس مهاص رحمه الله تعالى: أنه نظر إلى امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة، وروي أن بعض أصحاب النبي عليه السلام تصدق بحائط له شغل قلبه في الصلاة والله تعالى أعلم.

/ الفصل الخامس في المجاهدة [٤٩٨]

وهذا إذا حاسبها فرآها قارفت معصية فعاقبها بما ذكرناه، ثم إذا رآها تتكاسل عن الفضائل فينبغي أن يثقل عليها أوراد العبادة تأديباً وتداركاً لتفريطها هكذا يعمل عمال الله تعالى.

وقد روي أن عمر رضي الله عنه فاتته صلاة العصر في جماعة، فتصدق بأرض له قيمتها مائة ألف درهم، وكان ابن عمر فيما بلغنا إذا فاتته صلاة في جماعة أحيى تلك الليلة، ويقال: أنه أخّر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقبتين، وفاتت بعضهم ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله، كل ذلك مؤاخذة للنفس بما فيه من نجاتها.

فإن قيل: إن نفسي لا تطاوعني على الاجتهاد فما علاجها؟ قيل: أسمعها ما ورد من أخبار المجتهدين أو اطلب صحبة عبد مجتهد في العبادة فتقتدي به وكان بعضهم يقول: إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى اجتهاد محمد بن واسع فعملت عليه أسبوعاً ولكن هذا من الناس اليوم معدوم، فينبغي أن يعدل إلى سماع أخبار المجتهدين من الأولين وما كانوا فيه من

الجهد الشديد وقد قال النبي ﷺ: «رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى»[(١)].

قال الحسن: أجهدتهم العبادة وأدركت ناساً أو قال: أقواماً وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدبر، وإنها كانت في أعينهم أهون من هذا التراب وإن كان أحدهم يعيش عمره ما فرش لأحدهم ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم / تجري دموعهم على خدودهم، ينادون [٤٩٩] ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، فسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلاَّ بالمغفرة.

ويحكى أن قوماً قدموا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه فإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال له عمر: يا فتى ما الذي بلغ فيك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة، فصغرت عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي حجرها وذهبها فكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.

ويقال: كان داود الطائي، يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز، فقيل له في ذلك، فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية، وسأل الفاسق بن زياد خادماً لعروة بن جدير رحمه الله بعدما قتل عروة عن حاله فقال أأجمل أم أفسر؟ قال: بل أجمل، قال: ما صنعت له طعاماً قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط. فقال الفاسق: لقد قلناه صالحاً.

وكان أبو بلال رحمه الله يقول: فيما بلغنا حين أراد الخروج إلى الشراء لو أن لي نفسين نفساً تقاتل في سبيل الله، ونفساً تقضي حوائج المسلمين، وكان فيما بلغنا يقول: إني لا أحفظ ما تكلمت به حتى أمسي مخافة أن أخطىء.

وكان عبد الله بن وهب رحمه الله يجتهد حتى دبرت جبهته وركبتاه وكان يسمى ذا التفنات تشبيهاً بتفنات ركبتي البعير، قال فيه أبو بلال وغيره:

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٦٢٦/٤) طبعة دار الحديث: لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوف على عليّ في كلام له قال فيه: ينظر الناظر فيقول: مرضي وما بالقوم من مرض.

/ أبعد بن وهب ذي النزاهة والتقى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا [٥٠٠]
أحب حياة أو أرجي سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى ألاقي أولئكا

وكان أبو بلال رحمه الله يقول: إن لكل منية ظنوناً إلاَّ القتيل في سبيل الله، وكان وقف على البثجا رحمة الله عليها وهي امرأة من المسلمين قتلها اللعين ابن زياد فقال أبو بلال: لو أني صرعت مصرع البثجا لرجوت أن أمر على الصراط مستوياً، وخرج رحمه الله حتى قتل شارياً، ويقال: أنه طعن فمشى في الرمح حتى قتل قاتله والله أعلم. وقال أبو بلال في قصيدة له:

نرجو الجنان إذا صارت جماجمنا تحت العجاج كمثل الحنظل البال

ومثل هذه الأخبار يطول به الكتاب، وذكر الغزالي في كتابه: أن في الصحابة من ورده في اليوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، قال: وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفاً، قال: وكان فيهم من ورده ثلاث مائة ركعة إلى ست مائة ركعة إلى ألف ركعة، قال: وأقل ما نقل من أورادهم في الصلاة مائة ركعة في اليوم والليلة.

قال: وكان بعضهم أكثر أوراده في القرآن فكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة، وروي عن بعضهم مرتين، قال: وكان بعضهم يقضي اليوم والليلة في تفكر آية واحدة يرددها. قال: وكان أويس القرني رحمه الله يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة فإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في السجدة.

قال: وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبا ثم قال: عجبت للخليقة كيف استأنست قلوبها بذكر سواك.

/ قال: وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة، فكان يقول: اللَّهم إن كنت آذنت لأحد [٥٠١] أن يصلي لك في قبره فاذن لي أن أصلي في قبري.

وعن عبد الواحد بن زيد قال: مررت بصومعة راهب في الصين فناديته يا راهب فلم يجبني حتى ناديته ثلاثاً فأشرف عليّ فقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في أسمائه وعظمّه في كبريائه، وصبر على بلائه، ورضي بقضائه، وحمده على آلائه، وشكره على نعمائه، وتواضع لعظمته، وذلَّ لعزته، واستسلم لقدرته، وخضع لمهابته وفكر في حسابه

وعقابه، فنهاره صائم، وليله قائم، قد أسهره ذكر النار، ومسائلة الجبار فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة من الناس لئلا اغفرهم. فقلت: يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلاَّ حب الدنيا، وزينتها؛ لأنها محل المعاصي والذنوب فالعاقل من رمى بها عن نفسه، وتاب إلى الله من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه.

وحكايات المجتهدين من الرجال والنساء غير محصورة، تركتها مخافة التطويل، فمن أرادها فالكتب مملوءة بها، وفيما ذكرناه كفاية لمن أراد أن يعرف أهل زمانه من أهل الاجتهاد الماضين، وبعد أهل زمانه عن صفات أهل الدين، فإن حدثتك نفسك بالنظر إليهم دون الأئمة الماضية، وقالت: إنما تيسر الخير في تلك الأزمنة لكثرة الأعوان على الخير، فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا منك فوافقهم فيما هم عليه فلا يجري عليك إلاَّ ما يجري عليهم، والمصيبة إذا عمت طابت فقل لها: أرأيت لو هجم سيل يغرق الناس ولم يحذوره جهلاً منهم بحقيقة الحال، وقدرت على / [٥٠٢] ركوب سفينة تنجو بها دونهم فهل تختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تترك موافقتهم وتستجهلهم في صنيعهم وتأخذ حذرك وتنجو مما دهاك، فإذا كنت تفعل خوفاً من غرق ساعة فعذاب الآخرة أشد وأبقى، فلم لا تهربين منه وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت؟ ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص، ولم يهلك الكفار إلاَّ بموافقتهم أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إنَّا وجدنا آباءنا على أمة....﴾ الآية.

فعليك بموافقة نفسك وتوبيخها، واحملها على الاجتهاد وقرعها بسوء نظرها لنفسها لعلها تنزجر عن طغيانها وبالله التوفيق.

الفصل السادس في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمَّارة بالسوء حيالة إلى الشر، نافرة عن الخير، وأمرت بتزكيتها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة خالقها، ومنعها عن شهواتها، فإن أهملتها جمحت ولم تقدر بعد ذلك عليها وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة كانت هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى الدخول في زمرة عباد الله راضية مرضية. فلا تغفلن عن تذكيرها، ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تشتغل الآن بوعظ نفسك، فقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ نفسك، وإلاَّ فاستح مِنّي، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]. وسبيلك أن تقبل عليها فتعرفها جهلها وحماقتها؛ فإنها تتعزز بفطنتها وهدايتها استنكافاً وأنفة إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: / ما أعظم جهلك تدّعين الحكمة والذكاء [٥٠٣] والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وجفاء أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى أحدهما على القرب فما لك تضحكين وبين يديك هذا الخطر العظيم الجسيم، وعساك اليوم تخطفين أو غداً فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بات أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ولا مواعدة، وإنه لا يأتي في زمان دون زمان، ولا في حالة من العمر دون حالة بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يأتي فيه الموت فجأة، وإن لم يأت فجأة فالمرض يأتي فجأة فيفضي بك إلى الموت فما لك تستبعدين الموت وهو أقرب إليك من كل قريب.

أما تتدبرين قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ. . . .﴾ الآية إلى قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[٢].

ويحك يا نفسي كيف تجرأت على معصية الله إن اعتقدت أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن علمت بإطلاعه عليك فما أقل حياءك، ويحك لو راجعك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهين كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت ربك وغضبه وشديد عقابه؟ أتظنين أنك تطقين عذابه فإن ظننت ذلك فاحبسي نفسك في الشمس أو في الحمام ساعة أو قربى اصبعك من النار ليبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك فما لك لا تعوّلين على كرمه في مهمات دنياك من دفع الأعداء، وتحصيل الحاجات بلا سبب منك حتى / يبعث لك جنداً يدفع عنك ويظهر لك كنزاً فتستغني [٥٠٤] به عن كسبك، أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة لا في الدنيا وقد علمت أن سنة الله لا تبديل لها وأن ليس للإنسان إلا ما سعى؟

ويحك ما أبين نفاقك ودواعيك الباطلة تدعمين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل مولاك ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٣]. وقال: في أمر الآخرة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٤].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١، ٢، ٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٦.
(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

فقد تكفل لك بأمر الدنيا، ووَكَّل أمر آخرتك إلى سعيك فكذبته بأفعالك بتكالبك على الدنيا وإعراضك عن الآخرة.

ويحك لو كان الإيمان باللسان يغني دون الأفعال فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب أو تحسبين أن تترك سدًى ألم تكونين نطفة من مَنِيٍّ تمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحيـي الموتى؟

فإن كان هذا إضمارك فما أكفرك وأجهلك، أما تتفكرين ممماذا خلقك بل من نطفة خلقك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأقبرك، أفتكذبينه في قوله: ﴿ثم إذا شاء أنشرك﴾ فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك، ولو أن يهودياً أخبرك عن الذي أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كتبه المنزلات أصدق عندك من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين.

فالعجب ولو أن صبياً أخبرك عن عقرب في ثوبك لرميت به في الحال من غير مطالبة له على ذلك ببرهان، أفكان قول الأنبياء، والعلماء، والحكماء، وسائر الأولياء أصدق عندك من جملة الأغبياء أو صار حر جهنم مع أصناف عذابها أحقر عندك من عقرب / ما هذه أفعال [٥٠٥] العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لسخرت منك ومن عقلك، فإن كنت عرفت ذلك وآمنت به فما لك لا تستوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يقصدك من غير مهل؟

هب أنك وعدت بالإمهال مائة سنة، أفتظنين من يطعم الدابة في حضير أسفل العقبة يفلح أو يقدر على قطعها فما أعظم جهلك إن ظننت ذلك، أرأيت لو أن رجلاً سافر بلا نفقة فأقام متعطلاً في أرض غربة سنين، يعد نفسه بالنفقة في السنة الأخيرة من رجوعه إلى وطنه، هل كنت تضحكين من عقله؟

هب أن الجد آخر العمر نافع فلعلك في آخر يوم منه، فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع لك من المبادرة هل له سبب إلاَّ عجزك عن مخالفة هواك؟ أفتظنين يوماً يأتيك لا يعسر فيه مخالفة هواك، هذا يوم لم يخلقه الله قط، ولا تكون الجنة قط إلاَّ محفوفة بالمكاره فإذا أنت عجزت عن مخالفة الشهوة اليوم، فأنت في غد أعجز وأعجز، وهل الشهوة إلاَّ كالشجرة الراسخة التي يريد الإنسان قطعها وهو شاب قوي، فأخّرها إلى سنة أخرى وقد علم أن الشجرة تزيد بطول المدة في الأرض رسوخاً، ويزيد القاطع بذلك ضعفاً وهرماً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه في الضعف والهرم.

فإن كنت تفهمين هذا وتركنين إلى التسويف فمالك تدعين الحكمة؟ وأيُّ حماقة تزيد على هذه الحماقة؟ ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلاَّ لذة شهوتي، وقلة صبري عن مخالفتها، فما أقل إعتذارك؟ فإن كنت صادقة فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية أبد الآباد في الجنة، وما قولك في عقل مريض أشار عليه بترك شرب الماء. / ليصح ويتهناه طول العمر، [٥٠٦] وحذره إن شربه مرض طول العمر، فجميع عمرك في طول نعيم الدنيا وطول عذاب النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إليه، فالصبر على مخالفة الشهوة أيسر من طول العذاب، وفوات النعيم، فما هذا إلاَّ ضعف الإيمان بالثواب والعقاب، وبهذا الجهل تستحقين صفة الحماقة في قول النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل ما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[1].

ويحك لا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظري لنفسك ولا تضيعي أوقاتك، فإن الأنفاس معدودة فإذا مضى نفس فقد مضى بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها، كما تستعدين للشتاء بقدر طول المدة الحطب والطعام والكسوة، أفتظنين أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من الشتاء؟ أم تظنين أن العبد ينجو منها بغير عمل؟ هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلاَّ بالحطب والكسوة وكذلك حر النار لا يندفع إلاَّ بأسباب من حسن التوحيد والطاعات، وإنما كرم الله لك في أن عرفك أسباب التحصين منها بالطاعات كما أن كرمه في دفع برد الشتاء فإن عرَّفك الصناعات وخلق لك النار والحطب وألهمك استخراجها من الأحجار حتى يندفع بها البرد، وكذلك ألهمك طريق النجاة فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين.

ويحك فسيء آخرتك بدنياك كما بدأنا أول خلق نعيده ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ما أراك إلاَّ ألفت / الدنيا، هب أنك غافلة عن أحوال يوم القيامة. [٥٠٧]

أما إنك مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك؟ أفترين أن من يدخل من باب دار ملك ويخرج من الجانب الآخر، وثم يستغرق قلبه بعشق جارية فيها وهو مضطر إلى مفارقتها

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٢/ ٥١٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس. قال المحقق: أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) ابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (٤/ ١٢٤). والحاكم (١/ ٥٧). وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. قال الذهبي تعليقاً عليه: لا والله أبو بكر واه وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٣١٠) وقال ضعيف.

أيعد من العقلاء أم من الحمقاء، فالدنيا دار ملك الملوك، وكل من فيها ضيف مجتاز، وما في يده عارية مردودة على صاحبها، أما سمعت قول سيد المرسلين: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من شئت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به».

فكل من أَلِف ملاذ الدنيا واستكثر منها فإنما يستكثر من الحيرة، ويتزود من السم المهلك عند مفارقته إياها، أما تنظرين إلى الماضين كيف بنوا وأعلوا وذهبوا وخلّوا؟ فهل حمق أعظم ممن يعمر دنياه، وهو مرتحل عنها ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً.

أما تستحين من مساعدة الحمقاء المنكبين على الدنيا؟ وهب أنك تؤثرين الاقتداء، فقس عقول أهل الدنيا بعقول الأنبياء والحكماء، واقتد بأعقل الفريقين ولعلك أسكرك حب الجاه.

وهب أن كل من على بساط الأرض سجدوا لك أما تعرفين أن بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد من أولئك أما سمعت عن الملوك الذين قبلك فكيف تبيع ملكاً يبقى أبد الآباد بملك لا يبقى أكثر من خمسين سنة، إن بقي مع كدورته بأنواع المصائب واحتفاف الحساد، والأعداء به من كل جانب.

فما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك مع رذالتها، وخسة شركائك فيها من اليهود والنصارى والغوغاء والسفهاء، وترغب أن تكوني في زمرة الصديقين والشهداء والصالحين في الدنيا، وفي جوار رب العالمين في العقبى.

ويحك فمن ذا الذي يصلي عنك ويصوم بعد الموت، مالك إلاَّ أياماً معدودة وهي بضاعتك / وقد ضيعت أكثرها ويحك أما تعلمين أن الموت موعدك، وأن القبر بيتك، والتراب [٥٠٨] فراشك والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت أن عسكر الموتى على باب بلدك وقد حلفوا بالأيمان المغلظة أنهم لا يرحلون حتى يأخذوك؟ أما تعلمين أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا ليتداركوا ما فرطوا وأننا في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا كلها لاشتروه لو قدروا وأنت ضيعته في البطالة، ويحك أما تستحين؟

تتزينين بظاهرك للخلائق وتبارزين الله في السر بالعظائم، تذكرين بالله وأنت له ناسية، تأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل، ولو عرفت نفسك حق المعرفة، ظننت أن الناس لا يصيبهم بلاء إلاَّ من أجلك ويحك قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك حيث يشاء ويريد، ومع هذا فتعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده ثمان ألف سنة أو ما شاء الله، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه صفيه ولن ينجو إلاَّ

بالاعتراف والتوبة، والعجب منك تفرحين بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك فما ينفع مال يزيد وعمر ينتقص.

واحذري يا مسكينة يوماً إلى الله فيه يسأل نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقة وجليلة سره وعلانيته، فانظر بأيّ بدن تقفين بين يديه، وبأيّ لسان تجيبين، وأعدّي للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، واعملي في دار العمل بالاختيار قبل أن تخرجي منها خروج الاضطرار ولا تفرحين بما ساعدك من زهرات الدنيا، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر ويل لمن له الويل وهو لا يشعر يضحك ويلهو وقد حق عليه في الكتاب إنه من وقود النار.

/ واعلمي أنه ليس للدنيا عوض، ولا للجسد خلف، فمن كانت مطيته الليل والنهار [٥٠٩] سير به، وإن لم يسر فاتعظي يا نفسي بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فإن من أعرض عن النصيحة والموعظة فقد رضي بالنار ولا أراك بها راضية، ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كان هذا لقساوة قلبك فاستعيني عليه بدوام الاتعاظ وطول التهجد والقيام وإلاّ فبالمواظبة على الصيام وإلاّ فبقلة المخالطة والكلام وإلاّ فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، وإن لم تزل القساوة فاعلم أنه قد طبع على قلبك، فوطّني نفسك على النار فكلٌ ميسر لما خلق له.

فاقنطي ولا سبيل إلى القنوط؛ فإنه من الكبائر ولا سبيل إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فليس ذلك برجاء بل هو اغترار فانظري هل تبكين أو تحزنين على هذه المصيبة؟ فإن حزنت وسحت عيناك بالبكاء فمستقى الدمع من بحر الرجاء فقد بقي فيك موضع للرجاء، فتواظبي على النياحة والبكاء اقتداء بآدم عليه السلام، واستغيثي بأرحم الراحمين لعله أن يرحم ضعفك فقد انقطعت عنك الحيل، فلا مذهب ولا مستغاث ولا ملجأ إلاّ إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع والتلهف؛ فإنه يرحم المتضرع الذليل ويجيب دعوة المتلهف المضطر الخائف الوجل فقد أصبحت والله مضطرة إلى رحمته محتاجة؛ فإن العفو شامل والكرم فائض والرحمة واسعة فقولي: يا أرحم الراحمين عجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وبرد عفوك يا أكرم الأولين والحمد لله رب العالمين.

وروي عن منصور بن عمار قال: سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول: يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتي / مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك [٥١٠] جاهل، ولا لعقوبتك متعرض ولا بنظرك مستخف ولكن سوّلت لي نفسي وأعانتني على ذلك شقوتي، وغرّني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك والله بقلة عقلي فمن الآن من

عذابك ينقذني، أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كبرت معصيتي إلى كم أتوب وإلى كم أعود أما آن لي أن استحي من ربي.

وعن وهب بن منبه قال لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقى له دمعة فاطّلع الله عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيمن منكس رأسه، فأوحى الله إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أرابك فقال: يا رب عظمت مصيبتي وأحاطت بي خطيئتي، وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الفناء والموت بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه: يا ابن آدم ألم أصطفك لنفسي واحللتك داري، وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أخلقك بيدي، ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري، ونسيت عهدي، وتعرضت لسخطي فوعزتي لو ملأت الأرض مثلك كلهم رجالاً يعبدونني، ويسبحونني، فعصوني / لأنزلتهم منازل العاصين، فبكى عند ذلك آدم ثلاثمائة عام. [٥١١]

فهذه طريقة القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة أنفسهم وإنما طلبهم بالمناجاة للاسترضى، ومن المعاتبة التنبيه والاستدعاء، فمن أهل المعاتبة، والمناجاة لم يكن لنفسه مغاضباً، ويوشك أن يكون الله له يوم القيامة معاتباً، والله أعلم.

فصل

فعليك أيّدك الله بتوبيخ نفسك، وحقارة عملك، وتعظيم نعمة الله عليك، فإذا فعلت ذلك، وقع فعلك من الله تعالى موقع الرضى والقبول، وصارت له قيمة لا نهاية لشرفها، إذ بسببه تستوجب النعيم والملك العظيم وإلاّ صار سعيك مثبوراً، وعملك مردوداً، محقوراً ألا ترى إلى الأجير يعمل طول النهار، والحارس يحرس طول الليل بدرهمين وكذلك أصحاب الصناعات والحرف يعمل الواحد منهم الليل والنهار فيكون قيمة عمله دراهم معدودة، فإن صرت الفعل إلى الله تعالى فصمت له يوماً قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)]. وقال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

قلب بشر»[1]. فهذا يومك الذي قيمته درهمان مع احتمال التعب العظيم صار له هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء، ولو قمت ليلة لله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[2]. فهذا الذي قيمته دانقان أو درهمان صارت له هذه القيمة العظيمة.

فحق إذاً على العبد أن يرى حقارة عمله من حيث هو، وأن لا يرى إلاَّ منة الله عليه فيما شرف من عمله وأعظم من جزائه، وأن يحذر على فعله من أن يقع على وجه لا يصلح لله ولا يرضاه فتذهب عنه القيمة ويعود إلى ما كان عليه في الأصل من الثمن الحقير من دراهم / أو [٥١٢] دوانيق أو أخس من ذلك ومثاله أن عنقود العنب قيمته دانق فإذا أهداه أحد إلى الملك فيقع منه موقع الرضى فيهب له عليه ألف دينار وإذا لم يرضه ورده رجع إلى قيمته الأولى فذلك ما نحن عليه فتنبه وأبصر منة الله تعالى وصن فعلك عما يشينه عند الله عز وجل وأيضاً أما تعلم أن الملك في الدنيا إذا أجرى على أحد جراية من طعام أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة فانية، فإنه يستخدمه ويستعمله بضروب الخدمة الليل والنهار، وربما ظهر له عدو فيحتاج لقتاله فيبذل له روحه التي لا خلف لها لأجله فربك الذي خلقك فسواك ثم أنعم عليك من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يبلغ كنهها وهمك، ثم إنك تصلي ركعتين مع ما فيهما من المعائب ومع ما وعد عليهما في المستقبل من حسن الثواب فتستعظم ذلك منك وتعجب به فليس هذا من شأن عاقل إذا نظرت فهذه هذه.

وأيضاً فإن الملك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والكبراء، ويطلب مدحته العلماء والحكماء إذا أذن لسوقي برأفته عليه أن يزاحم على بابه أولئك الكبراء في خدمته، ويجعل له مقاماً من حضرته وكرامته، وينظر إلى خدمته المعيوبة بعين الرضى أليس يقال: لقد عظمت على هذا الحقير المنة من الملك فإن أخذ هذا الحقير يمن على الملك خدمته ويعجب بها، أليس يقال أن هذا السفيه جداً أو مجنون لا يعقل شيئاً، وأيضاً فإن إلٰهنا الذي يسبح له السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة الروحانيين والكروبيين وسائر الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين في مراتبهم الشريفة وعبادتهم الجليلة، ثم من العلماء والأئمة الأبرار والزهاد في خدمتهم الخالصة وأذل الخدام / على بابه. [٥١٣]

ملوك الدنيا يخرون له ساجدين فمع هذه العظمة والكمال قد أذن لك في حقارتك وجلاله أن تعبده، وترفع إليه حوائجك، ثم أنه يرضى ركعتيك في عيوبها، وأعدَّ لك عليهما

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤/٤٧٦) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

ثواباً لا نهاية له، فتستعظم ذلك منك وتمنه على ربك، فما أسوأك من عبد، وما أجهلك من إنسان، والله المستعان وإليه المشتكى من هذه النفس الجاهلة.

وأيضاً إذا أذن الملك الأعظم بإدخال الهدايا من الجواهر الثمينة والأموال الجليلة من الأمراء والكبراء، فإن جاء بقال بدستجة بقل أو قروي بسلة عنب تساوي دانقاً فيزاحم الأمراء والأغنياء بهداياهم، فإذا قبل الملك من هذا الحقير هديته، وأمر له بخلع نفيسة وكرامة بالغة، أليس ذلك من الملك غاية الكرم والفضل، فإذا أخذ هذا الحقير يمن على الملك بهديته الحقيرة وينسى منته العظيمة أليس ذلك منه غاية الجهل والحماقة.

فالآن إذا صليت ركعات فتفكر كم صلى لله تعالى في تلك الساعة في أقطار الأرض والسماوات من الملائكة والصديقين والأنبياء والصالحين من عبادة صالحة بقلوب صافية، وركعاتك إذا بذلت المجهود فيها إنما صدرت عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب، وبدن نجس بأقذار الذنوب، ولسان متلطخ بأنواع المعصية والفضول، فكيف تصلح أن تحمل إلى تلك الحضرة وتهدي إلى رب العزة؟ وانظر أيها العاقل هل وجهت قط صلاة من صلواتك كما توجه مائدة منك إلى بيوت الأغنياء قال: وكان أبو بكر الوراق يقول: ما فرغت قط من صلاة إلاَّ استحييت حين فرغت منها أشد حياء من امرأة / فرغت من الزنى، ثم إن الرب سبحانه [٥١٤] بمحض كرمه وفضله عظم هذه الركعات ووعد عليها جزيل الثواب، وأنت عبده وفي جرايته، وعملت ذلك بتوفيقه ثم بعد ذلك تعجب بعملك، وتنسى منة الله عليك، هذا والله أعجب العجب لا يكاد يذهب مثله إلاَّ عن جاهل لا فكر له، فنسأل الله الكفاية بمنه.

فصـــل

فانتبه من رقدتك أيها الغافل، وإلاَّ كنت من الخاسرين، فإن هاتين القنطرتين أشد القناطر إليهما تنتهي ثمرة ما مضى من القناطر إذ هما قنطرة العمل وآفاته والشكر وثمراته، وإن سلمت غنمت وربحت وإلاَّ فقد ضاع السعي كله وبطل العمر، وخاب الأمل.

واعلم أنك كلما صرت أقرب فأمرك أخوف وأصعب، والمعاملة أشد وأدق، والخطر عليك أعظم؛ فإن الشيء كلما كان أبلغ علواً إذا انقلب كان أصعب وقوعاً، كما قيل: ما طار طير فوقع، إلاَّ كما طار وقع، فإذن لا سبيل إلى الأمن وإغفال الشكر قال: وكان إبراهيم بن أدهم يقول: كيف تأمن وإبراهيم الخليل يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[١].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

ويوسف عليه السلام يقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(١).

وقال بعضهم: تأملت سفياناً الثوري فبكى الليل أجمع فقلت: بكاءك هذا على الذنوب.

قال: فحمل تبناً. فقال: الذنوب أهون على الله من هذا إنما أخشى أن يسلبني الإسلام.

قال الغزالي: وسمعت أنا بعض العارفين يقول: إن بعض الأنبياء سأل الله تعالى عن أمر بلعام بن باعوراء وطرده بعد تلك الآيات والكرامات فقال الله له: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته، فتيقظ أيها الرجل واحتفظ / بذكر الشكر [٥١٥] جداً وأحمد الله على منته في الدين أعلاها الإسلام وأدناها مثلاً توفيق تسبيح أو عصمة من كلمة لا تعنيك عسى أن يتم نعمته عليك، ولا يبتليك بمرارة الزوال، فإن أمرَّ الأمور وأصعبها الإهانة بعد الإكرام، فكلما أغفلت شكره، أو اقترب عاودت، واجتهدت، وتضرعت، وقلت: يا الله يا مولاي كما بدأت بالإحسان بفضلك قبل الاستحقاق فأتممه أيضاً بفضلك من غير استحقاق، وتناديه نداء الأولياء، المستغيثين الذين مدوا إليه الأكف مبتهلين ونادوا في الخلوات مستصرخين: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(٢).

قال الغزالي والله أعلم: تقديره إنا وجدنا منك نعمة فطمعنا في أخرى أنت الجواد الوهاب، فكما وهبت منة الإنعام في الابتداء فهب لنا منة الاتمام في الانتهاء أما تسمع ويحك؟ إن أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين هذا الدعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٣): أي ثبتنا عليه وأدمه لنا، هكذا تضرع إليه فإن الخطر عظيم.

وقد قيل: أن الحكماء نظروا وأفردوا مصائب العالم ومحنهم إلى خمس: المرض في الغربة، والفقر في الشيب، والموت في الشباب، والعمى بعد البصر، والنكرة بعد المعرفة، وأحسن من ذلك قول من قال:

لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

آخر:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

فنسأل الله ونتضرع إليه، أن يمن علينا بالعصمة والتوفيق وأن يرزقنا التوبة على التحقيق، وأن يجعلنا من العارفين العلماء بالدين، التائبين المتجردين للخدمة الشاكرين للنعمة، القاهرين للهوى والشيطان، المتقين حق التقوى بالقلب، والأركان، الخاشعين له المتوكلين عليه / المفوضين الأمور إليه، الراضين بقضائه، الصابرين على بلائه، الشاكرين لآلائه، إنه أرحم الراحمين والصلاة والتسليم على محمّد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين. [٥١٦]

الجملة الثانية: في ذكر الموت وأهوال يوم القيامة

اعلم أن من كان الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكراً إلاّ في الموت، وفيما بعده وإن كل آت قريب، لأن في التفكر في ذلك ما يهوّن عليه مصائب الدنيا ويدعوه إلى ترك الرغبة فيها، والفرح بها، والحسد عليها، وتشمل هذه الجملة على جملة فصول.

الفصل الأول في ذكر الموت

قال الله جل جلاله: ﴿كل نفس ذائقة الموت....﴾[١] الآية.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثروا ذكر هادم اللذات»[٢].

وروي أن سائلاً سأله فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ فقال: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»[٣].

وروي عنه أنه قال: «لو أن البهائم والطير تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً»[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/٤٤) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٣) قال الحافظ في المغني (٥/٤٦) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/٤٤) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية.

وروي عنه أنه كان إذا رأى غفلة من الناس وقف بباب المسجد فأخذ بعضادتي الباب ثم صاح بأعلى صوته: «يا أيها الناس الموت الموت جاءكم بالوجبة سعادة أو شقاوة جاءكم الموت بما جاء بالروح والراحة والكرة الرابحة جنة عالية لأولياء الله من أهل دار الخلود الذين سعيهم لها ورغبتهم فيها جاءكم الموت بما جاء بالخزي والندامة والكرة الخاسرة في نار حامية لأولياء الشيطان / من أهل دار الغرور الذين سعيهم لها ورغبتهم فيها لأن لكل ساع غاية وغاية [٥١٧] كل ساع الموت فسابق ومسبوق».

وعن عائشة قالت: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم من يكثر ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»[١] وإنما هذه الفضيلة لأن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويدعو إلى الاستعداد إلى الآخرة.

وعنه ﷺ قال: «الموت تحفة المؤمن»[٢]. إنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن والموت إطلاق له منه، فصار تحفة له في حقه، وقال: «الموت كفارة لكل مسلم»[٣]. أراد المسلم حقاً المؤمن صدقاً، ومر عليه السلام بمجلس قد استغرقهم الضحك فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات». قالوا: وما هو؟ قال: «الموت»[٤]. وقال أيضاً: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحق الذنوب ويزهد في الدنيا»[٥]. وقال: «كفى بالموت واعظاً»[٦].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٤٥) طبعة دار الحديث: سبق ذكره.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلاً بسند جيد. قال المحقق: «سيد إبراهيم» أخرجه الحاكم (٤/ ٣١٩) وقال: صحيح الإسناد. وتعقبه الذهبي بقوله: ابن زياد هو الأفريقي. ضعيف، والبيهقي في الشعب (٩٨٨٤، ١٠٢٠٨) من طريق ابن زياد أيضاً وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٨٥). وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٠٣) ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين: إنه حسن صحيح، وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرفه في جزء.

(٤) قال العراقي في المغني (٥/ ٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت مرسلاً ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جداً.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد. وقال المحقق قال الألباني ضعيف جداً (٤١٩).

وذكر عنده عليه السلام رجل فأحسنوا في الثناء عليه فقال: «كيف كان ذكر صاحبكم للموت»؟ قالوا: وما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، فقال: «إن صاحبكم ليس هناكم»[١].

وعن الحسن أنه قال: فضح هذا الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً، وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها.

وشكت امرأة إلى عائشة قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رحمة الله عليها.

وقيل: أن عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الموت تقطر جلده دماً، وقيل: أن داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة بكى حتى تنخلع أوصاله.

اعلم أن الناس في ذكر الموت على ثلاثة أصناف أحدهم: المنهمكون في الدنيا فلا يزيدهم ذكر الموت من الله إلاَّ بعداً لأنهم بذكره / يتأسفون على الدنيا، فهم الذين قال الله [٥١٨] فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ. . . .﴾[٢] الآية.

الثاني: التائب المخلص يزيده ذكر الموت خوفاً وخشية وربما يكره الموت خوفاً أن يفاجأه قبل تمام التوبة، والاستعداد للآخرة، الثالث: العارف بالله الذي أحبه فاشتاق إليه فهذا يتمنى الموت ضجراً من الدنيا وشوقاً إلى لقاء حبيبه كما قال حذيفة رحمه الله: لما احتضر مرحباً بزائر جاء على فاقة لا فرح من ندم ففي ذكر الموت ثواب وفضل، وإن كان الإنسان منهمكاً في الدنيا؛ لأنه يستفيد به تنقيص نعيم الدنيا، وتكدير عيشها فكل ما يكدر على الإنسان اللذات فهو من أسباب النجاة والله أعلم.

فائدة: اعلم أن أنفع دواء للقلب بذكر الموت هو التفكر للإنسان في أقرانه الذين مضوا فيذكر مصرعهم تحت التراب وكيف تبددت أجزاؤهم في القبور؟ وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم وتعطلت منهم المجالس والقصور، فمهما ذكر رجلاً منهم أحضر في قلبه صورته وكيفية أحواله وأعماله وتصرفه وآماله ونسيانه الموت وانخداعه بموتات الأسباب، حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه فعند ذلك يتفكر أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى،

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٦/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال: أخبرنا مالك بن مغول فذكره بزيادة فيه.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٨.

يجد ذكر الموت في القلب حتى يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له، وبالله التوفيق. وينشد لأبي العتاهية:

يا مؤثر الدنيا للذته ... والمستعد لمن يفاخره
قل ما بدا لك أن تنال من ... الدنيا فإن الموت آخره
كم قد ثكلنا من أخي ثقة ... ومعاشر كنا نعاشره
يا من يزيل الموت مهجته ... لا شك ما لك لا تبادره
/ أين الملوك وأين غيرهم ... صاروا مصيراً أنت صائره [٥١٩]
هل أنت معتبر بمن خربت ... منه غداة فضا دساكره[1]
وبمن أذل الدهر مصرعه ... وتبرأت منه عشائره
وبمن خلت منه أسرته ... وتعطلت منه منابره
درست محاسن وجهه ونفي ... عنه النعيم ثرى يباشره
والموت لو صحّ اليقين به ... لم ينتفع بالعيش ذاكره
وسبيلنا بالموت مشترك ... يتلو أكابره أصاغره

ولعدي:

أين أهل الديار من قوم نوح ... ثم عاد من بعدهم وثمود
بينما هم على الأسرة والأنماط ... أفضت إلى التراب الجلود
ثم لم ينتقض الحديث ولكن ... بعد ذا الوعد كله والوعيد
والأطباء بعدهم لحقوقهم ... ضل عنهم سقوطهم واللدود
وصحيح أضحى يعود مريضاً ... هو أدنى للموت ممن يعود

ولآخر:

قد آن أن يسمعك الصوت ... أنائم قلبك أم ميت
يا باني البيت على غرة ... أمامك المنزل والبيت
وإنما الدنيا على طولها ... ثنية مطلعها الموت

ولبعض الشعراء:

الموت حق ناعلمي نازل ... فيسري لحدي وأكفان
قد كنت ذا مال فلا والذي ... أعطاني المال وأغناني

---

(١) الدساكر جمع دسكر: وهو بناء كالقصر حوله بيوت ـ هكذا جاء بالهامش بالمخطوط ـ.

ما قرت العين به ساعة ... ألا تذكرت فأشجاني
علمي بأني صائر للبلا ... وفاقد أهلي وجيراني
[٥٢٠] / وتارك مالي على حاله ... نهباً لشيطان ابن شيطان
أما ترى والهوى قائدي ... أأجمع المال لأختاني
لامرأة ابني وزوج ابنتي ... يا لك من غيّ وخسران
وثالث اغبط من ذا وذا ... ينعم فيه زوجها الثاني
يسعد في مالي وأشقى به ... قوم ذووا غل وشنآن
إن أحسنوا كان لهم أجره ... وخف من ذلك ميزاني

فإذا تفكر الإنسان كما قدمنا فيمن مات من أقرانه، وفجع به من إخوانه، وكيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوه، وأن من كان له مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن من كان مغروراً فقد خسر خسراناً مبيناً، ولينظر أيضاً في حال نفسه، ويتفكر كيف يكون جسمه طعمة للديدان، وما ينتظر بعد ذلك من أهوال القيامة، ودركات النيران، ودرجات الجنان، فبمثل هذه الأفكار يتجدد ذكر الموت على قلبه.

ولكن الداء العضال الذي أهلك الأولين والآخرين: اتباع الهوى وطول الأمل، فإتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة، وسبب ذلك الجهل وحبّ الدنيا، ولكن من رزقه الله الفكر الصافي بالقلب الحاضر فيما قدمناه من أخبار الموت وما بعده مع قصر الأمل ومخالفة الهوى، فإنه لا بد أن يندفع عنه الجهل، ويستشعر قلبه الخوف والوجل.

وأما حب الدنيا، فإخراجه من القلب شديد ولا علاج له إلاَّ الإيمان بالله واليوم الآخر وما يشتمل عليه من الأهوال، والثواب، والعقاب، فمهما حصل بما ذكرناه اليقين مع عزيمة الصبر على ترك الدنيا، وعلى المجاهدة في الدين تجدد ذكر الموت على القلب لا محالة واشتغل بالاستعداد له على أيّ حالة وبالله التوفيق.

[٥٢١] / فصل في خروج نفس الميت

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ....﴾[1] الآية. ففي كتاب النقاش قال: يقبض أرواحكم مأخوذ من توفية العدد، أي يقبض أرواحكم أجمعين.

ويقال: أن جبريل عليه السلام قال لملك الموت كيف تستطيع قبض الأنفس عند الوباء

(١) سورة السجدة، الآية: ١١.

هاهنا عشرة آلاف وهاهنا كذا وكذا فقال ملك الموت: تزوى إلى الأرض حتى كأنها بين فخذي فأحاول فيها كذا وكذا.

وعن زهير بن محمد أن النبي سئل عن مثل هذا فقال: «إن الله جعل الدنيا لملك الموت كطست بين يدي أحدكم فهل يفوته منها شيء».

وفي كتاب النقاش في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا. . . .﴾[1] الآية.

قال معناه: يميتها حين يجيء أجلها والتي لم تمت في منامها فهي من بقية أجلها تتقلب فيه حتى يجيء أجلها فيميتها أيضاً كما ماتت التي جاء أجلها قال: والذي يتوفى في المنام نفس التميز لا نفس الحياة.

قال: لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس، قال: فهذا الفرق بين توفي نفس النائم في النوم وتوفي نفس الحي.

قال: ويقال: أن الإنسان له حياة وروح ونفس، فإذا نام خرج طرف من نفسه التي بها يعقل الأشياء ولها شعاع إلى الجسد كشعاع إلى الأرض فيرى الرؤية بالنفس التي خرجت منه كأنه بأرض أخرى، وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس فإذا حُرك رجعت النفس إليه في أسرع من طرفة العين، فإذا أراد الله أن يميتها في المنام، يمسك النفس الخارجة ويقبض الروح أيضاً ويموت في منامه.

قال: وعن ابن مسعود وابن عباس قالا: سبب في السماء بين المشرق والمغرب، فأرواح الموتى وأرواح الأحياء إلى ذلك السبب فتتعلق نفس الميت بنفس الحي، فإذا أذن لهذه الحية بالانصراف إلى جسدها لتستكمل رزقها إلى فناء أجلها أمسكت النفس الميتة وأرسلت الأخرى / إلى أجل مسمى أي إلى منتهى أجلها، قال: وكان ابن عباس يقول: إنما الإرسال [٥٢٢] من الإمساك.

ومن كتاب عيون المعاني لابن عيسى قال: يقبض عن تصرف الأرواح مع بقائها في الجسد فيمسك المقضي أجله بإزالة حقيقتها، ويرسل الأخرى بإعادة تصرفها، [قال][2] ابن جبير: يقبض أرواح الأموات عند الموت وأرواح الأحياء عند النوم، فيتعارفون ما شاء الله،

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٢) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل وأثبتناه ليستقيم السياق.

فيمسك أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء قال عليّ: فما رأته نفس النائم في السماء فهي الرؤية الصادقة، وما رأته بعد الإرسال يتلقاها الشيطان فهي الكاذبة، وقال في موضع آخر: (توفته رسلنا) قال: فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله يزهق الروح.

وقيل: ملك الموت يدعو الروح فتجيبه وأعوانه ينزعونها والله تعالى يخلق فيه الموت، وعن قتادة قال: خلق الله الموت ليعز به نفسه ويذل به عباده، وقوله: (وجاءت سكرة الموت بالحق) أي غمرته التي تذهب العقل (بالحق): أي بلقاء الله الذي لا بد منه، وعن الكلبي في قوله: خلق الموت، قال: وهو على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلاّ مات.

وعن زهير بن محمد قال: ملك الموت على معراج بين السماء والأرض وله رسل من الملائكة، فإذا كانت النفس في نقرة النحر، رأى ملك الموت جالساً على معراجه شخص بصره إليه آخر ما يموت.

وفي كتاب السؤالات قال: يخرج الله الروح فيتلقاه الملك، وقيل: أن الروح إذا رأى الملك طار إليه كما يطير الحديد إلى حجر المغنطيس، وعن النبي عليه السلام أنه قال: «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان» قال: «فيقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فتستفتح فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان، فيقال لها: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب / ادخلي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير [٥٢٣] غضبان فيقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة فإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وابشري بحميم وغساق وآمر من شكله أزواج ويقولون لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون فلان فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لم يفتح لك فترسل بين السماء والأرض ثم تصير إلى القبر»[١].

وعن ابن عباس قال: إذا احتضر العبد عمر ملك الموت وتينه يعني ـ عروق نياط القلب ـ قال: فعند ذلك يعاين ملك الموت ويشخص بصره ويذهل عن أهل الدنيا.

---

(١) أطراف الحديث عند ابن ماجه (٤٢٦٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٦٢٧) وتفسير الطبري (١٢٩/٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٨٣/٣). وتفسير ابن كثير (٤١٠/٣).

وفي كتاب النقاش في قوله تعالى: ﴿**والنازعات غرقا**﴾. قال: يعني ملك الموت ينزع روح الكافر حتى إذا بلغ ترقوته غرقها في حلقه فيعذبه في حياته قبل أن يميته ثم ينشطها من حلقه كما ينشط السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول فذلك قوله تعالى: ﴿**والناشطات نشطا**﴾.

وروي عن النبي ﷺ قال: «شدة الموت وكربته على المؤمن أشد من ثلاث مائة ضربة بالسيف».

وفي الخبر عن ابن مسعود: «أن نفس المؤمن تخرج رشحاً وأن نفس الكافر تخرج من شدقه»(١).

ويقال في الخبر: أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قيل له: كيف وجدت الموت؟ قال: يا رب كشاة تسلخ وهي حية فقيل له: أما أنا قد خففنا عنك.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: حدثنا عن الموت، فقال: إن الموت كغصن شوك أدخل في جوف الرجل فأخذت كل شوكة بعرق فجدبها رجل شديد الجذب جذبة واحدة فقطع منها ما قطع وأبقى منها ما أبقى.

ويروى أن النبي عليه السلام رئي حين حضره الموت وهو يمد يده ويقول: «يا جبريل أين أنت ثم يقبضها ويبسطها» / ويقول: «يا جبريل اشفع لي عند ربك يهون عليّ سكرات الموت»(٢). [٥٢٤]

وذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت جبريل وهو يقول: لبيك لبيك، وفي خبر آخر: «إن نفس المؤمن تسيل من جسده كما تسيل القطرة من السقاء». وهذا فيه ما فيه والله أعلم.

وفي بعض الكتب يعسر خروج النفس كما يعسر خروج الولد من المرأة البكر، وهذا أمر لا يدرك حقيقته ولا يعلمه إلاَّ الله تعالى ثم من ذاق الموت، وأما القياس فإنه يشهد أن كل عضو لا روح فيه فإنه لا يحس الألم فإذا كان فيه الروح يحس الألم، فلما كان الأمر هكذا دل

---

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٢٧٤) وأطرافه عند الترمذي (٩٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٥٩) والهيثمي في مجمع الزوائد. (٢/ ٣٢٦) والشجري في الأمالي (٢/ ٢٩٥، ٢٩٨)، والمتقي الهندي في الكنز (٤٢١٨٧، ٤٢١٨٩).

(٢) لم أقف على هذا في ما لدي من مصادر.

أن الروح الذي تفرقت أجزاؤه في الجسد حتى استغرقه فإذا نزع بالكلية كان ألمه وشدته أعظم ما يكون والله أعلم.

وأما علامة موت السعيد من الشقي فقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه وتبسمت شفتاه فذلك من رحمه الله قد نزلت به وإن احمّر وجهه وازبد وغط غطيط المجنون فذلك من عذاب الله نزل به»[١].

وفي الخبر أن جابر بن زيد رحمه الله لما احتضر دخل عليه الحسن البصري فقال جابر: يا أبا سعيد ما آية خروج نفس المؤمن؟ فقال: برد يجده على كبده ونفس طامعة فقال جابر: اللّهم إني أجد برداً على كبدي ونفسي طامعة اللّهم حقق رجاءها وآمن محذورها، ثم لم يتكلم بعدها فيما قيل والله أعلم.

وفي بعض آثار أصحابنا أن نفس المؤمن تخرج رشحاً كالعرق، وفي كتاب الغزالي: أن نفس المؤمن تخرج من منخره الأيمن في صورة نحلة خضراء، وأن نفس الكافر تخرج من منخره الأيسر في صورة جرادة، وفي بعض حديثهم عن النبي عليه السلام: «إن المؤمن تنزل عليه الملائكة بيض الوجوه معهم كفن وحنوط من الجنة. . . .»[٢] في حديث طويل تركته والله أعلم.

الفصل الثاني في ذكر القبر

[٥٢٥] / وينبغي للإنسان أن يذكر القبر وظلمته وضيقته ووحشته؛ فإن في ذلك ما يحزن قلب المؤمن ويبكي عينيه، ويروى أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله من عذاب القبر، وروي أنه قال: «مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه فكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه».

وقيل له عليه السلام: إن فلاناً مات فقال: «مستريح أو مستراح منه»[٣]. أشار إلى المستريح أنه المؤمن والمستراح منه أيضاً أنه الفاجر.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ٦٨) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي في نوادر الأصول من حديث سليمان ولا يصح.

(٢) ذكر الحافظ العراقي حديث نحوه في المغني (٥/ ١٢٠) وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا مع اختلاف والبزار.

(٣) أطراف الحديث عند: الألباني في الصحيحة (١٧١٠) وعبد الرزاق (٦٢٥٤) في المصنف والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٧٠) والسيوطي (٦/ ١٦٦) والتبريزي في إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٢٣٠، ٣٨٤).

وروي عنه أنه عليه السلام لما دفنت ابنته جلس عند القبر فتزبد وجهه ثم سرى عنه فسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: «ذكرت ابنتي وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله أن يفرج عنها وأيم الله لقد ضمت ضمة ثم أرخى عنها»(١).

وروي عن عائشة رضي الله عنها عنه ﷺ أنه قال: «إنما فتنة القبر من أجلي فإذا سئلتم عني فلا تشكّوا». قالت فقلت: يا رسول الله فكيف أصنع وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: «يثبت الله الذين آمنوا. . . .» الآية.

وقال بعض العلماء: من أكثر ذكر القبر وجده روضة ومن أغفل ذكره وجده حفرة من حفر النار، وروي عن الربيع بن خيثم أنه قد حفر في داره قبراً وكان إذا وجد في قلبه قساوة اضطجع فيه ما شاء الله ثم يقول ﴿رَبِ ارجِعُونِ لَعَلِي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْت﴾(٢)، ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فيقوم فيرى ذلك وروي أن النبي عليه السلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كيف بك يا عمر إذا دخلت قبرك ودخل عليك فتانا القبر منكر ونكير»؟ فقال عمر: وما هما يا رسول الله؟ / قال: «ملكان أسودان أزرقان يطآن شعورهما [٥٢٦] ويبحثان الأرض بأنيابهما معهما مرزبة من حديد لو اجتمع عليها أهل منى لم يطيقوها وهي أهون عليهما من هذا ورفع شيئاً من الأرض». فقال عمر: فكيف أنا يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: «كهيئتك اليوم». قال: إذن كفيهما يا رسول الله(٣).

وروي عنه أنه قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له فيه سبعون ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر أتدرون فيما أنزلت ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾(٤)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً يلحسونه وينفخون في قبره إلى يوم يبعثون»(٥).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٢٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٢٤) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور مرسلاً ورجاله ثقات، قال البيهقي في الاعتقاد: رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً: قلت ـ أي الحافظ ـ: ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عمر وقال: غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل، ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله ابن عمر، فقال عمر: أيرد إلينا عقولنا؟ فقال: «نعم كهيئتكم اليوم» فقال عمر: . . . . الحديث.

(٤) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٢٠) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن حبان.

قال الغزالي: فلا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحبات والعقارب بقدر أعداد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد، وسائر الصفات فإن لها أصولاً معدودة تتشعب منها فروع معدودة، وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي التي تنقلب عقارب وحيّات فالقوي منها يلدغ لدغ التنين، والضعيف يلسع لسع العقرب، وأرباب البصائر يدركون بنور البصيرة هذه المهلكات وإنشعاب فروعها وبالله التوفيق.

فصـــل

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة، فالملحدون ظنوا أن الموت هو العدم، وإن موت الإنسان كجفاف النبات، وأنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب وزعمت اليهود والنصارى والفلاسفة فيما وجدت أن الأجساد لا تبعث أصلاً وأن الأرواح هي التي تبعث وتستلذ وتتألم.

وزعمت المعتزلة والنكاث والحسنية فيما وجدت أن الأموات لا تتنعم ولا تتألم في القبور، وإنما الثواب والعقاب في الآخرة، وذهب أصحاب الحديث والأشعرية أن الروح باقية إما / معذبة وإما منعمة، حتى تبعث الأجساد فتدخل فيها، وإنما الموت إنما هو تغيير حالها، [٥٢٧ب] وانقطاع تصرفها عن الجسد يخرج الجسد عن طاعتها، والأعضاء عن استعمال الروح إياها؛ لأنها تبطش باليد، وتبصر بالعين، وتسمع بالأذن، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب وهو عبارة هاهنا عن الروح التي تحزن وتفرح، وتلذ وتتوجع، وأن هذه كلها تتعطل بموت الجسد إلى أن يعاود الروح إليه واختلفوا في كيفية عذاب القبر، فقيل: السؤال المروح دون الجسد وقيل: يكون الروح في الجسد إلى الصدر، وقيل: يكون الروح في الكفن والجسد، وقيل: يمكن أن يعاد إلى الجسد ويمكن أن يؤخر إلى البعث والله تعالى أعلم بما حكم على عباده.

قالوا: ويدل على أن الموت ليس عبادة عن انعدام الروح وإدراكها آيات وأخبار كثيرة قد ذكرنا طرفاً منها، فأما الآيات فمن ذلك قوله تعالى في الشهداء: ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون....﴾ الآية، وفسر فيها ابن عباس فقال: تجعل أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة.... الحديث المشهور، وقول النبي عليه السلام: «إنما نسمة المؤمن طائر تعلق في الجنة»[1].

---

(١) أطراف الحديث عند: النسائي (١٠٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) وأحمد (٤٥٥/٣، ٤٥٦) والساعاتي في منحة المعبود (٧٤٠) وابن كثير في التفسير (٢٧/٨) وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٩) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٣/٥، ٣٨٧/١٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٠٥/٤) وابن عبد البر في تجريد التمهيد (٤٦٧) والتمهيد (٢٤٨/٥) والمتقي الهندي في الكنز (٤٢٦٩١).

أي نتناول وقول الله تعالى في الكفار ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيا﴾، وقوله: ﴿سنعذبهم مرتين. . . .﴾ الآية.

إن الثاني عذاب القبر وروي أن النبي عليه السلام كلَّم قتلى بدر فقيل: يا رسول الله هم أموات فقال: «والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلاَّ أنهم لا يقتدرون على رد الجواب»(١). قالوا: فكل من آمن بالله والوحي والملائكة فكيف لا يجوز هذا في الميت؟ قالوا: فكما أن الملائكة لا تشبه الآدميين والحيوانات، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من حيّات الدنيا وإنما هي من جنس آخر يدرك بحاسة أخرى. قالوا: ولأن المؤلم من الحية السم ونفس السم ليس / هو الألم، وإنما الألم عذابك في الأثر الذي يحصل فيك. [٥٢٨] قالوا: ويمكن أن تكون الصفات المهلكات في الإنسان تنقلب مؤذيات كلدغ الحيات من غير وجود الحيات، كما أن العشيق إذا مات المعشوق انقلب صفة مؤذية محزنة للعاشق، قالوا: ومثل عذاب القبر والتنعم فيه في حق الميت مثل لدغ الحية في حق النائم وتنعمه بوقاع جاريته في نومه ولا ترى حية حوله ولا جارية، فالعذاب والتنعم حاصلان ولكنه غير مشاهدين في حق اليقظان، وهذا الذي قاله أصحاب الحديث في عذاب القبر ليس في الشرع ما يبطله ولا في العقل ما يحيله.

وقد روي عن جابر بن زيد بثبوت عذاب القبر وأنا أقول به، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «لو نجا أحد من عذاب القبر لنجا منه سعد بن معاذ ولقد ضغطه ضغطة اختلفت منها أضلاعه»(٢).

وقال في ابنته زينب: «إن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين»(٣).

وجلس عليه السلام في جنازة رجل فجعل ينظر في القبر ثم قال: «يضغط المؤمن في هذا ضغطة تردى منها حمائله»(٤).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١١٣) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٢٥): أخرجه أحمد بإسناد جيد.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٢٦) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٢٥) طبعة دار الحديث: رواه أحمد بسند ضعيف.

وفي حديث سؤال الملكين مشهور تركته مخافة التطويل. واختلف في مستقر الأرواح بعد الموت فقيل: أرواح المسلمين في عليين، وأرواح الكفار في سجّين، وقيل: أرواح المسلمين في بئر بالشام وأرواح الكفار في واد برهوت باليمن أو بحضرموت، وفي الحديث: «ما منكم من أحد إلاّ وهو يعرض على مقعده بالغداة والعشي»(١).

وأظن أني وجدت في بعض الآثار: أن الروح تحوم حول القبر والله أعلم، وينشد:

بينما الفتى في لهوه وهناته ... متبختراً يختال في لذاته

قد غره الأمل الكذوب فهمُّه ... في كل ما يدنيه من شهواته

[٥٢٩] / إذ جاءه ملك النفوس بسكرة ... تركته ملقى الجسم بين نعاته

فتنكرت أسبابه وتخرمت ... وتنكر المعروف من حالاته

لا يستجيب لمن دعاه ولا يرى ... شق الجيوب عليه بعد وفاته

ولعبده بن الطيب:

ولقد علمت بأن قصري حفرة ... غبراء يحملني إليها شرجع(٢)

وتركت في غبراء يكره وردها ... تسفي عليَّ الريح حين أودع

إن الحوادث يخترمن وإنما ... عمر الفتى في أهله مستودع

يسعى ويجمع جاهداً مستهتراً ... وليس بآكل ما يجمع

حتى إذا وفّى الحمام لوقته ... ولكل جنب لا أبا لك مضجع

وروي عن مجاهد أن أول من يكلم ابن آدم حفرته، فتقول: أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الغربة، أنا بيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟

وروي عن بعض الحكماء أنه قال: يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ألم تعلم أني بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود؟ ما غرك بي إذ كنت تمر بي فداداً؟ قال: فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر يقول: أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: فيقول القبر: إني إذاً أعود عليه خضراء، ويعود جسده نوراً، ويصعد بروحه إلى رب العالمين، وينشد:

---

(١) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في الكنز (٤٧٠٦) وأحمد (١/ ١٤٠) والزبير في الاتحاف (٩/ ٦١). والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٥٩).

(٢) شرجع: النعش. كذا بالهامش للمخطوط.

إن كنت تعلم أن الله يا عمر — يرى ويسمع ما تأتي وما تذر
وأنت في غفلة من ذاك تركب ما — نهاك عنه فأين الخوف والحذر
تجاهر الله إقداماً عليه ومن — حثالة الناس تختفي وتستتر
فانظر لنفسك يا مسكين في مهل — ما دام ينفعك التفكير والنظر
قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها — لله درك ماذا تستر الحفر؟
ففيهم لك يا مغرور موعظة — وفيهم لك يا مغتر معتبر

الفصل الثالث في أشراط الساعة

ـ وهذا الفصل يحتوي على مقدمة وستة أقسام ـ أما المقدمة فنذكر فيها علامات تدل على أشراط الساعة، وذلك نحو ما روي عن النبي عليه السلام في مسائلة جبريل عليه السلام إياه وقد جاءه في صورة أعرابي فقال: متى الساعة؟ فقال النبي عليه السلام: «ما المسؤول عنها أعلم من السائل ولكن سأخبرك بأشراطها: إذا ولدت الأمة ربها وربتها وتطاولت رعاة البهم في البنيان»[(١)].

وقوله في حديث آخر لسائل سأله عن الساعة: «ما المسؤول عنها أعلم من السائل ولكن أشراطها عشرة: يقرب فيها الأجل ويظرف فيها العاجز ويعجز فيها المنصف وتكون الصلاة منّاً والزكاة مغرماً والأمانة مغنماً والاستطالة للفقراء»[(٢)].

وقوله: «لا تقوم الساعة حتى يسود كل قوم منافقوهم وحتى تلي رقاب الناس الحفاة العراة الجوع وأن يكون سيد القوم لكع بن لكع وتظهر أولاد البغية ـ يعني أولاد الزاني ـ ويعظم رب المال وتعلو أصوات الفساق في المساجد ويظهر أهل المنكر على أهل الحق»[(٣)].

وقوله: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله وحتى يقبض

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (١/ ٢٠، ٦/ ١٤٤) ومسلم في الإيمان (١، ٥، ٧) وأبو داود في السنة (ب ١٦) والترمذي (٢٦١٠) والنسائي في الإيمان (ب ٥، ٦) وابن ماجه (٦٣، ٦٤، ٤٠٤٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ١٧٠، ٤/ ٢٩٠، ٥/ ١٦٩، ٦/ ٥٠) وابن حجر في الفتح (١/ ١١٤، ٨/ ٥١٣).

(٢) انظر الحديث السابق.

(٣) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٢٧) وابن حجر في الفتح (١٣/ ٨٤) وابن عدي في الكامل للضعفاء (٢/ ٧٦٤).

العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان ويكثر الهرج ـ وهو القتل ـ وحتى يفيض المال ويكثر وحتى يهم رب المال من يقبل صدقاته وحتى يعرضه ويقال: لا أرب لي فيه وحتى يمر الرجل بقبر الرجل ويقول: يا ليتني مكانه»[١].

وكنحو ما روي عن الراهب الذي كلم نظلة بن معاوية فقال: اقرؤوا عني السلام عمر وقولوا له: / سدد وقارب فقددنا الأمر فإذا ظهرت في أمة محمد عليه السلام عشر خصال [٥٣١] فالهرب الهرب إذا استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وانتسبوا إلى غير أنسابهم فلم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعلم عالمهم العلم لينال به الدراهم والدنانير، «فكان المطر قيظاً والولد غيظاً»[٢] ـ يعني قليل ـ ويشيدون البنيان، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا واستخفوا بالدماء، وقطعوا الأرحام وباعوا الحكم، وطولوا المنارات، وفضضوا المصاحف، وزخرفوا المساجد، وأظهروا الرشى، وأكلوا الربا، وصار الغنى عزاً وركبت الفروج السروج، في أمثالها مما يطول به الكتاب تركته رغبة في الاختصار.

وعنه عليه السلام قال: «لا تقوم الساعة حتى تكون قبلها عشر خصال: طلوع الشمس من مغربها والدجال ونزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وخروج الدابة وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدخان ونار تحشر الناس»[٣]. والله أعلم.

القسم الأول في طلوع الشمس من مغربها

وقد زعم بعضهم أنها أول آية خروجاً، والدابة، إحداهما قريبة من الأخرى، وقيل أولها الدجال والله أعلم، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ. . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ. . . .﴾[٤] الآية. قيل: هو طلوع الشمس من مغربها،

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٤/٢٤٣، ٩/٢٢، ٧٤) ومسلم في الفتن (ب ٤ رقم ١٧) وأحمد (٢/٣١٣) والهيثمي (٧/٢٤٤، ٢٤٨) وعبد الرزاق في مصنفه (١٨٦٥٨) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٤١٠) والبغوي في شرح السنة (١٠/٢٢٩، ١٥/٣٨) وابن حجر في الفتح (١٢/٣٠٣، ١٣/٨١، ٨٢) والمتقي الهندي (٣١٢٠٣، ٣٨٣٧٣) والبداية والنهاية لابن كثير (٦/٢٤٣).

(٢) هذا معنى حديث أورده الحافظ العراقي في المغني (٢/٣٠٥) طبعة دار الحديث وقال: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود وإسنادهما ضعيف.

(٣) أطراف الحديث عند ابن ماجه (٤٠٤١، ٤٠٥٥) والحاكم في المستدرك (٤/٤٢٨) وابن أبي شيبة (١٥/١٣٠، ١٦٣) والمتقي الهندي في الكنز (٣٨٦٥٠).

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

وعن النبي عليه السلام قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا جميعاً حيث لا ينفع نفس إيمانها»[١].

وعن ابن عمر قال: سمعت النبي عليه السلام يقول: «إن الشمس إذا غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فيؤذن لها / حتى إذا أراد الله أن يطلعها من مغربها [٥٣٢] استأذنت من تحت العرش في الرجوع فلا يرد عليها شيئاً ثم تعود فتستأذن فلا يرد عليها شيئاً فعلمت أنه لو أذن لها لم تدرك المشرق وقالت: يا رب ما أبعد المشرق فمن لي بالناس حتى إذا كان الليل كالطوق استأذنت قيل لها اطلعي من مكانك ثم قرأ: ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها. . . .**﴾[٢] الآية». ويقال: أن باب التوبة ينسد عند طلوعها والله أعلم.

القسم الثاني في الدجال

وقد روي أن النبي عليه السلام كان يتعوذ بالله من فتنة الدجال، وعنه أنه قال: «إن الدجال خارج وهو أعور العين اليمنى وأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيـي الموتى ويقول للناس: أنا ربكم فمن قال: أنت ربي فقد فتن ومن قال: ربي الله حتى يموت على ذلك عصم من فتنته»[٣].

وعن أبي سعيد عنه عليه السلام قال: «إن الدجال محرم عليه أن يدخل أنقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي بالمدينـة فترجف ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق ويخرج إليه رجل وهو خير الناس أو من خير الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر فيقولون: لا فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه».

قال بعض العلماء: فبينما الناس في بلد إذ يسمعون الإقامة يريد الصلاة فتغشاهم غمامة فإذا بعيسى ابن مريم قد نزل.

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٦/ ٧٣، ٨/ ١٣٢) ومسلم في الإيمان (ب ٧٢ رقم ٢٤٨) وأبو داود (٤٣١٢) وابن ماجه (٤٠٦٨).

(٢) أورد الطبراني في جامع البيان في تفسير القرآن المجلد الخامس ج ٨ ص ٧٣ طبعة دار المعرفة: قال: من طريق أبي ذر.

(٣) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٣٦) وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٩٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤٢)، وأحمد (٥/ ١٣) والطبري (٧/ ٢٦٧).

القسم الثالث في نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام

[٥٣٣] وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء أخوة لعلات / أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس نبي بيني وبينه وإنه نازل لا محالة فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلقة بين ممصرتين الحمرة والبياض سبط الرأس كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام حتى تقع الأمانة في الأرض فيرتعي الأسد مع الإبل والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم ويلعب الغلمان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضاً».

وفي حديث آخر: «يضع الجزية وتضع الحرب أوزارها فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[١].

وفي كتاب النقاش[٢] في قوله تعالى: ﴿وإنه لعلم الساعة﴾. يقول: نزول عيسى من السماء السابعة علامة، يقال: ينزل على ثنية أفيق وهو جبل بيت المقدس.

وعن ابن عمر قال: ينزل عيسى فإذا رآه الدجال ذاب كما تذوب الشحمة فيقتله فتفترق عنه اليهود فيقتلون حتى أن الحجر ليقول: يا عبد الله المسلم هذا يهودي تعال فاقتله.

والأخبار في هذا كثيرة تركتها مخافة التطويل.

القسم الرابع في خروج ياجوج وماجوج

قال الله تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج....﴾ الآية. فتحت: أرسلت، قيل: هما أخوان شقيقان من ذرية يافث بن نوح عليه السلام، قال الكلبي: لا يموت الرجل من ذرية يافث حتى يولد له ألف رجل من صلبه.

وعن كعب قال: يأجوج ومأجوج ثلاثة أصناف؛ فصنف أمثال النخل الطوال نساءهم منهم، وصنف أربعة أذرع طولاً وأربع عرضاً، وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون الأخرى لهم خراطيم كخراطيم الكلاب، فإذا بلغ أجلهم انكسر السد الذي بناه ذو القرنين وقيل هما مائة [٥٣٤] ألف أمة / لا تشبه أمة أخرى.

---

(١) طرف الحديث عند الحميدي في مسنده.

(٢) هو محمد بن علي بن عمرو بن مهدي الأصبهاني الخليلي النقاش الحنبلي أبو سعيد محدث فقيه عارف بالرجال من مؤلفاته طبقات الصوفية. توفي عن ٨٢ عاماً تقريباً.

وعن قتادة هما اثنتان وعشرون قبيلة، فسد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة، وكانت قبيلة منها غازية وهم الأتراك.

وعن الأوزاعي قال: هما أمتان كل أمة منها أربع مائة ألف، وعن ابن عمر قال: خلقهم ثلاث أمم لا يحصيهم إلاَّ الله تعالى وتاريس ومنسك ويقال: يحفر يأجوج ومأجوج السد في كل يوم، فإذا أمسوا قالوا: نجيء غداً نفتحه ولا يقولون إن شاء الله، فيجيئون من الغد وقد أعاده الله كما كان، فإذا أراد الله فتحه قالوا: نجيء إن شاء الله غداً نفتحه فيجيئون فيفتحون ويخرجون، فيتحصن الناس منهم حتى يأتوا على دجلة والفرات فيشربون ما فيهما، فيجيء آخرهم فيقولون: أقد كان هاهنا ماء مرة، فيسلط الله عليهم النغف فيقتلهم.

وفي حديث كعب قال: «فيفر الناس منهم في البرية والجبال فيقولون قد قهرنا أهل الأرض فهلموا إلى السماء فيرمون بنشابهم إليها فترجع تقطر دماً فيقولون قد فزعنا من أهل الأرض وأهل السماء فيبعث عليهم أضعف خلقه وهو النغف دودة تأخذهم في رقابهم فتقتلهم حتى تنتن الأرض من جيفهم فيرسل الله إليهم الطير فتلقى جيفهم في البحر، ثم يرسل الله السماء فتطهر الأرض، ثم تخرج الأرض زهرتها وبركتها فترجع الناس حتى أن الرمانة لتشبع أهل البيت فيبعث المسلمون جيشاً فلا يصلون إليهم ولا يرجعون إلى أصحابهم حتى يبعث الله إليهم ريحاً طيبة يمانية من تحت العرش فتكفت روح كل مؤمن ثم لا أجد مثل الساعة إلاَّ كرجل انتج مهراً فهو ينتظر متى يركبه فمن تكلف من أمر الساعة ما وراء هذا فهو متكلف».

وفي خبر آخر: .«أن عيسى عليه السلام إذا قتل الدجال أوحى الله إليه أني قد أخرجت /عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي في الطور فيبعث الله يأجوج ومأجوج كما قال [٥٣٥] وهم من كل حدب ينسلون. . . . » الحديث كما تقدم.

وذكروا أن النبي ﷺ قال: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»[١].

القسم الخامس في الدابة

قال الله تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾، قيل معناه: وجب الغضب عليهم وقال النبي

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٢/ ١٨٢) وأحمد في مسنده (٣/ ٢٧، ٦٤) والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٥٣) والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٣٨) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٨٦٦) والقرطبي في التفسير (٣/ ٢٩٨) وابن كثير في التفسير (١/ ٢٦٦، ٥/ ٣٧١) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٦).

عليه السلام: «ذلك حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوجب السخط عليهم».
﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾.

من كتاب عيون المعاني قيل: ذات زغب ووبر وريش، لها أربع قوائم، قال ابن الزبير: رأسها كرأس ثور، وعينها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة فهد، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم البعير، وكل مفصل من مفاصلها اثني عشر ذراعاً تخرج ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتختم وجه المؤمن بخاتم سليمان فيبيض ويكتب سعد سعادة لا يشقى ووجه الكافر بالعصي على عكس المؤمن.

وعن عليّ على صورة إنسان مقاتل ذات جناحين طولها ما بين السماء والأرض يرى رأسها وعنقها من المشرق والمغرب، وتزلزل الأرض ذلك اليوم ست ساعات، فيصبحون وقد جاءهم الدجال، قوله تعالى: **﴿من الأرض﴾**، أي من بعض أودية تهامة، وقيل: من مكة، وقيل: من بحر سدوم.

وروي أن ابن عمر ضرب رجله على الأرض بالطائف وقال: من هاهنا تخرج دابة الأرض، وقيل: بين الصفا والمروة، وفي الحديث «تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة على الله بينما عيسى يطوف والمسلمون معه إذا الأرض تضطرب تحتهم تحرك القناديل فينشق الصفا عن دابة الأرض»[1].

[٥٣٦] / وعن ابن عباس قال: الدابة هو الثعبان الذي كان في البيت بين أبي قبيس وبين بنيان البيت فأرسل الله عقاباً فاختطفه فطرحه بأصل حراء حيث خسف بالعماليق، يقال: لها أربع قوائم وزغب وريش ولها جناحان واسمها أفصا، ولا يخرج منها غير رأسها فيبلغ السحاب وكلام الدابة من آيات القيامة وهو الوقت الذي لا تقبل فيه توبة.

قال صاحب كتاب عيون المعاني: الأقرب إلى العقل أن يكون أنسياً فقيهاً مناظراً يناظر أهل البدع والكفر فيجادلهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بيّنة، وذكروا أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليها لا يرى طرفيها فرأى منظراً كريهاً فقال: يا رب ردها فرجعت، وعن ابن عمر قال: لا تقوم الساعة حتى يجتمع

(١) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٨) والطبراني في تفسيره (٢٠/١١) والسيوطي في الدر المنثور (٥/١١٦).

أهل البيت على الإناء الواحد وهم يعرفون مؤمنهم وكافرهم، فذكر الدابة كما تقدم تمسح جبهة المؤمن نكته بيضاء، وجبهة الكافر نكته سوداء، قال حتى أنهم ليتبايعون في أسواقهم فيقول هذا: كيف تبيع يا مؤمن، ويقول الآخر: كيف تبيع يا كافر والله أعلم.

وفي بعض الكتب: أن الدابة فصيل ناقة صالح عليه السلام وفيها غير ما ذكرنا تركته حباً للاختصار.

القسم السادس في الخسوف وغير ذلك

وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «كائن فيكم الخسف والمسخ والقذف». قالوا وهم يشهدون أن لا إلٰه إلاَّ الله؟ قال: «نعم إذا ظهرت فيهم الأربع المغنيات والمعازف والخمور والحرير».

وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ليبيتن أقوام من أمتي على معازف وشراب فيصبحون ممسوخين قردة» أو قال: «وخنازير».

وعن حذيفة قال: كيف بكم / إذا خرج أحدكم من حجلته فمسخ خنزيراً فيرجع يطلب [٥٣٧] أهله فيفرون منه.

وعن أُبيّ بن كعب في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً من فَوْقِكُمْ﴾(١).

قال: وهي خلال أربع هن واقعة لا محالة فمضت اثنتان بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم.

ويقال: لا تقوم الساعة حتى يرفع البيت ويرفع القرآن من القلوب فترجع الناس إلى المصاحف فإذا الورق بيض فيرجعون إلى أخبار الجاهلية وأغانيهم فتقوم الساعة ولا تقوم على مؤمن بإجماع من الأمة فيما وجدت والله أعلم.

وأما الدخان فقيل: هو الجدب في زمان النبي عليه الصلاة والسلام وقيل: ينزل من السماء يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين ويأخذ المؤمنين منه كالزكام والله أعلم.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

فصل في قيام الساعة

قال الله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلاَّ كلمح البصر. . . .﴾ الآية. أي بسرعة البصر، قيل: أن البصر يلمح مسيرة خمس مائة عام إلى السماء، وعن النبي عليه السلام قال: «لتقومن الساعة وقد نشر رجلان ثوبهما بينهما ليتبايعاه فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يستقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»(١).

وعنه عليه السلام قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر فينفخ»(٢).

وقال: «بعث إليّ حين بعث إلى صاحب الصور»(٣).

[٥٣٨] وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين / فقرن بين أصبعيه كادت أن تسبقني فسبقتها وقد انفرد الله تعالى بعلم الساعة لا تأتيكم إلاَّ بغتة».

وزعم بعضهم أن الساعة في يوم الجمعة في شهر مارس وأن الشمس إذا غابت ليلة الجمعة فكل دابة مصيغة بإذنها إلى قيام الساعة حتى يصبح إلاَّ الثقلين والله تعالى أعلم.

صفة نفخ الصور

قال الله تعالى: ﴿ونفخ في الصور﴾(٤). من قرأ بفتح الواو فجمع صورة ينفخ فيها فتحيى بإذن الله وهو مروي عن الحسن وقتادة وأكثر القول أن الصور قرن دليله ﴿ثم نفخ فيه

---

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٨/ ١٣٢، ٩/ ٧٤) والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٢٦٥) وابن الجوزي في زاد السير (٣/ ٢٩٨) وابن حجر في الفتح (١١/ ٣٥٢).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٢/ ١٣٨) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: حسن ورواه ابن ماجه بلفظ «إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان متى يؤمران» وفي رواية ابن ماجه من حديث الحجاج بن أرطأة مختلف فيه.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٢/ ١٣٩) طبعة دار الحديث: لم أجده هكذا بل ورد: أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر». قال البخاري: ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ «ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتن إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان» وإسناده جيد.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

أخرى﴾[١] ولم يقل فيها إلاَّ أن تكون الصور في القرن فإذا نفخ فيه فقد نفخ في الصور وعن مجاهد الصور قرن كقرن الثور وزعموا أن النبي عليه السلام قال: «الصور قرن من نور والذي بعثني بالحق لعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض ينفخ فيها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث»[٢].

وفي رواية عن أبي بن كعب: «نفختان». قال: «فيأمر الله تعالى إسرافيل في النفخة الأولى فينفخ فيه فيفزع من في السماوات ومن في الأرض وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾[٣].

قال ابن عباس: هم الشهداء، وقيل: هم الأنبياء، وقال مقاتل: هم الملائكة، قال: فتزلزل الأرض ﴿وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدٌ﴾[٤]. فيصير الولدان شيباً، وتطير الشياطين هاربة، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. . . .﴾ الآية.

ويقال: نزلت هذه الآية في غزوة بني المصطلق ليلاً فقرأها عليهم النبي عليه السلام فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة وذلك حين قال لهم: «أتدرون أي يوم هو»؟ ثم قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام ابعث نصيب النار / من ذريتك فيقول: كم يا رب فيقول: من كل [٥٣٩] ألف تسع مائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فهنالك يشيب الصغير ويسكر الكبير. . . . الحديث»[٥]، فلما نزلوا رأى الناس من بين باك حزين وبين متفكر ساكت فقال لهم: سددوا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من كفرة الجن والإنس فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلاَّ كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) أطراف الحديث عند أبو داود (٤٧٤٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٢٨) وابن الجوزي في زاد المسير (٣/٦٩) والألباني في الصحيحة (١٠٨٠) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٩٠٤) والطبري في تفسيره (٦/٣٠، ٣٠/٦).

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٤) سورة الحج، (الآيتان: ١، ٢).

(٥) قال الحافظ العراقي في نحو هذا الحديث في المغني (٤/٢٣٣) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال حسن صحيح، قلت ـ أي الحافظ ـ: هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد.

الجنة فكبروا وحمدوا الله». وقال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وإني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منهما أمتي ويدخل الجنة منها سبعون ألفاً بغير حساب». فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم». وقال آخر مثل ذلك فقال: «سبقك بها عكاشة وبردت الدعوة».

وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾(١)، قيل: أشراطها، وقيل: الرجفة عند البعث، وعن أبي قال: النفخة الأولى ويقال: ذلك قبل النفخة الأولى ينادي مناد من السماء يا أيها الناس أتى أمر الله فيسمع صوته جميع أهل الأرض فيفزعون فزعاً شديداً ويموج بعضهم في بعض فيشيب فيه الصغير ويسكر الكبير وتضع الحوامل ما في بطونها وتدع المراضع البنين من الفزع.

وعن أُبيّ بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة قال بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فدكت الأرض واضطربت، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن واختلطت [٥٤٠] الدواب والطيور والوحوش وماجت بعضهم في بعض، ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ / حُشِرَتْ﴾(٢)، قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾(٣) قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾. قال: الجن تأتيكم بالخبر فانطلقوا فإذا هي نار تتأجج فبينما هم كذلك جاءتهم ريح فأهلكتهم.

وعن ابن عمر أن النبي عليه السلام قال: «من أراد أن ينظر إلى القيامة رأى العين فليقرأ ﴿إذا الشمس كورت﴾».

صفة النفخة الثانية

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني مات من شدة الصوت والفزع ﴿إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ﴾(٤) قال كعب: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ثم يموتون بعد، وقيل: الشهداء، وقيل: رضوان ومالك والزبانية والحور والولدان.

---

(١) سورة الحج، الآية: ١.
(٢) سورة التكوير، الآية: ٥.
(٣) سورة التكوير، الآية: ٦.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

قال: يقول الله للملائكة المستثنين موتوا فيموتون فيقول: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾(١). فلا يجيبه أحد فيقول: ﴿لله الواحد القهار﴾.

وعن ابن عباس: ينفخ في الصور فيموت من في السماوات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله، وهم الملائكة المتقدمة ثم يموتون ويموت إبليس فيمن يموت. وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَت إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾(٢). قيل: في أسواقهم يتبايعون وعن الحسن قال: بين النفختين أربعون والله أعلم عاماً أم شهراً أم يوماً فأما النفخة الأولى فأماتت كل حيّ، وأما النفخة الآخرة فأحيت كل ميت.

وعن الربيع بن أنس قال: قسم الله الماء الذي كان عرشه عليه قبل أن يخلق السماوات قسمين فجعل نصفه تحت العرش وهو البحر المسجور، ولا ينقص منه قطرة حتى ينفخ في الصور النفخة الأولى فينزل الله منه بين النفختين مثل المني على الأرض فينبت منه أجسام من هو مبعوث من الجن والإنس وذلك قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى والله أعلم بغيبه وأحكم.

صفة النفخة الثالثة

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي / ٱلصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ....﴾(٣) الآية. [٥٤١]

ففي كتاب النقاش قال: هي النفخة الأخيرة، قال: وبين النفختين أربعون سنة، قال: ثم تمطر السماء أربعين يوماً كمنيٍّ الرجال ومن غيره، فيكون الماء فوق كل شيء اثني عشر ذراعاً فينبتون به في قبورهم كما ينبتون في بطون أمهاتهم.

وفي حديث النبي عليه السلام: «حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ثم يقول الله تعالى: لتحيى حملة العرش فيأمر إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول: ليحيى جبريل وميكائيل فيحييان بأمر الله تعالى ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتى بها فيجعلها في الصور ثم يأمر إسرافيل فينفخ نفخة البعث».

وفي كتاب النقاش أنه يقول: أيتها العظام البالية وأيتها العروق المتقطعة، وأيتها اللحوم المتمزقة، وأيتها الأشعار الساقطة اجتمعوا لأنفخ فيكم أرواحكم ويجازيكم بأعمالكم فيديم

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.
(٢) سورة يّس، الآية: ٤٩.
(٣) سورة يّس، الآية: ٥١.

الملك الصوت، فتجتمع الأرواح كلها في القرن وطوله كطول السماوات والأرضين وعرضه كذلك، ثم تخرج الأرواح مثل النحل سود وبيض وشقي وسعيد، فتهبط أرواح المؤمنين بيضاً كأمثال النحل من السماء العليا إلى واد بدمشق يقال لها: الجابية وهو خير واد في الأرض، وتخرج أرواح الكافرين من الأرض السفلى سود مثل الذر إلى واد بحضرموت يقال له برهوت، وهو شر واد في الأرض، وكل روح أعرف بجسد صاحبها من أحدكم إلى منزله فيأتون أفواجاً ثم ينزل إسرافيل من فوق السماء السابعة فيجلس على صخرة بيت المقدس ويأخذ أرواح المؤمنين والكفار كالذر السود والبيض، فيجعلهم في القرن، ودائرة فم القرن مسيرة خمس مائة عام ما بين السماء والأرض فتطير الأرواح حتى تطيق ما بين السماء والأرض مثل النحل فيذهب [٥٤٢] / كل روح فيقع في جسد صاحبه، فيخرجون من قبورهم فوجاً فوجاً، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِي﴾، قيل: هو إسرافيل يقول: أيتها العظام النخرة ـ كما تقدم ـ ثم قال: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[(١)].

قال الحسن: وأي شيء أقرب من أنهم بينما هم في بطنها إذ نودوا فإذا هم على ظهرها، وقيل: من مكان قريب عن مقاتل من صخرة بيت المقدس، ويقال: قربت من السماء بثمانية عشر ميلاً، ثم قال: ﴿يوم تشقق الأرض عنهم فيخرجون من الأجداث سراعا﴾ إلى إجابة الداعي، والصوت الذي سمعوا، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أي القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، يخرجون سراعاً.

وعن مجاهد قال: إن للكفار هجعة قبل يوم القيامة فإذا صيح بأهل القبور ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾، وقيل: إن الكفار لا يعذبون في القبور بين النفختين، ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي قال لهم: المؤمنون، وقيل: الملائكة الذين يكتبون أعمالهم ﴿هذا ما وعد الرحمن. . . .﴾[(٢)] الآية.

صفة المحشر وأهواله

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ. . . .﴾[(٣)] الآية، قيل: تبدل هذه التي عليها بنو آدم أرضاً بيضاء نقية، لم يسفك عليها دم، ولم تعمل عليها معصية، وهي أرض الصراط، ويقال: عمق الصراط مسيرة خمس مائة عام، وتبدل السماء فلا تكون سماء،

---

(١) سورة قٓ، الآية: ٤١.
(٢) سورة يٓس، الآية: ٥٢.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

وخرجوا من قبورهم في أرض مستوية، ليس فيها جبل ولا بناء ولا نبت، ولا يستترون بشيء.

وعن ابن عباس: يزاد فيها وينقص، فتذهب أشجارها، وجبالها، وأوديتها، وما فيها، وتمد مد الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة، لم يسفك عليها دم، ولم تعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها، ويقال: إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمست الشمس والقمر، / وأظلمت الأرض نجوم [٥٤٣] سراجها، فبينما هم كذلك إذ مارت السماء من فوق رؤوسهم، وانشقت السماء مع غلظها خمس مائة عام، والملائكة قيام على حافتها، ثم تسيل كالفضة المذابة، يخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، فصارت كالمهل، فكانت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش، وكانوا حفاةً عراة.

ويقال: أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال النبي عليه السلام: «يحشر الناس يومئذٍ ـ ثلاثة أصناف ـ مشاة وركباناً وعلى وجوههم، فقال رجل: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»(١).

وعنه عليه السلام قال: «يحشر الأنبياء على الدواب، فيوافي المؤمنون من يومهم الحشر».

ويقال: إذا كانت النفخة الآخرة، خرجت الخلائق على وجه الأرض من قبورهم، فأما المؤمنون فيسرعون إلى الداعي، وأما المنافقون والمشركون فيتثاقلون، فيبعث الله عليهم ناراً أو دخاناً تسوقهم إلى المحشر، فذلك قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾(٢).

صفة العرق

وعنه النبي ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعون ذراعاً فيلجمهم ويبلغ آذانهم»(٣).

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٤١) طبعة دار الحديث: رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٤٢) طبعة دار الحديث: أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف ـ أي الغزالي الذي أخذ منصف القناطر منه هذا الباب ـ.

وعنه أنه قال: «تدنوا الشمس من الأرض يوم القيامة فتعرق الناس، فمنهم من يبلغ عرقه عقبيه، ومنهم من يبلغ نصف ساقيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى فخذه، ومنهم إلى خاصرته، ومنهم إلى فيه ـ وأشار بيده وألجمه إياه ـ، ومنهم من يغطيه عرقه ـ فضرب بيده على رأسه هكذا ـ»(١).

وذلك أنه قيل: لا يبقى على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين، ويستظل به من يشاء الله من عباده المقربين والمخلصين، وعنه ﷺ / [٥٤٤] تلى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(٢)، فقال: «كيف بكم إذا اجتمعتم كما تجتمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم»؟(٣).

ويقول: «طول يوم القيامة على المؤمن مثل ما بين الظهر والعصر».

وعنه عليه السلام أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها»(٤).

وعن كعب وقتادة قال: يقوم الناس لرب العالمين ثلاثمائة عام، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قيل: من سنين الدنيا مقدار موقفهم حتى يفصل بين الخلائق، ويوم القيامة يوم ممدود أبداً لا غاية له، وقيل لوهب: يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة قياماً لا ينطقون، فقال: إن المقدار ما بين السماء والأرض إلى العرش مقدار خمسين ألف سنة؛ ولعل يوم القيامة يكون يوماً من أيام الدنيا على الله أو أقل، يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٤٢/٥) طبعة دار الحديث: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١٤٣/٥) طبعة دار الحديث: قلت ـ أي الحافظ العراقي ـ إنما هو عبدالله بن عمر، ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن ولهم غير عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١٤٣/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد «يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب» ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال: أظنه رفعه بلفظ: «إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة».

وعن إبراهيم قال: يصل إليهم من المكروه في ذلك اليوم مقدار ما يصل في خمسين ألف سنة ـ والله أعلم ـ.

صفة الوقوف في المحشر

قال الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾(١)، ففي كتاب النقاش قال: وذلك أن الله يبعث الأجساد التي كانت في الدنيا من حيث كانت من بطون السباع، وحواصل الطيور، ومن البحور، وبطون الأرض وظهورها؛ لأن جميع ذلك قد صار تراباً، وأجزاء متبددة، فيُجمع ذلك كله حتى يصير جسداً واحداً، فيدخل كل روح في جسده، فيحشرون إلى أرض تسمى الساهرة، فيقوم جميع الثقلين على أرجلهم مستديرين كالصفوف حول الكعبة، وحشر سائر الخلائق كل أمةٍ صفاً، الخيل صفاً، والبقر صفاً، وكذلك / سائرها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا [٥٤٥] مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ. . . .﴾(٢) إلى قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ. . . .﴾(٣)، ـ ومن غيره ـ.

قال بعضهم: لا يحشر إلا الثقلين؛ لأن غيرهم لا يجري عليهم التكليف في الدنيا، ولا ثواب لهم، ولا عقاب عليهم في العقبى.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾(٤)، قال الحسن أمره وقضاؤه، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾(٥)، وذلك أن السماوات تنشق فينزل ملائكة كل سماء وتقوم على حدة.

وعن ابن عباس قال: أهل سماء الدنيا وحدهم أكثر من جميع أهل الأرض جنهم وأنسهم بالضعف، ثم أهل كل سماء أكثر من الذين تحتهم من أهل السماوات وأهل الأرض بالضعف، لا من الجن ولا من الإنس، ثم تفيض أهل السماء السابعة فينتشر أهلها على وجه الأرض، فهم وحدهم أكثر من جميع أهل السماوات وأهل الأرض جنهم وإنسهم وملائكتهم بالضعف، قال: فبينما هم كذلك إذ جيء بجهنم فيراها الخلق كلهم، يقال: من مسيرة خمس مائة عام، عليها سبعون ألف زمام، على كل زمام سبعون ألف ملك يحبسونها عن الخلائق، وجوههم كالجمر، وأعينهم كالبرق، فإذا تكلم أحد تناثر من فيه النار، بيد كل ملك مرزبة، عليها سبعون ألف رأس

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٨.
(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢.
(٥) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

كأمثال الجبال، وهي أخف في يده من الريش، له رؤوس كرؤوس الأفاعي، وأعينهم زرق تريد أن تنقلب على الخلائق من غضب الله عز وجل، قال: هذا كله قول الصحابة.

وفي كتاب الغزالي[١] قال: فيقول الجبار جل جلاله ـ عند ذلك ـ: يا جبريل ائت بجهنم فيأتيها، فيقول لها: أجيبي خالقك، فلم يلبث أن طارت وزفرت إلى الخلائق غضباً على من عصى الله، فيسمع الخلائق منها ذلك، وانتفضت خزنتها متوثبين إلى الخلائق غضباً على من خالف أمر الله، فيتساقطوا جثياً على ركبهم، وولوا مدبرين، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً. . . .﴾[٢] الآية، وسقط بعضهم على بعض على الوجوه منكسين، وينادي الظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون: نفسي نفسي، فبينما هم كذلك إذ زفرت النار ثانية فتساقطوا على وجوههم، ثم زفرت ثالثة فتساقطوا على وجوههم أيضاً، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي ـ فعند ذلك تنتهض قلوب الظالمين لدى الحناجر كاظمين، وذهلت عقول السعداء والأشقياء أجمعين.

ويقال إذا اجتمعت الخلائق ببيت المقدس زفرت جهنم فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ظن أنه لو جاء بعمل سبعين نبياً ما نجا ـ فعند ذلك تاهت عقول المرسلين ـ فيقال لهم: ماذا أجبتم في التوحيد، قالوا: لا علم لنا ـ ثم رجعت عقولهم بعد ذلك ـ فيشهدون على قومهم أنهم قد بلغوا الرسالة عن ربهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ. . . .﴾[٣] الآية.

صفة الحساب والمسائلة

وفي الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ينادي مناد يوم القيامة: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم؟ ليقم الحامدون لله على كل حال، فيقومون ويسرحون إلى الجنة، ثم ينادي الثانية: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم؟ ليقم الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ. . . .﴾[٤] الآية فيسرحون إلى الجنة، ثم ينادي الثالثة: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم؟ ليقم الذين ﴿لَّا

(١) هو الإمام أبو حامد الغزالي حجة الإسلام صاحب الإحياء الذي اعتمد المصنف في قناطر الخيرات على هذا الكتاب بجانب كتاب النقاش وابن عيسى وبعض الكتب الأخرى التي ذكرها المصنف في أماكن متفرقة من الكتاب.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٦.

﴿تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ....﴾[(١)] الآية، قال: فيسرحون إلى الجنة، قال: ثم يخرج عبق من النار ـ لها لسان فصيح وعينان بصيرتان فتشرق على الخلائق ـ فتقول: إني وكلت بثلاثة: وكلت بكل جبار عنيد فتلقطهم لقط الطير حب السمسم فتخنس بهم في جهنم، ثم تقول: إني وكلت بمن آذى الله ورسوله، فتلقطهم فتخنس بهم / في جهنم، ثم تقول: إني [٥٤٧] وكلت بأصحاب التصاوير، فتلقطهم إلى جهنم، فإذا أخذ هؤلاء نشرت الصحف، ووضعت الموازين، ودعي الخلائق للحساب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ....﴾[(٢)] الآية.

ويقال: إن أول من يدعى يوم القيامة للحساب إسرافيل، فيقول له الله: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يا رب قد بلغت جبريل، فيقال له: هل بلغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم ـ فيخلا عن إسرافيل ـ فيقال لجبريل: وما صنعت بعهدي؟ فيقول: قد بلغته الرسل ـ فتدعى الرسل فيسألون ـ ويقولون: نعم قد بلغناه الأمم ـ فتدعى الأمم فيسألون ـ فمكذب ومصدق، فيقول الرسل: لنا عليهم شهداء، فيقول تعالى: من؟ ـ وهو أعلم ـ فيقولون: أمة محمد ـ فتدعى الأمة ـ فيقال لهم: أتشهدون بأن الرسل بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم، فيقول الأمم: يا ربنا كيف يشهدون علينا ولم يدركونا؟ فيقول الله لهم ذلك، فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولاً، وأنزلت عليه كتابك، فقصصت علينا أن قد بلغوا، وذلك قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى ٱلنَّاسِ....﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين﴾، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٤)]، وقال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[(٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا عـذب، قالت: قلت يا رسول الله: أليس قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[(٦)]؟، قال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب إلا عذب»، وقيل: النقش هو الاستقصاء، ثم قال: «أبشروا فإنه ما استقصى كريم قط».

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٢.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.
(٦) سورة الانشقاق، الآية: ٧.

[٥٤٨] وفي الحديث: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسئل عن خمس: / عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن ماذا عمل فيما علم»؟

وعن الحسن بن محمد قال: يحاسب الله المسلمين بالمنة والفضل، والكفار بالحجة والعدل، ولبعض الشعراء:

تسربل شوب الحلم واعرض عن الجهل ... وبادر بتقوى الله ما دمت في المهل
تذكر غداً يوم الحساب وهوله ... إذا جمع الله الخلائق للفصل
هنالك لا جور يخاف وإنما ... يخاف هناك الخائفون من العدل

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها....﴾ الآية، قال: هي الوالدة تلقى ولدها يوم القيامة، فتقول: يا بني ألم يكن بطني لك وعاء؟ وثديي لك سقاء؟ فيقول: بلى يا أماه، فتقول: يا بني لقد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً، فيقول: إليك عني يا أماه، إني اليوم عنك مشغول، وينشد لابن عبد ربه:

يا ويلتا من موقف ما به ... أخوف من أن يعدل الحاكم
أبارز الله بعصيانه ... وليس لي من دونه راحم
يا رب غفرانك عن مذنب ... أسرف إلا أنه نادم

وعن ابن مسعود قال: وددت أن حسناتي فضلت سيئاتي مثقال ذرة، ولو أني وقفت بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيهما أصير؟ ثم قيل: تمن لتمنيت أن أكون تراباً.

صفة الصحف

وعن النبي عليه الصلاة والصلام قال: «الكتب يوم القيامة تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة بعث الله ريحاً فتطيرها في الأيمان والشمائل»[١]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ....﴾[٢] الآية.

[٥٤٩] وعن بعض السلف قال: أول خط في الكتاب ﴿إقرأ كتابك....﴾ / الآية، ويقال: سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئاً.

---

(١) الحديث عند العقيلي في الضعفاء (٤٦٦/٤).
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٧.

وقال بعض العلماء: ثلاثة مواطن لا يسأل فيها أحدٌ أحداً إذا تطايرت الكتب حتى يعلم أيأخذ كتابه بيمينه أم بشماله؟، وإذا وضعت الموازين حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وعند الصراط حتى يعلم أيجوز أم لا؟

وفي التفسير قال: إذا كان الرجل في الخير رأساً يدعو إليه دعي باسمه، واسم أبيه، فيخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه الحسنات، وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالسيئات فيقرأها فيشفق ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سيئاتك، وقد غفرت لك فيفرح، ثم يقلب الكتاب فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحاً، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه حسناتك، وقد ضوعفت لك، ويوضع تاج على رأسه، ويكسى حلتين، ويحلى منه كل مفصل، ويطول ستين ذراعاً ـ وهي قامة آدم عليه السلام ـ فيقال له: انطلق إلى أصحابك فبشرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. . . .﴾[1] الآية، فيقول لأصحابه: أما تعرفونني؟ فيقولون: غيرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا، قال: وإذا كان في الشر رأساً يدعو إليه نودي باسمه واسم أبيه، فيقوم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في ظاهره الحسنات، وفي باطنه السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرأها فيفرح، ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ في آخره وجد فيه هذه حسناتك وقد ردت عليك، فيسود وجهه، ويعلوه الحزن، ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه ويقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً، ولا يزداد وجهه إلا سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سيئاتك / فيعكر، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران، فيقال له: انطلق [٥٥٠] إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل ذلك، فإذا أدبر فينطلق وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. . . .﴾[2] الآية، فينادي أصحابه أما تعرفونني؟ فيقولون: ما ندري ولكن قد نرى ما بك من الحزن، من أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان، إن لكل إنسان منكم مثل هذا ـ والله أعلم ـ.

صفة الحوض

وعن النبي عليه السلام قال: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبداً».

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٩.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٥.

وفي حديث آخر قال: «ألا إن لكل نبي حوضاً يدعو إليه من عرفه من أمته، وإنهم ليتباهون من هو أكثر وارده، ما بين جنبتي حوضي كما بين صنعاء وأيلة، فيه عدد نجوم السماء، آنيته ذهب وفضة، شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً»(١).

وقال: «ما بين منبري وحوضي روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(٢).

صفة الميزان

وعند علمائنا رحمهم الله إن الميزان معناه فصل وتمييز للأعمال والنيات، قال الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(٣)، وقالت: الأشعرية وأشياعها: إن الميزان المذكور في القرآن هو ميزان على الحقيقة له عمود وكفتان، ورووا أن الحسنات يؤتى بها في أحسن صورة فتوضع في كفة، وأن السيئات يؤتى بها في أقبح صورة فتوضع في كفة أخرى، ـ وهذا عند أصحابنا باطل ـ؛ لأن الأعمال أعراض ولا يتصور وزن ما ليس صورة ـ والله تعالى أعلم ـ.

صفة الصراط

قال الله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾(٤)، قالت الأشعرية: إن الصراط أحد من السيف، وأرق من الشعر، له كلاليب وحسكا، وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً، [٥٥١] / وعلى جنبيه ملائكة يقولون: اللّهم سلم اللّهم سلم.

ولم يقل أصحابنا بهذا إنما الصراط المستقيم عندهم طريق الإسلام، ولا أدري قول الله تعالى: ﴿صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾(٥)، أهي القناطر السبع المذكورة في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٦)، أم لا؟

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٦٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب، قال: روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٠٤) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله بن زبير.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٢٣.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الفجر، الآية: ١٤.

وفي كتاب النقاش من فقهاء قومنا قال: حدثنا أيفع بن عبيدة وأبو اليمان قال: إن لجهنم سبع قناطر، ثلاثة دون الرب تعالى، والله تعالى على الرابعة الوسطى، والصراط أحد من السيف، وأرق من الشعر، فيقول الله تعالى حين يبلغون القنطرة الأولى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ﴾[١] فيحاسبون على الصلاة، فيهلك من هلك، وينجو من نجا، ثم يحاسبون على القنطرة الثانية على الأمانة، ثم يحاسبون على الثالثة وهي أدنى من الرب، فيحاسبون على صلة الرحم فيهلك من هلك، وينجو من نجا، فيمرون بالرب فيؤخذ بالنواصي والأقدام، وهذا منهم تصريح للتحديد تعالى الله أن يحده مكان قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ما جاء في القصاص

عن ابن مسعود عن النبي عليه السلام قال: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء»[٢].

وعنه أنه قال: «من كانت له عند أخيه مظلمة فليحلله منها، فإنه ليس ثَم دينار ولا درهم من قبل أن تؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئاته فطرحت عليه»[٣].

وعنه ﷺ قال: «ليحبسن أهل الجنة بعد أن يجاوزوا الصراط، ولم يدخلوا الجنة حتى يؤخذ لبعضهم من بعض مظالمهم التي تظالموها في الدنيا، فيدخلون الجنة، وليس في قلب بعضهم على بعض غل»[٤] ـ والله أعلم ـ.

في الشفاعة

وهو حق نطق بها القرآن، وذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٦]، في أمثال هذه الآي كثير.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٣١٩) مسلم في القسامة (٢٨) والنسائي (٧/ ٨٤) والبيهقي (٨/ ٢١) والطبري في التفسير (١٠/ ٢٣٤) والمنذري في الترغيب (٣/ ٢٩٢) وابن كثير في التفسير (٢/ ٣٣٢) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٨٧، ٨٨) وابن حجر في الفتح (١١/ ٣٩٥، ١٢/ ١٨٧).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٣/ ٢٤٠) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٧٢) من حديث أبي سعيد وقال: صحيح.

(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

[٥٥٢] والشفاعة عند أصحابنا / إنما هي للمؤمنين دون أهل الكبائر لقوله عليه السلام: «لا ينال شفاعتي سلطان ظلوم غشوم للناس ورجل لا يراقب الله في اليتيم».

وقال: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي وهما ملعونان على لسان سبعين نبياً القدرية والمرجئة»[١].

وعند قومنا أنها ثلاث شفاعات فيما وجدت في كتبهم: أحدها: شفاعة المحشر، والثانية: للسبق إلى الجنة، والثالثة: لأهل الكبائر الموحدين يخرجون بها من النار عندهم وأحاديث الشفاعة مستفيضة في الكتب وصفتها مشهورة تركنا جميع ذلك مخافة التطويل.

وهي عند أصحابنا في الحساب بعد طول مقام على أرجلهم، وبعد أن بشر أصحاب الإيمان وأخذوا كتبهم بأيمانهم فشفع لهم، حتى أراحهم الله من الموقف، وهي تشريف لمنازلهم، وترفيع لدرجاتهم؛ لأن من أوجب له القرآن الخلود في النار لا شفاعة له، واختلف في أصحاب الأعراف قيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقيل: قوم خرجوا إلى الجهاد بغير إذن آبائهم واستشهدوا، وقيل: قوم فيهم عجب، وقيل: ذرارى المشركين، ومعنى الأعراف جبل فيه أشراف متفاوتة كعرف الديك وهو الحجاب الذي قال الله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[٢] وهم أهل الجنة. ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[٣] والله أعلم.

صفة جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ. . . .﴾[٤] الآية.

قيل: هي دركات جهنم بعضها أسفل من بعض، كل باب منها أشد حراً من الذي فوقه بسبعين جزءاً، بين كل بابين مسيرة سبعين سنة، أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ثم سقر.

[٥٥٣] وفي كتاب النقاش[٥] قال: معنى جهنم / الواسعة الجوف قال: وأبواب النار كلها فيها،

---

(١) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٣٥) والألباني في الصحيحة (٤٧١).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٣.
(٥) سبق الكلام عنه ونشير هنا إلى أنه أحد العلماء الذين أخذ المصنف منهم أبواب كتابه قناطر الخيرات.

قال: وأما السعير فهي أبداً تسعر وتزداد حراً، وأما لظى فإنها تتلاظى عليهم حراً بعد حر أشد من الأول، وأما سقر فتفسيرها المهينة فيها ألوان من كل ضرب، وتقول العرب: سقرته بلساني أي أهنته، وأما الجحيم فذات الجمر العظام، فالجحيم الجمر، وهو جمر أسود ليس لها نور، وأما الحطمة فلا يدخلها الكفار حتى تحطم كل عظمة في جسده ووجهه من ضيقها، وأما الهاوية فهي سجين وسميت الهاوية؛ لأن صاحبها تهوي به أبداً لا يبلغ أسفلها.

وعن النبي عليه السلام قال: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية قال: «فضلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها»[١].

وعن أبي هريرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ يوماً إذ سمعنا وجبة فقال: «أتدرون ما هذه»؟ قلنا: الله ورسوله قال: «هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً فالآن حين ينتهي إلى قعرها»[٢].

وقال أيضاً: «أوقدت النار ألف سنة حتى احمرت فأوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسوّدت فهي سوداء مظلمة».

وعنه عليه السلام قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لي بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير»[٣].

وعنه عليه السلام قال: «إن أهون أهل النار عذاباً رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل بالقمقم»[٤].

وعن ابن مسعود في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ قال: نهر في جهنم يسيل من صديد أهل النار.

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ / فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: الزقوم إذا [٥٥٤]

---

(١) أطراف الحديث عند أحمد في المسند (٢/٣١٣) والحاكم في المستدرك (٤/٥٩٣) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/٥١٣) والمتقي الهندي في الكنز (٣٩٤٧٧، ٣٩٤٩٧)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/٤٥٠) والسيوطي في الدر المنثور (١/٣٦).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٦٧)، طبعة دار الحديث: رواه مسلم.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٦٨) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/١٦٧) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فانسلخت وجوههم، حتى لو أن ماراً مَرّ عليهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم، فإذا أكلوا منها ألقى عليهم العطش استغاثوا فأغيثوا بماء كالمهل، والمهل الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم أنضج حره الوجوه، ويصهر به ما في بطونهم أراد الأمعاء، فيضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله فيدعون بالثبور.

وعن أبي هريرة قال: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا، وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[١] إنها تلفحهم لفحة واحدة فما أبقت لحماً على عظم إلاَّ ألقته على أعقابهم.

وعن النبي ﷺ قال: «لو أن دلواً من غساق جهنم ألقي في الدنيا لنتن أهل الأرض فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش»[٢]. وقال تعالى: ﴿لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ﴾[٣]. ثم بينها فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ. . . .﴾ إلى قوله: ﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾[٤].

وعن النبي عليه السلام قال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لفسد عن الناس معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك»[٥].

وقال عليه السلام: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون فيغاثون بطعام ذا غصة فيذكرون أنهم يجبرون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيدفع لهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا أدنت من وجوههم شوت وجوههم». قال: «فيدعون خزنة جهنم ﴿أَنِ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فيقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ. . . .﴾[٦] الآية. / فيقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم: ﴿إِنَّكُم [٥٥٥]

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٤.
(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٨/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٥١.
(٤) سورة الصافات، الآيتان: ٦٤، ٦٨.
(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٩/٥): أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجه.
(٦) سورة غافر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

مَاكِثُونَ﴾[١]»[٢]. فيقولون: ﴿ادع ربكم لا أحد خير من ربكم﴾ فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا. . . .﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال فيجيبهم ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونَ﴾[٣] فعند ذلك أيسوا من كل خير فأخذوا في الزفير والحسر والعويل».

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ. . . .﴾[٤] الآية. قال: «يتكرهه فإذا أدنى منه سوّى وجهه [ووقعت][٥] فروة رأسه»[٦].

وقال عليه السلام: «في النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفاً»[٧].

وقال: «إن فيها العقارب كالبغال الموكفة يلسع اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفاً».

وقال عليه السلام: «ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد وغلظ جسده مسيرة ثلاثة أيام وإن شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه»[٨].

وقال عليه السلام: «إن الكافر ليجر في سجين[٩] يوم القيامة»[١٠].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٩/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي: والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روي عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال المحقق: وشهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام كما قال الحافظ في التقريب، وذكر الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٦١) وقال ضعيف.

(٢) أسقط المؤلف قول الأعمش من السياق وهي [قال الأعمش: أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك لهم ألف عام قال] ولعله من الناسخ.

(٣) سورة المؤمنون، (الآيات: ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

(٥) جاءت في الأصل «ورقت» وأثبت ما في المغني.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٧٠) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب.

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٧٠) طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء.

(٨) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٧٠) طبعة دار الحديث: رواه مسلم.

(٩) جاء بهامش المخطوط «ليجر لسانه». وكتب فوقها حرف (خـ).

(١٠) جاء الحديث بلفظ: «إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس» في المغني ولعله هنا خطأ من الناسخ. وقال الحافظ في المغني (١٧١/٥) أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال: غريب وأبو المخارق لا يعرف.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَها﴾(١). قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودن كما كانوا.

وعن النبي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إنا اعتدنا للكافرين سلاسلاً. . . .﴾ الآية قال: «ينشىء الله لأهل النار سحابة سوداء مظلمة فيقال لهم: أي شيء تطلبونه فيذكرون بها سحائب الدنيا، فيقولون: يا ربنا الشراب فتمطر هم أغلالاً وسلاسلاً تزيد في سلاسلهم وحميماً تلتهب عليهم»(٢).

وفي كتاب النقاش في قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍ ذِي ثَلاَثِ شُعَبْ﴾.

قال: يقال لهم إذا زفرت جهنم زفرة يخرج عنق من النار فيحيط بأهلها ثم تزفر زفرة أخرى ويخرج عنها آخر / فيحيط بهم ثم تزفر ثالثة فيخرج عنها فيحيط بالآخرين فيصير حولهم [٥٥٦] سراديق من نار فيخرج دخان جهنم فوقهم فيظن أهل النار أنه ظل وأنه سيمنعهم من النار فيساقون كلهم فيستظلون تحتها فيجدونها أشد حراً من السرادق فذلك قوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ﴾(٣)، لأنها تتقطع ثلاث قطع لا ظليل ولا يغنى من اللهب لهب السرادق الذي أحاط بهم.

وعن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً﴾(٤). ويقال: ترصد أهلها كما يرصد الأسد الوحش، نزلت في الوليد بن المغيرة ثم ذكر كم يلبثون في النار فلم يوقت لهم، فقال: ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾(٥) أي أزمنة لا يدرى كم عددها، والأحقاب جمع حقب، ويقال: الحقب ثمانون سنة كل سنة ثلاث مائة وستون يوماً كل يوم منها كألف سنة، وإنما ذكر الأحقاب لأنها أعظم من الأيام ودل على أنها أحقاب بعد أحقاب لا إلى غاية، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾(٦).

وفي كتاب النقاش قال: يقال يعرق في اليوم سبع مرات ثم يعاد إلى عذاب يأكل النار

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) أطراف الحديث عند السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٥٧) وابن عدي في الكامل للضعفاء (٦/ ٢٣٩٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٧٣).

(٣) سورة المرسلات، الآية: ٣٠.

(٤) سورة النبأ، الآية: ٢١.

(٥) سورة النبأ، الآية: ٢٣.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

وتأكله، وهو في النار لباسه النار، وعلى رأسه نار، وفي عنقه نار، وفي كل مفصل منه سبعة ألوان من العذاب، لا يرحم ولا يشفع، ولا يموت أبداً، ولا يعيش، ولا معيشة طيبة والله عليه غضبان، والملائكة غضاب، وجهنم غضبى.

ويقال: لما نزلت ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ بكى النبي عليه السلام يوماً وليلة، قال أبو ذر: نعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله هلكنا، وما هذه العقبة؟ قال: «عقبة كؤد سوداء في جهنم من أسفلها إلى أعلاها مسيرة ألف عام كلما بلغوا إلى أعلاها انزلقوا، وهي جمرة واحدة عليها القياض. / والأفاعي والعقارب تضرب أحدهم الحية بفقارها فيتناثر لحمه على قدميه». [٥٥٧] قال: فبكى المسلمون فأنزل الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ يا محمد لا ينجو منها إلاَّ من اعتق رقبة أو أطعم في يوم ذي مسبغة يتيماً ذا مقربة... الآية كلها، وقوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني شدة العذاب، وهو في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه حجر ضخم مثل الجبل العظيم من جبل الكبريت يشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه فتشتعل في وجهه لا يطيق دفعها عنه من أجل الأغلال التي في يديه وعنقه.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾[١] قيل: إذا عاينوا النار شخصت أبصارهم وأخذتهم رعدة من الخوف فشهقوا شهقة زالت قلوبهم من أماكنها فتنتشب في حلوقهم فلا هي تخرج ولا هي ترجع أبداً.

وعن الضحاك قال: يحشر الكافر وبصره حديد، ثم يزرق ثم يعمى والقلب يتقلب في جوفه ويريد أن يخرج فلا يستطيع فيثب فيقع في الخمجرة فذلك قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾.

وعن محمد بن كعب قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع فإذا كانت الخامسة لم يكلموا بعدها أبداً: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ....﴾[٢] الآية. فيجيبهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾[٣]. ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾. فيجيبهم: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ...﴾[٤] الآية، ويقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ....﴾

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٨.
(٢) سورة غافر، الآية: ١١.
(٣) سورة غافر، الآية: ٣٢.
(٤) سورة السجدة، الآيتان: ١٢، ١٣.

الآية فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم من زَوَالٍ﴾[1]. ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً....﴾ الآية. فيجيبهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّركم....﴾[2] الآية. ويقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها....﴾ الآية فيجيبهم: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

[٥٥٨] ولا يتكلمون / بعدها أبداً وذلك غاية شدة العذاب.

وعن زيد بن أسلم في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا....﴾ الآية. قال: جزعوا مائة سنة وصبروا مائة سنة فقالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا....﴾[3] الآية.

قد ذكرنا طرفاً من أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل أنواعها لا نهاية لها، وأعظم الأمور على أهلها من شدة ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوات نعيم الجنة ورضا الله تعالى عنهم، مع علمهم لأنهم باعوا كل ذلك بشهوة خسيسة ودنيا حقيرة في أيام قصيرة، فنسأل الله تعالى ونتضرع إليه أن ينجينا من غضبه وعذابه ومن فوات ثوابه، والله أرحم الراحمين.

صفة الجنة وأصناف نعيمها

قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾. إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾[4].

وعن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية فقال: إذا وصلوا إلى باب من أبواب الجنة، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من أحدهما فيذهب ما في بطونهم من أذى وبأس، فيتطهرون من الآخرى فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تتغير أشعارهم ولا تشعب رؤوسهم أبداً ثم تستقبلهم الملائكة خزنة الجنة فيقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ....﴾ الآية. قال: ثم تتلقاهم الولدان فيقولون لأحدهم: أبشر بما أعد الله لك من الكرامة قال: ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به قالت: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته بأثري فيستخف إحداهن [٥٥٩] الفرح حتى تقوم على اسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه / فإذا جندل

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.
(٤) سورة الزمر، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأصفر من كل لون ثم ينظر إلى سقفه فإذا هو مثل البرق فلولا أن الله عز وجل قدر ألاَّ يذهب بصره لذهب، ثم يطأطىء رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابيّ مبثوثة ثم اتكأ فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ....﴾ الآية. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا....﴾ الآية. ثم ينادي مناد: يحيون فلا يموتون أبداً، ويقيمون فلا يظعنون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً.

وعن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كله يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت». قال جابر: قلت: يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: «لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام». قال: قلت يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: «أمتي يطيقون ذلك وسأخبركم عن ذلك فمن لقي أخاه المسلم وسلم عليه، أو رد عليه السلام فقد أفشى السلام ومن أطعم أهله وعياله حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان وثلاثة أيام من كل شهر فقد أدام بالليل والناس نيام يعني اليهود والنصارى والمجوس»[١].

وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[٢]. قال: «قصر من اللؤلؤ في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون / لوناً من الطعام في كل بيت سبعون [٥٦٠] وصيفة ويعطى المؤمن في كل غداة ـ يعني من القوة ـ ما يأتي على ذلك أجمع»[٣].

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٢/ ١٥) في معنى هذا الحديث: أخرجه الترمذي من حديث علي وقال: غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث عبد الرحمن بن إسحاق: وقد تكلم فيه من حفظه. قال المحقق للإحياء طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي، وأحمد في المسند (١/ ١٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/ ٢٦٦٠) من حديث علي.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٧٧) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح. والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور. قلت: إن الحافظ أورد طرف الحديث «قصور من لؤلؤ» والمصنف هنا أورده «قصر من اللؤلؤ».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جنة عدن قصر في الجنة له عشرة آلاف باب على كل باب خمس وعشرون ألفاً من الحور العين.

وعن النبي ﷺ قال: «إن حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وترابها زعفران وطينها مسك»[١].

وسئل أيضاً عن تربة الجنة قال: «درمكة بيضاء مسك خالص»[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَيهديهم ربهم بإيمانهم....﴾ الآية.

ففي كتاب النقاش قال: يهديهم ربهم إلى الفرائض، ويثيبهم الجنة بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار يعني من تحت قصورهم نور في نور قصور الدّر والياقوت، وأنهار تجري من تحت غرفهم في جنة النعيم، لا يكلفون فيها عملاً أبداً، ولا تصيبهم مشقة أبداً، دعواهم فيها سبحانك اللَّهم، قال: فهذا علم بين أهل الجنة وبين الخدم، إذا أرادوا الطعام والشراب قالوا: سبحانك اللَّهم فإذا المائدة وضعت ميلاً في ميل، قوائمها اللؤلؤ ودخل عليهم الخدم من أربعة آلاف معهم صحائف الذهب سبعون ألف صحيفة في كل صحفة لون من الطعام ليس في صاحبتها مثله كلما شبع ألقى عليه ألف باب من الشهوة كلما شبع أتى بشربة تهضم ما قبلها أربعين ويأتون بألوان الثمار وتجيء الطير أمثال: البخت مناقرها وأجنحتها لون وظهورها وبطونها لون، تتلألأ نوراً حتى تقف بين يديه في البيت فرسخ في فرسخ وهي غرفة فيها سرر موضونة الوضين مشبكة وسطها بقبضان الياقوت والزمرد الرطب اللين من الحرير، قوائمه [٥٦١] اللؤلؤ، وجناحاه ذهب / وفضة عليه من الفرش مقدار سبعين غرفة في دار الدنيا، لو أن رجلاً وقع من تلك الفرش لم يبلغ قرار الأرض سبعين عاماً، فيأكلون ويشربون، والطير تصطف بين يديه وتقول له: يا ولي الله رعيت في روضة كذا وكذا، شربت من عين كذا وكذا، وريحي كذا وكذا، فأيتها أعجبته نعتها وقعت على مائدته سبعون ألف لون من الطير ألواناً، ونصف شواء فيأكل منها ما أحب ثم تطير إلى الجنة؛ لأنه ليس في الجنة من يموت.

قال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. يعني من عند الرب قال: وذلك أنه يأتيه ملك يعني من

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٧/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي بلفظ «ملاطها المسك». وقال ليس إسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٧/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن صياداً سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره.

عند الرب، فلا يصل إليه حتى يستأذن له حاجبه فيقوم بين يديه فيقول: يا ولي الله ربك يقرأ عليك السلام فإذا فرغوا من الطعام والشراب قالوا: الحمد لله رب العالمين. وذلك قوله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ يعني كلامهم وليس يعني أخر ما يتكلمون به، ولكن آخر ما قبله.

وقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ قال الحسن: عدن اسم من أسماء الجنة والجنة كلها عدن وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾. على مقدار يوم من أيام ثلاثة عشرة مرة معهم التحف من الله جنات عدن وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب فيه ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤوا إن شئتم وظل ممدود»[1].

قال: وأقبل إليه أعرابي فقال: يا رسول الله وقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: «وما هي»؟ قال: السدر فإن لها شوكاً قال: «قال الله تعالى في سدر مخضود يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمر ثم تنقسم الثمرة منها على اثنين وسبعين لوناً من طعام ما منها لون / يشبه الآخر»[2]. [٥٦٢]

وروي أن سليمان رحمه الله أخذ عوداً صغيراً فقال لجرير بن عبد الله: يا جرير لو طلبت في الجنة عُوَيداً مثل هذا لم تجده، قال: قلت: فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

وذكر عن الحسن قال: نخل الجنة جزوعها من ذهب وسعفها حلل، ورطبها مثل قلال هجر أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد.

وعن ابن عباس قال: جذوع نخل الجنة ذهب أحمر وكروبها زبرجد أخضر وشماريخها درّ أبيض وسعفها الحلل، ورطبها أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس في شيء منها عجم، طول العذق اثنا عشر ذراعاً منضود من أعلاه إلى أسفله أمثال القلال لا يؤخذ منه شيء إلاَّ أعاده الله كما كان.

وعن النبي ﷺ قال في حديث الإسراء: «ثم أعطيت الكوثر فسلكته حتى انفجر بي في الجنة فإذا الرمانة من رمان الدنيا حبةٌ من رمان الجنة».

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٨/٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٨/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلاً من غير ذكر لأبي أمامة.

قال الحسن: أحسبه قال: لا يأكله المنافق وقال تعالى: ﴿يحلون فيها أساور من ذهب....﴾ الآية.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كضوء النجوم في السماء لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغوطون فيها آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مخ ساقيها من وراء اللحم لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا».

[٥٦٣] / وفي رواية أخرى: «على كل زوجة سبعون حلة»[١].

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ....﴾ الآية. قال: «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب»[٢].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ﴾ أي مجوسات ﴿فهي الْخِيَامِ﴾[٣] وهي جمع خيمة.

وقال النبي ﷺ: «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراه الآخرون»[٤].

وقال ابن عباس: الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[٥] قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض»[٦].

وعن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا.

---

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥): متفق عليه.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلاّ من حديث راشد بن سعد.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٧٢.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٣٤.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي بلفظ: «ارتفاعهما كما بين السماء والأرض» وقال: غريب لا نعرفه إلاّ من حديث راشد بن سعد.

وقال أبو الدرداء في قوله تعالى: ﴿ختامه مسك﴾، قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختم به آخر شرابهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها.

وعن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة لا يدخلونها كلهم رجالهم ونساؤهم إلا في ثلاثة وثلاثين سنة على طول آدم ستين ذراعاً، لا يبولون، ولا يتمخطون، والنساء عرباً أتراباً لا يحضن، ولا يلدن، ولا ينفخضن، ولا يقضين حاجة ـ يعني ليس فيهن قذر»، وقال: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت وملأت ما بينها ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ـ يعني خمارها ـ».

وقال في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[1]، قال: «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين / المشرق والمغرب، ويكون [٥٦٤] عليها سبعون ثوباً ينفذها البصر حتى يُرى مخ ساقيها من وراء ذلك».

وقال عبد الله بن عمر: إن أدنى أهل الجنة منزلة من كان عنده ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وقال عليه السلام: «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمس مائة حوراء، وأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن قدر عمره في الدنيا»[2].

وروي عن الحسن البصري جملة في وصف الجنة فقال: إن رمانها مثل الدلاء، وأنهارها مثل اللبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى لم تصفه الرجال، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لا تسفه الأحلام، ولا تصدع منه الرؤوس، وإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين سنة في سن واحد، وطول أحدهم ستون ذراعاً في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب، واطمأنت بهم النار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ، وثمارها لا يعلم علمها إلا الله، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام، وإن لهم فيها لخيلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها، وأزواجهم الحور العين كأنهم بيض مكنون وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة تلبسها، فيرى مخ ساقيها من وراء تلك

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٥٨.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥/ ١٨٢) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلاّ أنه قال: «مائة حوراء». ولم يذكر فيه عناقه لهن وإسناده ضعيف.

السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء، والأجساد من الموت، لا يتمخطون فيها، ولا يبولون، ولا يتغوطون وإنما هو جشاء ورشح مسك، لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا، أما أنه ليس لدليل بكر فيه الغدو على الرواح، والرواح على الغدو، وأن آخر من يدخل الجنة أدناهم منزلة، من يمد له في بصره / مسيرة مائة عام في قصور الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ، ويفسح له في [٥٦٥] بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغدى عليه بسبعين ألف صحفة من ذهب، ويراح عليه بمثلها، في كل صحفة لون ليس في الأخرى، يجد طعم آخره كما يجد طعم أوله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار، في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب.

وعن مجاهد قال: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه.

وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة إسورة سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

وعن أبي هريرة قال: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها يسارها سبعون ألف وصيفة، وهي تقول: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ وقال عليه السلام لأصحابه: «ألا هل مشمر إلى الجنة؟ إن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة، وزوجة حسناء جميلة في كثرة ونعمة، وفي مقام أبداً، ونظرة في دار عالية بهية سليمة، قالوا: نحن المشمرون لها يا رسول الله، قال: قولوا إن شاء الله ـ ثم ذكر الجهاد وحرض عليه ـ»(١)، ـ وبالله العون والتوفيق ـ.

قد ذكرنا من صفة الجنة ما ينبه العاقل على الشوق إليها، والتشمر لها، ولا مطمع في تفصيل أصناف نعيم الجنة، إذ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والله تعالى أعلم وأحكم، وبه الحول والتوفيق، وهوحسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلي اللّهم بجلالك على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم الرؤوف الرحيم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والحمد لله بجميع محامده

---

(١) أطراف الحديث: الهيثمي في موارد الظمآن (٢٦٢٠) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٠٨٥). والسيوطي في الدر المنثور (٣٦/١، ١٨٧/٢) وابن كثير (١١٧/٤، ٥٦٩/٦، ٤٠٨/٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥٤٨/١٠) والمتقي الهندي في الكنز (١٢٣٦) والأسماء والصفات للبيهقي (١٧٠).

ـ ما علمت منها وما لم أعلم ـ وأنا أستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم، وطغى به القلم في كتابنا هذا وغيره من كتبنا.

وإنما ألفناه من كتب شتى، وأكثره من كتب قومنا امتثالاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «إقبل الحق ممن جاءك به / حبيباً كان أو بغيضاً، ورد الباطل على من جاءك به حبيباً كان أو بغيضاً»[1]. [٥٦٦]

فاستخرجت العلم النافع من كل كتاب ولم أهتبل بمؤلفه على خطأ كان أو صواب، ونقلت الحق المفهوم من بين الشوك والسموم، إذ حجة الله على الإنسان فهم الحق وعلمه من أي لغة سمعها ولسان ـ وبالله التوفيق ـ وأنا أستغفر الله من جميع أقوالي التي خالفت أفعالي، وأستغفره من كل نعمة أنعم بها عليّ فتقويت بها على معصيته، وأستغفره من كل وعد وعدته من نفسي ثم لم أوف به، وأستغفره من كل علم وعمل أردت به وجهه فخالطه ما ليس له، وأستغفره من كل خطوة وخطرة ونظرة وحركة خالفت ما ليس لله فيه رضا، أو دعانا إلى تصنع ورياء من كتاب ألفناه، أو كلام أو علم، أو أمر أو نهي أظهرناه ونحن نرجو بعده التوبة والاستغفار أن تشملنا رحمة الله ومغفرته فيما صنفناه وقلنا؛ لأن رحمته واسعة، وكرمه عميم، وجوده على أصناف الخلق فائض ـ وبالله التوفيق والهداية ـ.

قد تم طبع الجزء الثالث من كتاب قناطر الخيرات

بالمطبعة البارونية الكائنة بطيلون بمصر المحمية على ذمة ملتزمه

حضرة الأستاذ الشيخ محمد الباروني وشركاه كان الله في عونهم بجاه خير أنبياءه

وقد وافق انتهاؤه في جمادى الثانية سنة ١٣٠٧.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣١٥٢) من طريق ابن عباس وعزاه إلى الديلمي بزيادة في آخره «واردد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيباً».

فهرس الموضوعات

القنطرة الحادية عشرة
قنطرة النفس

القنطرة الثانية عشرة
قنطرة العوارض

القنطرة الثالثة عشرة

قنطرة الخوف والرجا

القنطرة الرابعة عشرة

قنطرة العبادة

القنطرة الخامسة عشر

قنطرة القوادح في الطاعات